الولع بالزنبق

سيرة الزهرة التي شغف بها العالم

مايك داش

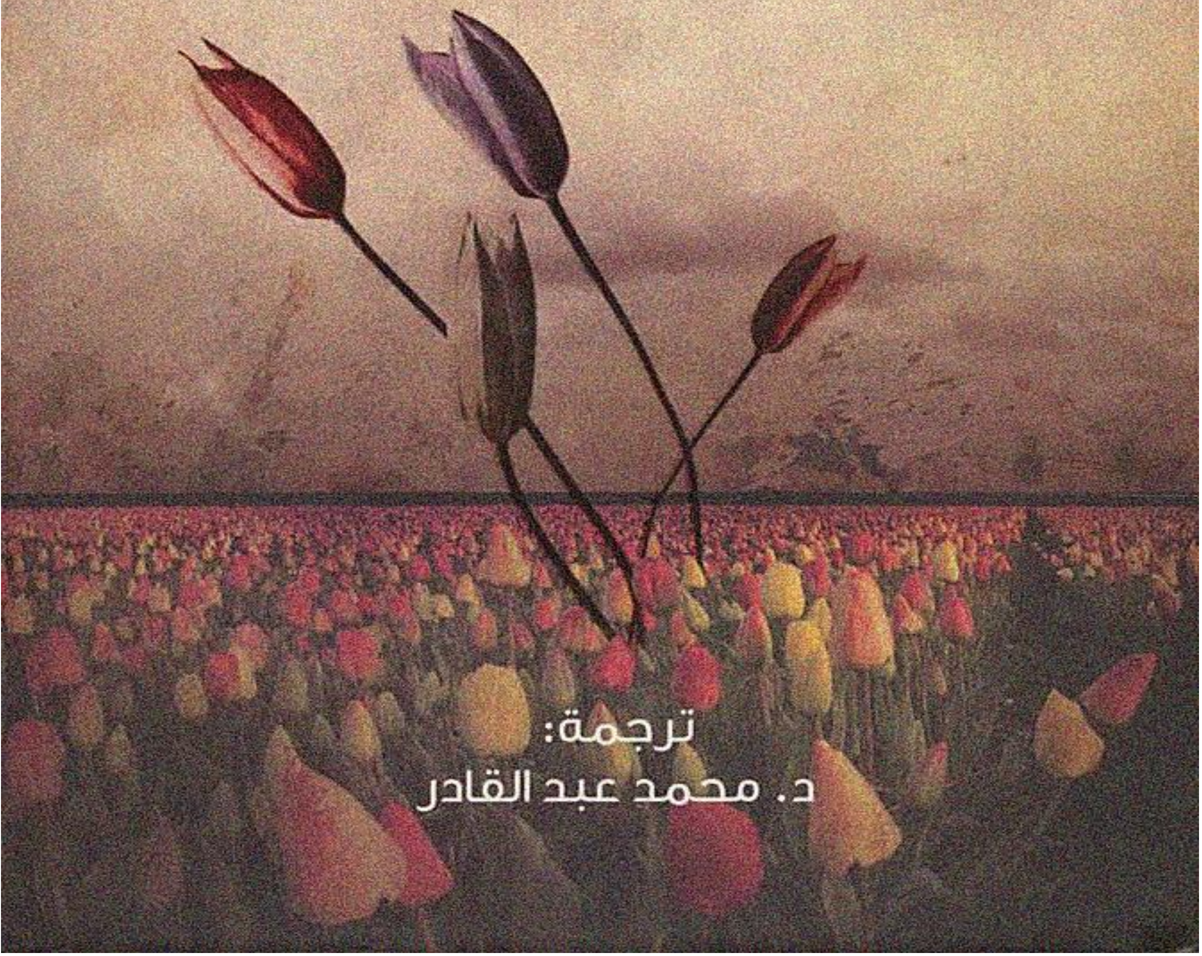

ترجمة:

د. محمد عبد القادر

نبذة عن المترجم:

يحمل درجة البكالوريوس في اللغة الإنجليزية وآدابها (الكويت) . والماجستير في اللغة الإنجليزية (الولايات المتحدة) ودرجة الدكتوراه في الإدارة التربوية (الأردن). ترجم لدار الشروق (بالاشتراك) كتاب: الاستعداد للقرن الحادي والعشرين لبول كينيدي، وكتاب ارتقاء التقدم لـ: سي أوين بايبك. وهما من الكتب الأكثر مبيعاً. له اهتمامات أدبية في الشعر والرواية، ونشرت له عشرات من الدراسات النقدية في صحف ومجلات أردنية وعربية. وعمل في مجالات التعليم والصحافة والترجمة. ويعمل الآن مديراً للتطوير المدرسي في وكالة الغوث الدولية، الأردن.

نبذة عن المؤلف:

كاتب ومؤرخ بريطاني، ولد في عام 1963 على مقربة من مدينة لندن. وتلقى تعليمه في عدة مدارس في بريطانيا وألمانيا. نال درجة الماجستير من جامعة كامبردج والدكتوراه من جامعة لندن (1990). وهو باحث متخصص في التاريخ الاجتماعي. عمل في الصحافة والتحرير، وكتب عدة كتب أبرزها: مقبرة باتافيا، وسيرك الشيطان، وسفاح، علاوة على كتاب «الولع بالزنبق» الذي أكسبه شهرة واسعة. رشح كتاباه: سيرك الشيطان، والعائلة الأولى لجائزة بولتيزر الأمريكية للدراسات التاريخية.

تأليف: مايك داش

الولع بالزنبق

سيرة الزهرة التي شغف بها العالم

ترجمة: د. محمد عبد القادر
مراجعة: د. أحمد خريس

الولع بالزنبق

سيرة الزهرة التي شغف بها العالم

الطبعة الأولى 1433 هـ 2012 م

حقوق الطبع محفوظة

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)

الولع بالزنبق

SB425 .D3712 2011

Dash،Mike

[Tulipomania]

الولع بالزنبق : سيرة الزهرة التي شغف بها العالم / تأليف مايك داش ؛ ترجمة محمد عبد القادر.- ط. ١.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.

ص. ؛ سم.

978-9948-01-822-3

ترجمة كتاب: Tulipomania

The story of the world's most coveted flower and the extraordinary passions it aroused

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

Mike Dash

Tulipomania

Copyright ©1999 by Mike Dash

All rights reserved.

١. الزهور- هولندا   ٢. جنون التوليب، 1637-1634

٣. هولندا- الأحوال الاقتصادية - القرن السابع عشر.   أ عبد القادر، محمد.   ب.العنوان.

www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 26314 971+ فاكس: 462 26314 971+

www.adach.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 26314 971+ فاكس: 462 26314 971+

إن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن آراء الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التسجيل الفوتوغرافي على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

الإهداء:

إلـــى فيـــون

المحتويـــات

الصفحة

خريطة للأقاليم المتحدة في هولندا................10

ملاحظة حول الأسعار..........................11

ولع بالزنابق.................................. 15

وديان تيـان شـان............................19

في مقام النعيم...............................35

غريبة من الشرق.............................65

كلوسيوس.................................. 83

لايـدن.................................... 103

زينة لمفرق النهدين.......................... 139

الزنبق في المرآة........................ 169

زهارون............................... 205

الطفـرة 227

عند لافتة «الكرمة الذهبية»..........277

أيتام ووتر وينكل......................309

الانهيــار..................................343

إلهة للبغايا................................369

في بلاط ملك الزنبق....................411

إزهار متأخر..............................435

هوامش.....................................463

شكر وعرفان..............................541

The UNITED PROVINCES of the NETHERLANDS in the GOLDEN AGE
NORTH SEA
GRONINGEN
FRIESLAND
DRENTHE
OVERIJSSEL
ZUIDER ZEE
UTRECHT
GELDERLAND
OF THE STATES GENERAL
MILES
0 10 20 30 40 50

ملاحظة حول الأسعار

من المستحيل أن تُعقد مقارنات دقيقة بين مستوى الأسعار في العصر الذهبي للجمهورية الهولندية، ومستواها في عالم اليوم. ومن المؤكد أنه يمكن حساب الأرقام استناداً إلى الأسعار النسبية للذهب أو المواد الغذائية الأساسية، بيد أن هذه العملية لا تأخذ في الحسبان فوارق جوهرية كالعوامل التي تمثل الحد الأدنى لمستوى المعيشة، إذ إن الناس الذين تطلق عليهم اليوم صفة الفقراء في نواحٍ كثيرة يعيشون حياة أكثر راحة من حياة الهولنديين الأكثر ثراء في القرن السابع عشر. ومن المؤكد أن عملية حسابية من هذا النوع لا تأخذ بالاعتبار قيمة السلع المترفة في العصر الذهبي، مثل أبصال الزنبق.

ولعل أفضل المقارنات تتحقق من خلال النظر في الرواتب والمكاسب المالية المختلفة. ويورد الجدول التالي بعض الأمثلة النموذجية للسلع والأسعار التي كانت سائدة في النصف الأول من القرن السابع عشر[1].

كان (الجيلدر) هو الوحدة الرئيسة للعملة في الجمهورية

(1) Deursen, Plain Lives; Hunger, Charles d'Ecluse; Posthumus, Inquiry; Zumthor, Daily Life in Rembrandt's Holland.

الهولندية، وكان كل جيلدر يتكون من عشرين (ستايفر)، وذلك على النحو الآتي:

جيلدر واحد = (20) ستايفراً.

نصف ستايفر = ثمن رغيف وزنه (12) رطلاً إنجليزياً في عام (1620).

(8) ستايفرات = الأجر اليومي لدهّان خبير من مدينة هارلم في عام (1601).

وهذا الأجر = (110) جيلدرات في العام الواحد.

(18) ستايفراً = الأجر اليومي لقصاص قماش من أمستردام حسب أسعار عام (1633)، زهاء (250) جيلدراً في العام الواحد.

(13) جيلدراً = السعر التبادلي لطن هولندي من سمك الرنكة حسب أسعار عام (1636).

(60) جيلدراً = السعر التبادلي لـ (40) جالوناً من شراب البراندي الفرنسي حسب أسعار عام (1636).

(250) جيلدراً = المكاسب المالية السنوية لنجار حسب أسعار الثلاثينيات من القرن السابع عشر.

(750) جيلدراً = الراتب السنوي الذي كان يتقاضاه كلوسيوس من جامعة لايدن حسب أجور عام (1592).

(1600) جيلدر = الثمن الذي حصل عليه الفنان رامبرانت مقابل رائعته الفنية «الحراسة الليلية» في عام (1642).

(3000) جيلدر = المكاسب المالية العادية لتاجر ثري حسب أسعار الثلاثينيات من القرن السابع عشر.

(5200) جيلدر = أعلى سعر موثق بشكل معتمد دُفع في واحدة من أبصال الزنبق في عام (1637).

« لقد أصابهم مس من هذه البدعة، أو - لكي نعطيها اسمها المناسب- هذه اللهفة على أزهارهم إلى درجة أن يدفعوا في أغلب الأحيان ثلاثة آلاف كرون مقابل زنبقة ترضي أوهامهم. كان ذلك مرضاً دمّر عدة أُسر ثرية».

ميسيو دي بلانفيل ، رحلات عبر هولندا
(لندن ، 1743) ، المجلد الأول ، ص 28.

الفصل الأول

ولع بالزنابق

جاؤوا من كل أنحاء هولندا متلفعين بالسواد كالغربان، سواد يلفهم من قمة الرأس حتى أخمص القدمين، يرتحلون عبر مسالك جمدّتها الثلوج وجعلت منها آثار الآلاف من الحوافر والعجلات النحيلة ممرات غادرة. جاؤوا متدثرين بعباءاتهم ولحفهم متقين ريح الشتاء القارس. بعض أوسع التجار ثراء في البلاد، جاؤوا في عربات بلا نوابض تترنح بهم بين حفر وأخاديد مثلما يجد بحّار غر نفسه في جوف إعصار ماطر. أما بقيتهم فقد امتطوا ظهور جيادهم بأجساد محنيّة، ليحموا أنفسهم من برد شديد. فرادى جاؤوا، وجاؤوا مثنى وثلاثاً، تقعقع عرباتهم في تلك الفيافي القاحلة المنبسطة شمال أمستردام، وهم يمتطون جيادهم، إلى أن بلغوا بلدة صغيرة تدعى «ألكمار» على مقربة من الساحل.

كانوا في أواسط العمر، ذوي قامات ضخمة قوية. رجال دهاة ناجحون، صنعوا ثرواتهم عن طريق التجارة، وعرفوا كيف يجنون الأرباح، وأدركوا معنى العيش الرغيد. كان

معظمهم حليقي الرؤوس بوجوه متوردة. وعلى الرغم من خشونة الملابس التي كانوا يرتدونها إلا أنها من أفخر أصناف القماش، أما الحقائب التي كانوا يحملونها فقد كانت محشوة بالأموال تماماً. عبر هؤلاء الزائرون بوابات البلدة في الغسق، واخترقوا شوارع «ألكمار» الضيقة العسيرة، واستأجروا حجرات في حانات على مقربة من السوق. أكلوا وشربوا ونفثوا دخان غلايينهم الفخارية الطويلة في فضاء الليل، وطلبوا دناناً كبيرة من النبيذ وأطباقاً من اللحوم المشوية، ثم تمطّوا في مقاعدهم الخشبية القاسية وتحدثوا في التجارة إلى ما بعد منتصف الليل، وسط هالة من ضوء أصفر، شبيه بصفرة اليرقان، ينبعث من نيران مشتعلة في المواقد بفضل الوقود المستمد من الطحالب المتفسخة الملتهبة

لم يكن هؤلاء التجار الهولنديون الأثرياء يتاجرون بالحبوب أو التوابل أو الأخشاب أو الأسماك، بل استعاضوا عنها بأبصال الزنبق التي بدت كئيبة مجهولة مكدسة في رزم بنية اللون بلا قيمة، وكانت تشبه أكثر ما تشبه رؤوس البصل. وعلى الرغم من أن مظهر تلك الأبصال لم يكن مبشراً بربح وفير كما قد يبدو للوهلة الأولى، إلاّ أن زهور الزنبق في ذلك

الوقت كانت تفوق في ثمنها أغلى أنواع السلع المكدسة على أرصفة أمستردام. كان بعض أنواع الزنبق نادراً ومرغوباً فيه إلى حد بعيد، وبعضها يعادل في قيمته أكثر من وزنه ذهباً مائة مرة. وفي ذلك الوقت كان أكثر الناس ثراء في «الأقاليم المتحدة» يملك نحو أربعمائة ألف جيلدر، وهي ثروة لا تتوافر إلاّ بالتراكم، وعلى مدى عدة أجيال متعاقبة. غير أن بعض تجار الزنبق كانوا يشترون ويبيعون الوردة الواحدة بمئات الجيلدرات، وحتى بالآلاف منها، ويكدسون جراء ذلك ثروات ورقية تقدر بأربعين ألفاً، أو ستين ألف جيلدر في غضون سنة واحدة أو سنتين.

لقد جاء تجار الأبصال إلى «ألكمار» لحضور مزاد لم يسبق له مثيل، فقد تمكّن القيّمون على دار أيتام صغيرة في البلدة من الحصول على كمية من الأبصال الأغلى في جميع أنحاء هولندا. لم يكن جمال الزنبق محط اهتمام القيّمين بل كان جل اهتمامهم يتركز على قيمة الأبصال التي سيبيعونها لصالح أطفال يقدمون لهم الرعاية في الميتم. وهكذا، وما إن انبلج الفجر، رمادياً وبارداً، حتى شرع التجار يغذون الخطى إلى قاعة المبيعات في المقر الرئيس الجديد للحرس المدني، وهو

مبنى مزخرف ومزيّن تعلوه الجمالونات في وسط المدينة.

كانت القاعة فسيحة، لكنها غصّت بالتجار. بدأت عمليات المزايدة على عجل، لكنها سرعان ما غدت في حالة اهتياج عارم. ابتدأت المزايدات على الأبصال بمائتي جيلدر للبصلة الواحدة، ثم ارتفعت إلى أربعمائة، وستمائة، إلى أن بلغت ألفاً ويزيد. ومن أصل نحو مائة رزمة، بيعت أربع منها بما يربو على ألفي جيلدر للرزمة الواحدة. وفي اختتام المزاد حُسب حجم الأموال التي جمعها القيمون على المقيم في ذلك اليوم فبلغ ما مجموعه تسعين ألف جيلدر، وكان هذا المبلغ ثروة حقيقية في تلك الأيام.

كان التاريخ يومئذ الخامس من شهر شباط من عام 1637، ذلك اليوم الذي بلغت فيه حمّى الورد في الأقاليم المتحدة حافة الجنون إلى درجة أن هذه الأبصال، التي لم تحظ بقيمة ما ذات يوم، أصبحت تشكل خطراً على مكانة المعادن الثمينة التي أولع الناس بها أكثر من أي شيء آخر. في ذلك اليوم استكملت زهرة الزنبق رحلة بدأتها قبل مئات السنين وعلى بعد آلاف الأميال من هولندا.

الفصل الثاني

وديان تيان شان

لم تكن هولندا موطن زهرة الزنبق، بل هي زهرة من زهور الشرق. هي طفلة البراري في آسيا الوسطى؛ البراري التي يعجز الخيال عن وصف اتساعها. وأياً كانت الآراء حول وصولها إلى هولندا، فإن زهرة الزنبق لم تبلغ الأقاليم المتحدة إلاّ عام 1570. وقبل هذا التاريخ كانت قد بدأت رحلتها لمئات السنين من موطنها الأصلي في السلاسل الجبلية الممتدة من شمال الهيمالايا.

ويعتقد خبراء تصنيف الزهور أن أولى الزنابق قد انبثقت من المنحدرات المكسوّة بقصار الشجر في منطقة سلسلة جبال باميرز، واتسع انتشارها وسط التلال والوديان الواقعة في جبال تيان شان، حيث نقطة التقاء الصين والتبت من ناحية مع روسيا وأفغانستان من ناحية أخرى، وفي واحدة من أكثر البيئات الطبيعية شراسة على وجه الأرض. بدت زهور الزنبق آنذاك كئيبة ومتضامة إلى حد ما، وكانت أوراقها أقل عرضاً وتوهجاً من الزنبق الهولندي. كما كانت زنابق تيان شان

أقصر بكثير من الزنابق الحديثة، بيد أنها كانت قوية وقادرة على التكيف في شتاءات آسيا الوسطى القارسة وأصيافها الجافة.

كان اللون الأحمر هو الغالب على الزنابق الجبلية، وبدا قانياً بلون الدم وزي الجنود، فيما حظيت زهرة الزنبق بالتبجيل لدى رجال القبائل الأشداء الذين كانوا يقطنون في تلك المناطق المنعزلة. لكن ما من شيء يمكن أن يكون أقل انضباطاً ونظاماً من تلك البقع المتناثرة التي تكسوها زهور الزنبق، التي تعلقت بالتربة الجرداء لتلك القمم الصخرية الوعرة. لم تكن وروداً ذات شكل واحد، وإنما ذات أشكال متنوعة تنوعاً لا نهاية له. كانت كل وردة تختلف اختلافاً طفيفاً عن الوردة المجاورة في لونها وشكل بتلاتها.

لم تكن تلك هي الصورة النهائية لزهرة الزنبق، فالوقت لم يكن قد حان بعد. وماتزال تفتقر إلى ذلك التنوع المدهش للألوان الذي أسر قلوب العثمانيين، وحدا بالهولنديين إلى أن يتخلوا عن حذرهم وفطرتهم السليمة. وكانت تفتقر إلى الألوان المتغايرة وتوهجات الخضاب التي من شأنها أن تحيل كل زهرة منها إلى لوحة فنية نابضة بالحياة. ولم تحظ تلك

الزهور بتلك المنزلة العالية ولا الأناقة البسيطة التي ميزت أجيالها اللاحقة، إلاّ بمرور الزمن. ولكن حتى في ذلك الزمان، انطوت زهور الزنبق على مسحة من جمال.

ينمو نصف المائة وعشرين نوعاً من الزنبق -على وجه التقريب- نمواً برياً في هذه الأرض الجبلية القاحلة. وتشكل جبال الباميرز الروسية (التي تُعرف باسم «سقف العالم») مع جبال تيان شيان (التي يطلق عليها اسم «الجبال السماوية») وتمتد على طول الحدود الغربية للصين، مشكلة معاً العمود الفقري لآسيا، كما تمثل أيضاً الحاجز الذي يستحيل اختراقه، والذي يمتد على مسافة عدة آلاف من الأميال طولاً ومئات الأميال عرضاً. وقبل آلاف السنين كانت هذه السلاسل الجبلية السبب وراء بقاء الحضارتين القديمتين لكل من روما والصين منعزلتين عن بعضهما، وظلت كل حضارة منهما جاهلة بوجود الأخرى. وحتى يومنا هذا، ظلت هذه المنطقة أقل المناطق اكتشافاً على وجه الأرض. ومنذ عام 1900 للميلاد، حينما احتلّت بريطانيا الهند، نجحت روسيا بإخضاع عزلة سيبيريا، وظلت هذه القلعة الآسيوية الداخلية بمنأى تام عن اكتشافات الأوروبيين. وكانت جبال تيان شان

أشبه بقلعة نائية محاصرة: ففي شرقها صحراء قاحلة يستحيل اجتيازها، وفي الشمال منها غابات صنوبرية سبخة، وفي غربها تقيم قبائل مغولية دائمة الحروب والعداوات، أما في الجنوب فثمة جبال التبت الغامضة الخالية من أية ألفة للقادمين. وحتى وديان هذه السلسلة الجبلية الهائلة تقع على ارتفاع عال عن وجه الأرض إلى درجة أن القلة من الأجانب الذين زاروها كان عليهم أن يبذلوا جهداً كبيراً ليتكيفوا مع هواء الجبال، الذي يصيب الرئتين بالتحجّر.

أما المسالك التي كان يمكن لها أن توصلهم إلى بلد أكثر ترحاباً، فلم يكن بإمكانهم بلوغها قبل ثمانية شهور أو تسعة في غضون سنة واحدة. وحتى حين كانت أقسى الكتل الثلجية تذوب في ذروة حرارة الصيف، ظلت جبال تيان شان عصية أمام جميع القادمين، إذا ما استثنينا أشد الرحّالة صلابة وقوة. إنها جبال من الصخر الصواني المكوّن من صخور «النايس» و «الجرانيت». وهي منطقة تخلو من أية مستوطنات بشرية، مثلما تفتقر إلى أية تربة صالحة للزراعة، ناهيك عن شح الماء أو حتى انعدامه. وماتزال هذه الجبال حتى يومنا منطقة جافة قاحلة لا تقابل ضيوفها بترحاب. إنها

صحراء حقيقية شاسعة، تعجز عن توفير أية شروط لحياة نباتية أو حيوانية.

لكن حتى «الجبال السماوية» و«سقف العالم» تتباهي بين الحين والآخر باحتضانها لواحات وتلال يمكن للحياة أن تنتعش فيها. أما في حالة تيان شان، فالوديان تقع في الغالب عند الجانب الشمالي من السلسلة الجبلية، فيما تقبع الواحات والمستوطنات البشرية والتجارة الجاذبة على امتداد التلال في الجنوب. وقد شكلت البلدات التي تكونت في هذه الواحات والوديان إغراءً جذاباً للبدو الأتراك الذين كانوا يقطنون السهوب الآسيوية منذ بدء التاريخ المدوّن. سرّح هؤلاء البدو جيادهم صيفاً لترعى في الوديان الخصبة في الشمال، وكانوا يجتازون الجبال عبر مسارب لم يطرقها غير نفر قليل، وينزلون بين الفينة والأخرى في مدن الجنوب. وفي بعض الأحيان مارسوا أعمال السلب والغزو، وفي أحيان أخرى تاجروا مع حضارات الواحات بغية التعلم وابتياع الحرير.

كرعاة، كان الأتراك يرون زهور الزنبق البرية في وديان تيان شان؛ وكغزاة، كانوا يصادفون بقع الأراضي المكسوّة

بالزنبق، ويلمسون ارتفاعها المتزايد كلما عبروا المسالك المؤدية إلى الجنوب. إن بمقدور الزنبق أن يعيش في مناطق صخرية شديدة الوعورة، مثلما يستطيع أن يحيا شتاءً تحت غطاء من الثلوج. وكان لا بد لهذا الجمال البسيط الذي تمثله هذه الزهرة، الخالية من التعقيد، وذات البتلات الصفراء أو البرتقالية أو الحمراء الزاهية، أن تبدو أكثر جمالاً إذا ما قورنت مع البيئة الطبيعية الكئيبة التي تحيط بها عادة من كل جانب. من هنا غدت زهرة الزنبق جذابة للمسافرين، أما فيما يتصل بالبدو الذين كانوا يتحملون قسوة شتاء آسيوي عاصف قارس، فقد رأوا في زهور الزنبق البازغة في مطالع السنة، أكثر من كونها واحات للجمال منبثقة في البراري، بل كانت تمثل بالنسبة إليهم بدء الحياة والخصب. إنها أولى بشائر الربيع القادم.

بعدئذٍ أصبحت زهرة الزنبق رمزاً مهماً لدى الأتراك. فكلما كان البدو منهم يتنقلون غرباً عبر السهوب التي لا يحدها حد، كانوا يعثرون على بقع من زهور الزنبق على امتداد الأراضي السهلية لآسيا الوسطى، من جبال تيان شان حتى بحر قزوين، وعلى طول الامتداد الفسيح الأقصى

للبحر الأسود وجنوباً حتى أواسط بلاد القوقاز. وانتشرت هذه الزهور غرباً بصورة طبيعية قبل آلاف من السنوات. أما حينما انتشر الأتراك بأعداد كبيرة في الشرق الأوسط خلال القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد، فقد كان يمكن للمرء أن يرى بعضاً من هذه الأزهار، على الأقل، نامية في الحدائق، أي أنها غدت تُزرع في المكان الذي يسلب ألباب الناظرين.

أما متى بدأت بالضبط زراعة الزنبق البري، فما يزال الغموض يكتنف هذا الأمر، بيد أننا نعلم أنه في زهاء عام 1050 للميلاد، حظيت زهور الزنبق بتقدير وإعجاب في بلاد فارس، إذ كانت تنمو في حدائق العاصمة القديمة لهذه البلاد، كما نمت في حدائق بغداد. وقد ورد ذكر الزنبق في واحدة من القصائد الأكثر شهرة للشاعر عمر الخيام، إذ حضرت كاستعارة للجمال الأنثوي المطلق. واستخدمها الشعراء فيما بعد رمزاً للكمال، فهذا الشاعر مشرّف الدين سعدي قد وصف حديقته المثالية، في عام 1250 للميلاد على وجه التقريب، بالمكان «حيث همس الجدول البارد، وأغنية الطير، والفاكهة الناضجة تنمو بوفرة، مثلما ينمو الزنبق

بكثرة وبألوان متعددة، وحيث تنثر الزهور شذاها العطر»، إذ اجتمعت كلها لتبدع جنة أرضية. وهذا «حافظ» يعقد مقارنة بين إشراقة بتلات الزنبق وتوهج الورد في وجنة محبوبته.

والحقيقة أن رقة زهرة الزنبق ولونها الأحمر القاني المعتاد قد جعلا منها زهرة ذات أهمية رمزية عظيمة لشعب بلاد فارس، فلقد أصبحت مرادفاً للكمال والخلود. ولطالما رويت أساطير عديدة في شرح جمالها الذي يفوق الوصف، إذ تحدثت واحدة من هذه الأساطير عن أمير يدعى «فرهد» كان مولهاً بفتاة اسمها «شيرين». وذات يوم ورد إلى مسامعه نبأ (تبين فيما بعد أنه نبأ كاذب) مفاده أن حبيبته قد قُتلت. وإذ وقع الأمير نهباً لحزن لا قبل له باحتماله، فقد أعمل في جسده تقطيعاً بفأس، فسال الدم من جراحه الغائرة على الأرض، ومن كل قطرة من دمه نبتت وردة قرمزية رمزاً لحبه المتصف بالكمال. وبعد مئات الأعوام من تدوين هذه القصة أول مرة، ظل الزنبق البري رمزاً فارسياً أثيراً للحب الخالد. كتب جون تشاردن؛ أحد رحالة القرن السابع عشر، يقول: «عندما يقدم شاب لحبيبته زنبقة فإن هذه الهدية تتضمن

رسالة تفهم الحبيبة منها، ومن خلال اللون العام للزهرة، أن حبيبها يكتوي بالنار لجمالها، أما إذا كانت قاعدة الزهرة سوداء فإنها تنطوي على مغزى آخر مفاده أن قلبه يحترق ليغدو كتلة من الفحم».

ولم تتوافر لدى الشعوب التركية التي استوطنت السهوب، والتي سادت في أوساطها الأمية على نطاق واسع، أي مدونات تقتفي تاريخ زهرة الزنبق عبر الأزمنة التي سبقت عصر الخيّام. وبقي الوضع على حاله حتى نهاية القرن الحادي عشر عندما اتجهت إحدى قبائل الترك، وتدعى السلاجقة، غرباً واحتلت الأناضول من البيزنطيين. في تلك الآونة برزت زهرة الزنبق لأول مرة في الفنون اليدوية. وعليه، فإما أن يكون السلاجقة قد اصطحبوا معهم زهور الزنبق فيما كانوا يبحثون عن أرض ملائمة، أو أنهم اكتشفوا البقع المكسوّة بالزنبق في الأرض التي اتخذوا منها مستقراً لهم. لقد تم العثور على أول رسومات معروفة للزنبق منقوشة على قطع من بلاط استخرجت من قصر يعود تاريخه إلى القرن الثالث عشر حيث أقام أحد سلاطين السلاجقة، ويدعى علاء الدين كايكوبار، وكان القصر مبنياً على ضفاف بحيرة «باي

سيهير» في شرق الأناضول.

آنذاك كان الأتراك قد تخلصوا من بعض فطرتهم البدوية، فاستقر السلاجقة في المدن التي احتلوها، وأطلقوا على الأراضي التي وقعت تحت سيطرتهم اسم «رَم»، إذ رأوا في أنفسهم ورثة لروما، ومن المؤكد أنهم طوروا لإمبراطوريتهم ذوقاً رومانياً. وحتى بعدما سُحقت «سلطنة رم» في مطالع القرن الرابع عشر، شرع الأمراء اليافعون من السلاجقة في إنشاء ممالك جديدة اعتماداً على آثار تلك السلطنة.

كان «عثمان سوجوت» أحد هؤلاء السلاطين الشباب، والذي عُرفت سلالته لدى العرب بسلالة «عثمان»، ولدى الأوروبيين باسم «أوتومان». وقد أثبتت هذه السلالة أنها كانت الأكثر مجداً في التاريخ الطويل للأتراك، إذ كانت سلالة من العسكريين الفاتحين والمستبدين الذين استعبدوا مناطق واسعة في آسيا، وواصلوا زحفهم عبر أوروبا حتى بلغوا بوابات النمسا. وقد عرفت تلك السلالة بأنها لم تحتفظ فقط بقوة السيطرة على حياة وموت الشعوب الخاضعة لها، وإنما استخدمت هذه القوة فعلاً وبصورة متكررة. غير أن الكثير من الحكام العثمانيين اللاحقين الذين تقلدوا زمام

الأمور في البلاد، واحداً إثر الآخر، كانوا على درجة من الثقافة، وكانت لديهم حساسية رقيقة تجاه الجمال ولهم شغف بها، كما كانوا ذوي خبرة بأعمال الزراعة حتى قبل أن يتسلموا زمام الحكم. هؤلاء الحكام هم الذين، في نهاية المطاف، ارتقوا بزهرة الزنبق إلى منزلة مرموقة لم تحظَ بها من قبل.

وما إن حل عام 1345 حتى كان «آل عثمان» قد بلغوا مضيق الدردنيل، وبذا حط الخيالة الأتراك رحالهم في أوروبا. كانوا قد جاؤوا بناء على طلب من إمبراطور بيزنطة، الذي لجأ إليهم سعياً لمساعدته في تأمين عرشه ضد قوة مغتصبة. وبدلاً من ذلك، سيطر الأتراك على اليونان ومعظم منطقة البلقان القديمة، ما أحال الإمبراطور البيزنطي إلى دمية في أيديهم حتى أصبح نطاق حكمه لا يتجاوز أميالاً قليلة خلف جدران عاصمته العظيمة: القسطنطينية.

ومن المستحيل، في ظل هذا التغير، التيقن من مدى إعجاب العثمانيين بزهرة الزنبق بعد اقتحامهم لمنطقة البلقان في النصف الأول من القرن الخامس عشر، إذ التزم أتراك هذه الحقبة بوجه عام بالتعاليم الإسلامية التي تحرم العرض العام

للصور الحقيقية للكائنات الحية[1]. ولهذا السبب لا يعثر المرء على رسومات للزنبق في المخطوطات اليدوية العثمانية لتلك الحقبة، كما لا تتوافر تمثيلات معاصرة أو مزهريات أو قطع من البلاط مزدانةً بالزنبق، هذا إن كانت قد وجدت أصلاً، غير أننا نعلم أن إنشاء الحدائق كان فناً متطوراً في بلاد فارس في تلك الحقبة.

والحقيقة أن الحديقة تمثل جانباً رئيساً في الرؤية الإسلامية للفردوس، أما رجال الدين المسيحيون فقد كانوا يصفون الجنة لأتباعهم باعتبارها مدينة وهّاجة تتربع على قمة تلة. ومن المعروف أن الإسلام انبثق أصلاً من الصحراء، ولطالما تاق العرب المؤسسون للإسلام إلى حديقة تملأ نفوسهم بهجة لا حدود لها، وتزخر بمقصورات الخضرة والينابيع، وتزين الأرض بورود ذات جمال لا مثيل له. لقد تعامل المسلمون مع الزهور كأثر مقدس تقريباً، وغالباً ما كانوا يشبكون الأزهار في عمائمهم.

يروي الأتراك حكاية من شأنها أن تفسر الأسباب التي جعلت الحدائق تنطوي على أهمية بالغة بالنسبة إليهم،

---

(1) السبب وراء هذا التحريم اعتقاد يقول إنه لأمر مهين للإنسان أن يأسر بصورة قاصرة كائناً من مخلوقات الله الكاملة.(المؤلف)

فيقولون إن حسن أفندي؛ أحد الشيوخ المتدينين المعروفين، كان يعظ الناس ذات يوم، وبينما هو ماضٍ في موعظته وجه إليه أحد الحاضرين سؤالاً حول ما إذا كان بمقدور أي مسلم أن يوقن سلفاً إن كان مصيره الجنة بعد مماته. وإذ انتهى الشيخ من حديثه سأل الحاضرين ما إذا كان من بينهم بستاني، وقف أحدهم من بين الجمع، فأشار إليه الشيخ حسن قائلاً: «هذا الرجل ذاهب إلى الجنة».

وسرعان ما وجد الشيخ نفسه محاطاً بثلة من الحاضرين المتسائلين عما فعله هذا البستاني ليضمن له مكاناً في الجنة. شرح الشيخ رأيه بالقول إنما كان يستند في ذلك إلى حديث نبوي مؤداه أن الناس سيعملون في الآخرة في ذات المجال الذي وجدوا فيه متعتهم الأكبر في الدنيا. وإذ تنتمي كل الورود إلى الجنة، فإن مصير «البستانيين» سيكون في الجنة كي يواصلوا عملهم هناك.

كانت زهور الزنبق الفارسية والتركية، حتى ذلك الحين، ماتزال نباتاً برياً حتى بعد أن شرعوا في زراعتها في الحدائق، ذلك أنهم لم يزرعوها بغية تنميتها بأسلوب منهجي من خلال تهجينها بسلالات أخرى وما إلى ذلك من طرق التحسين

التي يطورها الإنسان. وظلت الحال على ما هي عليه حتى مطالع القرن السادس عشر عندما أحصى القائد العسكري التركي «بابور» ثلاثة وثلاثين صنفاً مختلفاً من زهرة الزنبق البرية في أثناء مروره جنوباً عبر أفغانستان، ليتضّح أنه حتى ذلك الحين لم يتوافر أي دليل على أن تلك الشعوب البدائية قد خبرت شيئاً عن تهجين النبات في الحدائق. كان «بابور» قد أطاح بالممالك القائمة في شمالي الهند، وأرسى حكم سلالة المغول الذين مايزال اسمهم رمزاً لحياة الترف والوفرة. شرع «بابور» في زراعة الزنبق في الحدائق الرسمية التي أنشأها بأعداد لا حصر لها، بيد أن الأبصال التي استخدمها كانت أبصال الزنبق البري.

غير أنه من بين كل الزهور التي كانت تنمو في حدائق المسلمين، احتفظت زهرة الزنبق بالمكانة الأكثر قداسة منها جميعاً، بل إن شغف الأتراك بهذه الزهرة تجاوز كثيراً حدود إعجابهم بجمالها. لقد حظيت زهرة الزنبق لدى العثمانيين والفرس بأهمية رمزية عظيمة، إذ كانت تُعد وردة الله، ذلك أن الأحرف العربية التي تكوّن كلمة «لالي» التركية –وتعني الزنبق– هي ذات الأحرف التي يكتب بها اسم الجلالة

«الله». كما رمزت زهرة الزنبق إلى فضيلة التواضع أمام الله، ذلك أنها حينما تكون في أوج اكتمالها، تحني رأسها تبجيلاً لجلاله.

وما إن استرخت، في النهاية، قبضة تحريم صور الكائنات الحية في الفترة ما بين القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر حتى غدت زهور الزنبق تستخدم في التصاوير العثمانية لجنة عدن، فتبدو متوهجة تحت أشجار الفاكهة حيث أُغويت حواء. أما الأتراك الذين ضحوا بحياتهم في الحروب، مؤمنين أن موتهم في خدمة الإسلام هو جواز مرورهم إلى جنّة من المروج، حيث الحوريات الإلهية الجميلة تسقيهم خمراً حُرموا منه في الدنيا، هؤلاء كانوا يتصورون بكل ثقة جنةً امتلأت بزهور الزنبق من كل حدب وصوب.

ومن هنا حظيت زهرة الزنبق لدى البستاني التركي بالقيمة الأعلى بين الزهور جميعاً، وبمنزلة لا ترقى إليها أية زهور أخرى، إلاّ إذا استثنينا إعجابهم بالجوري والنرجس والقرنفل والحدقية. ومهما كانت بقية الزهور نادرة، ومهما كان جمالها فقد عدّت «زهوراً برية»، وما كانت تزرع إلاّ لمامًا. ولهذا السبب ليس صعباً أن يُعتقد أن زهرة الزنبق قد

رافقت الأتراك إبان حملاتهم باتجاه الغرب، منطلقين من آسيا، عابرين أوروبا.

الفصل الثالث

في مقام النعيم

قبل مائتين وخمسين عاماً من قيام الهولنديين بإجراء مزايدات على أبصال الزنبق في حانات هولندا، كانت زهور الزنبق قد وصلت إلى سهل كوسوفو الذي يقع عند التخوم الجنوبية لصربيا. هناك، وفي مكان يطلق عليه «حقل الشحارير»، وقف جيش مسيحي يضم خمسة عشر ألف رجل بقيادة الأمير لعازر في مواجهة ضعفي هذا العدد من الأتراك العثمانيين بقيادة السلطان مراد الأول. وقد ساعدت المعركة العظيمة التي اقتتل فيها مراد ولعازر في يوم القديس فيتاس عام 1389 في تقرير مصير سكان منطقة البلقان لخمسمائة سنة قادمة.

لم تكن بداية ذلك اليوم طيبة للصرب، إذ تم صد الهجوم المفاجئ الذي شنه أفضل الفرسان المسيحيين وأكثرهم شجاعة مفتتحين به المعركة، بل إن الأمير لعازر نفسه وقع في الأسر في حمأة الاضطراب. أما على الجانب التركي في تلك الأثناء، فقد وجّه السلطان مراد رجاله بالمهارة المتوقعة من سلطان

قضى معظم سني حكمه الثلاثين في ساحات الحروب. وبدا موقفه في وسط الجيش العثماني آمناً، إذ تمت حمايته بثلاثة أرتال من الجمال قُيّد الواحد منها إلى الآخر لتشكل حاجزاً لا يمكن اختراقه من قبل سلاح الفرسان المسيحيين، ولتصيب الجياد المعادية بالذعر، وهي التي لم تواجه من قبل مخلوقات غريبة كهذه قط، مثل فيلة هانيبعل.

بيد أن أحد الجنود المسيحيين تمكن من الوصول إلى السلطان بطريقة ما. ووفق ما تقوله الأسطورة أن ذلك الرجل كان صربياً اتهمه الأمير لعازر علناً بالخيانة في مساء اليوم السابق، لكنه أثبت ولاءه حين وجّه لمراد طعنة نجلاء نفذ فيها الخنجر من صدر التركي وخرج من ظهره.

سقط السلطان على الأرض مصاباً بجرح قاتل، لكنه ظل حياً فترة من الوقت تكفي لأن يستدعي الأمير لعازر الأسير وأن يأمر بإعدامه على الفور. وهكذا لحق القائدان المسيحي والتركي بقافلة من جثث الآلاف من رجالهم الممددين قتلى في «حقل الشحارير». وفي وصف يستدعي أرض معركة مغطاة بكثافة بجثث القتلى والرؤوس المقطوعة المتناثرة التي كانت ما تزال في عمائمها ذات الألوان الفاقعة، كتب أحد

المؤرخين المسلمين يقول إن المشهد يذكره بمسكبة ضخمة من زهور الزنبق ذات بتلات حمراء وصفراء فاقعة تحاكي الألوان الفاتحة لأغطية الرؤوس التركية.

والحقيقة أنه من الممكن جداً أن تكون زهور الزنبق موجودة في موقع معركة كوسوفو، وليس فقط في الصورة الشعرية التي صاغها المؤرخ المسلم، بل في الوجود الأكثر مادية والذي تمثله التعاويذ. فخلال القرن الرابع عشر بدا وكأن العثمانيين اتخذوا هذه الأزهار الأكثر قداسة تعاويذ لحماية أنفسهم من سوء الطالع. وقد استخدموها بطريقة غريبة إلى حد ما، فمن جانب استعملوها للحماية، ومن جانب آخر استخدموها رسوماً لتزيين الملابس الداخلية ولم يستخدموها لتزيين الرايات والمعاطف، إذ إن التعاليم الدينية المضادة لصور الأشياء الحية كانت ماتزال قوية في نفوس الناس. وما يزال متحف الفنون التركية والإسلامية في إسطنبول يعرض قميصاً قطنياً بسيطاً صُنع ليرتدى تحت الدرع، وكثير من آيات القرآن الكريم تزين منه الصدر، فيما تزين ظهره رسومات لأزهار الزنبق. تم استخراج هذا القميص من قبر ضابط تركي برتبة لواء كان قد قاتل في كوسوفو. كان ذلك

الضابط هو بيازيد، الابن الثاني للسلطان مراد والذي كان أميراً فتياً لم يبلغ بعد مرحلة الرجولة عندما قاد فرقة عسكرية للجيش التركي ضد الأمير لعازر. كان بيازيد الرجل الأول في التاريخ الذي ارتبط اسمه شخصياً بزهرة الزنبق.

ويفترض أنه كان يرتدي القميص كحماية من الشر، علاوة على كونه تعويذة تجلب حُسن الطالع. وإذا كان الأمر كذلك، فقد أفادته زهرة الزنبق بصورة جيدة في كوسوفو. وإذ نودي به سلطاناً من قبل رجاله، فقد خلف هذا الابن الأصغر للسلطان مراد أباه في «حقل الشحارير» فيما كانت الحرب محتدمة مع الصرب.

بدأ السلطان بيازيد حكمه، مواصلاً النهج ذاته، بقسوة بالغة، إذ أمر بإعدام أخيه الأكبر يعقوب، منافسه الرئيس على العرش. لقد أُعدم هذا الأمير ذو الحظ التعس بسرعة، وبواحد من أوتار القوس الحريرية بناء على أمر من السلطان بيازيد. وهكذا أمّن السلطان الجديد لنفسه الخلافة العثمانية في أحلك الظروف.

أثبت السلطان بيازيد أنه حاكم يتمتع بطاقة هائلة وطموح بالغ، إذ أحكم القبضة العثمانية على منطقة البلقان،

كما تمكن في عام 1396 من إلحاق هزيمة ساحقة بآخر جيش صليبي عظيم قوامه ستة عشر ألف رجل في مدينة نيكوبوليس في بلغاريا. وعند انتهاء المعركة أشرف السلطان بنفسه على قطع رؤوس ما يقرب من ألف أسير مسيحي. ولم يكن أمراً مثيراً للدهشة أن يطلق عليه أتباعه لقب «الصاعقة».

والحقيقة أنه على مدى ثلاثة عشر عاماً حقق بيازيد انتصاراً عند كل منعطف، فسحق مقاومة المسيحيين في البلقان، وذبح فُرساً في الشرق. بيد أن قوة التعويذة كانت قد استنفدت طاقتها آنذاك. ففي عام 1402، وعلى مقربة من أنقرة، قاتل بيازيد حاكماً يفوقه عظمة وعناداً يدعى تيمورلنك؛ ذلك المغولي الأعرج الذي ولد في ظلال سلسلة جبال باميرز. كان تيمورلنك جندياً ذا قدرة تضاهي قدرة جنكيز خان، لكنّه كان أكثر منه تعطشاً للدم. تبعثر جيش بيازيد، وقبض رماة السهام على السلطان ذاته فيما كان يفر من ميدان المعركة، وجيء به يحبو عند أقدام المنتصر، في خيمة تيمورلنك الخاصة.

لم يلق ملك الزنبق أية رحمة، إذ قبض تيمورلنك على نساء السلطان في جناح الحريم الخاص بهن، واحتفظ بهن

لنفسه، فيما أمر ديسبينا، زوجة بيازيد، أن تنتظره عارية على طاولته. أما السلطان فقد حُبس في قفص حديدي دأب المغول على نقله معهم في أسفارهم.

وفي المناسبات الرسمية كان يُجرّ السلطان بيازيد، الذي كان مختالاً بنفسه ذات يوم، ويوضع أمام تيمورلنك ليتخذ منه مسنداً لقدميه.

لم يتحمل بيازيد من هذه المعاملة غير مدة لا تتجاوز ثمانية شهور، وما تزال نهايته غامضة، إذ يقول بعضهم إنه توفي بالسكتة الدماغية، فيما جعله الكاتب المسرحي (الإنجليزي) كريستوفر مارلو في مسرحية تيمورلنك العظيم يدمر دماغه وهو يضرب رأسه في قضبان القفص يأساً من مصيبته. وأياً كان الأمر، فقد مات بيازيد قبل أن تزهر الزنابق في عام 1403.

ترتب على أسر السلطان توقف مؤقت لتقدم الزنبق نحو الغرب، وبقاء الإمبراطورية العثمانية التي لم يكن قد اشتد ساعدها بعد في حالة من الفوضى استغرقت نصف قرن، كي يتمكن الأتراك من إعادة الأمور إلى سابق عهدها. تمثل المستفيدون الأساسيون في تلك البقايا المبعثرة من الدول

المسيحية التي حكمت منطقة البلقان قبل زمن السلطان، وبخاصة يونانيو بيزنطة. كان الطموح الأكبر لبيازيد احتلال مدينة القسطنطينية وجعلها المركز الجديد لإمبراطوريته، فحاصر المدينة مدة خمس سنوات في أواخر القرن الرابع عشر لكنه عجز عن اختراق التحصينات الهائلة التي كانت تحف بها من كل جانب.

وما إن حل عام 1400 حتى أصبحت القسطنطينية، باعتراف الجميع، مدينة ظل يعكس انحدارها المصائر الخائبة لحكامها البيزنطيين. والحقيقة أن ما يربو على نصف مساحة المدينة كان فارغاً، فالأسوار التي كانت تمتد على مسافة تصل إلى سبعة أميال محيطة بمدينة لا يزيد عدد سكانها على خمسين ألف نسمة تبعثرت إلى قرى كبيرة فعلياً تفصل بينها أطلال ومزارع عمل وبساتين. أما فيما يتصل بالحجم والموقع والسمعة فقد كانت القسطنطينية ما تزال المدينة الأعظم في العالم، وكانت ملائمة لأن تغدو عاصمة الإمبراطورية العثمانية، والموطن الجديد للزنبق.

لم ينقذ موت السلطان بيازيد البيزنطيين، لكنه أجل نهايتهم، ذلك أنه في غضون نصف قرن من الزمان استجمع

العثمانيون قواهم وعادوا لاحتلال القسطنطينية بقيادة السلطان محمد، الحفيد الأكبر للسلطان بيازيد. كانت المدينة قد ازدادت ضعفاً فيما كان الجيش التركي أكبر من جيشها بصورة ملحوظة، ومجهزاً بأحدث المدافع والمنجنيقات. وفي عام 1453، وبعد حصار شديد استمر أقل من شهرين، تمكنت قوات السلطان محمد من فتح ثغرة في الأسوار تدفق منها الأتراك إلى القسطنطينية. عندها قذف الإمبراطور البيزنطي الأخير بشارة الشرف والسلطان الإمبراطوري، وبحث عن موتٍ مجهول يناله في حمأة القتال. بعد ذلك، ووسط مشاهد مجزرة مرعبة، احتل العثمانيون القسطنطينية وسموها إسطنبول.

كان السلطان محمد، الذي بات يعرف ب «محمد الفاتح» منذ ذلك الحين وما تلاه، شخصية معقدة حتى وفق المعايير العالية للسلاطين العثمانيين. كان مهووساً بالحروب لكنه كان مثقفاً، وكان مغرماً بالملذات الحسية، لكن إرضاءه كان متعذراً، وكان قاسي القلب لكنه كان متواضعاً. وعندما عبّر عن شكره على النصر في كنيسة القديسة صوفيا، كبرى الكنائس البيزنطية، في اليوم الذي شهد سقوط القسطنطينية،

جثا على ركبتيه ونثر حفنة من تراب على عمامته تعبيراً عن إجلاله لله. وكان هو الذي ألف بيتين من الشعر التركي الحزين:

أيها الساقي، صُبّ لي شيئاً من النبيـذ لأن حديقة الزنبق سوف تموت؛سريعاً سيحل الخريف، وينقضي الربيع.

ومع أنه من المحتمل أن يكون واقعياً، لم يكن يعتزم بَعد التخلي عن السيطرة العثمانية على عاصمتهم الجديدة. وعلى النقيض من ذلك، فإن المدينة التي كانت ذات شأن عظيم ذات يوم، شرعت تستعيد عافيتها في عهده، فظهرت بنايات جديدة في الأفق، وعلت أربع مآذن بجانب كاتدرائية صوفيا، التي أصبحت فيما بعد «مسجد آيا صوفيا»[1]، وأُعيد ترميم أسوار الأرض وبدأ تشييد قصور جديدة. وأنشأ الأتراك عشرات الآلاف من الحدائق في الأماكن التي تُركت نهباً للدمار تحت الحكم البيزنطي.

كانت إسطنبول تتلهف لزينة من هذا القبيل مع أنها وُهبت

(1) آيا صوفيا، مبنى في القسطنطينية سابقاً، ولاحقاً إسطنبول، ويعني باليونانية «الحكمة المقدسة». مر المبنى بثلاث مراحل متغيرة، إذ كان كاتدرائية القسطنطينية، ثم تم تحويله إلى مسجد في الفترة ما بين 1453–1934 وفي ظل الحكم العلماني تحول منذئذ إلى متحف في إسطنبول. (المترجم)

أكثر المواقع الطبيعية اكتمالاً في العالم، إذ بُنيت على حافة القارة الأوروبية بالضبط، وتحيط بها المياه من ثلاث جهات، وتقوم عليها سبع تلال. وحتى حينما غادرها البيزنطيون كانت المدينة تتمتع بمنظر أخاذ عند كل منعطف.

استفادت إسطنبول تماماً من جميع المساحات الخاوية فيها، فزرع الأتراك أشجاراً وأزهاراً ما مكّن ذلك الجمال الطبيعي من التكامل والتوازن مع مباني المدينة، قديمها وحديثها.

وفي غضون عقود قليلة من الانتصار كان يمكن للسلطان أن يتمتع بمفرده بأكثر من ستين حديقة خاصة تمتد على طول مضيق البوسفور وبحر مرمرة. وتوافرت في هذه المواقع عشرات المطابخ التي كانت تزود قصوره بالفواكه والخضروات. عثمانيون آخرون أقاموا حدائق مغمورة توفر الظل في الصيف الحار، وأنشأوا حدائق ذات صفوف متوازية مليئة بالأعناب، وحدائق للمتعة في أماكن عامة، علاوة على «حدائق فردوسية» محاطة بأسوار منازلها وتزخر بالأزهار.

لقد منحت هذه الخضرة الوافرة مدينة إسطنبول ميزة في عيون الزائرين من أية مدينة أوروبية، إذ زرع الأتراك

حدائقهم بأساليب أذهلت البستانيين الغربيين الذين كانوا يكرهون الاصطفاف المنظم الصارم للحدائق الرسمية التي سادت آنذاك في ساحات إنجلترا وفرنسا وإيطاليا. أما الحدائق العثمانية فقد كانت مناظر انطباعية مثيرة للإعجاب إذا ما قورنت بتلك الحدائق. لم تُزرع الحدائق العثمانية لتتمتع العين بالدقة الهندسية، بل لتغريها كي تلتفت إلى مشاهد الترف والوفرة. وتم تصميم الحديقة العثمانية كمكان يستطيع أن يجد فيه صاحبه ملاذاً من هموم العالم، ومنتجعاً من قيظ النهار. وفي داخل أسوار الحدائق زرع الأتراك فواكه غضة، وبنوا فيها نوافير وشلالات تعزف ألحانها الخاصة، وكانوا يبتغون من وراء ذلك أن تغدو هذه الحدائق قطعة صغيرة من جنة السماء على تلك الأرض.

ولطالما أصيب الأوروبيون عموماً بالذهول لدى زياراتهم لإسطنبول في ذروة الإمبراطورية العثمانية التي أقامها آنذاك السلطان محمد وخلفاؤه. لم يندهشوا من مساحة المدينة وثرائها فحسب، وإنما من أخلاق سادتها وذوقهم الرفيع. كانت إسطنبول مدينة للثقافة والمقاهي المتسامحة تجاه التنوع الديني لسكانها بصورة بدت غير مفهومة في أوروبا. إذ

إن الفكرة الأوروبية عن الشخصية التركية كانت محصورة في القسوة والشهوة. وكانت وحشية الجيوش العثمانية موضوعاً شعبياً واسع الانتشار، مثلما كان الفضول لمعرفة الملذات الخفية الممارسة في حريم السلطان. على أنه من المؤكد أن الأتراك أنفسهم كانوا قادرين على تذوق الجمال بقدر ما كانوا قادرين على ممارسة القسوة كذلك.

بدا السلطان محمد نفسه نموذجاً لهذه التناقضات، فقد تجسّد أحد أعماله المبكرة للغاية في أمره ببناء قصر بديع عند الطرف الشرقي للمدينة منحه مبدعه اسماً شاعرياً هو «مقام النعيم»، لكنه يعرف اليوم بقصر توبكابي. وكانت الغاية المحددة منه أن يبزّ ببهائه أي مبنى أنشئ خلال الألفية البيزنطية، بحيث يجمع، وفق قول أحد المؤرخين، «التنوع والجمال والبهاء» وحيث «يشع ويلمع في كل جانب من جوانبه، في الداخل والخارج، الذهب والفضة وزخارف الحجارة الثمينة واللآلىء الوفيرة». وكان السلطان محمد بستانياً مولعاً بجمع النباتات النادرة من كل بقاع مملكته، ولطالما شوهد وهو يرعى أزهاره ويهتم بها بنفسه، إذ كان قد عقد العزم أن يكون «مقام النعيم» «محاطاً بحدائق بالغة

الاتساع والجمال. ونما في تلك الحدائق كل نوع يمكن تخيله من النباتات والفواكه، حيث يتدفق الماء المتجدد، والصافي، والصالح للشرب، بغزارة من كل جانب، فيما تصدح وتزقزق فيه أسراب من الطيور سواء تلك الصالحة للأكل أو الطيور المغردة». على أن هذا الرجل المثقف عندما اكتشف ذات يوم أن واحدة من ثمار الخيار الثمينة قد سرقت من حديقته أمر بجلب كل بستانيي القصر وطلب إليهم أن يفرغوا أمعاءهم واحداً تلو الآخر ليعرف أيهم أكل الخيارة المسروقة.

بيد أن الحكام العثمانيين الذين خلفوا السلطان محمد الفاتح قد فاقوه قسوةً وحماسةً للقصور والحدائق الغنّاء. وكان أشدهم ولعاً بذلك سليمان الرهيب، الحفيد الأكبر للسلطان محمد، والذي اعتلى العرش في عام 1520 وبسط نفوذ الإمبراطورية التركية من بوابات فينا إلى الخليج الفارسي، ومن مضيق جبل طارق إلى بحر قزوين. كان هذا السلطان أنموذجاً للقسوة في نظر أولئك المسيحيين الذين قادهم سوء طالعهم إلى مواجهة جيوشه. وبالنسبة إلى الأوروبيين كان السلطان سليمان «التركي العظيم»، وهو اللقب الذي ظل يطلق في الغرب على السلاطين اللاحقين. كما عُرف بلقب

«مالك رقاب الرجال»، من بين ألقاب أخرى كثيرة. غير أن رعايا السلطان سليمان احتفظوا له بمشاعر الاحترام والتقدير باعتباره «مشرع القوانين». كان رجلاً ورعاً، وعلى غير عادة العثمانيين، لم يكن لديه غير القليل من الحريم، وعاش حياة طاهرة مع زوجته الأثيرة.

وفي زمن السلطان سليمان، أي في النصف الأول من القرن السادس عشر، تكرست زهرة الزنبق باعتبارها الزهرة التركية المثالية. وحتى ذلك الحين لم تكن زهرة الزنبق معروفة في أوروبا، علماً أن شعبيتها في أوساط السلطان وخدمه قد بلغت شأواً رفيعاً إلى درجة أنها أصبحت إحدى الموضوعات المفضلة لدى الفنانين والحرفيين العثمانيين المهرة. ولطالما ظهرت مرسومة على مزهريات الورد وعلى البلاط، وبخاصة بعد أن تراخت قبضة التعاليم القديمة حول تصوير الأشياء الحية.

زينت زهور الزنبق أردية السلطان، وليس فقط ملابسه الداخلية كما كانت عليه الحال في عهد بيازيد، وتشهد على ذلك عباءة السلطان الإمبراطورية المقصبة، ذات اللون الحليبي، والتي ماتزال باقية إلى اليوم، والمزينة بمئات الأصناف

من زهور الزنبق. كما يشهد على ذلك الدرع الإمبراطوري الذي كان يُرتدى إبان الحروب في هنغاريا وبلاد فارس، والذي كان مزداناً بزهرة زنبق واحدة رائعة الجمال يبلغ طولها تسع بوصات. كذلك كانت خوذة السلطان، تحفة صانع الدروع البارع، مزينة أيضاً بزهور زنبق مؤطرة من خارجها بالذهب، ومرصعة من داخلها بالحجارة الثمينة.

وما إن حلّ منتصف القرن السادس عشر حتى غدت زهور الزنبق شائعة الانتشار في أرجاء الإمبراطورية العثمانية، وأصبحت في متناول أتراك آخرين غير السلطان، وغدا بإمكانهم استخدام صورتها بأشكال مختلفة. وبدأ استعمال رسومات زهور الزنبق في تزيين سجادات الصلاة التي تحوكها العرائس خلال إعدادها لجهاز العرس، وفي تزيين زجاجات المياه والأغطية المخملية التي كانت تزين الأسرجة التركية التي يتقن الأتراك صنعها.

ومثلما غرس البستانيون أبصال الزنبق ليعينوا أرواحهم على الارتقاء إلى الفردوس، نسجت النساء في الإمبراطورية التركية آلافاً من الصور لزهرة الزنبق كرموز دينية كن يقدمنها هبات مصحوبة بالدعوات بأن يعود أزواجهن من الحروب

سالمين.

ويبدو أن الأتراك في عهد السلطان سليمان قد شرعوا يتعهدون الزنبق بالرعاية وبتربية أنواع جديدة تتواءم وأذواقهم. كانت الزنابق البرية التي تزرع في إسطنبول منذ عهد السلطان محمد قصيرة ومستديرة، أو بشكل أدق على هيئة بيضة تقريباً، ولا تختلف عن الأصناف التي ماتزال سائدة إلى اليوم. على أنه من المحتمل أن يكون اهتمام العثمانيين بتهجين أصناف جديدة من الزنبق قد بدأ في وقت مبكر عند أواخر القرن السادس عشر، حين شرع بستانيو العاصمة بإنتاجها.

وربما تم تهجين «زنابق إسطنبول» تلك، كما أصبحت تُعرف فيما بعد، من أصناف اكتشفها الأتراك على الشواطئ الشمالية للبحر الأسود، أي في أراضي حلفائهم «تتار القرم». كان يتفرع من «زنابق إسطنبول» في المحصلة النهائية ألف وخمسمائة صنف، وكانت أكثر نعومة وبهاء إلى حد بعيد من الزهور السابقة. كانت بتلاتها طويلة ورقيقة بشكل كبير ومدببة كرأس الإبرة عند الأطراف. أما الزنابق التي كانت مرغوبة أكثر من غيرها فقد كانت لوزية الشكل

ولها بتلات أشبه بهيئة الخنجر، وذات ألوان قرمزية أو خمرية أو صفراء.

كان أوائل البستانيين الذين وهبوا حياتهم كاملة لزهور الزنبق قد عاشوا في زمن السلطان سليمان وزرعوا عدداً من أوائل أصناف الزنبق المحسنة. وعُرف من بين هؤلاء سيف الإسلام أبو سعود أفندي الذي كان يمتلك زهرة زنبق ذات جمال خاص تدعى «نور الدين» أو «نور الفردوس». وقد حظيت أصناف أخرى من الزنبق بألقاب مماثلة مثيرة للعواطف وتعكس قيمتها وجمالها. ومن بين هذه الألقاب: «اللؤلؤة الفريدة» و «معزّزة المتعة»، و «زارعة الحب»، و«محسودة الماس»، و «زهرة الفجر».

بيد أن تلك الزهور كانت نادرة للغاية، إذ إن سيف الدين نفسه، الذي توفي في عام 1574 عن عمر متقدم بلغ أربعة وثمانين عاماً، لم يكن يمتلك أكثر من حفنة من أبصال زهرة «نور الدين». وفي عصر كان فن توليد أصناف زنبق جديدة من أصناف قديمة لا يكاد معروفاً، كان مربو الزنبق الذين يرغبون في إنتاج زنبق قرمزي يصبون نبيذاً أحمر قانياً في المنطقة المحيطة بالأبصال. ولقد كان التهجين عملاً بطيئاً

وعشوائياً إلى حد ما، كما أنه لم يلق اهتماماً لدى معظم البستانيين الأتراك. ويبدو أن معظم زهور الزنبق العثمانية المهجنة الجديدة قد انبثقت بمحض الصدفة ودون تخطيط.

وعلى الرغم من ذلك، زاد السلاطين العثمانيون مخزونهم من أبصال الزنبق، واستخدموا هذه الزهرة وزهوراً أخرى في تزيين قصورهم وحدائقهم. زُرع بعض هذه الأصناف من زهرة الزنبق في إسطنبول التي وُجد فيها، بحلول الثلاثينيات من القرن السابع عشر، قرابة ثمانين محلاً لبيع الزنبق، وثلاثمائة مختص بتربيته. كما كان يتم استيراد أصناف أخرى من الخارج، وبكميات كبيرة أحياناً.

أصناف جديدة كانت ترد من ساحل البحر الأسود ومن جزيرة كريت، أو بلاد فارس، إذ كانت تؤخذ عنوة خلال الحملات العسكرية الطويلة التي كان يقوم بها العثمانيون في تلك المناطق. وفي عام 1574 أمر سليم الثاني، ابن السلطان سليمان، شريف منطقة (عزيز) في سوريا، والتي كانت مقاطعة تركية، أن يرسل له خمسة آلاف من أبصال الزنبق لكي تزرع في الحدائق الإمبراطورية. كان السلطان سليم الثاني بستانياً مهتماً بالزراعة، لكنه كان مولعاً، من ناحية ثانية، بالكحول،

ما ترتب عليه أن يوصف في التاريخ بـ «سليم السكير». كتب السلطان سليم لشريف منطقة عزيز يقول «إنني آمرك ألاّ تتأخر في إرسالها مهما كانت الأسباب»، وأضاف «كل شيء ينبغي أن يكون على خير ما يرام، وأن ينفذ الأمر بسرعة، وألاّ يؤدي إلى أية خيبة أمل». ومع أن السلطان سليم أوضح أن ثمن هذه الأبصال يمكن أن يتم تحصيله من خزينة مدينة حلب المجاورة، كان لا بد لأوامر من ذاك القبيل أن تُنزل الرعب في قلوب من يتلقوها، وربما كان هذا ما يدور في نفس السلطان.

ومن بين حدائق السلطان جميعاً كانت الحدائق المخفيّة وراء أسوار منزله الخاص، أي قصر توبكابي، هي الحدائق الأجمل إلى حد بعيد. بيد أنه في ذلك الحين كان كل شيء في «مقام النعيم» يرمي إلى إبراز البهاء والثروة والذوق لدى السلالة السلطانية العثمانية. وحتى تلك الأقسام العامة من القصر أنشئت وفق أفخم المقاييس. أما المساكن الخاصة التي لا يراها في العادة سوى علية القوم من الأتراك وخدمهم، فقد كانت تتمتع بمساحات وتعقيد لا مثيل لها في الغرب.

ولكي يصل الزائر إلى المختليات الداخلية حيث تعرض

زنابق السلطان، كان عليه أن يبلغ مقام النعيم عبر طريق عريض يؤدي إلى ما وراء مسجد آيا صوفيا وينفتح على ساحة عامة. وعندما يصل الزائر المكان يستطيع رؤية الأسوار الخارجية للقصر التي تعج بالتحصينات والحراس، والتي تخترقها بوابة خارجية ضخمة نُقش فوقها اللقب الرسمي الطويل للسلطان بحروف من ذهب.

تؤدي هذه البوابة إلى أول ميدان من الميادين الأربعة للقصر، ويُعد كل واحد منها أكثر قداسة من الميدان السابق. أما الميدان الخارجي، الذي يتعين على جميع زوار الأقسام الداخلية أن يمروا منه، فقد كان مفتوحاً لجميع رعايا السلطان ويعج بعدد كبير من البشر يفوق الوصف. كان لكل تركي الحق في تقديم التماس للتعويض عما لحق به من مظالم، فتحتشد في العادة عدة مئات من المواطنين الساخطين محيطين بأكشاك يجلس فيها عدد من الكتبة المنهكين الذين يدونون شكاوى المواطنين. وفي مكان ما من الميدان ذاته تقبع مخازن عديدة للأسلحة والذخائر، علاوة على بنايات مخصصة لسك العملة ولدوائر أخرى متنوعة للحكومة العثمانية. كما توجد في المكان إسطبلات تتسع لثلاثة آلاف حصان، إضافة إلى اثنين

من النصب التذكارية المصنوعة من الرخام الأبيض، توضع عليهما الرؤوس المقطوعة لعدد من كبار القوم الذين أغضبوا السلطان. كانت تلك الرؤوس تُحشى بالقطن إذا ما كان أصحابها يوماً من الوزراء، وتُحشى بالقش إذا كانوا رجالاً دون ذلك المستوى. وبين الفينة والأخرى، كان يكدس كل ما يذكر بالإعدامات الجماعية المتفرقة التي يأمر بها السلطان بجانب بوابة الدخول كتحذير إضافي، ومن تلك الأشياء أنوف مجدوعة وآذان وألسنة مقطوعة.

وتوجد بوابة قوية مزدوجة تنقل الزائر من دائرة الجحيم تلك إلى الميدان الثاني الأكثر هدوءاً، والذي يمنع الجميع من ارتياده باستثناء الموظفين العثمانيين والجنود والزائرين المهمين. ويشتمل هذا الميدان على الديوان (قاعة مجلس العثمانيين) حيث يسترخي السلطان على مقعد فخم طويل محتجباً عن أنظار رعاياه بستارة حريرية خضراء لامعة، مستمعاً إلى تقارير كبار المسؤولين، أو مستقبلاً سفراء الدول الأجنبية.

خلف الميدان الثاني، وعبر بوابة ثالثة تدعى «بوابة السعادة» تقبع حجرات الإمبراطور الخاصة، إضافة إلى جناح الحريم الإمبراطوري الذي يقوم على حراسته رجال

سود من الخصيان استقدموا من إفريقيا إلى إسطنبول. كان هذا الميدان الثالث مكاناً مقدساً للغاية لا يمكن لأي مواطن غربي، أو عثماني عملياً، أن يزعم أن قدميه قد وطئتا هذا الميدان منذ أن شُيد قبل ما يقرب من مائة عام. وأخيراً، توجد البوابة الرابعة المزدوجة المقفلة والمؤدية من السراي إلى الحدائق الإمبراطورية الواقعة على الطرف القصي لمجمع القصر بكامله، وتطل على مناظر ساحرة في الجانب الآخر من مياه البوسفور المتلألئة. كان وجود الحدائق الإمبراطورية في قلب القصر، الرمز الرئيس للقوة العثمانية، يؤكد مشاعر التبجيل التي يحملها الأتراك لنباتاتهم وأزهارهم.

لم تكن أراضي قصر توبكابي ساحرة وحسب، وإنما كانت شاسعة أيضاً، إذ اشتمل المجمع الهائل للقصر على جميع أنواع الحدائق، علاوة على مساكب ونوافير للزهور، وأحواض ماء وبساتين فاكهة. فالميدان الثاني المهيب، الذي كانت تتجمع فيه نخبة القوات العسكرية من الأتراك في كل شهر لتسلم رواتبهم التي كانت توضع في أكياس ضخمة خاصة، كان قائماً على مساحات فسيحة للغاية من غابات ترتع الغزلان فيها بين أشجار السرو، وعبر ممرات تكسوها

الظلال. وفي شمال القصر، حيث تنحدر الأرض باتجاه الميناء الشهير المعروف بـ «القرن الذهبي»، امتدت الحدائق إلى ما وراء الأسوار جنوباً حتى حدود الماء.

كانت مساكب الزهور تزرع بصورة رئيسة في الميدان الرابع ليتمتع بها السلطان وحده في أغلب الأحيان. لا تطل عليها نوافذ غير نوافذ «الخزينة»، ونوافذ مبنى آخر يدعى «قاعة حفظ المؤن والأشياء الثمينة» حيث توجد حافظات اللحوم الإمبراطورية، وقد يتم إغلاقها بمصاريع إذا ما صدرت أوامر «التركي العظيم». كانت حدائق الميدان الرابع بمثابة المنتجع الرئيس للسلطان من أعباء الدولة. ولطالما تنافس السلاطين المتلاحقون فيما بينهم ليجعلوا تلك الحدائق أكثر بهاء. زرعت ورود الجوري والقرنفل والحدقية والنرجس، وزهور الزنبق بالطبع، بكميات كبيرة في هذا الجزء من الأراضي السلطانية، وبخاصة على المنحدرات المؤدية إلى أعلى نقطة في مجمع قصر توبكابي، وهي ربوة تقع على الطرف الشمالي وتطلّ على مشاهد لا مثيل لها على البوسفور وبحر مرمرة. وعلى هذه الربوة، وفي مناطق أخرى من الحدائق، بنى العثمانيون سرادقات مصنوعة من الخشب

تدعى أكشاك. وكانت هذه تستخدم أماكن للاجتماعات أو مراكز للاحتفالات، لكنها أيضاً كانت مزودة بدواوين منعزلة مفتوحة لكل نسيم عليل عابر، فيما كانت تمنح مناظر تأخذ بالألباب عندما تزهر ورود الحدائق. في هذا المكان، وفي أي وقت من أوقات حياته المزدحمة، والعنيفة غالباً، يستطيع السلطان أن يخلد إلى العزلة والهدوء.

في «مقام النعيم» جرى تصميم كل شيء ليترك أثراً عميقاً في نفوس الزائرين حيال مدى القوة التركية. كان حجم القصر هائلاً، وهندسته المعمارية ذات جلال مهيب، وأجنحته مزينة على أفخم الطرز. وحتى أكثر التجار الأوروبيين الذين يجوبون مدن العالم كانوا يواجهون عنتاً في توفير الكميات الهائلة المطلوبة منهم لإطعام البلاط السلطاني في كل عام: عربات مملوءة بالأرز والسكر والبازلاء والعدس والفلفل والقهوة والسنا وحلوى المعكرون[1] كلها تتزاحم عبر بوابات قصر توبكابي، علاوة على كميات كبيرة من البرقوق المحفوظ في عصير الليمون، و (199٫000) دجاجة

---

(1) حلوى المعكرون (macaroons) نوع من الحلوى يصنع من بياض البيض والسكر واللوز. (المترجم)

و(780) عربة من الحلوى الثلجية[1].

لم يكن في عهد السلطان سليمان أقل من خمسة آلاف خادم يكدحون في الميادين الأربعة، إذ تنوعت أعمالهم ما بين مراقبين بسطاء إلى رجال ذوي اختصاصات غريبة مثل كبير منسقي العمائم، وكبير المسؤولين عن مناديل المائدة الذي كان من بين مرؤوسيه نادل متفرغ لتقديم المخللات. وضم خدم السلطان مجموعة كبيرة من البستانيين يقدّر عددهم بألف بستاني نشط. كانت واجبات البستانيين في القصر عديدة بالفعل، وتنوعت لتمتد إلى ما وراء إزالة الأعشاب الضارة من حول زنابق السلطان، مع أنهم كانوا يؤدون هذا العمل أيضاً. لقد عمل البستانيون حراساً وحمالين ومنظفين للنفايات. أما الآلاف الخمسة الإضافيون لفيلق العاملين المكلفين بالعمل خارج قصر توبكابي نفسه، فقد كانوا يعملون حراساً إمبراطوريين وبمثابة بديل مؤقت لرجال الشرطة والجمارك حول العاصمة.

---

(1) الحلوى الثلجية (snow) حلوى من بياض البيض والسكر ولب الفاكهة، وهي كما يبدو شبيهة بحلوى المعكرون مع اختلاف طفيف في المكونات. (المترجم)

على أن أكثر الأمور غرابة في وضع كذاك أن عدد أولئك البستانيين قد تضاعف في عملهم كمنفذين لأحكام الإعدام التي يصدرها السلطان، فكانوا، على سبيل المثال، يخيطون الأكياس المثقّلة التي توضع فيها النساء المدانات ويلقونها في البوسفور. وكان مجرد مرأى مجموعة قادمة من البستانيين المعتمرين قلنسوات حمراء، المرتدين لزيهم التقليدي الموحد والمكون من سراويل إسلامية بيضاء قصيرة وقمصان مقصوصة تشف عن صدور وأذرع مفتولة العضلات، إيذاناً بموت آلاف عديدة بالخنق وفق الطقوس من الرعايا العثمانيين على مر السنين.

وعندما تصدر أحكام الإعدام على مسؤولين كبار للغاية، كان يتولى أمرهم شخصياً كبير بستانيي السلطان، الذي يطلق عليه بالتركية «بستنجي باشا». وكان هذا يقوم بوظيفة كبير منفذي أحكام الإعدام، وكان مطلوباً منه أن يؤدي دوراً رئيساً في واحدة هي بالتأكيد من أغرب العادات التي شهدها التاريخ.

تمثلت هذه العادة في إجراء سباق بين ذلك المسؤول الكبير - كأن يكون وزيراً أو كبير الخصيان- والرجل المكلف بتنفيذ

القتل. وما إن يصدر حكم الإعدام حتى يُسمح للرجل المدان أن يركض بأقصى سرعته مسافة نصف ميل، أو نحو ذلك، عبر الحدائق، نزولاً إلى «بوابة منزل الأسماك»، والتي تقع على الطرف الجنوبي الأقصى لقصر توبكابي، حيث المكان المخصص للإعدام. فإذا وصل الرجل المدان بوابة منزل السمك قبل كبير البستانيين يخفف حكم الإعدام إلى مجرّد النفي. من جهة أخرى، إذا وجد الشخص المدان «البستنجي باشا» بانتظاره عند البوابة يعدم دون إبطاء وتُقذف جثته في البحر(1).

ومن بين الواجبات الأقل رعباً للبستنجي باشا توفير أزهار لتزيين أجنحة المعيشة في القصر. ومع أن الأتراك عموماً نادراً ما مالوا إلى استعراض نباتاتهم على هذه الشاكلة مؤثرين بقاءها في الحدائق التي نمت فيها، فإن عادة كهذه ازدهرت داخل أسوار «مقام النعيم». وتبين الرسوم غرف السلطان الأثيرة مشرقة بالكثير من الأزهار معروضة فرادى، وقلما كانت تعرض في مجموعات صغيرة. وكانت أزهار الزنبق تبرز بصورة جلية في ترتيبات من هذا النوع، إذ كانت توضع

(1) كان آخر رجل أنقذ حياته بفوزه في سباق الحياة والموت كبير الوزراء حاجي صالح باشا في الفترة ما بين عامي 1822–1823. (المؤلف).

في مزهريات زجاجية جميلة مزركشة في الغالب بزخارف مخرمة بطريقة تعرف ب «عين العندليب»، ويتم نشرها على سلسلة من المناضد المنخفضة.

وفي كل الاحتمالات، هكذا عرف الغربيون لأول مرة زهور الزنبق المُحسّن في إسطنبول. لقد ذهبوا إليها سفراء ومبعوثين أولاً، كما قصدوها استجابة للنجاحات المرعبة التي حققتها جيوش السلطان سليمان حينما احتلت جزيرة رودس، التي كانت -كما يبدو- القاعدة المنيعة للفرسان الصليبيين التابعين للقديس حنا في عام 1522. كما استطاعوا سحق جيوش ملك هنغاريا في عام 1526، وتمكنوا من محاصرة فيينا بعد ذلك بسنوات ثلاث.

منحت هذه السلسلة من الانتصارات المتتالية تقريباً الإمبراطورية العثمانية منزلة القوة العظمى في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وأرغمت ملوك أوروبا المسيحيين على التفاوض معها. وفي زمن لاحق، شق مرتزقة وتجار طريقهم إلى إسطنبول إما للانضمام إلى الأتراك أو سعياً وراء الحصول على تصريح لهم بالإتجار معهم. وكانت إحدى النتائج البسيطة لنهوض القوة العثمانية بعد موت السلطان سليمان

في عام 1566 قيام مئات عديدة من هؤلاء المرتزقة والتجار بالسفر إلى تركيا التي ظلت مغلقة أمام الغرب لعدة قرون.

ولقد وجد الغربيون الكثير مما لفت أنظارهم، إذ بدا لهم كل شيء في الإمبراطورية العثمانية غريباً، بدءاً من النشاط القوي للأسواق الشعبية (البازار) إلى ذلك البهاء المثير للحواس الذي تتمتع به مساجد إسطنبول. كان حب الأتراك للزهور، ومهارتهم العالية في الاعتناء بها من بين الأشياء الجديدة التي حدت بالغربيين إلى تدوين مشاهداتهم. بل إن العناية بالنباتات من أجل جمالها فقط، بدت غريبة لهؤلاء الزائرين الذين دأبوا على التفكير في النباتات باعتبارها مادة للغذاء، أو بسحقها لتصبح أدوية عشبية بدائية.

كانت أزهار الزنبق الرفيعة التي لا تقاوم، والمعروضة في كل حديقة حديثة، قادرة على جذب الانتباه. وسواء أكان الزائرون، الذي وجدوا أنفسهم يحدقون في الحدائق العثمانية الرائعة، سفراء أم ضباط جيش، وسواءَ أكانوا يعشقون الزهور أم لا يلقون إليها بالاً، لم يكن باستطاعتهم إلاّ أن يلاحظوا أن الأتراك يفضلون زهرة الزنبق على جميع أنواع الزهور الأخرى.

وعند منتصف القرن السادس عشر، على أبعد تقدير، كانت زهرة الزنبق قد وصلت أخيرا إلى مركز اهتمام أوروبا، فيما كانت الزهرة على أهبة الاستعداد لاستئناف رحلتها باتجاه الغرب.

الفصل الرابع

غريبة من الشرق

في أواخر شهر تشرين الأول من عام 1529، كانت السفن المبحرة التي تتقدم ببطء شديد نحو مدينة جوا، عاصمة الممتلكات البرتغالية في الهند، في حالة تبعث على أسف عميق. فقد تعرضت لقصف ضارٍ، وكان يقودها نفر قليل للغاية من البحارة، وكانت قد فقدت ما يربو على ألفي رجل في موجة مزدوجة من الحمّى والمجاعة إبان رحلتها الطويلة التي انطلقت من مدينة لشبونة. إلاّ أنه قُدّر لـ«نونهو دا كونها» قائد هذا الأسطول الصغير، وأحد النبلاء، أن يظل على قيد الحياة. وكان وصوله يمثل خبراً سيئاً لحاكم الهند البرتغالية « لوبو فاز دي سامبايو.»

كان دا كونها يحمل أوامر من ملك البرتغال تقضي بعزل لوبو «فاز» وتنصيب دا كونها حاكماً مكانه. والأسوأ من ذلك أن فاز نفسه كان مطلوباً للعودة إلى البلاد بصورة مذلّة، إذ صدر أمر استدعائه لأن نبأً بلغ لشبونة أخيراً مفاده أن فاز قد اغتصب وظيفة الشخص الذي اختاره الملك، والذي

يفترض أنه قد أصبح حاكماً. لكن «فاز» حكم المقاطعات الواقعة على الساحل الغربي للهند بدلاً من دا كونها منذ سنتين. عاد لوبو فاز إلى بلده سجيناً وظل فيه واهناً هزيلاً حتى عام 1532 عندما نفي إلى إفريقيا لفترة من الزمن، أملاً في عفو نهائي.

تنطوي هذه المعلومات على أهمية معينة إذ يقال إن لوبو فاز هو الرجل الذي أدخل الزنبق إلى أوروبا الغربية. ففي عام 1654 صدر كتاب بعنوان الزهار «فرانسوا» لمؤلف خبير في البستنة يدعى تشارلز دي لاشيزني مونستيريل جاء فيه أن «فاز» جلب الزنبق معه من سيلان إلى بلده. كما أن مراجع عديدة أخرى ظهرت في القرن السابع عشر تتبنى الزعم ذاته.

بيد أنه من العسير أن نتصور كيف استطاع لوبو فاز أن ينجز عملاً فذاً كهذا ،إذا ما أخذنا بالحسبان ظروف عودته إلى بلاده. لنبدأ أولاً بالقول إن زهور الزنبق لا تنمو في سيلان، كما أن الجزيرة تبعد مئات الأميال عن الطريق التي تسلكها السفن البرتغالية في أثناء عودتها إلى البلاد. وعلى الرغم من أنه ليس أمراً منافياً للعقل أن نفترض أن البرتغاليين المقيمين في

مدينة جوا قد حصلوا من هناك على زهرة الزنبق– إما عن طريق أبناء بلاد فارس الذين تعاملوا أحياناً بهذه الزهرة في الخليج، أو عن طريق مواطنين من الهند جلبوها من إحدى حدائق بابور، شمالي شبه القارة الهندية– فإن الرحلة البحرية إلى لشبونة كانت رحلة شاقة تستغرق ستة أشهر في الظروف المناخية المواتية، وقد تستغرق فترات طويلة تمتد إلى سنتين ونصف في الأحوال السيئة.

وإذا ما صحّت القصة التي تتحدث عن لوبو فاز، فلابد أنه كان مولعاً بالزنبق وبشيء من التميز تمثل في هذا الحرص الكافي على الزنبق إلى درجة أن يقنع آسريه بأن يسمحوا له بحمل أبصال الزنبق على ظهر السفينة، وربما أقنعهم بأن يزرعها في آنية على تلك السفن الصغيرة القذرة، والمزدحمة بصورة تثير الرعب، والتي كان يستخدمها البرتغاليون في إبحارهم إلى الهند والعودة منها. وهذا ليس مستحيلاً تماماً، فالسجناء من ذوي المكانة كانوا يتلقون معاملة حسنة في تلك الأيام أياً كانت جرائمهم. ومن المؤكد أن لوبوفاز لم يُنقل إلى لشبونة مكبلاً بالأصفاد، لكنه أمر مستبعد بما يكفي لأن نشك في أن لوبوفاز النبيل الذي لا يحظى بميزة معينة،

والرجل ذا الحظ التعس جدير بأن يبقى في ذاكرة الناس على أنه أول من أدخل زهرة الزنبق إلى أوروبا.

والحقيقة أن أحداً لا يعرف على وجه اليقين كيف أو أين أو متى خرجت هذه الزهرة من قارة آسيا. لقد زرع الأتراك والفرس الكثير من أبصال الزنبق. وكان يمكن حمل تلك الأبصال بسهولة حتى ليبدو مدهشاً للغاية ألاّ تجد حفنة منها طريقاً إلى الغرب في أي وقت من حقبة العصور الوسطى. وإذا كان هذا قد حدث فعلياً، فلا ذكر له في المدونات التاريخية أو الرسوم التي أُنتجت في ذلك الزمان.

ومفاد ذلك أنه لا يمكن أن يكون الزنبق قد زرع هناك بكميات كبيرة أو امتدت زراعته إلى مسافات نائية. وهذا ينطبق على أية أصناف ربما كانت قد وصلت البرتغال من الهند، إذ إنه حينما واجه علماء النبات الأوروبيون زهرة الزنبق في ستينيات القرن السادس عشر قالوا إن هذه الزهرة صنف عظيم غير مألوف، بل شيء جديد تماماً.

وبين الحين والآخر يُكشف النقاب عن أدلة جديدة مفادها أن زهرة الزنبق كانت موجودة في أوروبا قبل منتصف القرن السادس عشر، إلاّ أن كل دليل منها لم ينج

من التحدي. فهناك، على سبيل المثال، مشكلة زهرة الزنبق البري الأحمر والأصفر من فصيلتي تي. سيلفيتريس و تي. أوستراليس اللذين ما تزالان تنموان نمواً برياً في سافوي[1]. وقيل إن هذه الزهور هي ما تبقى من أحد أصناف الزنبق البري الأوروبي الأصلي الذي ارتبط في زمن ما بسلالة آسيوية شبيهة به عن طريق مساحات مزروعة بالزنبق امتدت عبر منطقة البلقان. على أن زهور سافوي هذه كانت ذات توزيع غريب، وكانت توجد بصفة عامة في أراضٍ مزروعة، ما يشير إلى أن أجيالها السابقة نمت عن طريق زراعتها من قبل الناس. علاوة على ذلك، توجد لوحة فنية اسمها عذراء حبلى تظهر فيها مريم العذراء تدير وجهها نحو زهور من بينها زنابق مزروعة في الحديقة. كانت تلك اللوحة تنسب ذات يوم إلى الفنان ليوناردو دافينشي، لكنها أعيدت لتلميذه ميلزي الذي ظل على قيد الحياة حتى عام 1572.

وأبرز الأدلة جميعاً قطعة من الفسيفساء تعود في تاريخها إلى ما قبل عام 430 للميلاد، وهي معروضة في متحف

(1) سافوي (Savoy): منطقة في أوروبا تقع على الجانب الغربي لجبال الألب، وأرض سافوي التاريخية مقتسمة اليوم بين الجمهوريتين الفرنسية والإيطالية الحديثتين. (المترجم)

الفاتيكان، وتُظهر، بما لا يدع مجالاً للجدل، سلة من زنابق حمراء ذات بتلات عريضة. ويتضح، على أية حال، من خلال طريقة تنسيق الزهور أنها تنتمي بصورة واضحة للغاية إلى أسلوب القرن الثامن عشر، حتى ليبدو أن قطعة الفسيفساء قد تعرضت لترميم كبير بعد نقلها من فيلا في ضواحي روما في القرن الثامن عشر.

وربما كان أول أوروبي يتذوق جمال الزنبق أوجير جيسلين بوسبك الذي كان ابناً غير شرعي للورد فلمنكي ظل على مدى عدة سنوات الهولندي الأكثر نفوذاً في البلاط النمساوي. ففي شهر تشرين الثاني من عام 1554 سافر بوسبك إلى إسطنبول سفيراً للإمبراطور الروماني المقدس، وأمضى في الإمبراطورية العثمانية قرابة ثمانية أعوام لم يغادرها إلى بلاده إلاّ لماماً. وعندما عاد بصورة نهائية نشر في عام 1581 كتاب ذكرياته هناك، على شكل رسائل تصف تجارته وسط الأتراك.

كانت الرسائل تزخر بتفاصيل حميمة مستفيضة، وقد مكنّته من أن يصنع لنفسه اسماً معروفاً، سواء أكان ذلك في زمانه أم في أوساط المؤرخين الذين ما يزالون يعتمدون على

بوسبك لإضفاء نكهة على قصص الحياة اليومية عن الحكم العثماني في أوجه. كما يصف بوسبك في رسائله أول مرة واجه فيها أزهار الزنبق.

كان بوسبك مسافراً عن طريق البر من فيينا إلى إسطنبول، وكان قد غادر للتو مدينة أدريانوبل ذات الحضارة الثراسية[1] عندما رأى لأول مرة زهور الزنبق نامية في البراري. يقول في إحدى رسائله :

«انطلقنا في المرحلة الأخيرة من رحلتنا إلى القسطنطينية التي أصبحت الآن قريبة للغاية. وبينما نعبر المقاطعات كنا نرى في كل مكان كميات من زهور النرجس والحدقية والزنبق، والزنبقان كما يسميها الأتراك. وكم كان مدهشاً لنا أن نراها مزهرة في منتصف فصل الشتاء الذي نادراً ما يكون فصلاً ملائماً للنمو. في اليونان تنمو زهور كثيرة كالنرجس والحدقيات ذات الرائحة الرائعة، حتى إن وجود كميات كبيرة منها تسبب صداعاً لأولئك الذين لم يتعودوا شم تلك الرائحة من قبل. أما الزنبق فله رائحة خفيفة، بل إنه بلا رائحة. والأتراك مولعون بالزهور، ومع أنهم قد

(1) الحضارة الثراسية (Thracian)

يوصفون بأي شيء غير التبذير، فإنهم لا يترددون في دفع عدة أسبرات[1] لقاء زنبقة بديعة».

والحقيقة أن بوسبك قد عبر عن تذمر في رسالة له يذكر فيها أنه حينما وصل إلى العاصمة تلقى هدية من مُضيفيه هي باقة من زهور الزنبق البديعة. يقول «على الرغم من أن هذه الزهور قُدمت لي كهدية، فإنها كلفتني الكثير، ذلك أنني اضطررت لدفع «أسبرات» عديدة لأقدم هدايا بنفس القيمة». رحالة آخر يدعى جورج سانديز ، أحد أبناء رئيس أساقفة يورك، وجد أن الأتراك تواقون بنفس الدرجة لفرض أزهارهم الثمينة، في ذلك الوقت من السنة تقريباً، على الغرباء، على الرغم من كونه أقل افتتاناً بالهدايا من بوسبك. يقول ذلك الإنجليزي بتذمر «إنك لا تستطيع أن تتحرك بنشاط خارج المنزل، لكنك سوف تتلقى هدايا من الزنبق وحلوى الترّفيل[2] من الشيوخ والجنود الانكشاريين».

وظل الاعتقاد سائداً لسنوات عديدة أن الوصف الذي قدمه بوسبك كان وصفاً معاصراً وأنه يتعلق برحلته الأولى

(1) الأسبر (asper) عملة تركية قديمة تساوي 1 : 12 من القرش.

(2) حلوى الترّفيل (trifle) كعكة تشتمل على مربى وفاكهة وكريمة مخفوقة (المترجم).

إلى إسطنبول التي قام بها في شتاء عام 1554. إلاّ أنه تبين في الآونة الأخيرة أن الرسائل التي تشكّل كتابه كافة، قد كتبت بعد فترة طويلة من تلك الزيارة، وربما لم تكتب قبل ثمانينيات القرن السادس عشر عندما أصبح الزنبق معروفاً إلى حد معقول في أوروبا. واتضح أن الرحلة التي وصفها لم تكن رحلته التي قام بها في منتصف فصل الشتاء. فالزنابق لا تنمو في ذلك الوقت من السنة حتى في أراضي الإمبراطورية العثمانية. ولابد أن ذاكرة بوسبك قد خانته والتبست عليه تفاصيل رحلة ثانية إلى إسطنبول قام بها في شهر آذار من عام 1558 في وقت كان الزنبق مزهراً.

يتضح من هذه المراجعة أنه حتى لو كانت رواية السفير دقيقة في تفاصيلها الأخرى، فإن عزو فضل إدخال الزنبق إلى أوروبا لبوسبك أمر مستحيل تقريباً، إذ إن زهرة الزنبق كانت قطعاً تنمو في حديقة ألمانية واحدة على أقل تقدير في شهر نيسان من عام 1559.

ولكي يُعزى فضل كهذا إلى بوسبك، لابد أن يكون قد بعث بأبصال زنبق في غضون أشهر قليلة من وصولها لتُزرع هناك على الفور في فصل الخريف ذاته. هذا أمر ممكن لكنه

ليس محتملاً بصورة خاصة. صحيح أن بوسبك قد أرسل أبصالاً وبذور زنبق ثمينة من إسطنبول إلى أوروبا، بيد أنه ليس من المؤكد أنه فعل ذلك قبل عام 1573، وبذا سيكون أمراً خطيراً أن يُعزى وصول زنبقة واحدة محدودة إلى أوروبا لجهود بوسبك.

وإنه لمن سوء الحظ أن يحدث ارتباك مماثل حول الدور الذي ربما كان بوسبك قد لعبه في منح الزهرة اسمها المعروف. ومعروف، بالطبع، أن الأتراك يسمون الزنبق (لالي)، فيما يُعتقد بشكل عام أنهم أطلقوا عليها كلمة (tulipan) للشبه بين بتلاتها والعمامة المثناة التي يسميها الأتراك دولبند (dulbend) وتسميها شعوب هولندا تولباند (tulband).

ومن شأن مقارنة من هذا القبيل أن تقدم تفسيراً معقولاً لكيفية دخول كلمة تيوليب (tulip) إلى اللغة الإنجليزية، لكنها لا يمكن أن تكون نتيجة لرحلات بوسبك. تعود كلمة (tulip) في تاريخها إلى زمن متأخر هو عام 1578 عندما ظهرت في ترجمة لكتاب في علم النبات نُشر أصلاً باللغة اللاتينية. وبناء على ذلك، فقد كانت الكلمة موجودة بالتأكيد قبل أن ينشر السفير رسائله. وعلى أية حال، استغرقت كلمة (tulip) زمناً

ليتقبلها الناس بشكل عام. ففي أواخر القرن السادس عشر كان علماء النبات الأوروبيون يشيرون، في أغلب الأحيان، لزهرة الزنبق باسم (lilionarcissus) تأكيداً لصلتها بالنباتات البصلية الأوسع شهرة.

إذاً، فقد أزهرت أول زنبقة معروفة تماماً في أوروبا عام 1559، وكان ذلك بالتأكيد في حديقة جوهان هاينرتش هيروارت الذي عمل مستشاراً في مدينة أوجسبيرج في مقاطعة بافاريا الألمانية. كانت هذه المدينة جزءاً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي تشكلت من خليط لافت من المدن والولايات الألمانية التي ظلت قائمة من «عصور الظلام» حتى انحلالها على يد نابليون. ومن المهم أن نتذكر منها فقط ما قاله عنها فولتير بعبارته الشهيرة «لم تكن مقدسة، ولا رومانية، ولا إمبراطورية». ويبدو أن حديقة هيروارت كانت واحدة من مظاهرها الجمالية الرئيسة، وكانت بالتأكيد معروفة جيدا بما يكفي لجذب الزائرين من أماكن نائية إلى حد ما.

أحد الذين جاؤوا وشاهدوا الزهرة الجديدة التي زرعها هيروارت عالم طبيعة يدعى كونراد جيسنر الذي كان يعيش في مدينة زيوريخ. وكشأن الكثير من علماء ذلك الزمان، كان جيسنر موسوعي الثقافة، إذ درس علم الحيوان وعلم النبات، كما كان طبيباً. ومن أبرز الحالات التي كرس جهداً لدراستها ظهور وباء غامض شوهدت فيه أفاعٍ وسمندلات تزحف خارجة من معد أشخاص حديثي الوفاة. وفي أواخر الخمسينيات من القرن السادس عشر عُني بتصنيف الأعمال المهمة المتصلة بالتاريخ الطبيعي؛ ذلك المجال الذي ما يزال الناس يعترفون له فيه بالدور الأبرز، بما في ذلك كتابه الشامل في علم النبات الموسوم بأصناف النباتات. وبإيجاز شديد، فقد كان جيسنر قادراً بصورة جيدة على فهم أهمية هذه السلعة المستوردة المثيرة للإعجاب، والتي شاهدها في مساكب الأزهار التي كان يملكها هيروارت.

كتب جيسنر يقول «في شهر نيسان من عام 1559 رأيت هذه النبتة معروضة، وقد انبثقت من بذرة جاءت من بيزنطة[1] أو كما يقول آخرون جاءت من مقاطعة كابادوشيا[2]. كانت

(1) بينزنطة هي الإمبراطورية العثمانية. (المؤلف)

(2) كابادوشيا، مقاطعة في الأناضول الأوسط، وما تزال حتى اليوم موطناً

زهرة ذات لون أحمر بديع واحد، وكانت كبيرة مثل سوسنة حمراء وذات بتلات ثمان، أربع منها خارج الزهرة وأربع في داخلها. رائحتها جميلة جداً وناعمة وخفيفة سرعان ما تختفي». ومايزال الرسم التخطيطي الذي وضعه جيسنر لزهرته القرمزية ذات الجذع القصير موجوداً حتى اليوم. والرسم زاخر بملاحظات وخربشات وأسئلة في الهوامش، تمثل شاهداً صامتاً على عقليته الاستقصائية. ويظهر الرسم التخطيطي زهرة مستديرة بصورة مريحة، ولها بتلات ملفوفة بإحكام، وملتفة بصورة دقيقة للخارج عند الحواف. (لزهرة الزنبق ست بتلات فحسب كما وردت في اللوحة المائية، وهو العدد الطبيعي لبتلات زهرة الزنبق، لا ثماني كما ذكر جيسنر في وصفه الكتابي، ما ترك السؤال المثير مفتوحاً عما إذا كانت هذه الزنبقة الأصلية «برعماً نافراً» أو طفرة). وقد سماها جيسنر «الزنبقة التركية»، اعترافاً منه أن مصدرها الأصلي هو الإمبراطورية العثمانية.

على أنه في الوقت الذي أكمل العالم السويسري رسم الزهرة في ربيع عام 1559 كانت زهرة الزنبق قد أكدت

للأراضي المزدهرة بالزنبق البري. (المؤلف)

حضورها في كل مكان من أوروبا. لقد شاهد جيسنر نفسه رسماً تخطيطياً لصنف آخر من الزنبق، ذي لون أصفر هذه المرة، ولعله كان ينمو في شمال إيطاليا. تلقى جيسنر هذا الرسم من مراسله جوهان كنتمان، وهوفنان عاش في مدن بادوا والبندقية وبولونيا في الفترة ما بين عامي 1549 و1551. ومن هذه الأماكن، وربما من أماكن أخرى، انتشرت زهرة الزنبق بشكل سريع من بلد إلى آخر، إذ إن جدتها، ورقّتها وبهاءها جعلت منها موضع ترحيب في كل مكان، فيما ساعدت سهولة حمل أبصالها في توزيعها على نطاق واسع.

لقد جاء الوقت المناسب لزهرة الزنبق. ذلك أنه مع اكتشاف مناجم الفضة في الأمريكتين وتيسر طرق التجارة لجزر الهند، ازداد المال في أوروبا أكثر من أي وقت مضى، وشرع الأثرياء يبحثون عن سبل جديدة مثيرة لإنفاق أموالهم، ومن جديد أيقظت «النهضة» الاهتمام بالعلم، فيما جاءت الطباعة لتجعل كلاً من الاكتشافات الجديدة والذخائر الزاخرة بالمعرفة القديمة متاحة على نطاق واسع.

وكان من نتائج هذه التطورات أن ازدهر علم النبات

والبستنة إلى حد كبير في أوساط النخبة، وشرع العديد من المواطنين الأوروبيين الأكثر نفوذا وثروة في زراعة حدائقهم الخاصة، وأرادوا أن يملأوها بنباتات نادرة ومرغوبة. وحتى في مدينة أوجسبيرج تم التفوق بسهولة على مجموعة أزهار المستشار هيروارت من قبل حدائق عائلة فوجرز البافارية ذات الثراء الخرافي، والتي كانت تعمل في مصارف كانت في القرن الخامس عشر تضاهي ما بلغته عائلات روتشيلد وروكفلر في القرن العشرين. وقد ربى آل فوجرز الزنبق في أوجسبيرج مع بدايات العقد السابع من القرن السادس عشر.

وما إن حل عام 1572 حتى وصل الزنبق إلى فيينا، ووصل إلى فرانكفورت في عام 1593، وجنوب فرنسا في عام 1598 (وربما قبل ذلك بكثير). وكانت أبصال قد أُرسلت إلى إنجلترا مبكراً في عام 1582، حيث تمت زراعتها بكميات كبيرة. وقبل نهاية القرن السادس عشر بدأت تبرز أصناف لا تقع تحت حصر من الزنبق المهجن الجديد. لقد أمضى جيمس جاريت، أحد أشهر علماء النبات في إنجلترا، عقدين من الزمان في إنتاج أنواع جديدة من الزنبق كانت

من الكثرة بحيث اعترف جون جيرارد، صديق جاريت، أن عملية وصف تفاصيل تلك الأصناف «أشبه بمن يدفع للأعلى صخرة سيزيف، أو بمن يحصي الرمال». كان جيرارد هو القيّم على الحديقة الطبية التابعة لكلية لندن للأطباء، وقد ذكر تلك الأصناف في كتاب للأعشاب الطبية نشر في عام 1597.

كان جاريت مهاجراً فلمنكياً، عمل صيدلانياً وأنشأ حديقة له في منطقة «لندن وول». ويقول جيرارد أن جاريت ربى أنواعاً من الزنبق الأصفر والأبيض والأحمر والبنفسجي لم تكن قيمتها تكمن كثيراً في جمالها بقدر ما كانت تتمثل في خصائصها الطبية المفترضة. ويوضح عالم النبات الإنجليزي، جون باركنسون، في بحثٍ عن الزنبق نال احتراماً شديداً وظهر بعد ثلاثة عقود لاحقة، أن الزنبق كان يُهرس في النبيذ الأحمر ويُحتسى كعلاج «لتشنج الرقبة». كانت تلك الأصناف من الزنبق هي المخزن الذي استخرجت منه أنواع كثيرة أخرى. وفي فترة حكم الملك تشارلز الأول (1625 -1649) زُرع في الحدائق الملكية ما يربو على خمسين صنفاً من الزنبق، أثْرتها زنابق تم استيرادها من الشرق.

وربما شعر جيرارد أنه لم يكن قادراً على بذل الجهد اللازم لتصنيف جميع هذه الأنواع، لكن كان لا بد من شخص ما يقوم بالمهمة.

لقد اشتملت الأصناف الوفيرة على زنابق اختلفت إحداها عن الأخرى في اللون والطول، وهيئة البتلة، ووقت النمو، مبكراً كان أم متأخراً. أما أكثر ما احتاجته تلك الأنواع فقد كان وجود شخص يصنّفها ويخلق نظاماً من هذه الفوضى العارمة. ودون نظام تصنيف سليم يمكن لزهرة الزنبق برمتها أن تغوص في وحل نباتي لن تخرج منه قط. وما كان يمكن لتجارة الزنبق أن تتطور من دون نظام للتقييم، بل، وأكثر من ذلك، نظام يبين أي الزنابق أكثر ندرة ومرغوبية من غيرها، وأيها عادية بلا قيمة.

ومن حسن الطالع أن شخصاً كهذا قد وُجد، وكان بلا جدال أعظم عالم نبات في القرن السادس عشر، بل واحد من أعظم العلماء على مر الزمان. كان هذا الرجل هو كارولوس كلوسيوس، الذي سيصبح أب الزنبق في كثير من جوانبه.

الفصل الخامس

كلوسيوس

في يوم خريفي من عام 1562 دخلت ميناء أنتويرب[1] سفينة تحمل شحنة من القماش من مدينة إسطنبول. وفي مكان ما وسط أكياس من الأقمشة الشرقية المتنوعة المشحونة لواحد من كبار التجار في المدينة كانت تقبع أبصال من الزنبق، لعلها كانت تشاهد لأول مرة في هذا الجزء من أوروبا الشمالية.

ذهل التاجر الفلمنكي صاحب القماش حينما عثر في شحنته على رزمة من أبصال الزنبق، فربما وضعها بين الأقمشة على سبيل الهدية والعرفان تاجر عثماني تمكن من تحقيق ربح كبير من تلك الشحنة. وعلى أية حال، لم يتوقع التاجر وجود تلك الأبصال، كما لم يكن راغباً فيها. وإذ لم يعرف ماهيتها، اعتقد التاجر أن الأبصال نوع من بصل الطعام التركي، فقام بشيّ معظمها والتهمها على العشاء متبّلة بالزيت والخل، وزرع ما تبقى منها قرب نبات الملفوف في قطعة أرض صغيرة له يربي فيها بعض الخضار.

(1) أنتويرب: ميناء بلجيكي. (المترجم).

وهكذا أطلت برؤوسها في ربيع عام 1563 زهور غريبة قليلة من فوق الروث وفتات الصخور في حديقة صغيرة في مدينة أنتويرب، ما أثار شيئاً من استياء صاحب الحديقة نفسه الذي كان يتوق الى وجبة أخرى أو وجبتين من هذا البصل التركي.

كانت بتلات الزهور حمراء وصفراء، وقد انتصبت برقّتها وأناقتها وسط الأوراق الداكنة للخضار ذات الجذور التي كانت تحف بها من كل جانب. وربما كانت تلك الأبصال المتبقية من عشاء تاجر القماش أولى الزنابق التي تزهر في هولندا. واعتقد التاجر الفلمنكي نفسه أن آخر دفعة من محصول الملفوف في أرضه كانت شيئاً مختلفاً عما سبق. وإذ لم يشاهد التاجر زهوراً كهذه من قبل، فقد ازداد فضوله حتى إنه بعد يوم أو يومين اصطحب زائراً له إلى حديقته مستفسراً عن تلك الأزهار.

كان ذلك الزائر يدعى جوريس راي، وهو تاجر من بلدة ميشلين المجاورة معروف لدى تاجر القماش بولعه الشديد بالبستنة. وكان راي موقناً تقريباً أنه كذلك لا يعرف تلك الأزهار. في ذلك الزمان لم يكن الزنبق معروفاً بأي حال في

أوروبا الشمالية، كما لم يكن كتاب جيسنر الذين يتضمن وصفاً للزنبق قد نُشر بعد. ومع ذلك، كان راي واحداً من القلائل الذين أدركوا أهمية المحافظة على تلك الأزهار الحمراء والصفراء التي شاهدها في ذلك اليوم. لقد كان عالم نبات متحمساً ملأ حديقته في مدينة ميشلين بسلالات نادرة من النباتات، وكان يقوم بمراسلات واسعة النطاق مع كثير من أبرز البساتنة المعروفين في ذلك الزمان. وهكذا، عندما حصل راي على إذن من صديقه نقل عدداً من أبصال الزنبق الحية من بقعة الملفوف إلى ميشلين. على أن راي قام بما يزيد على زراعتها والاعتناء بها، إذ كتب يخبر أصدقاءه في الحقل العلمي بما عثر عليه، وسألهم العون والنصح.

كان كارولوس كلوسيوس واحداً من أشد أصدقاء راي ومراسليه حماسة. وكان عالم نبات متمكناً بصورة استثنائية في أواخر الثلاثينيات من عمره، فيما قضى سنوات عديدة من عمره يجوب أوروبا بحثاً عن نباتات نادرة وقيمة. ولو أن راي أراد أن يبلغ شخصاً ما عن هذا الاكتشاف الجديد، فربما كان كلوسيوس، ولعله كان في عام 1563، عندما سمع بالزنبق لأول مرة.

لم يكن كلوسيوس اسماً حقيقياً للرجل، فقد كان اسمه الحقيقي تشارلز دي لسكلوز، وكان قد ولد في مدينة آراس الفرنسية في شهر شباط من عام 1526. كانت أمه ابنة صائغ للذهب، أما أبوه فقد كان عضواً وضيعاً للغاية في طبقة النبلاء، إذ كانت رتبته في النبالة في مدينة واتين متدنية إلى درجة اضطرته إلى أن يتولى عملاً إدارياً في أحد الأديرة في سانت فاست، ليعيل أسرته.

وقد تبين فيما بعد أن هذه الحال كانت مصدر حظ سعيد للشاب تشارلز، إذ إنه فيما كان كثير من أبناء الطبقة العليا في ذلك الزمان يقضون معظم أوقاتهم في تعلّم أساليب الصيد وفنون القتال أكثر من تعلمهم في الصفوف المدرسية، كان على تشارلز أن يتعلم في مدرسة الدير حيث تلقى تعليماً شاملاً.

لقد أثبت تشارلز أنه كان طالباً متمكناً، إذ انتقل من مدرسة الدير في سانت فاست إلى مدرسة لاتينية ذات سمعة عالية في مدينة جينت، ومنها إلى لوفان حيث الجامعة الوحيدة في هولندا. تعلم تشارلز اللغة الفلمنكية واليونانية واللاتينية واستجاب لأمنيات أبيه فدرس القانون وحصل على الدرجة

العلمية في عام 1548. على أن تشارلز تعلم في لوفان ما هو أكثر من القضايا القانونية. ومن شبه المؤكد أنه قد تعرف هناك لأول مرة على بدعة العقيدة البروتستانتية التي بشر بها مارتن لوثر وأتباعه في أصقاع أوروبا الشمالية. وعلى الرغم من نشأته في دير، وربما بسبب ذلك، وجد الشاب أن لوثر يبشر بأفكار مقنعة، فأقلع عن العقيدة الكاثوليكية. وكان ذلك يعني أن تشارلز لم يعد يشعر بالأمان في لوفان، فيما غدا ذلك الوضع بمثابة الانعطافة الثانية في حياة تشارلز.

وإذا كان من السهل اليوم التقليل من أهمية التحول العقائدي الذي أقدم عليه تشارلز، فإنه من المهم أن نتذكر أن الدين عند منتصف القرن السادس عشر ظل بصورة ثابتة في مركز الحياة العامة والخاصة. لقد لعب الدين دوراً في حياة كل شخص، حتى في حياة أناس مثل تشارلز الذين لم يكونوا متدينين بشدة. لم تكن إدارة الظهر لروما مغامرة تجلب فقط غضب الكنيسة التي كانت تعلّم الناس أن الخارجين على العقيدة الكاثوليكية لا يمكنهم أن يتوقعوا شيئاً غير اللعنة، بل تثير أيضاً غضب الملوك الذين، بدعم من محاكم التفتيش، غالباً ما بذلوا قصارى جهودهم للتأكد من أن البروتستانت

قد ولجوا الحياة الأبدية بأسرع مما يتوقعون. كانت لوفان واحدة من إقطاعيات الإمبراطور الروماني المقدس تشارلز الخامس الذي اتسعت ممتلكاته، ممتدة من ألمانيا إلى إسبانيا. وإذ كان رجلاً ورعاً جداً، فقد أنهى حكمه بأن أصبح راهباً كاثوليكياً.

كان التحول العقائدي يعني أن تشارلز قد أصبح في خطر حقيقي شديد. ففي فترة من فترات الاضطهاد أُعدم عمه حرقاً بالشدّ إلى الخازوق لاعتناقه ذات العقيدة التي يعلن تشارلز إيمانه بها، ولذا قرر أنه سيكون في وضع أفضل إذا ما ارتحل إلى الأراضي البروتستانتية.

وإذ لم تتوافر لتشارلز الجرأة على إبلاغ والده ذي الإيمان العميق بالمذهب الكاثوليكي، عن وجهته، يمم وجهه شطر مدينة ماربورغ، حيث الأمير الألماني الصغير «فيليب الشهم»، كونت منطقة هِسْ الذي كان قد أنشا جامعة خصيصاً لتعليم النخبة اللوثرية الفتية. والتحق تشارلز بهذه الجامعة ليتعلم القانون، لكنه اكتشف وهو في مدينة ماربورغ رغبة متزايدة لديه في دراسة علم النبات، فطفق يقوم بجولات طويلة يجوب فيها مناطق الريف المحلي سيراً على قدميه، باحثاً عن

نباتات نادرة غير عادية.

في ذلك الزمان، لم يكن علم النبات يُعدّ موضوعاً مستقلاً جديراً بالدراسة بحد ذاته، بل كان ينظر إليه كفرع من فروع الطب يساعد فقط على تحديد النباتات والأعشاب الطبية. ولكي يتابع اهتماماته بعلم النبات كان على تشارلز أن يتوقف عن دراسة القانون ليصبح طالباً في كلية الطب، التي التحق بها في صيف عام 1549، وهي الفترة ذاتها التي شهدت اتخاذه اسماً لاتينياً هو كارولوس كلوسيوس.

كان قرار تشارلز بتغيير اسمه ليصبح كلوسيوس أمراً يشير حقاً إلى أن اعتناقه لمذهب لوثر كان متصلاً بنفور مكتسب من المذهب الكاثوليكي أكثر من كونه أي نوع من الإيمان العميق بالأفكار الجديدة. كانت الأسماء اللاتينية في ذلك الزمان دارجة في أوساط المؤمنين بالفلسفة الإنسانية، أولئك الذين رفضوا السلطة الدينية القديمة الضيقة، لصالح إعادة اكتشاف المُثُل العلمانية التي اتّسم بها العصر الكلاسيكي. كان ولع كلوسيوس بعلم النبات، ورغبته في الانتقال من الأراضي الكاثوليكية إلى الأراضي البروتستانتية، وعودته ثانية لمتابعة اهتمامه بالنباتات التي عشق، كل ذلك دلّل على

ما يميزه كصاحب فلسفة إنسانية أولاً وأخيراً.

أمضى كلوسيوس ما تبقى من حياته في سفر متصل تقريباً، إذ درس في مونتبيلينه ، وأنتويرب وباريس، وقضى شهوراً يتنقل بين بروفنس[1] وإسبانيا والبرتغال بحثاً عن نباتات جديدة، وذهب إلى إنجلترا حيث التقى السير فرانسيس دريك[2].

وفي الوقت ذاته بدأ كلوسيوس يحظى بسمعة عالِم يؤلف كتباً في الطب والصيدلة، وليشرع فيما أصبح بعد ذلك، مراسلات مذهلة ودائمة مع زملاء له في علم النبات في جميع أنحاء أوروبا. وتشير التقديرات إلى أن كلوسيوس قد كتب أكثر من أربعة آلاف رسالة في حياته، وهو عدد مدهش في عصر لم تكن فيه خدمات البريد بطيئة وغير موثوقة فحسب، وإنما كانت باهظة التكاليف بما يكفي لأن تستهلك حصة كبيرة من دخلٍ ضئيل لعالِم نبات. وهكذا، حينما أينعت زهرة مجهولة في حديقة صغيرة في مدينة أنتويرب كان

(1) بروفنس: منطقة في جنوب شرقي فرنسا تطل على البحر المتوسط، وتشتهر اليوم بمواقعها التاريخية والسياسية (المترجم).

(2) فرانسيس دريك: (1540–1596) أمير بحر إنجليزي من أشهر البحارة في عصر الملكة إليزابيت (المترجم).

الخيار الطبيعي لجوريس راي أن يبعث برسالة إلى صديقه كلوسيوس.

وعندما أزهر المحصول الأول من زنبق راي في عام 1564 كان كلوسيوس في زيارة لإسبانيا، في واحدة من رحلاته الميدانية النباتية الطويلة. لكنه عاد بعد اثني عشر شهراً إلى هولندا، ولربما رأى كلوسيوس زهرة الزنبق في تلك السنة لأول مرة في حياته. لكن لا يقين في هذا الأمر، إذ إن كلوسيوس لم يأت على ذكر الزنبق في أي من كتاباته قبل عام 1570. بيد أنه من الصعب الاعتقاد بأن كلوسيوس شاهد زهرة الزنبق بعد عام 1568، حينما انتقل فعلياً إلى مدينة ميشلين، حيث يقيم راي، كي يعيش مع صديقته جين دي برانسيون. وسرعان ما أدرك كلوسيوس أهمية الاكتشاف الذي توصل إليه راي، واعترف أن هذه الأزهار البديعة الجديدة «تمتّع عيوننا بتنوعها الأخاذ». لكنه ظل رجل علم في المقام الأول والأخير. ولما سمع كلوسيوس من راي أن المالك الأصلي لأبصال الزنبق هذه كان قد التهمها بتلذذ واستمتاع، عقد العزم على أن يتحقق من إمكاناتها كمادة غذائية. كان لدى كلوسيوس صديق صيدلاني من فرانكفورت يدعى مولر، وقد دأب هذا

على حفظ الأبصال في السكر ليأكلها كمُربى، وكانت هذه الأبصال، من وجهة نظره المحترمة، أطيب مذاقاً من نبات السحلبية.

وحتى في أوروبا، التي كانت ممزقة آنذاك بالحروب والمجاعات المتكررة، لم تكن قط أبصال الزنبق معروفة على نطاق شعبي واسع كطعام شهي (مع أن هذه الأبصال كانت تُستهلك من قبل الهولنديين خلال «شتاء الجوع» الذي عانوا منه عند نهاية الحرب العالمية الثانية). كان الدور الرئيس الذي لعبه كلوسيوس في تاريخ زهرة الزنبق لا صلة له بالتجارب التي أجراها مع صديقه مولر، بل كان متعلقاً بالعادة التي دأب على ممارستها، والمتمثلة في إرسال عينات من النباتات التي يعثر عليها إلى أصدقائه الذين يراسلهم في كافة أرجاء القارة الأوروبية.

وعلى الرغم من بطء خدمات البريد الأوروبية في ذلك الزمان، لم يكن يلحق أذى بأبصال الزنبق. وإلى كلوسيوس ودائرة أصدقائه يعزى فضل كبير للمكانة اللائقة التي حظيت بها زهرة الزنبق بدءاً من مدينة جينا[1] إلى فيينا ، وهنغاريا،

(1) جينا (Jena)، مدينة تقع في جنوب شرقي ألمانيا. (المترجم)

ومدينة هس.

في تلك الآونة كان عالم النبات كلوسيوس في ذروة قواه، إذ تبيّن صورة شخصية معاصرة لزمانه وجهاً متطاولاً لرجل محترم ذي ذكاء واضح ونظرة ثاقبة واثقة. يبدو رجلاً وسيماً ومتميزاً، يمشط شعره من جبهته إلى الخلف، وله شاربان كثان ولحية قصيرة محددة بإتقان يظهر تحتها طوق مستدير كامل كان دارجاً في ذلك الزمان. ظل كلوسيوس عازباً لم يتزوج قط، وكانت اتصالاته بعائلته قليلة للغاية على مدى سنوات طويلة متعاقبة، لكنه كان يحتفظ بعدد كبير من الأصدقاء. كان شخصية جادة، وإذ كان غالباً ما يعاني من اعتلال في صحته، فقد كان ميالاً للانقباض. بيد أن شيئاً مثيراً للإعجاب في شخصيته يتمثل في احتفاظه بصداقات امتدت مدى الحياة مع عشرات من الرجال والنساء من ذوي الخلفيات المختلفة. ولا بد أن يكون إتقانه لعدد من اللغات معيناً له في ذلك، فقط كان يتحدث بما لا يقل عن تسع لغات منها: الفرنسية والفلمنكية والإيطالية والإنجليزية والإسبانية والألمانية واللاتينية. على أنه ما من شك في أن ولعه بالنباتات ومعرفته الاستثنائية في علم النبات هما اللذان

جعلا كثيراً من الناس في بلاد عديدة مختلفة يتوقون لتلقي رسالته القادمة، ويتوقعون فيها العجائب التي تحملها رزمه المرسلة إليهم بوساطة البريد. ومن بين الأشخاص الذين كان يراسلهم سيدة تدعى ماري دي بريميو، التي كانت تلقب بالضبط ب «أميرة شيماي»[1]، وكانت تعيش في لاهاي. بدت ماري كما لو كانت تكنّ شيئاً قريباً من مشاعر الأمومة لهذا العازب الكهل، وكانت ترسل له الكثير من الهدايا ورزم الطعام، ولعلها هي التي أغدقت عليه الإطراء الأغلى في حياته حينما كتبت تقول «إنه أب لكل حديقة جميلة في هذه الأرض».

لم يكن كلوسيوس عالم النبات الوحيد الذي كان ينشر الأبصال والبذور بهذه الطريقة في أنحاء القارة قاطبة، إذ إن بعض الزنابق التي زرعها لنفسه في ميشلين قد وردته أصلاً من صديقه توماس ريهديجر من بادوا، لكنه ربما كان الأكثر نشاطاً من بين علماء النبات الآخرين لأسباب ليس أقلها رحلاته المتكررة والطويلة في الخارج والتي تدلل على أنه نادراً ما احتفظ بحديقة خاصة به. وعوضاً عن ذلك كان

(1) شيماي (Chimay)، بلدة صغيرة في بلجيكا تشتهر اليوم بصناعة الجعة. (المترجم)

يجد متعته في ملء حدائق أصدقائه بزهور الزنبق، ليزودوه بدورهم بعدد من مساكب البذور التجريبية التي تمكنه من دراسة خصائص النباتات التي كان قد اكتشفها.

استفاد كلوسيوس بشكل تام من حدائق أصدقائه في إجراء عدد من دراساته الرائدة في علم النبات، التي كرس لها الجزء الأخير من حياته. واشتملت الكتب التي ألفها على دراسات مفصلة للمملكة النباتية في كل من إسبانيا والنمسا وبروفنس، وكان أول المؤلفات التي افترضت أن النباتات تتجاوز بساطة الاعتقاد بأنها مكونات ممكنة للمستحضرات الطبية التي كانت موضع شك في ذلك الزمان، ولتؤكد أن النباتات جديرة بالدراسة لذاتها. ولهذا السبب عد كلاسيوس على الدوام أنه واحد من آباء علم النبات، وليس أقل تلك الأسباب أنه طوّر نظاماً لتصنيف النباتات في مجموعات وفق خصائصها. وسوف يتبنى النظام ذاته فيما بعد كارل لينايوس، ليغدو واحداً من أركان العلم الحديث.

في شهر آيار من عام 1573، وبينما كان كلوسيوس يعيش في ميشلين منهمكاً في توزيع أبصال الزنبق ونباتات أخرى في جميع أنحاء أوروبا، استدعاه الإمبراطور الروماني المقدس

ماكسيميليان الثاني إلى فيينا وطلب إليه إنشاء حديقة في المدينة. كان ذلك عرضاً مغرياً، إذ كان والد كلوسيوس، الذي تولى الابن رعايته، قد توفي لتوه عن واحد وثمانين عاماً، ما أعفى الابن من عبء العناية بالأب. وكان من شأن الراتب المقترح، والبالغ خمسمائة جيلدر رايني في العام، أن يوفر لكلوسيوس حياة مريحة في نهاية المطاف بعد أن ظل لسنوات يعتمد في حرج على عطايا أصدقائه. كان ماكسيميليان راغباً في إنشاء حدائق تفوق في بهائها حدائق أمرائه ونبلائه. وكان فقر كلوسيوس وضعف حجته في طلب الانضمام إلى طبقة النبلاء قد خلف في نفسه نوعاً من عقدة الشعور بالدونية، فشعر بكياسة الإمبراطور تجاهه واهتمامه به، وبالعرفان أن الإمبراطور قد منحه اعترافاً رسمياً بمكانته كواحد من النبلاء. علاوة على ذلك، كان كلوسيوس يُلم ببعض المعلومات عن نصيره المأمول، إذ كان واحداً من الأباطرة القلائل الذين يبدون تعاطفاً مع المذهب البروتستانتي، كما أن صديقه ومراسله المنتظم يوهان كراتو فون كرافتهايم، كان الطبيب الشخصي للامبراطور ماكسيميليان. كانت التقارير التي تلقاها كلوسيوس مشجعة، ومن المؤكد أن المهمة بدت

مثيرة، فقبل العرض الإمبراطوري.

واليوم تبدو فيينا مدينة أوروبية مركزية مشهورة بثقافتها، فيما كانت في زمن كلوسيوس مدينة حدودية إلى حد بعيد. وعلى الرغم من أنها كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وموطن البلاط الإمبراطوري، إلا أنها لم تكن تبعد عن الحدود العثمانية سوى خمسين ميلاً فقط، وكانت تعرف، ليس فقط في الإمبراطورية، بـ «الخط الأمامي للعالم المسيحي». وفي عهد السلطان سليمان ضرب الأتراك على فيينا حصاراً قوامه ربع مليون رجل. كان ذلك في عام 1529، وسوف يعودون مرة أخرى في عام 1683. وبالنظر إلى بهاء مقر الإقامة الإمبراطورية في قصر شون برون، وجمال المدى الشاسع لنهر الدانوب، وصخب الشوارع الضيقة المزدحمة في وسط المدينة، فقد كانت حالة البوابات والأسوار أهم من إضافة عدد قليل من مساكب الزنبق. فقد كان إنشاء الحدائق ضرباً من الترف.

ومنذ اللحظة التي وصل فيها كلوسيوس اكتشف أنه فيما توجد مزايا للعمل مع إمبراطور فإن عمله يترافق مع كثير من الإحباطات. كان ماكسيميليان مشغولاً، وكان يتعين

على كلوسيوس أن ينتظر شهرين ليقابل الإمبراطور، وأكثر من عام ليوقع على بدء النشاط في المكان الذي وقع عليه الاختيار لإنشاء الحديقة. والأسوأ من ذلك أنه تبين فيما بعد أن أمين الخزانة الإمبراطوري المسؤول عن كل من الأموال الخاصة بالحدائق والترتيبات المتعلقة برواتب كلوسيوس كان كاثوليكياً متعصباً، فجعل حياة عالم النبات البروتستانتي صعبة بقدر ما استطاع.

من جانب آخر شرع كلوسيوس في استقبال رزم منتظمة من أبصال الزنبق وبذور نباتات كثيرة من السفير الإمبراطوري في إسطنبول، وأقام صداقة نباتية مع أوجير جيسلين دي بوسبك الذي كان قد عاد إلى البلاط الإمبراطوري. تبادل الرجلان هدايا من النباتات، وعندما غادر بوسبك إلى فرنسا في عام 1573 قدم لصديقه هدية هي كمية كبيرة من البذور. لم تسنح الفرصة لكلوسيوس بأن يزرعها إلاّ بعد عامين أو ثلاثة. كانت البذور قد ذوت بصورة سيئة حتى خشي كلوسيوس أن تكون قد ماتت. لكنها في نهاية الأمر نبتت وأينعت بوفرة مذهلة من الزنابق لتكون أمارة مناسبة على صداقة جمعت بين بطلين من أبطال الزنبق.

ولتلك الأسباب جميعاً استمر التراجع في مشروع الحديقة، وفي صيف عام 1576 دفعت لكلوسيوس رواتب متأخرة عن أحد عشر شهراً دفعة واحدة. وفجأة مات ماكسيميليان، وانعطفت الأمور نحو الأسوأ. كان الإمبراطور الجديد رودولف الثاني كاثوليكياً متحمساً فطرد كل بروتستانتي يخدم في بلاطه. والأسوأ من ذلك أنه لم يكن لديه غير اهتمام طفيف بالزهور، فحفرت أرض الحديقة الناشئة وبنيت عليها مدرسة للتدريب على ركوب الخيل، فأصيب كلوسيوس بالرعب، ولم يعمل أبداً لإمبراطور آخر مع أن خدماته كانت مرغوبة على الدوام.

بقي كلوسيوس في فيينا فترة قصيرة من الزمن خائب الأمل معذباً جراء السرقات المتواصلة لنباتات نادرة من حديقته الخاصة التي كان يحتفظ بها هناك. وفي وقت لم توجد النباتات المرغوبة إلى حد كبير إلاّ في حديقة أو اثنتين في أنحاء أوروبا كافة، فإن السطو المنظم على العينات كان معروفاً في ذلك الزمان، وإن لم يكن سلوكاً عاماً. شأنهم في ذلك شأن لصوص الآثار القديمة في زماننا هذا، فالرجال الذين ينفذون جرائم من هذا النوع هم في الغالب خبراء

عارفون، ويعلمون عم يبحثون تماماً. (أما أولئك الذين لم يرتكبوا أعمال السطو فقد قدموا رشىً للخدم العاملين في البستنة من ذوي الأجور المتدنية لقاء تقديم معلومات ضرورية). لقد عمل لصوص النباتات بعامة لصالح النبلاء والتجار الذين كانوا يريدون امتلاك حدائق يحسدون عليها ولكن بأدنى جهد ممكن. وقلّما بذل هؤلاء الأوغاد أي جهد لإخفاء الأدلة على جرائمهم، إلاّ أنه لم يكن هناك جهاز شرطة ليحقق في جرائم كهذه. علاوة على ذلك فإن السلطات لم تكن تبدي سوى اهتمام ضئيل في مقاضاة لصوص مرتبطين بمتنفذين بسبب أعمال تافهة كتلك. في مناسبة واحدة على الأقل راح كلوسيوس يتميز غيظاً عندما اصطحبته امرأة من طبقة النبلاء في فيينا ليشاهد مساكب زهورها التي زخرت بنباتات مسروقة من حديقته.

وها قد تجاوز كارولوس كلوسيوس الستين من عمره وغدا رجلاً طاعناً في السن، وشبه أعرج إثر سقوطه في الحمام سقطة مؤذية، كما صار يعاني من آلام في المعدة لم يُعرف لها سبب، وفقد جميع أسنانه. أما وقد توقف راتبه الإمبراطوري فقد عاوده الفقر مرة أخرى وأصبح في حاجة

إلى وسيلة تسند دخله القليل الذي يتقاضاه من لقب اللورد، ورزم الطعام التي يتلقاها من أصدقائه. وكان يتوق كذلك لبعض الاعتراف الأكاديمي بأعماله التي أمضى حياته في إنجازها، وهذا ما تسنّى له أخيراً.

الفصل السادس

لايــدن

كان ذلك في شهر كانون الثاني من عام 1562 عندما وصل طرد بريدي كبير محكم الإغلاق إلى نُزل يقيم فيه كلوسيوس. اشتمل الطرد على رسالة من ماري دي بريميو تتضمن خبراً مفاده أن جامعة لايدن تعرض عليه العمل في كلية الطب التابعة لها.

كانت لايدن مدينة صناعية كبيرة في الأقاليم المتحدة لهولندا، ولم تكن المكان الذي يمكن أن يختاره كلوسيوس للعيش فيه. على أن رسالة دي بريميو وصلت في لحظة مناسبة بشكل خاص، إذ إن عالم النبات العجوز عاد إلى فرانكفورت إثر مغادرته فيينا ليظل قريباً من صديقه ونصيره «كونت» مدينة هس. لكن الكونت كان قد توفي للتو فألغى وريثه الراتب التقاعدي السنوي الضئيل الذي كان كلوسيوس يعتمد عليه. وبما أنه قد حُرم من مصدر دخله الرئيس، فقد كان على كلوسيوس أن يجد لنفسه عملاً. ولم تكن الوظيفة التي عرضت عليه من جامعة لايدن اعترافاً بمنجزات حياته

فحسب، بل كانت ستمنحه راتباً سنوياً يبلغ 750 جيلدراً، علاوة على نفقات السفر. كما أن الكثير من مراسليه أصبحوا يعملون في الجامعة ذاتها. كان الشخص الذي رشحّه للعمل أستاذاً في الجامعة يدعى يوهان فان هوجيلاند، الذي كان صديقاً لكلوسيوس وتبادل معه فيما مضى أبصال الزنبق لسنوات عديدة. وبعد تأمل بسيط، وبشيء من التردد، قرر كلوسيوس أن يقبل العرض الذي قدمه هوجلاند.

وهكذا توجه الرجل، الذي بذل جهوداً تفوق جهود أي شخص آخر ليمنح زهرة الزنبق شهرة واسعة، إلى الجمهورية الهولندية حيث ستغدو زهرة الزنبق زهرة مشهورة بشكل حقيقي. وصل كلوسيوس إلى لايدن في التاسع عشر من شهر تشرين الأول من عام 1593، حاملاً معه الكثير من نباتاته الثمينة، من بينها مجموعة كبيرة من أبصال الزنبق التي أصبحت آنذاك ذات قيمة عالية إلى حد ما.

كانت لايدن، الموطن الجديد لعالِم النبات، مدينة ثرية يقطنها ما يقرب من عشرين ألف نسمة، وكانت تقع تقريباً في قلب الأقاليم المتحدة، وتم تشييدها حول أطلال قلعة تعود إلى العصور الوسطى، واشتهرت بكونها مركزاً نشطاً

لتجارة النسيج. لكن المدينة لم تكن في حالة من الاستقرار عندما وصلها كلوسيوس، إذ كانت الثقة بالحكومة ضعيفة، وكان الاستقرار ما يزال هشاً. ولربما كانت لايدن مدينة كبيرة بالمعايير الهولندية، وكانت جامعتها مصدر فخر وسعادة لها، بيد أن المدينة ماتزال تنهض للتو من قرن من الركود الاقتصادي لتدخل مرحلة من التوسع السريع يمكن أن يتوِّجها واحدة من أكبر مدينتين للقماش في العالم المسيحي. والحقيقة أنه لم يتوافر أي مبرر لأي شخص يعيش خارج المدينة أن يعرف شيئاً عن تلك المدينة أو يهتم بها. إلاّ أن المدينة، وكما سيدرك كلوسيوس ذلك جيداً، قد أصبحت في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر واحدة من أشهر المدن الأوروبية.

استندت المدينة في شهرتها إلى الدور البطولي الذي لعبته في واحد من الأحداث الحاسمة التي شهدها ذلك القرن، ونعني بذلك الثورة الهولندية. فعلى امتداد حقبة طويلة من القرن السادس عشر كانت كافة الأقاليم السبعة عشر التي شكلت البلاد المنخفضة تقع ضمن الأراضي المملوكة لأسلاف ملك إسبانيا. وهذه تضم الجنوب الذي يعرف الآن باسم بلجيكا، والشمال الذي كان قد أصبح يعرف بالأقاليم

المتحدة، والذي يعرف الآن باسم هولندا. كان الملك آنذاك هو فيليب الثاني، وكان أقوى ملوك أوروبا، ويسيطر على إمبراطورية عالمية شملت مساحات واسعة من أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى. وكان هو ذات الملك الذي أطلق العنان للأسطول الحربي الإسباني للهجوم على إنجلترا في الفترة ما بين عام 1556 وعام 1598.

كان الملك فيليب الثاني يقاتل الأتراك في البحر الأبيض المتوسط، ويحارب الإنجليز في البحر الكاريبي، ويواجه الفرنسيين في أوروبا. وكانت المقاطعات الجنوبية في هولندا مراكز للتجارة وذات أهمية استراتيجية في أي صراع مع فرنسا. بيد أن الأراضي الواقعة في الشمال كانت في أدنى قائمة أولويات إسبانيا. ومن المؤكد أن الملك فيليب الثاني لم يكن راغباً في الإصغاء لأصوات الاحتجاج المنطلقة من هولندا حول الضرائب الباهظة المفروضة على الشعب لتمويل حروبه أو لتمويل وجود أعداد ضخمة من القوات الإسبانية هناك، والذين كانوا يتلقون طعامهم وشرابهم على حساب الشعب الهولندي. وإذ كان الملك شديد الحماسة للعقيدة الكاثوليكية، فقد كان أقل رغبة في التسامح تجاه

الاتساع المتزايد لأنصار المذهب البروتستانتي في الأراضي الواقعة تحت ملكه، فشهدت خمسينيات القرن السادس عشر حملات اضطهاد للمذهب الجديد طال الأقاليم السبعة عشر جميعاً.

وبحلول سبعينيات القرن السادس عشر، سادت مشاعر شعبية عامة معادية لإسبانيا في كثير من أنحاء هولندا، وبصورة خاصة في الأقاليم السبعة التي يعم فيها المذهب البروتستانتي، التي تقع شمال نهري وال وماس. وهذه الأقاليم هي: هولندة[1] وزيلاندة، وجيلدرلاندة وأوتريخت وجروننجين وأوفريجسيل وفريزلاندة. كانت هذه الأقاليم أكثر فقراً من شقيقاتها العشر في الجنوب، بيد أنها كانت تقع على أراضٍ تصعب مهاجمتها. ولما اندلعت في نهاية الأمر ثورة مفتوحة في عام 1572، عجز حتى الجيش الإسباني المتبجح أن يقهر الثوار.

لقد جاءت شرارة الثورة بصورة غير مقصودة من إليزابيث ملكة إنجلترا، إذ إنها كانت قد وفّرت ملاذاً لسنين عديدة

(1) تنبغي الإشارة إلى أن وجود «إقليم» هولندة، وهولندا البلد بكامله (الأراضي المنخفضة). وإذ ستتكرر الإشارة إليهما لاحقاً فقد آثرنا كتابة الإقليم «هولندة»، والبلد «هولندا» للتمييز فيما بينهما. (المترجم).

لمجموعة من القراصنة الهولنديين البروتستانت الذين عرفوا بـ «متسولي البحار» في موانئ القنال الإنجليزي. وإذ اشتد الضغط الإسباني على الملكة طردتهم أخيراً في شهر نيسان من عام 1572. ولما لم يجدوا مكاناً يؤويهم، شن المتسولون عمليات نهب وسلب على طول الساحل الهولندي وصولاً إلى ميناء بريل الصغير. وحينما اكتشف المتسولون أن هذا الميناء قد أُخلي مؤقتاً من حاميته العسكرية الإسبانية، احتلوا البلدة وسط ترحيب عام من سكانها. وبعد خمسة أيام أبحر المتسولون جنوباً إلى ساحل زيلاندة واحتلوا ميناء فلاشينج، ذلك الميناء الحيوي والاستراتيجي، الذي سيسهم، من بين عوامل أخرى، في السيطرة على منفذ مدينة أنتويرب المؤدي إلى البحر.

ومن هناك امتدت الثورة بصورة متسارعة لتعم جميع أنحاء هولندا. وفي شهر تموز كان إقليم هولندة، باستثناء مدينة أمستردام، قد سقط في يد المتمردين. وفي مدينة لايدن انتصر الرأي العام للمتسولين حتى إن المدينة أشعلت ثورتها بصورة تلقائية قبل أن تُرسل أية قوات بروتستانتية لتشكل حامية عسكرية. في لايدن طارد المواطنون القلة الموالية،

وقاموا بنهب شامل للكنائس الكاثوليكية، فحلّت عليهم عداوة أبدية من الإسبان.

أحد الذين اتخذوا أسرع استجابة لأنباء الانتفاضة كان ويليام الصامت، أمير أورانج المؤمن بالمذهب الكالفيني[1]، والذي ما لبث أن غدا الزعيم الرمزي للثورة، وأعلن نفسه «حاكماً» لإقليم هولندة ثم حامياً لهولندا جميعها. ولم يمضِ وقت طويل حتى نصّب ويليام نفسه قائداً لجيش كبير وشرع في الإعداد لمقاومة الضربة الإسبانية التي كانت لا محالة قادمة.

وقد جاءت الضربة قبل نهاية السنة، وعندها أظهر الإسبان أن استراتيجيتهم ترمي إلى إلقاء الرعب في قلوب الهولنديين ليعلنوا استسلامهم. اجتاح الإسبان مدناً صغيرة عديدة وارتكبوا مجازر ضد مواطنيها، بل إنهم في بعض الأحيان لم يتورعوا عن قتل رجل منفرد. وعمّ الرعب من الإسبان الكثير من المدن التي كانت قد أعلنت تأييدها لقيام نظام جمهوري.

---

(1) المذهب الكالفيني: يُنسب إلى جون كالفين (1509–1564)، عالم اللاهوت الفرنسي والمصلح الديني الذي أسس المذهب المعروف باسمه بغية نشر راية الإصلاح البروتستانتي في فرنسا، ثم اضطر للهرب منها واستقر في العاصمة السويسرية جنيف. (المترجم)

ولم يطل الزمن حتى لم يبق من الأقاليم المتمردة غير هولندة وزيلاندة اللتين ظلتا متمسكتين بالثورة. فتجمّع جيش إسباني ضخم ليندفع شمالاً بغية اقتحام الأقاليم المتمردة، وسحق المتمردين، لكن لايدن كانت العقبة في طريقه.

شهد حصار لايدن القتال الأشد ضراوة، والأكثر تضحية، والأقوى حسماً من بين جميع المعارك التي واجهتها الثورة. ولو سقطت تلك المدينة، فربما كان في مقدور الإسبان أن يكتسحوا المقاومة الهولندية وأن يستعيدوا حكمهم لكافة الأقاليم الشمالية. عندها ستموت الجمهورية الهولندية قبل أن تولد، وستظل الصناعة والتجارة مركّزة في الجنوب، ولن تتدفق الثروة الناجمة عن التجارة فيما وراء البحار على هولندة، ولن يحدث ولع الزنبق.

وكانت النتيجة أن انتصرت لايدن ولكن بعد حصار شديد استمر أربعة أشهر نفد الطعام لدى المواطنين في أواخرها. وفي محاولة أخيرة لإنقاذ المدينة أمر حاكمها بتدمير السدود المنشأة على نهر ماس كي تتدفق مياه النهر حول المدينة فيرتد المحاصِرون. وقد فاضت المياه بالفعل، لكن ليس إلى درجة فك الحصار. ثم حدث ما يعدّه معظم الهولنديين الأتقياء

تدخلاً مباشراً من الله، حين تغير اتجاه الريح وهبّت عاصفة هوجاء، وانهمر مطر غزير، وفاضت مياه النهر إلى الأمام ما دفع الجنود الإسبان إلى الفرار. واستطاع رجال أسطول المتسولين أن يستعيدوا المدينة بأن أبحروا في سفنهم فوق الأرض الغرقى بالماء، والتي كانت مزارع قبل أيام فقط.

لقد أنقذت المقاومة الملحمية لمدينة لايدن الثورة الهولندية، لكن التهديد الإسباني ظل تهديداً حقيقياً إلى حد بعيد، ولعدة عقود بعد انتهاء المرحلة الأولى من الانتفاضة بنجاح. وشكلت الأقاليم السبعة المتمردة فيما بينها جمهورية عرفت باسم الأقاليم المتحدة في هولندا، فيما استمر أمير أورانج يلعب دوراً مهماً كحاكم ورئيس للأركان.

وشن الإسبان عدة غزوات أخرى للأراضي الهولندية كان آخرها في عام 1628. وهكذا، وعلى الرغم من أن الصراع المتصل تقريباً قد انقطع إثر توقيع اتفاقية هدنة طويلة بقيت سارية المفعول من عام 1609 إلى عام 1621، فقد دفع الهولنديون من نواح أخرى ثمن احتفاظهم بجيوش في الميدان وثمن التهديد الدائم بهجوم آخر حتى عام 1630 تقريباً. ومنذئذٍ، وإلى أن أُرغمت إسبانيا في نهاية الأمر

على الاعتراف بالأقاليم المتحدة بموجب معاهدة مونستر التي وقّعت في عام 1648، توقفت التهديدات تقريباً فأصبح بالإمكان تقليص تكاليف الاحتفاظ بجيش كبير وسلاح للبحرية. وتم توظيف الأموال المقتطعة في تنمية الاقتصاد الهولندي الذي ازدهر بعد عام 1630، كما لم يزدهر من قبل.

وعندما وصل كلوسيوس إلى لايدن بعد عقود من مأساة الحصار كانت جامعة لايدن الجامعة الوحيدة في الأقاليم المتحدة، وكانت ماتزال جديدة تماماً، إذ كانت قد تأسست فقط في ربيع عام 1575.

كان تأسيس مركز للتعلم من هذا القبيل خطوة ضرورية اتخذتها الأمة الجديدة، إذ لم تكن ترمي بوضوح لأن تمثل إعلاناً ثقافياً للاستقلال عن إسبانيا فحسب، بل كانت ضرورية أيضاً لتخريج قُسس للكنيسة وشبان مناسبين لتولي الحكم في الأقاليم المتحدة. في ذلك الزمان كانت معظم الكليات في أوروبا تمنح الأولوية للتعليم الديني. وللحق، فإن معظم الجامعات كانت تحت السيطرة المباشرة للكنيسة التي قيّدت نظام التعليم الذي تقدمه الجامعات. بيد أن الحكومة

الهولندية كانت قد قررت أن تكون جامعة لايدن مختلفة عن الجامعات الأوروبية، فأنشأت دراسات القانون والطب والرياضيات والتاريخ وموضوعات إنسانية أخرى، إضافة إلى دراسات اللاهوت. وعُهد في إدارة الجامعة إلى سبعة أمناء لا تعيّنهم الكنيسة، بل يختارهم برلمان الإقليم وعمداء مدينة لايدن.

لقد لقي ذلك كله بلا شك هوى كبيراً في نفس كلوسيوس، لكن السياسة التي اختطتها الجامعة الفتية في دراسات الإنسانيات قد أثارت مشكلات غير متوقعة. ففي الفترة ما بين عام 1575 ومطالع تسعينيات القرن السادس عشر، كانت السمعة المتحررة بشكل خطير لجامعة لايدن تعني أن ينظر زعماء الكنيسة الإصلاحية بعين الريبة لخريجي قسم اللاهوت. وكان الطلبة الهولنديون الذين يخططون للعمل كرجال دين قد اختاروا عموماً الالتحاق بواحدة من أكثر الجامعات الألمانية تقيداً بالبروتستانتية. كما أن الشعور الدائم بخطر وقوع الأقاليم المتحدة ضحية هجوم إسباني جديد شكل رادعاً للطلبة عن الالتحاق بتخصصات أخرى أيضاً. ففي سنواتها العشر الأولى لم يلتحق بكامل قسم اللاهوت في

جامعة لايدن أكثر من (130) طالباً، فيما التحق عدد أقل في العلوم الإنسانية. وكان من الضروري أن تتحقق انتصارات هولندية مثيرة، وأن تخف حدة الأجواء العسكرية في مطالع التسعينيات من القرن السادس عشر حتى تصبح الجامعة أكثر جاذبية لطلبة المستقبل. آنذاك، كانت الجامعة، التي وافق كلوسيوس على العمل فيها والتي كان عمرها عشرين عاماً من الناحية التاريخية، في حقيقة الأمر في طور الولادة عندما وصل عالم النبات العجوز إلى الجمهورية الهولندية.

كان الوقت ملائماً للذهاب إلى لايدن، إذ توافر المال فجأة لتحسين المرافق الجامعية، ولتوظيف المزيد من الأساتذة، ولشراء المزيد من الكتب، ولتقديم المنح لعدد أكبر من الطلاب. وعلى مدى نصف القرن اللاحق كان عدد الطلبة المقيمين في المساكن الطلابية الجامعية قد تضاعف خمس مرات، من مائة إلى خمسمائة، وأصبح في حوزة المكتبة أوسع مجموعات الكتب شمولاً مقارنة مع أي مكان آخر.

واشتهرت الجامعة بشكل خاص بكلية علم التشريح التابعة لها، والتي كانت تُجرى فيها عمليات تشريح للجثث البشرية. كانت بداية اكتشاف أسرار الجسد فقط في تلك

الفترة، وكان علم التشريح واحداً من أحدث الموضوعات آنذاك. كان ولع الجمهور في لايدن بالتشريح شديداً حتى إن عمليات التشريح كانت تتم باستمرار على مرأى من المشاهدين. كما كان يتم تشجيع الزائرين على زيارة متحف التشريح في الجامعة، حيث عرضت لسنوات عجائب من نوع المومياء المصرية والنمور المحشوة والتمساح العملاق، والعضو الجنسي لحوت هائل. وفي السنوات الخمسين التي تلت وصول كلوسيوس ترتب على هذا التميز أن غدت جامعة لايدن واحدة من أفضل الجامعات الأوروبية، لكنها كانت بالتأكيد أكثرها شعبية. فقد التحق بها المزيد من الطلبة بما فاق الأعداد الملتحقة بجامعة كامبردج أو جامعة لايبزيج، المؤسستان الكبريان بعدها في الشمال البروتستانتي، فيما كان طلبتها أكثر انفتاحاً وعالميةً من أي جسم طلابي في أية جامعة منافسة.

واستفاد كلوسيوس بقدر ما يستطيع من هذا التدفق المفاجئ للثقة والأموال. فقد كانت مهمته الرئيسة تأسيس كلية للزراعة تابعة لجامعة لايدن، على نمط تلك الكلية التي تم إنشاؤها في جامعة بيزا في عام 1543، والتي كانت أول

حديقة للبحوث النباتية في أوروبا. ومنذئذ، أنشئت حدائق مماثلة في جامعات بادوا وبولونيا وفرنسا ولايبزيج، دون أن تقام واحدة في الأقاليم المتحدة. كانت كلية الزراعة في جامعة لايدن رمزاً مهماً ليس فقط للجامعة، وإنما للجمهورية الهولندية بعامة. ولذا حظيت بتمويل كريم وأقيمت على مساحة واسعة من الأرض. وحين اكتملت منشآتها كانت تغطي قرابة ثلث فدان، وقسمت إلى أربعة أقسام رئيسة، احتوى كل منها على 350 مسكبة مستقلة.

وإذ ظلت ذاكرة سنوات الإحباط التي خبرها كلوسيوس في فيينا ماثلة في الذهن، فقد كان هو بالذات سعيداً بصورة خاصة بتلك السرعة التي امتدت وزُرعت فيها حديقته.

أما وقد نال الوهن منه، ولم يعد قادراً على القيام بأي عمل جسدي يقتضيه الاشتغال في الحدائق، فقد زودته الجامعة بمساعد ذي كفاءة علمية، يعمل صيدلانياً ويدعى ديرك كلويت، من مدينة ديلفت (الهولندية). واكتمل العمل في الحديقة في شهر أيلول من عام 1594، فاستغرق ذلك أقل من سنة واحدة من وصول كلوسيوس إلى لايدن. وقد كان ذلك إنجازاً مثيراً للسعادة بالنسبة لكلوسيوس إذا ما قورن

بالبطء الذي اتسم به العمل لدى الإمبراطور ماكسيميليان والبلاط الإمبراطوري.

وأسهمت سرعة إنشاء الحديقة في التقليل من أثر عدد من الصعوبات التي واجهها كلوسيوس في العيش في هولندا. لقد كان عليه أن يتحمل الشتاء القاسي الذي اجتاح البلاد في الفترة ما بين عامي 1593و 1594، والذي أتت خلاله فئران لايدن على (150) بصلة من أبصال الزنبق الثمينة في حديقته الخاصة. ثم حل الطقس البائس الذي شهدته البلاد المنخفضة في عام 1594، والتي يبدو أنها كانت سنة من الرياح والأمطار المتواصلة التي دمرت كثيرا من المزروعات في الحديقة العلمية، ناهيك عن أنها لم تحمل شيئاً يساعد على تحسين صحة رجل كان قد بلغ آنذاك الثامنة والستين من عمره.

ومع أنه كان ملزماً بموجب العقد الموقع بينه وبين الجامعة أن يُعنى بالحديقة، وأن يزورها يومياً بعد الظهيرة في الصيف للإجابة عن أسئلة الطلبة والزائرين المهمين، فإن العناد الذي وسم شخصية كلوسيوس قد دفعه لأن يرفض طلباً من الجامعة، رب عمله الجديد، بأن يلقي محاضرات في علم النبات أيضاً. وبدلاً من ذلك، كرّس الكثير من وقته في تربية

النحل والتجوال دونما غاية حول حديقته الخاصة التي أصر على أن ينهض القيمون على الحدائق الجامعية بأعبائها.

وبينما خصصت مساحات كبيرة من حدائق الجامعة لإنتاج الأعشاب والنباتات الطبية والأنواع الجديدة الغريبة مثل البطاطا (التي كانت قد دخلت البلاد حديثاً قادمة من العالم الجديد وكانت ماتزال تُعدّ نباتاً قد يكون ساماً)، زرع كلوسيوس مجموعة من الأبصال التي جاء بها من فرانكفورت في حديقته الخاصة. هناك واصل كلوسيوس عنايته بالزنبق والغوص في أسراره حتى وفاته عام 1609 عن عمر مديد ناهز ثلاثة وثمانين عاماً.

لقد كان كارولوس كلوسيوس بلا ريب أهم عالم نبات في عصره. كان عالماً حقيقياً ظلت أعماله العظيمة المتمثلة بمسوحات نباتات النمسا وإسبانيا النصوص المرجعية في مجالها لما يربو على قرن من الزمان. كما كان رائداً، بالمعني الدقيق جداً للكلمة، في كتابة «التاريخ المختصر للطحالب»، وهو الكتاب الذي نشره في عام 1601، وكان أول ما كتب، تقريباً، عن موضوع الطحالب قط.

وعلى مدى ربع القرن الأخير من حياته كان أشبه

بالمرجع الحي الذي لا يمكن الاستغناء عنه لعلماء النبات وعشاق الزنبق في أوروبا، واحتفظ بمراسلات واسعة معهم. وتؤكد تلك الأدوار التي لعبها كلوسيوس، واهتمامه الشديد بالنباتات البصلية أن الزنبق انتشر بسرعة من خلال أوروبا أكثر من انتشاره فيها عن أي طريق آخر. لقد كان كلوسيوس حقاً «الملك الحقيقي لزهور الزنبق» كما وصفه أمير البرتغال إيمانويل بكلمات ثناء تمثل شهادة من مصدر آخر.

على أن أهمية كلوسيوس، خلال سنواته الأخيرة في لايدن، لا تتمثل كثيراً في الأبصال التي جلبها إلى الجامعة، بل في الطريقة التي درس فيها تلك الأبصال عند زراعتها. إذ إن عالم النبات العجوز لم يكن أول من زرع زهور الزنبق في الأقاليم المتحدة، فوفقاً لما يقوله مؤرخ موثوق أن ذلك الشرف يُعزى إلى صيدلاني من مدينة أمستردام يُدعى فاليشزيفيريتس[1]. كان هذا متعصباً بروتستانتياً يتذكره الناس

(1) لم يكن إطلاق الأسماء على الأشخاص بناء على اسم العائلة شائعاً في المقاطعات المتحدة في القرن السادس عشر ومطالع القرن السابع عشر، وكان معظم الناس يعرفون أنفسهم باستخدام اسم الأب. وعليه يمكن أن يكون فاليش زيفيرتيس «ابن زيفيرت» أو «سيفيرت». وإذا كان من الصعب تهجئة اسم الأب بكامله، يكون في هذه الحالة «زيفيرتسون» أي «ابن زيفيرت» فقد كان من الممارسات الشائعة

بصورة رئيسة لإدانته العادة الشائعة بالاحتفال بـ سانت نيكولاس في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول من كل عام. وعُرف عن زيفيريتس هذا أنه زرع زهور الزنبق في حديقته قبل عام 1573، حينما كان كلوسيوس مايزال في فيينا. بل إن سيد الحدائق لم يكن أول من ربى الأبصال في لايدن، إذ سبقه صديقه يوهان هوجلاند الذي زرع الأبصال في الجامعة قبل وصول كلاسيوس، بعد تلقيه كمية قليلة منها من جوريس راي. أما كلوسيوس فقد كان الرجل الوحيد في الأقاليم المتحدة، وربما في أوروبا كلها، الذي كان مؤهلاً تماماً لأن يصف زهرة الزنبق، وأن يصنّفها، وأن يفهمها.

ظهرت أولى مناقشات كلوسيوس لزهرة الزنبق في كتاب له بعنوان «التاريخ» ،الذي تضمن وصفاً لحياة النباتات الإسبانية، الصادر في عام 1576. ودأب على مدى السنوات اللاحقة على إجراء تعديلات وإدخال إضافات على هذا العمل المبكر الذي شمل بحوثاً إضافية حول الزنبق في طبعة عام 1583. كما نشر أخيراً بحوثاً أخرى في تحفته العلمية الأهم، وهو كتاب «تاريخ النباتات النادرة» ،الذي صدر

اختصار الأسماء المكتوبة بوضع نقطة بعد حرف (z) من كلمة (zoon) أي (son) الابن، لكن الاسم يُنطق كاملاً عند الحديث الملفوظ. (المؤلف)

في عام 1601 عندما كان كلوسيوس مايزال في مدينة لايدن. وإلى هذه الأعمال يعزى الفضل في أننا نعرف هذا القدر عن التاريخ المبكر لزهرة الزنبق في أوروبا. وتضمنت بحوث كلوسيوس أيضاً وصفاً مفصلاً للزهور التي صادفها شخصياً أو سمع عنها من خلال مراسليه الكثر. لقد تركت زهرة الزنبق انطباعاً قوياً في نفس كلوسيوس لسهولة إنتاج أصناف جديدة منها، وقد شاطره هذا الشعور معاصروه من علماء النبات الذين شغفوا بهذا النوع من الزهور. وكان كلوسيوس قد لاحظ أن زهرة الزنبق تتسم بتنوع شديد لا يضاهيه أي تنوع لزهرة أخرى، ربما باستثناء نبتة الخشخاش.

ولبساتنة إسطنبول فضل كبير فيما بذلوه من جهود حتى تكاثرت أصناف الزنبق المعروفة في أوروبا بأعداد ضخمة، فيما يتميز كل منها بمنظومة ألوانه الفريدة، أو بشكله، وتناسق أوراقه وبتلاته. وتمكّن عالِم النبات هذا بنفسه أن يحدد ما لا يقل عن أربع وثلاثين مجموعة مستقلة صنفها طبقاً لألوانها وأشكالها. وكان هو أول من ميّز بين الزنابق التي تزهر في وقت مبكر أو متوسط أو متأخر، فأوضح أن المبكر منها يزهر في شهر آذار فيما يتأخر النوع الثالث حتى شهر أيار.

واستناداً إلى الأساس المتين الذي أرساه كلوسيوس، أضاف علماء النبات اللاحقون الكثير لمعرفتنا عن الزنبق. فقد ضمت إلى فصيلة النباتات البصلية كالسوسن والزعفران والحدقية، وصنفت ضمن مجموعة الزنبقيات. وعلى وجه العموم، تم حتى ذلك الحين تحديد (120) صنفاً مختلفاً من الزنبق، ناهيك عن أصناف فرادى لا تقع تحت حصر.

وفي الأعمال العلمية يُرسم خط فاصل بين «الزنبق النباتي» الذي ينمو في البراري و«الزنبق المستنبت» الذي هو عبارة عن زهور مهجنة تُربى في الحدائق. في زمن كلوسيوس كانت الزنابق المنتَجَة في الأقاليم المتحدة خليطاً من زنابق برية وأخرى مستنبتة، لكنها كانت تتزايد بصورة مستمرة، وكان أولها قد أنتج بمحض الصدفة عن طريق تهجين زنبقتين بريتين.

واستطاع علماء النبات أن يحددوا أربعة عشر صنفاً من الزنبق البري كأصناف رئيسة أنتجت عدداً هائلاً من الزنبق الهولندي المستنبت الذي كان زينة القرن السابع عشر. ولم تلعب هذه الأصناف جميعاً دوراً متساوياً في خلق هذا التنوع، إذ إن بعض الأنواع البرية تنتج زنابق مهجنة أسرع

بكثير من الأنواع الأخرى. ومن أكثر الأنواع مرونة، والتي وجدت طريقها إلى الجمهورية الهولندية، الزنبق الفارسي الذي يعرف اليوم بـ «الزنبق الكلوسيوسي»، الذي أُطلق عليه هذا الاسم تيّمناً بكلوسيوس، وهو زنبق مستدق الأطراف. وهناك الزنبق السكرنكي، وزنبق النار، وزنبق برايكوكس، والتي عُثر على جينات منها بكميات كبيرة في الزنبق المستنبت الذي كان مثار إعجاب الناس في هولندا. والحقيقة أن الزنابق الهولندية أُنتجت عن طريق تهجين زهور وردت إلى الأقاليم المتحدة من كافة أنحاء الشرق، بدءاً من جزيرة كريت وحتى كردستان، فكان ذلك سرّ التنوع الهائل الذي وفرته تلك الأصناف.

وسواء أكانت أصنافاً برية أم مستنبتة، فقد كان بالإمكان زراعة الزنبق إما عن طريق البذور أو الأبصال. على أن الزراعة عن طريق البذور محفوفة بالمخاطر لأن النباتات المزروعة من حفنة من البذور المجمعة من زهرة واحدة قد تنتج تنوعاً كبيراً تستحيل معه معرفة نوع الزنبق الذي سينمو في نهاية هذه الدورة. إن التفاصيل المهمة مثل لون الزهرة ونمطها لا تتيح غير التخمين، ما يجعل العملية محبطة لكل من

يسعى للحصول على مشهد متناغم من زهور الزنبق.

ويستغرق إنتاج بصلة مزهرة عن طريق البذور ست سنوات أو سبع، وهي عملية تستهلك الكثير من الوقت، ولابد أنها كانت أكثر استهلاكا للوقت في زمن كان معدل الحياة لا يتجاوز أربعين عاماً بكثير.

بيد أنه عندما تنضج زنبقة وتزهر من بذرة، فإنها تستطيع بدورها إعادة إنتاج ذاتها بتوليد فروع نامية من بصلتها تعرف بالفسائل، وهي في حقيقة الأمر مستنسخات من البصلة الأم تنتج زنابق مطابقة لها تماماً ويمكن فصل الفسائل عن البصلة الأم باليد. وخلال سنة أخرى أو سنتين تصبح أبصالاً قادرة على النماء الذاتي.

وبالنسبة للزارع الذي يربي الزنبق لأغراض تجارية باحثاً عن محصول ثابت، وأيضاً للبستاني الذي لا يحبذ الانتظار سبع سنوات لرؤية زهرة، فإن الحصول على تكاثر عن طريق الفسائل أفضل بما لا يقاس من زراعة الزنبق عن طريق البذور. على أن الاعتماد على الفروع النامية يعتريه عيب واحد مهم يتمثل في أن معظم أبصال الزنبق تنتج فسيلتين أو ثلاث في السنة، ولمدة سنتين فقط قبل أن تستنزف البصلة الأم وتنتهي

إلى الموت.

ولهذا السبب لا تتكاثر الأنواع الجديدة من الزنبق إلاّ ببطء شديد جداً في البداية. فعندما يحدد مربي الزنبق جمالاً أخاذاً أو قوة معينة في واحدة من زنابق صنف جديد ما قد يمكنه من بيعها، فمن الممكن أن يحصل على بصلتين فحسب في السنة التالية، وعلى أربع بعد ذلك، وعلى ثمانٍ بعدها، وست عشرة زنبقة في السنة الرابعة لزراعتها، هذا إذا سارت الأمور على خير وجه. علاوة على ذلك، إذا ما خسر بعض هذه الأبصال، ستقل قدرته على إنتاج كميات كبيرة من الصنف الجديد.

وبناء على ذلك، يتضح أن الأمر قد يستغرق عقداً من الزمان ليتوافر نوع جديد من الزنبق بكميات كبيرة. وفي العصر الذهبي لهولندا، حين كان التكاثر سراً يصعب سبر غوره، قل عدد الأبصال التي أُنتجت فعلاً عن الحد الأقصى النظري بدرجة كبيرة. وسوف يظل أي صنف من الزنبق النادر والمرغوب غير قادر حتماً على إنتاج زهور لسنوات عديدة، ولذلك عجز أمهر مربي الزنبق عن العثور على أية وسيلة من شأنها زيادة الإنتاج تلبية للطلب.

وبمجرد أن توضع أصناف الزنبق المختلفة جنباً إلى جنب في الحدائق حيث تستطيع الحشرات أن تنقل غبار الطلع من زهرة إلى أخرى. تزداد فرص إنتاج أنواع مهجنة إلى حد كبير. وبما أن الأصناف الجديدة المتطورة بهذه الوسيلة هي ذاتها مهجنة مع أزهار أخرى، تتولد أنواع متزايدة من الزنابق المستنبتة حاملة الخصائص المختلفة لأسلافها الكثر. ولما كانت زهور الزنبق ذات الأصناف المختلفة لا تنمو معاً في الغالب بصورة طبيعية فإن الهجائن المعقدة من هذا النوع لا تنمو بسهولة في البراري، وهي بالمعني الدقيق للكلمة أنواع غريبة، بيد أنها أقل وضوحاً وأكثر رقة من الزهور البرية، ولهذا يزداد سعي الخبراء للحصول عليها.

كان ولع الناس يتركز على الزنابق ذات البتلات المكتملة والمميزات اللافتة للأنظار. والحقيقة أن الزنبق الهولندي الذي كان يُستنبت في العصر الذهبي حظي بقيمة عالية، وتقدير يتخطى حدود الجمهورية بفضل ألوانه المتقنة والمتمردة في أغلب الأحيان. وقد ابتُدع في منتصف الثلاثينيات من القرن السابع عشر ما لا يقل عن ثلاث عشرة مجموعة من أزهار الزنبق، احتفظت كل منها بألوانها المتميزة. وتراوحت

هذه الأزهار بين مجموعة «الكوليرين» البسيطة ذات اللون الواحد: الأحمر أو الأصفر أو الأبيض، ومجموعة أخرى هي «الماركيترينين» التي تصنف ضمن مجموعة الزنابق ذات النمو المتأخر، التي كانت تظهر بأربعة ألوان في الأقل. وربما كان زنبق الكوليرين من النوع البري، أو، في الأقل، من الزنبق المستنبت ذي الصلة الوثيقة بالزنبق البري. أما الزنبق الماركيتريني، فلابد أنه كان مطوراً من الهجائن المعقدة، وكان يزرع في معظمه في الأراضي الفلمنكية وفي فرنسا، لكن لا ذكر له في المدونات المتعلقة بظاهرة الولع بالزنابق.

وكان أكثر الأنواع انتشاراً من بين المجموعات الثلاث عشرة زنبق روزن، والفيوليتي والبيزاردين. وكان أكثر أنواع الروزن انتشاراً تلك الزهور الملونة، حمراء أو صفراء، على أرضية بيضاء. وخلال الثلث الأول من القرن السابع عشر كان قد تم ابتكار ما يقرب من أربعمائة نوع من زنبق الروزن، حظي كل منها بتسمية محددة. أما الزنبق الفيوليتي (القرمزي)، كما يوحي اسمه، فقد كان ذا لون أرجواني فاتح، أو أرجواني على أرضية بيضاء. وكان الزنبق البيزارديني الأقل مرغوبية من بين المجموعات الثلاث، إذ لم تزد أنواعه

على العشرين، وبألوان هي الأحمر أو الأرجواني أو البني أو الأصفر. وتوافرت أنواع عكست منظومات لونية، وتم تصنيفها تصنيفاً عاماً. فعلى سبيل المثال كان الزنبق اللاكني أرجوانياً ذا حدود بيضاء عريضة، وصُنف ضمن الزنبق الفيوليتي، أما النوع القليل المعروف باسم ضاكن، فقد كان زنبقاً مستنبتاً ذا لون أحمر بحدود صفراء، وكان يمكن أن يصنف ضمن النوع البيزارديني.

والحقيقة أن تلك الأنماط التي شكلتها هذه الألوان المتباينة هي التي أثارت لهفة مربي الزنبق، ومن المستحيل أن نعي ظاهرة هوس الزنبق من دون أن نعلم بالضبط مدى معرفة البساتنة بالاختلاف القائم من زهرة إلى أخرى في الزنبق المستنبت زمن القرن السابع عشر.

لقد كانت ألوان الزنبق المستنبت أكثر كثافة وتركيزاً من ألوان النباتات العادية. وبدلاً من اللون الأحمر المجرّد أصبح هناك اللون القرمزي الفاتح، وعوضاً عن اللون الأرجواني الباهت، وجدت زنابق فاتنة من درجات اللون الأسود تقريباً. وتم تحديد هذه الألوان بذكاء، بخلاف ذلك الوهج الذي لا نهاية له والمنبعث من الأزهار الأخرى ذات الألوان

المتعددة التي تدرجت ألوان بتلاتها من لون إلى آخر.

وبشكل عام، بدت الألوان المميزة للأصناف الهولندية المستنبتة، كزنابق الروزن الحمراء وزنابق الفيوليتي البنفسجية مثل ريش أو شعلات انبثقت من وسط كل بتلة، وشكلت أحياناً حدوداً لأطراف البتلة. وبين الحين والآخر كانت هذه الألوان تبدو كبقع مرقشة على جذع النبتة، من دون أن تُحدث أي تشوه في النقاء الذي يميز قاعدة الزهرة، والتي كانت دائماً إما بيضاء، مزركشة أحياناً بالأزرق، أو صفراء حسب نوع الزهرة. لقد كان لكل زهرة نمطها الفريد. ومع أن نبتتين من ذات الصنف قد تتشابهان إلى حد بعيد، فإنهما لا تتطابقان أبداً.

ومنذ الأيام الأولى لهوس الأبصال استخدم الهولنديون المولعون بالزنبق التشكيلات الدقيقة لتلك الشعلات والشذرات في تصنيف أزهارهم ضمن درجات تُحدد وفق مجموعة من المعايير الصارمة. كانت أعلى الزنابق سعراً تلك التي يطلق عليها الزهرة «فاتنة البهاء» والتي كانت أنواعاً مطفأة، ذات ألوان بيضاء أو صفراء، وشعلات بنفسجية أو حمراء أو بنية فقط في خطوط دقيقة تمتد على طول مركز

الزهرة وأطراف بتلاتها. أما الزنبقة التي كانت في نظر الخبراء تتباهى بألوانها الوهاجة، وبمبالغة شديدة، فقد كانت تدعى الزهرة «الوقحة»، وكان الناس أقل إقبالاً عليها.

وتميزت الزنابق البرية بمنظومة ألوانها القوية والبسيطة، فكيف إذاً اكتسبت هذه الزنابق المستنبتة والمحتفى بها في العصر الذهبي الهولندي هذه الوفرة في الألوان؟ والجواب بسيط ومثير للحيرة: لقد أصيبت بمرض. إن المفارقة المثيرة فيما يتصل بهوس الزنبق هي أن الأصناف الأكثر مرغوبية، التي بلغ سعرها مئات أو حتى آلاف من الجيلدرات كانت في الحقيقة مصابة، كما يبدو، بفيروس زنبق فريد. وكان هذا الفيروس وراء كل من الكثافة والتنوعات المذهلة في بتلات الزنبق. وهذا ما يفسر أسباب ظهور تلك الألوان المتميزة والكثيفة والمتوهجة في الزنابق وحدها من بين جميع الورود الأخرى المزروعة في الحدائق؛ تلك السمات التي جعلت جامعي الزنبق يشتعلون ولعاً بها.

وحتى في زمن كلوسيوس، كان واضحاً أن شيئاً غريباً يحدث لزهرة الزنبق المزروعة في مدينة لايدن وفي أماكن أخرى. فالبصلة التي كانت تنتج في سنة ما زنبقة بلون

واحد قد تصبح في السنة التالية زنبقة من نوع روزن أو بيزاردين. وقد عرفت هذه العملية بـ «الانقسام»، والبصلة التي تعرضت لهذه الحالة كانت تسمى البصلة «المنقسمة»، أما تلك التي بقيت على حالها بلون واحد فقد أطلق عليها اسم «المستولدات». وكان من الصعب إلى حد كبير توقع عملية «الانقسام» برمتها، كما لم تتوافر طريقة لمعرفة ما إذا كانت زهرة ما ستنقسم، أو متى ستنقسم. فقد تتفتح زهرة في الربيع مزينة ببضعة ألوان جديدة أخاذة، بينما تظل زهرة أخرى من الصنف ذاته ومزروعة بجانب الأولى، وفي المسكبة ذاتها، على حالها دون أن يحدث لها أي تغيير. كانت عملية «الانقسام» شائعة في بعض السنوات، لكن قلّما حدث ذلك في سنوات أخرى. وعلى ذات المنوال، وإن بشكل نادر، قد تنتج بصلة «منقسمة» فسيلة تحولت لتصبح من النوع «المستولد». ولم يكن في مقدور أي مرب للزنبق أن يوقن أن هذه البصلة المستولدة لن تنقسم. إلاّ أن ما بدا يقيناً آنذاك تمثل في أمرين فقط هما: أن الزنابق المزروعة من البذور هي مستولدات ثابتة، وأنها، إذا ما انقسمت، فإن البصلة الأم لن تنتج وردة أحادية اللون مرة أخرى.

وقد توافرت قرائن هناك حول طبيعة المرض، إذ كان لدى كلوسيوس من المراقبة النبيهة ما يكفي ليلاحظ أن الزنابق المنقسمة أصغر بقليل وأضعف على وجه اليقين من الزهور المنتجة من الأبصال المستولدة. بيد أنه في الوقت الذي لم يتمكن أحد حتى من التخمين بآليات انتقال المرض، ظل موضوع «الانقسام» أمراً شبيهاً بالسحر لمعظم معاصري كلوسيوس. وعلى الرغم من كل المحاولات التي قاموا بها، فقد أخفقوا في جعل بصلة مستولدة تنقسم عندما يريدون ذلك، حتى إن بعضهم لجأ إلى استعمال جرعات من أدوية الكيمياء القديمة المصنوعة من روث الحمام لمعالجة الأبصال. وآخرون جربوا شق أبصال زنبقتين مختلفتين في اللون إلى نصفين، وجمعوا النصفين المختلفين معاً أملاً في إنتاج زنبقة تتمتع باللونين معاً، إلاّ أنه من النادر أن نجحت هذه الأساليب في تحقيق النتيجة المرغوبة.

أما متى أصيبت زهرة الزنبق بالفيروس، فهو أمر غير مؤكد، إذ إن أول مشاهدة للظاهرة ترجع في تاريخها إلى عام 1580 على وجه التقريب، ولكن من المحتمل أن يكون المرض أقدم من ذلك. والحقيقة أن زهرة الزنبق قد غدت عرضة

للإصابة بالمرض بمجرد أن أصبحت مزروعة في حديقة. فالأزهار التي يريدها الإنسان في بيئة مصطنعة تواجه مخاطر لا تواجهها في البرية. فالأصناف المستنبتة قد تلقى عناية بائسة، وقد تهمل لصالح أنواع جديدة مفضلة، لكنها بشكل خاص يمكن أن تصاب بأمراض استطاعت الأجناس البرية الأقوى أن تطور مناعة ضدها. وفي أقل تقدير فإن الأمراض تنتشر في البرية بصورة أبطأ من انتشارها في الحدائق.

وظل سر«الانقسام» قائماً حتى مطالع القرن العشرين عندما أمكن التحديد النهائي للعامل الذي يسبب المرض، والذي يطلق عليه أحياناً اسم الفيروس الفسيفسائي. فقد استطاع العلماء في «معهد جون إنيس للبستنة» في مدينة لندن، عن طريق السماح لحشرات الأرقة (المَنّة) بالتغذي على الأبصال المنقسمة، وبعدها على الأبصال المستولدة، أن يبينوا أن الأبصال المستولدة التي أقبلت عليها الأرقات قد انقسمت مرتين، وتكرر ذلك مراراً في عينة الضبط.

وفيما أثبتت تلك التجربة أن المرض يُعزى إلى فيروس، فقد كشفت في الوقت ذاته عن آلية انتقال المرض من زنبقة إلى أخرى. وقد كشف المزيد من التجارب أن الفيروس

الفسيفسائي يمكن أن يصيب بالعدوى كلاً من الزهرة في أثناء نموها في حديقة، وبصلة مخزنة لم تزرع بعد. فإذا ما أخذنا بالحسبان جهود مربي الزنبق الهولنديين لإحداث الانقسام عن طريق جمع نصفين مختلفين من بصلتين معاً، تتضح المفارقة في أن الطريقة التي استخدمها معهد جون إنيس لجذب الأرقات لتتغذى بصورة متعاقبة على زنابق مصابة وأخرى سليمة كانت تهدف إلى تطعيم أنصاف الأبصال المنقسمة بالزنبق المستولد.

وقبل وفاة كلوسيوس بفترة طويلة، كانت الزنابق المنقسمة التي زرعها في حديقته الخاصة في مدينة لايدن تجذب اهتمام خبراء يتوقون للحصول على عينات من هذه الأزهار الجديدة الفريدة لزراعتها في حدائقهم الخاصة. وهكذا وجد عالم النبات العجوز نفسه غارقاً تقريباً في طلبات الحصول على أبصال هذه الزنابق. وكان كلوسيوس يعلم أن كثيراً من هذه الطلبات كانت ترد من أناس لا يريدون غير مسايرة موجة الطلب على الزنبق، دون أن يكون لديهم اهتمام حقيقي بعلم النبات، ولا يعرفون كيف يعتنون بالأبصال.

كما تلقى طلبات أخرى وردت من أشخاص كان يشك

في أنهم يسعون لبيع أبصاله بأي ثمن يستطيعون الحصول عليه. وفي جميع الأحوال، لم يتوافر لدى كلوسيوس ما يكفي لتلبية الطلب على أبصاله. ففي إحدى رسائله إلى صديقه جوستوس ليبسيوس، أحد علماء الإنسانيات وأحد أعمدة جامعة لايدن في سنواتها التأسيسية، كتب كلوسيوس يقول «الكثيرون يطلبونها إلى درجة أنني إذا ما أردت تلبية طلباتهم ستكون ثروتي بكاملها قد سُلبت مني، فيما سيحظى الآخرون بالغنى».

وكان من سوء حظ كلوسيوس أن بعض الراغبين في الحصول على أبصاله أو في الأقل أولئك الذين كانوا يتوسلون إليه لتزويدهم بالأبصال، لم يقتنعوا بردوده السلبية على طلباتهم. ومثلما عانى في فيينا، بدأ يعاني في لايدن من أعمال السطو المتكررة على حديقته. ففي صيف عام 1596، تعرضت حديقته للسطو مرتين، وتكرر الأمر في ربيع عام 1598، إذ سطا اللصوص على أبصال حديقته في أثناء سفره. ولابد أن الخسارة الإجمالية كانت كبيرة، إذ نعلم من رسائله الباقية أن أكثر من مائة بصلة قد سلبت في غارة واحدة. أصيب كلوسيوس العجوز باكتئاب جراء هذه الخسارة، فاقمته تلك

اللامبالاة المعهودة التي أبدتها سلطات لايدن بشأن التحقيق في هذه السرقات، إلى درجة أن أقسم كلوسيوس أن يتخلى عن البستنة بصورة نهائية، وأن يوزع ما تبقى في حوزته من أبصال على أصدقائه.

وعلى مدى سنوات تعرضت سمعة كلوسيوس للأذى جراء ما ذكره أحد المؤرخين المعاصرين له أن أعمال السطو تلك قد حدثت لأن كلوسيوس كان يطلب سعراً باهظاً مقابل أزهاره، وأنه كان يرفض بعناد أن يسلم أبصالاً لأي شخص لا يدفع السعر المطلوب. وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، إذ إن عالم النبات هذا، وخلال مسيرته المهنية المديدة، أبدى كرماً عظيماً بإرساله عينات من اكتشافاته لأصدقائه دونما مقابل، وفي بعض الأحيان كان يذيل رسائله بعبارة «مع حبي». أما الأشخاص الوحيدون الذي كان يرفض تزويدهم بالزنبق فقد كانوا أولئك الذين يشك في تقديرهم لهباته. والذين نظموا أعمال السطو على أبصاله في لايدن يندرجون في الفئة الأخيرة، وكان على صواب حين شك في دوافعهم منذ البداية.

على أن السرقات تمخضت عن نتيجة إيجابية واحدة،

ذلك أن زنابق كلوسيوس لم تكن الوحيدة في الأقاليم المتحدة، لكن المجموعة التي كانت بحوزته كانت بالتأكيد الأكثر تنوعاً والأعلى جودة. ونتيجة لهذه السرقات انتشرت هذه الأبصال في كافة أرجاء هولندا، من شمالها إلى جنوبها، وانتعشت زراعتها في تلك البلاد. وفي عدد من مواطنها الجديدة في الأقل لابد أنها كانت آباءً لهجائن جديدة، وأصبحت أنواعاً شكلت بدورها جزءاً مهماً من مخزون الأبصال التي أصبحت سلعة تجارية في وقت لاحق من القرن التالي. وطبقاً لما قاله أحد المؤرخين آنذاك فإنه بفضل جزئي لتلك السرقات «امتلأت الأقاليم السبعة عشر بمخزون وفير من أبصال الزنبق».

الفصل السابع

زينة لمفرق النهدين

كانت ألوان زهرة الزنبق الأخاذة وأنواعها التي لا حد لها قد ميزتها عن غيرها منذ اكتشافها الأول باعتبارها زهرة استثنائية. وكان هناك اتفاق عام حيال هذه النقطة، ليس فقط بين الأتراك والهولنديين، وإنما بين علماء النبات من كافة الجنسيات أيضاً. وما إن حل القرن السابع عشر حتى كانت زهرة الزنبق قد حظيت بتقدير كبير في جميع أنحاء القارة الأوروبية. وقد كتب عالم البستنة الفرنسي مونستيرييل، في وقت متأخر قليلاً، أن زهرة الزنبق احتلت المكانة الأسمى بين الزهور. وأضاف يقول أنه مثلما كان بنو الإنسان سادة الحيوانات، وكما بزّ الماس كل الأحجار الثمينة الأخرى، ومثلما فاقت الشمس النجوم، فإن زهرة الزنبق فاقت كل الزهور. وإذ يصدر حكم كهذا من عقلية عاشت في القرن السابع عشر، فإنه ينطوي على مغزى مهم عن الزنبق مفاده إذا كان البشر هم مخلوقات الله المختارة، فمن المؤكد إذاً أن الزنبق هو زهرة الله المختارة.

ولقد اتسعت شعبية هذه الزهرة الجديدة إلى درجة أن عشاق الحدائق سرعان ما بدأوا يتنافسون بشدة ليتفوق أحدهم على الآخر في إنتاج أنواع دائمة التطور في بهائها وألوانها البديعة. وبفضل جزئي للجهود التي بذلها كلوسيوس ودائرة مراسليه، فقد توافر آنذاك عدد جيد من أصناف الزنبق المهجنة.

وعلاوة على زنابق هولندا وعشرات الأصناف التي أنتجها جيمس جاريت في إنجلترا تنبغي إضافة واحد وأربعين نوعاً مستنبتاً فرنسياً صنفها عالم النبات ماثياس لوبيليوس، ناهيك عن أصناف أخرى لا تقع تحت حصر تم إنتاجها في أماكن أخرى. ومن المؤكد أنه كان يوجد أكثر من مائة نوع من أنواع الزنبق في عام 1600، لكنها في ثلاثينيات القرن السابع عشر تضاعفت لتبلغ ألف صنف، نصفها، في أقل تقدير، كان هولندياً. ومجموع الأصناف الأخير ذاك قابل للمقارنة إلى حد كبير وبصورة إيجابية مع (2500) صنف أو نحو ذلك تم إنتاجها بحلول منتصف القرن الثامن عشر، ومع (5000) صنف مستنبت يعترف العالم بها اليوم.

وعلى الرغم من ذلك، فإن عدد الأبصال التي توافرت

عند نهاية القرن السابع عشر ظلت محدودة نوعاً ما، إذ إن معظم الأصناف الجديدة لم تنتج غير عدد قليل فقط من أزهار الزنبق. ولهذا السبب بقيت زهرة الزنبق إلى حد كبير معشوقة القلة القليلة الموسرة، إذ تعهدها بالتربية بصورة رئيسة خبراء أثرياء كانوا يقدّرون قيمة الزهرة لجمالها وقوة ألوانها، وكانوا يتبادلون أصناف الزنابق الثمينة فيما بينهم. لكنهم نادراً ما اهتموا بجني أرباح كبيرة من هذه المبادلات إذ كانوا جميعاً أثرياء بلا استثناء تقريباً.

وما إن اقترب القرن السادس عشر من نهايته حتى تشكلت في أرجاء القارة الأوروبية كافة مجموعات صغيرة من خبراء الزنبق وُجدت في دويلات المدن في شمال إيطاليا، وإنجلترا، وفي الإمبراطورية الرومانية. بيد أن التركيز الأكبر للمتحمسين للزنبق كان يوجد في الأراضي المنخفضة، وبخاصة في أوساط النبلاء والطبقات العليا الفلمنكية، ويعزى ذلك بدرجة كبيرة إلى الوصول المبكّر للزنبق إلى جنوبي هولندا.

وكثير من هؤلاء الخبراء حصلوا على أبصالهم الأولى من كارولوس كلوسيوس ورفاقه. وقد نشر لوبيليوس،

زميل كلوسيوس، قائمة بأسماء هؤلاء في عام 1581، فكان من بينهم ماري دي بريميو وزوجها دوق إيرشوت اللذان احتفظا بحديقة خاصة بديعة في منزلهما في مدينة لاهاي، وجوريس راي من مدينة ميشلين، وجين دي برانسيون، التي اتخذها كلوسيوس صديقة العمر.

ومن هولندا انتشر الزنبق جنوباً إلى فرنسا حيث التربة الملائمة تماماً لزراعة أبصال الزنبق في مدينة بيكاردي الفرنسية.

وفي زهاء عام 1610 شهدت باريس ظاهرة هوس الزهور، وشرع النبلاء المولعون بمسايرة أحدث التقليعات يتنافسون فيما بينهم على إهداء سيدات البلاط الفرنسي ما يعثرون عليه من أكثر أنواع الزهور ندرة وروعة.

وعندما انتشرت هذه الفكرة أول الأمر كانت أكثر الورود تداولاً بهذه الطريقة هي وردة الجوري التي ظلت لقرون عديدة الأكثر شعبية بصورة لا تقارن مع أزهار الحدائق. بيد أن نبلاء البلاط الفرنسي وجدوا في زهرة الزنبق شيئاً يتفوق على الوردة الجورية، إمبراطورة الحدائق المهيمنة. وسرعان ما أكدت زهرة الزنبق مكانتها باعتبارها الزهرة الجديدة الأثيرة

في البلاط الفرنسي وذلك بسبب رونقها الرقيق وجدتها وندرتها. ويبدو أن تقليعة الزنبق بلغت أوجها زمناً واستمرت كذلك حتى زفاف الملك الشاب لويس الثالث عشر في عام 1615 في أقل تقدير. فكانت سيدات الطبقة العليا آنذاك يستخدمن زهرة الزنبق زينة لمفرق النهدين بحيث يتم شبك الزهرة في خطوط الرقبة النازلة من فساتينهن ذات الصدور المقوّرة. وقيل إن أكثر أنصاف الزنبق بهاء كان يحظى بذات الدرجة من التقدير التي كان يتمتع بها الماس. وكتب عالم البستنة الهولندي إبراهام مانتنج، في زمن متأخر من القرن السابع عشر، في مدوناته يقول إنه في ذروة الهوس الفرنسي كانت زهرة زنبق واحدة مقطوعة ذات جمال خاص، وليس البصلة، تباع بما يعادل ألف جيلدر هولندي.

ومن الطبيعي أن يسارع نبلاء البلاط إلى التحول باهتمامهم نحو تقليعات جديدة، إلاّ أنه قد ترتبت على حماستهم للزنبق نتائج مهمة، ذلك أن المجتمع الباريسي حتى في القرن السابع عشر كان معروفاً في كافة أنحاء أوروبا بأناقته وتميزه، وكانت التقليعات التي تظهر في البلاط الفرنسي تُحاكى في أماكن أخرى. والحقيقة أن هذه التقليعات غالباً ما ظلت

سائدة في المناطق الأوروبية النائية حتى بعد وقت طويل من تخلي الفرنسيين عنها وانتقالهم إلى هوس جديد. ولم يكن أمراً غريباً لمن يزور منطقة غرب إيرلندا أو غابات ليتوانيا أن يرى سيدات تلك المناطق يرتدين الأزياء التي هجرتها باريس قبل عشر سنوات أو عشرين. وهكذا لعب الولع بالزنابق الذي اجتاح بلاط الملك لويس الثالث عشر لسنوات قليلة دوراً كبيراً في التيقُّن من أن زهرة الزنبق ستحظى بقيمة عالية في جميع أرجاء القارة، ولعقود قادمة.

كان أول من يحاكي تقليعات البلاط الفرنسي هو الشعب الفرنسي ذاته، وما هو إلاّ وقت قصير منذ انتشار شعبية الزنبق في باريس حتى اندلع هوس مصغر للزنبق في شمال فرنسا. وإنه لمن سوء الطالع أن لا تتوافر مصادر معاصرة لتلك الحقبة توفر معلومات عن أحداث تلك الحقبة التي مثلت، وفق كل التقديرات، إرهاصاً لما سيحدث فيما بعد في الأقاليم المتحدة. على أنه إذا ما جاز لنا أن نصدق ما ورد في التقارير التي صدرت بعد تلك الحقبة، نعلم أن الولع بالزنبق كان شديداً إلى درجة أنه في نحو عام 1608، قايض طحان مطحنته بعيّنة واحدة من صنف من أصناف الزنبق يدعى ميربرون. وقايض

متحمس آخر مصنعاً للجعة قدرت قيمته بثلاثين ألف فرانك فرنسي مقابل بصلة واحدة من الزنبق المهجن المعروف باسم «زنبق براسيري». حكاية ثالثة من تلك الحقبة ذاتها تروي قصة عروس كان مهرها بصلة زنبق واحدة من زنبق الروزن الجديد، فزرعها والدها وسماها، بما يليق والمناسبة، «زواج ابنتي». ويُفترض أن العريس في هذه الحكاية كان شديد السعادة بروعة الهدية.

هذه حكايات قد تعتريها الشكوك، بيد أنه من المؤكد أن تقليعة الزنبق سرعان ما امتدت إلى بقية أنحاء أوروبا. وبحلول عام 1620 لم تحظ زهرة الزنبق بشعبية واسعة في أي مكان أكثر من تلك الشعبية التي حظيت بها في الأقاليم المتحدة، وسرعان ما بزت الزهور المنافسة كالسوسن والقرنفل. وشُرع في زراعة الزنبق في جميع أنحاء الجمهورية، ونالت إعجاب عدد متزايد من الخبراء ذوي المعرفة العميقة. كما زرعت أصناف عديدة بدءاً من روتردام في جنوب البلاد حتى جرواننجن في شمالها.

كان الزخم الأولي الذي غذى الحماسة الهولندية للزنبق، والذي امتد لزمن طويل، قد تحقق جراء تدفق لاجئين

ومهاجرين، على فترات متقطعة، عبر حدود الأقاليم المتحدة من جنوب هولندا على مدى اندلاع الثورة الهولندية. عشرات الألوف من المسيحيين البروتستانت الذين كانوا يعيشون في الأراضي الإسبانية فروا شمالاً حفاظاً على عقيدتهم وهرباً من موجات اضطهاد كانوا يتعرضون لها بين الفينة والأخرى. وفي بعض الحالات أدى تدفق المهاجرين إلى ازدياد في عدد سكان المدن الهولندية يفوق الضعفين. فقد وصل إلى مدينة لايدن (28ر000) لاجئ في الفترة ما بين عامي 1581و 1621، ليتضاعف عدد سكانها أربع مرات، وليرتفع من (12ر000) إلى (45ر000) نسمة.

أما في مدينة أمستردام، فلم يكن السواد الأعظم من الرجال الذين عقدوا قرانهم، على مدى القرن السابع عشر، من مواليد المدينة في الأصل، إذ إن المهاجرين كانوا قد عقدوا العزم على العمل بجد، فتوافر لديهم في أغلب الأحيان رأسمال للاستثمار شكل رافداً رئيساً لمجمل الازدهار الهولندي. وكانت أغلبية المهاجرين من الصناع المهرة الذين أسهموا في ازدهار المناطق التي وفدوا إليها بمهاراتهم النافعة. كما يُعزى بشكل مباشر إرساء الأساس الذي قامت عليه

التجارة الشهيرة لأمستردام بالماس إلى المهاجرين الذين وفدوا إلى المدينة من أنتويرب. على أنه كان من بين هذه الأعداد المهاجرة الكثير من أغنى تجار المدن الكبرى مثل بروكسل وأنتويرب، ومن بين هؤلاء عدد من المولعين القدامى بالزنبق والذين جلبوا معهم أبصالهم فأدخلوا إلى الأقاليم المتحدة أصنافاً جديدة متعددة. وإذ شهدت زراعة الزنبق زيادة في أعداد الأبصال، فلابد أن يكون اللاجئون قد أسهموا في توفير المزيد من الزنبق بصورة جوهرية لم يسبق لها مثيل.

لكن زهرة الزنبق لم تحظ بشعبية في أوساط المهاجرين فحسب، بل إن الكثير من الهولنديين غدوا مولعين بها. وبخلاف بقية المناطق الأوروبية، نادراً ما كان خبراء الزنبق في الأقاليم المتحدة ينتمون إلى علية القوم، ذلك أن طبقة النبلاء التي سادت البلاد لعدة مئات من السنين كانت قد سُحقت إلى حد كبير في أتون الحروب الإسبانية. أما خبراء الزنبق آنذاك فقد كانوا من أعضاء الطبقة الحاكمة الجديدة في الجمهورية، وهم مجموعة من المواطنين الأثرياء والمتنفذين الذين لقبهم الشعب ب «الحكام».

كان هؤلاء الحكام في أية مدينة هولندية يتكونون في العادة

من رجال أعمال أثرياء بشكل خاص، وينتمون إلى الجيلين الثاني والثالث، منهم محامون وبعضهم أطباء. ويقيناً كانوا يتمتعون بثروات تكفي لأن يعيشوا إما عن طريق استثمار أموالهم في السندات والتجارة الخارجية، أو في استثمار محلي داخلي في أحد المشاريع المفيدة الكثيرة كاستصلاح أراضٍ من البحر، أو تجفيف البحيرات والسبخات للحصول على أراضٍ زراعية جديدة. ولم يكن هؤلاء يضطرون إلى متابعة أعمالهم يوماً إثر يوم لكسب رزقهم، وشكلوا طبقة حاكمة تطيل أمد حكمها بذاتها، إذ كان أعضاؤها يشغلون الوظائف الرئيسة في البرلمانات الإقليمية والمجالس المدنية.

أما ذلك النفر القليل من الخبراء الهولنديين الذين لم ينتموا إلى فئة الحكام، فقد كانوا تجاراً أثرياء، وبعضهم كانوا في أقل تقدير بمستوى ثراء مواطنيهم لكنهم، مع ذلك، كسبوا رزقهم عن طريق لعب دور نشط في إدارة عمل أو آخر. وكان رجال هذه الطبقة بعامة يحظون بلقب تكريمي يعترف بالتميز المهني لكل منهم. فعلى سبيل المثال، إذا كان رجل يدعى «دي يونج» ويعمل في مجال الأسماك، فإنه يمنح لقب «السيد دي يونج السمّاك». وكانوا يميلون إلى إعادة استثمار

الأرباح التي يجنونها من إدارة أعمالهم الخاصة. وعلى الرغم من أن هؤلاء لم ينعموا بوقت وافر للاعتناء بحدائقهم مثلما كان حال الحكام، فإن عدداً من أكثرهم ثراء أصبحوا من عشاق الزنبق الذين ذاع صيتهم.

والحقيقة أن زهرة الزنبق كانت ملائمة للأقاليم المتحدة، إذ إنها لم تكن تقليعة ذلك الزمان الأكثر رقة وبهاء في الألوان من النباتات الأخرى المزروعة في الحدائق فحسب، بل تميزت بقدرة على التحمل تفوق العادة، ما يعني أن بمقدور كل من المبتدئين والخبراء في علم البستنة أن يزرعوها بنجاح. علاوة على ذلك، فإن أبصال الزنبق تنتعش على خير وجه في الترب الفقيرة والرملية التي تسود في عدة أجزاء من الجمهورية، وبخاصة في إقليم هولندة حيث يمتد حزام أرضي جاف أبيض بموازاة الساحل وعلى امتداد الطريق من لايدن صعوداً إلى مدينة هارلم -إلى الغرب قليلاً من أمستردام-، ومن ثم إلى مدينة ألكمار على الطرف الشمالي للإقليم.

بيد أن أكثر التطورات أهمية تمثل في تلك المكانة الجديدة التي حظيت بها زهرة الزنبق كرمز للثروة والذوق الرفيع، ذلك أنه منذ بداية عام 1600 تقريباً، غدت الأقاليم المتحدة،

وعلى غير توقع بالمطلق، الدولة الأكثر ثراء إلى حد بعيد في القارة الأوروبية. فقد تدفقت على البلاد مبالغ نقدية هائلة على مدى أكثر من نصف قرن، أدت إلى اتساع كبير في فئات التجار الأثرياء الذين كانت لديهم القدرة على الإنفاق ببذخ على الأشياء ذات القيمة الجمالية.

واحتفظ عدد من الكتاب المعاصرين آنذاك بأسماء بعض الخبراء الهولنديين الأثرياء الذين عنوا بتربية الزنابق خلال العقود الأولى من القرن السابع عشر، وكان من بين تلك الأسماء رجل يدعى باولوس فان بريستين، أكثر الناس ثراء ونفوذاً في إقليم هولندة.

كان باولوس من سكان مدينة هارلم، وكان ذات يوم حاكماً لبيت المنبوذين المحلي، وأول من زرع الزنابق داخل أسوار المدينة. وتذكر السجلات اسم جاك دي غين الذي كان رساماً ثرياً من مدينة لاهاي وواحداً من نبلائها، كما كان أحد معارف كلوسيوس. كان لدى دي غين ما يكفي من الولع بالحدائق لإنجاز مجلد يضم رسوماً للأزهار يتكون من اثنتين وعشرين صفحة، وقد باعه للإمبراطور الروماني المقدس رودولف الثاني. وكان دي غين واحداً من خبراء

الزنبق الأثرياء القلائل الذين عرفت ثرواتهم بشيء من الدقة، إذ تم تقييم رأسماله رسمياً في عام 1627، وقبل عامين من وفاته، فتبين من عملية التدقيق المالي أنه كان يملك في ذلك الزمان ما لا يقل عن أربعين ألف جيلدر.

ويظهر في السجلات القديمة اسم عاشق آخر للزنبق يدعى جيليمو بارتولوتي فان دي هيوفيل الذي كان هولندي الأصل، والذي اكتسب اسمه الغريب من حقيقة أن عمّاً له من بولونيا لم تكن لديه ذرية قد تبناه.

كان جيليمو أحد أغنى رجلين في أمستردام كلها، وحاز على موجودات تساوي مبلغاً مذهلاً وصل في مجموعه إلى (400,000) جيلدر. ومن المحتمل تماماً أن يكون جيليمو أغنى شخص على الإطلاق من أصحاب الأعمال الخاصة يشارك في تجارة الزنبق. أما وقد بنى فان دي هيوفيل ثروته من التجارة، فقد كان بمستطاعه أن يكرس وقت فراغه في رعاية حديقة شهيرة في وسط أمستردام بالضبط. ويستدل من أوصافها القليلة التي بقيت في المدونات أن الحديقة قد صُممت وفق خطة رسمية متسقة ودقيقة للغاية. ومن المؤكد على وجه التقريب أنها كانت تعود لخبير حقيقي يقتفي أثر

التقليعات المعاصرة الخاصة بالأزهار، إذ زُرع كل صنف من أصناف الزنبق في مسكبة خاصة كي تنال الإعجاب من وحدتها البديعة.

على أن هذا التدفق الهائل للثروة الذي جعل من جيليمو رجلاً ثرياً، إنما كان في الأصل نتيجة للثورة الهولندية. فقبل قرن سابق على الثورة كانت أمستردام، أكبر مدن الجمهورية، مدينة ذات أهمية متواضعة، فيما كانت مدينة أنتويرب، التي تقع في الجزء الجنوبي من هولندا الميناء الأكبر والمدينة الأهم في أوروبا. فمن ميناء أنتويرب كانت تمر كميات هائلة من البضائع من بحر البلطيق وإسبانيا والأمريكتين في طريقها إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة ودول شمال أوروبا الأخرى. لكن، مع احتلال مدينة فلاشنج من قبل «متسولي البحر» في الأيام الأولى للتمرد، كان في مقدور الهولنديين وقف الكثير من تجارة المدينة بإغلاقهم مصب نهر شيلت، الذي كان يوفر لمدينة أنتويرب منفذاً إلى البحر. لقد شكّل الحصار كارثة للمدينة الفلمنكية، إذ تحول قسم كبير من تجارتها الهامة شمالاً إلى إقليم هولندة، فأصبحت مدينة أمستردام المستفيد الرئيس من هذا التحول.

وفي الفترة ذاتها تقريباً كسر الهولنديون ما عُرف فيما مضى بالاحتكار الإسباني عن طريق إقامة صلات تجارية مع جزر الهند الشرقية التي كانت في نظر أوروبيي القرن السابع عشر مصدر ثروة تفوق الخيال إلى حد ما. فقد كانت تلك الجزر تفيض بسلع الترف، بدءاً من التوابل إلى الخزف الصيني، وما كان بالإمكان الحصول على سلع كهذه من أماكن أخرى. وكان بالإمكان شراء هذه السلع بأسعار زهيدة نسبياً من الشرق، كما أنها لم تكن سلعاً كبيرة الحجم، وكان من شأن هذه السلع أن تدرّ ربحاً وفيراً على البلاد المستوردة. ومع أن ثمن شحنة واحدة من التوابل كان يعادل أضعاف ثمن طن من الأخشاب أو الحبوب أو الملح، وهي السلع التي كان الهولنديون يعتمدون عليها بدرجة كبيرة، فقد كانت السلع المستوردة من جزر الهند الشرقية تتحول إلى أرباح مذهلة إذا ما وصلت سليمة إلى البلاد.

وسرعان ما أدرك التجار الهولنديون الإمكانات الكبيرة المتوافرة في الإتجار مع الشرق. كان الهولنديون قد أنشأوا في عام 1610 قواعد لهم في عدد من الجزر الأندونيسية. وعلى الرغم من خطر دائم يتمثل في هجوم إسباني، فإن الأساطيل

المحملة بحب الفلفل وجوزة الطيب والقرفة، والسكر، والأقمشة الحريرية، والأصباغ كانت تواصل إبحارها بصورة منتظمة إلى الأقاليم المتحدة. وقد وصف تجار أمستردام هذه السلع الجديدة بـ «التجارات النفيسة»، وكان لهذا الوصف مسوغاته السليمة.

ولقد مس فائض الثروة الذي تدفق آنذاك على الجمهورية حياة الآلاف من الهولنديين، إذ إن رحلة واحدة إلى جزر الهند الشرقية كان يمكن لها أن تعود بنسبة أرباح تصل إلى أربعمائة بالمائة مقارنة بسعر التكلفة. وفي عام 1631 كان لخمسة أسداس أغنى مواطني أمستردام، البالغ عددهم ثلاثمائة شخص، حصة في التجارات النفيسة. وازداد بصورة هائلة ثراء طبقة التجار الهولنديين ومعهم الحكام الذين وفروا لهم الدعم واستثمروا في مشاريعهم، حتى بزوا بالثراء، حسب المعدل العام، أثرياء معاصريهم في إنجلترا أو فرنسا أو الإمبراطورية.

ووفق معايير تلك الحقبة كان أكثر التجار الهولنديين نجاحاً، أثرياء بصورة تثير الذهول. ففي النصف الأول من القرن السابع عشر كان تاجر من الطبقة الوسطى يعتقد أنه

يعيش وضعاً مريحاً إذا بلغ دخله (1500) جيلدر في العام، وكان يعتبر نفسه ثرياً إذا وصل دخله السنوي إلى (3000) جيلدر.

أما من يقلون عنه مكانة في السُلّم الاجتماعي، كالكتبة وأصحاب المحلات وأولئك الذين يزعمون أن لهم نصيباً من لقب «السيد المحترم»، فقد كانوا يكسبون ما معدّله ثُلث هذا المبلغ أو خُمسه، وربما ما بين (500) إلى (1000) جيلدر في السنة. وبالنسبة إلى رجال من أمثال فان دي هيوفيل، الذي كان يحوز حصة كبيرة في التجارات النفيسة، فقد كان يمكنهم الحصول على دخل يصل إلى (10ر000) أو (20ر000) وحتى (30ر000) جيلدر في السنة.

على أن أغنى أغنياء هذه المجموعة كان جاكوب بوبين، الذي كان ابناً لمهاجر ألماني راكم ثروته من الإتجار مع جزر الهند وروسيا. وعندما مات جاكوب في عام 1624 خلف وراءه (500ر000) جيلدر. ومثله كان أدريان باو، الحاكم الذي أصبح عمدة مدينة أمستردام ليغدو أخيراً واحداً من أبرز السياسيين في الأقاليم المتحدة. وقد بلغت ثروة باو (350ر000) جيلدر جمعها من استثماراته الناجحة. وفي

الثلاثينيات من القرن السابع عشر كان عشرة أشخاص من مواطني أمستردام يمتلك كل منهم (300ر000) جيلدر أو يزيد.

إن نظراءهم من أثرياء في وقتنا الحاضر يرتدون أرقى الثياب، ويسافرون بطائراتهم الخاصة وسياراتهم الفارهة. لكن، وحتى في ذروة العصر الذهبي الهولندي، كان زائري الجمهورية يجدون صعوبة في التمييز بين الأعضاء الأكثر غنى في طبقتي الحكام والتجار، والمواطنين العاديين في البلاد. فأكثر الرجال ثراء كانوا يرتدون أكثر الملابس خلوا من الزينة، واقتفوا أثر الملبس الوطني الذي كان يتمثل في القبعات الكبيرة ذات الحواف العريضة والسراويل الضيقة والمعاطف الثقيلة. وتحت هذه الملابس كانوا يرتدون سترة تشبه الصُدرة، سوداء اللون، مع أطواق ذات كشاكش بيضاء عند الحلق والرسغين، إضافة إلى جوارب للركبة وأحذية ضيقة سوداء. أما زوجاتهم وبناتهم فقد كن يرتدين صدارات رمادية مائلة للسمرة، وفساتين طويلة تمس أرض الحجرات، ويظهر فوقها في أغلب الأحيان مئزر مزركش. وفي فصل الشتاء، وتجنباً للبرد الشديد في البلاد المنخفضة، يرتدي الرجال والنساء على حد

سواء عباءات أنيقة بحواف من الفرو فوق ملابسهم جميعاً في المنزل وفي أماكن العمل. أما في الأحوال الأخرى، فقد جرت العادة أن يتجنبوا الظهور بأي مظهر يعكس الثروة. وحتى النساء، ما كن يبدين شعورهن، وكن يؤثرن إخفاءها تحت قبعة بيضاء ضيقة.

ومع أن الرجال الهولنديين كانوا يسرحون شعورهم بطريقة تشبه إلى حد ما تقليعة شعر الفارس، إذ يكون الشعر طويلاً وملفوفاً عند الكتفين، مع شاربين ومثلث صغير من لحية محفوفة بأناقة، فإن الصورة العامة لمغزى الزي الوطني كانت ترتكز بشكل قاطع إلى العقيدة «البيوريتانية»[1].

وأياً كان مظهر التواضع الذي وسم ملابسهم، فإن الحكام الهولنديين والتجار لم يكونوا محصنين ضد إغراء استعراض ثرواتهم، تلك الثروات التي صاحبت الازدهار الاقتصادي الذي صبّ الأموال في الصناديق الحديدية لأولئك التجار ذوي الثروات الهائلة، ولمسانديهم. وكان لابد لتلك الثروة

---

(1) العقيدة «البيوريتانية»، أي «التطهرية»، هي مجموعة من المعتقدات والممارسات اتبعتها الجماعات البروتستانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ودعت إلى تبسيط طقوس العبادة والتمسك بأهداب الفضيلة. (المترجم)

أن تبحث عن مخارج بصورة من الصور، وبالتدريج تقطّر بعض هذه الأموال التي كانت تنفق على الطعام أو النبيذ، أو تستخدم في استيراد منتجات للمدن من الأرياف، إلى المستويات الأدنى في المجتمع ما أدى إلى الارتقاء بمستويات المعيشة في أرجاء الجمهورية كافة. لقد تم ادخار الكثير من المال أو أُعيد استثماره.

ولا ريب في أن الأرباح التي تم الحصول عليها من التجارات النفيسة قد أسهمت بدورها في تعزيز نزعة الاستهلاك لكافة وسائل الترف، بدءا من المنازل الفخمة واللوحات الفنية إلى زهور الزنبق، ما مكّن من توافر تنوع وثراء كبير في العصر الذهبي الذي عاشته الأقاليم المتحدة في الحقبة الواقعة بين عامي 1600 و1670.

وشهدت تلك الحقبة تقدماً ثقافياً هائلاً، إذ ازدهرت الفنون كما لم تزدهر من قبل، ولم يكن يعزى ذلك إلى تأسيس جامعة لايدن وجامعات ومدارس أخرى وحسب، بل أيضاً إلى وصول الكثير من الرسامين والكتاب من جنوب البلاد. والحقيقة أن كثيراً من الفنانين كانوا يبحثون عن عمل حتى كان بالإمكان آنذاك شراء لوحة فنية أو نص مسرحي جديد

بفتات من المال قياساً إلى الثمن المعتاد. وانتهز هذا الوضع كثير من المدن، وكثير من المواطنين الذين لا يعملون في وظائف رسمية. ولطالما تأثر زائرو الأقاليم المتحدة إلى حد كبير بالتنوع والبهاء اللذيْن يميزان اللوحات الفنية المرسومة على القماش، وقطع السجاد المنقوشة، والتماثيل التي برزت في أكثر الأماكن جذباً للأنظار. وفي الوقت ذاته طور العديد من أكثر الفنانين ألمعية أساليب جديدة في الرسم الواقعي للشخصيات، فأبدعوا في استعادة الأساليب التي أتقنها فنانون في منزلة رامبرانت في لوحته «ابن الطحان في مدينة لايدن» وفرانس هالر في لوحة «لاجئ من أنتويرب». كذلك شهدت الهندسة المعمارية نهضة فنية لأن الجمهورية الجديدة موّلت الكثير من المباني العامة التي تم تشييدها بجمال مهيب. كذلك شهدت تلك الحقبة ازدياداً في أعداد الكتب والنشرات، وأُنشيء المزيد من المدارس.

ولاقت أعمال البناء هوى في نفوس أفراد هولنديين، وقد تمثل أحد الأسباب الرئيسة للتزايد المتواصل لشعبية الزنبق في تلك اللهفة الجديدة التي انتشرت في أوساط التجار والنبلاء

الهولنديين لبناء منازل ريفية فاخرة حيث يمكنهم التمتع بثرواتهم المتزايدة، والتباهي بها في حقيقة الأمر. وانبثقت مجموعات من القصور الفخمة خارج المدن الهولندية الأكثر ثراء كتلك التي أُنشئت في قرية لايدر دروب إحدى ضواحي لايدن، وفي وسط الكثبان الرملية الممتدة على الساحل غربي مدينة هارلم، وعلى ضفاف نهر فيخت من منبعه من مدينة أوتريخت وصولاً إلى أمستردام. وقد أنشئت تلك القصور بصورة نموذجية وفق الطراز الكلاسيكي، ووظفت فيها أطقم مكتملة من العاملين. كما كانت متناسقة إلى حد كبير، واحتلت مساحات شاسعة من الأراضي التي اشتملت، بشكل عام، على حدائق رسمية وأماكن للتنزه. وقد كانت تلك القصور بالنسبة للتجار المشغولين، والناجحين، ولأفراد طبقة الحكام العاملين بجد ملاذات توفر لهم الراحة من الإيقاع السريع لعالم المدينة.

وقد وجد المؤرخون الاجتماعيون في هذه اللهفة لبناء المنازل مؤشراً على تغير في أمزجة الطبقات الحاكمة للأقاليم المتحدة. ففي أثناء العصر الذهبي تطور لدى الهولنديين ببطء

ميل لشيء من المباهاة، رغم أنهم عُرفوا بالوقار وتقوى الله، وباتباعهم الصارم لعقيدة كالفن إلى درجة أن مجتمعهم كان ينفر من التفاخر بكل أشكاله، فيما كان القُسس البروتستانت يدفعون غرامات لمجرد قيامهم بأقل مغامرة بالتفوه بما يشبه النكتة في الكنيسة. ومن هذا المنظور، ربما كان أكثر النتاجات إثارة لظاهرة هوس البناء ما حصل في قرية «زورغفليت»، التي تعني بالهولندية «الفرار من الهموم». كانت هذه القرية المقام الريفي لحاكم بارز يدعى جاكوب كاتس الذي كان واحداً من أشهر الهولنديين في زمنه عُرف بأخلاقه الهادئة وتدينه الشديد، ومزاولة مهنتين معاً. فقد كان سياسياً وكاتباً مشهوراً، وغدا أكثر الهولنديين الذين حظوا باحترام على نطاق واسع في تلك الحقبة. وقد كسب ثروته من نجاحه الباهر كمؤلف للشعر الأخلاقي الشعبي، إذ أقبل الناس على شراء كتبه بأعداد هائلة في كافة أنحاء الجمهورية.

والنص التالي يمثل مقطوعة شعرية نموذجية، يستمتع فيها الشاعر نوعاً ما بمناسبة يحذر خلالها فتاة جميلة من الاعتماد على مظهرها البهي فيقول:

الشعر الأشقر سيغزوه الشيب

والقلب الخلي سيحل به الحزن

والشفاه الحمراء ستغدو زرقاء

والوجنات الجميلة سيخبو منها البريق

والسيقان الرشيقة سيصيبها اليباس

والأقدام الخفاف ستصير بلا حراك

والجسد الريان سيعتريه الهزال

والجلد الناعم ستلفه التجاعيد

لقد ألّف هذا الرجل، الذي عُرف على نطاق عالمي باسم «الأب كاتس»، أكثر من عشرة كتب زاخرة بهذا النوع من الشعر، ووجد ما يقرب من خمسين ألف نسخة من أعماله الشعرية الكاملة طريقها إلى البيوت الهولندية. وفي أغلب الأحيان لم يكن يوجد في بيوت الهولنديين من الكتب غير مجلّد من أعمال كاتس، إلى جانب نسخة من الإنجيل. كثير من العائلات الهولندية كانت تنظر إليه بإعجاب، وترى فيه مصدراً أميناً للحكمة، وفي أشعاره مرشداً موثوقاً لمواجهة المشكلات الأخلاقية لذلك الزمان. فإذا أفتى الشاعر جاكوب بأنه لا غضاضة في امتلاك منتجع ريفي، كان من

الصعب أن يجادل أحد برأي مخالف.

وأدت تقليعة امتلاك بيوت ريفية فاخرة، بصورة طبيعية، إلى زراعة الكثير من الحدائق الريفية الفسيحة. وكان الاهتمام الهولندي بزراعة الحدائق قد بدأ بالانتعاش خلال القرن السادس عشر، من دون أن يبرز ما يشير إلى تراجع اهتمام كهذا في القرن السابع عشر. فقد كانت الأراضي التي أنشيء عليها منزل اللورد أوفربيك في قرية ألوفين القريبة من مدينة لايدن، والتي زارها عضو في البرلمان الإنجليزي هو السير ويليام بريريتون في عام 1634، تشتمل على «حدائق فسيحة وبساتين بديعة فاخرة وعدد من برك الأسماك»، علاوة على اثني عشر نوعاً مختلفاً من الأسيجة المشجرة، وشبكة ممرات معقدة، وعدد جيد من مساكب الأزهار بالطبع. ومن المؤكد أن منزل أوفربيك كان واحداً من أفخم الأماكن في الأقاليم المتحدة. لكن أثرياء آخرين حذوا حذوه ما وسعهم الجهد.

وكانت تلك الحدائق وسيلة مالكها لاستعراض ما لديه من نباتات أكثر من كونها أماكن للاسترخاء.

وكانت الموافقة الضمنية التي عبر عنها فلاسفة الأخلاق

من نوع «الأب كاتس» تعني أن حماسة الخبراء للزنبق لا تجرّ عليهم لوماً يمكن بطريقة أو بأخرى أن يصدر من أكثر العناصر تمسكاً بالعقيدة الكالفينية في المجتمع الهولندي. فبهاء الزنبق هو في نهاية الأمر إحدى المعجزات البسيطة التي أبدعها الخالق، وأن زراعته تقتضي كدحاً جاداً في الهواء الطلق، وهو نشاط طالما حث عليه كاتس نفسه. وسرعان ما أصبح الزنبق معلماً بارزاً للكثير من المنازل الجديدة الأكثر فخامة. لقد توافر لنا قليل من المعرفة عن إحدى حدائق الزنبق التي زُرعت في منزل ريفي يدعى «موف شانس». واحتفاء بهذه الحديقة كتب قسيس بروتستانتي شديد العداء لإسبانيا يدعى بيتروس هونديوس قصيدة ملحمية نشرت في عام 1621، واشتملت على ستة عشر ألف بيت من الشعر. وقد بُني هذا المنزل المسمى موف شانس في الموقع الذي أُقيمت فيه بعض التحصينات الألمانية إبان الثورة الهولندية، واسمه الذي لا صلة له بالريف مطلقاً يعني بالهولندية «خنادق الكَرْوَت»[1]. كان صاحب المنزل يدعى يوهان سيرلبنس، عمدة مدينة نيوزن، وكان قد وجه دعوة لصديقه هونديوس للإقامة معه.

(1) الكَرْوَت (Kraut) كلمة ألمانية تعني طعام يتم إعداده من الكرنب المخمّر. (المترجم)

وفي الوقت المناسب أنشأ القسيس حديقة للأعشاب الطبية في أراضي المنزل، وكان من بينها زراعة ست مساكب كاملة خصصت لأزهار الزنبق، وكانت تلك كمية مثيرة للذهول في ذلك الزمان. ولربما كان هونديوس قد تلقى بعض أبصاله من كلوسيوس في وقت سابق، وأبصالاً أخرى من صديقه الصيدلاني كريستيان بوريت المقيم في مدينة لايدن.

لم يكن هونديوس مولعاً بالزنبق، إذ إنه زرع كل أصناف النباتات في حديقة سيرلبنس، بدءاً من القرنفل إلى الحدقية والنرجس، وكان ينظر بازدراء لأولئك الذين يؤثرون الزنبق على الزهور الأخرى، بل إنه صاغ شعراً مريراً في انتقاد أولئك الذين سمحوا لأنفسهم أن يقعوا في شرك ذلك الهوس الذي يزداد تفاقماً، فكتب يقول:

كل ما يبغيه هؤلاء الحمقى أبصال الزنبق.

في الرؤوس والقلوب لا توجد إلاّ أمنية واحدة.

دعونا نحاول أكل الأبصال، وسوف تثير فينا الضحك.

حين نذوق شدة المرارة في ذاك الطبق.

بيد أن الشاعر ذاته لم يكن محصناً من الوقوع في غواية الزهرة الجديدة، ذلك أنّ هونديوس تحدى في ملحمته

الشعرية الموسومة «أوف دي موف شانس» الرسامين المعاصرين له آنذاك أن يصوروا جمال الزنبق في لوحاتهم الفنية التي يرسمونها على القماش. وهو نفسه يعترف بعد بيت أو بيتين من الشعر أن تلك المهمة مستحيلة تماماً. وكان هو ذاته قد كتب يقول إن الزنبق المزهر في حديقته وحدها يكشف عن غزارة في الألوان تفوق عدد الألوان التي يعرفها الفنانون. وقد كانت قصيدته الملحمية بمثابة كنز للمؤرخين الاجتماعيين يزخر بمعلومات وفيرة ليس فقط عن فن إنشاء الحدائق، بل وعن حياة أهل الريف وعاداتهم في ذلك الزمان. وكان النجاح الذي أصابته القصيدة دافعاً لأبرز رجال تلك الحقبة لزيارة منزل سيرلبنس. وكان من بين الزائرين الذين نعلم عنهم موريس من ناساو، أمير أورينج الجديد، ورئيس أركان الجيوش الهولندية التي قاتلت الإسبان، وأحد أبرز الجنود المشهورين في ذلك الزمان. ولابد أن موريس قد شغف بما رأى في حديقة هونديوس، لأن أزهار الزنبق أصبحت تزرع منذ ذلك الحين في قصر الأمير في لاهاي، وبكميات هائلة إلى درجة أنها كانت تعرض للبيع لعامة الناس. ومن الجدير بالذكر أن السير ويليام بريريتون الذي زار القصر بعد عقد أو

يزيد كان قد اشترى مائة بصلة من ذلك المكان بسعر زهيد لا يتجاوز خمسة جيلدرات.

بعد ذلك، وبحلول عام 1620، غدت زهرة الزنبق رسمياً الزهرة الأثيرة لدى الكثير من أفراد النخبة الهولندية، وحظيت بشغف خاص لدى بعض الرجال الأكثر نفوذا في الجمهورية. لكن الزنبق، وكما يبدو من مثال الأمير موريس، كان لا يزال بعد منتشرا على نطاق واسع ليصبح في متناول كل مواطن في الأقاليم المتحدة. كانت الزهرة ما تزال نادرة نسبياً، وكان من الصعب الحصول بأي سعر على بعض الأصناف الأكثر مرغوبية. ولن تتم معالجة هذه الندرة بصورة مناسبة إلاّ في العقد اللاحق.

الفصل الثامن

زهرة الزنبق في المرآة

إذا كان الحكام قد امتلكوا منازل ريفية، فإن أدريان باو، عمدة أمستردام ذا الثراء الهائل، كانت لديه قلعة. كانت مجرد أطلال لكنها كانت تنتصب في وسط عزبة شاسعة تدعى هيمستيد، وكان باو قد حصل عليها في عام 1620. احتلت العزبة فقط قطعة الأرض المرتفعة الواقعة بين ساحل بحر الشمال وأمستردام. ومن أعلى الأسوار المتهالكة كان باو يتمتع بمشاهدة المناظر المطلة على أرض الجمهورية الهولندية. وحين يكون الجو صحواً، كان بإمكانه أن يرى امتداد الأفق من فوق أمستردام. وحتى حين تكون السماء ملبدة بالغيوم كان بيته الريفي يقدم مشهداً لافتاً لأجساد تتأرجح في المشانق المنتصبة خارج أسوار هارلم، وعلى مسافة تقل عن ميل واحد باتجاه الشمال.

أصبحت عزبة هيمستيد بالنسبة لباو الموطن الأهم لرغباته، إذ أنفق العمدة المال بسخاء على أرضه، فأطاح بالقلعة القديمة، واستعاض عنها بعزبة حديثة لم يستضف فيها

أكثر الرجال أهمية في الجمهورية فحسب، بل إنه استضاف في مناسبات متفرقة ملكة إنجلترا وملكة فرنسا. وكانت المحتويات الداخلية للعزبة بديعة بصورة تتناسب ومظهرها الخارجي، فقد ملأ باو منزله الجديد بالأثاث النفيس وقطع السجاد المزدانة بالرسوم، وأكثر اللوحات الفنية جمالاً. واشتملت العزبة الجديدة على حجرة للتذكارات مليئة بالدروع المصقولة، علاوة على مكتبة تضم ستة عشر ألف كتاب، وهو رقم هائل حقاً بمعايير ذلك الزمان.

شرع باو في إصلاح أراضيه عندما كان المنزل ما يزال قيد الإنشاء. ولما كان باو على الدوام مستثمراً متحمساً في مشروعات استصلاح الأراضي، فقد أزال أطناناً من التربة السطحية الجدباء لينفذ إلى ما تحتها من تربة أكثر خصباً. شجع باو الزراعة بحماسة، وحتى الصناعة الخفيفة، في الأجزاء البعيدة من أرض عزبته، ما زاد من عدد القاطنين في هيمستيد ليصل إلى أكثر من ألف شخص بمرور الزمن.

بيد أن المتعة الأعظم التي كان يشعر بها أدريان باو لم تكن تنبع من عزبته الحديثة، وإنما من حديقته التي تم تصميمها بعناية وفق الطراز الرسمي السائد آنذاك. امتدت الحديقة

أمام المنزل، وكانت لها ممرات طويلة تظللها الأشجار على الجانبين فاصلة ما بين مروج الزينة ومساكب الزهور الزاخرة بالجوري والسوسن والقرنفل التي يزين رذاذ ألوانها الممرات والأشكال الهندسية الدقيقة للأسيجة المكونة مما يملكه باو من شجيرات البُقس، مبدعةً مشهداً يصل حد الكمال.

لكن شيئاً خاصاً جداً كان يتعلق بحديقة باو، ولم تكن ملاحظته ممكنة بصورة مباشرة من قبل الزائرين. والحقيقة أنه على الرغم من استضافة العمدة لزائريه بكرم فائض، وسماحه للمتفرجين على العزبة بالتجوال في عزبته خلال أيام الأسبوع العادية، وحين يكون منشغلاً في أمستردام، فإن بعضهم كان يغادر العزبة دون أن يدرك أن شيئاً خاصاً كان موجوداً هناك. على أن ذلك لم يكن أمراً مثيراً للدهشة، إذ إن باو لم يكن راغباً في أن يرى زوّار العزبة ذلك الشيء الخاص.

كان السر في حدائق هيمستيد يتمثل في ابتكار عجيب مكون من الخشب والمرايا ذات الزوايا المثبتة بمهارة عالية، والمنصوبة في وسط مسكبة الزنبق. كان ذلك الابتكار مجرد خزانة مصنوعة من المرايا صممت لتضاعف عدة مرات

صورة أي شيء يقف أمامها. وكانت الغاية منها أن تخلق وهم الكثرة للمشاهد، فيما لا يوجد في واقع الأمر شيء من ذلك.

وبفضل هذا الابتكار الغريب كانت المسكبة الواحدة من زنابق باو تبدو عن بُعد وكأنها مزروعة بكثافة وبمئات من أزهار الزنبق الأخاذة. وما كان يمكن لأحد أن يدرك أن ذلك كله ليس سوى خداع بصري، إلاّ إذا استثنينا زائراً فضولياً أو صاحب حساسية فنية مرهفة.

كانت مرايا الخزانة الخشبية تحيل بضع عشرات من الزنابق الموجودة في مجموعة باو إلى أعداد كبيرة مذهلة.

أما فيما يتصل بصاحب عزبة هيمستيد، فقد كانت الخزانة – المرآة ضرورة بائسة احتاجها، فعلى الرغم من ثرائه ونفوذه، لم يكن عمدة أمستردام قادراً على الحصول على ما يكفي من الزنبق ليملأ به حديقته. ولم تكن كل الجهود التي بذلها خيرة بساتنة هولندا قادرة على أن تجعل الأبصال التي يمتلكها العمدة تتكاثر بالسرعة التي كان يتمناها.

كانت مشكلة باو بسيطة، ذلك أن الأنواع فاتنة البهاء التي جمعها كانت نادرة للغاية، لأنها نتاج عملية طويلة من

التربية المنتقاة. ومنذ أن أينع أول زنبق هولندي في حديقة واليس زيفيرتس في أمستردام كان الخبراء ينتقون بعناية الأصناف الأكثر غرابة، ويتولونها برعاية خاصة، ويطعّمونها بأبصال جميلة أخرى لتوليد أنواع أكثر بهاء. وهكذا، وبينما كانت الزنابق الأولى والأكثر بدائية تستغرق عقوداً لتضاعف أعدادها، فإن أعلى الزهور قيمة، والتي تميزت بالألوان الأكثر أناقة، لم تكن سوى ابتكارات جديدة. ولقد كانت الزنابق الأجمل موجودة بكميات ضئيلة إلى درجة أن واحداً مثل أدريان باو لم يكن قادراً على امتلاكها.

ومن بين كل الأصناف الموصوفة بأنها «فاتنة البهاء»، يمكن القول وبسهولة أن أكثر أنواع الزنبق مرغوبية تلك الزهرة الموسومة بـ«سمبر أوغسطس» والتي كانت الأشهر والأندر والأبدع من أية زهرة في أي مكان في الأقاليم المتحدة خلال القرن السابع عشر. لذا كانت الأغلى سعراً إلى حد كبير من بين الزنابق الأخرى. وتنتمي زهرة سمبر أوغسطس إلى صنف الروزن، لكن مجرد وصفها بأنها حمراء أو بيضاء أشبه بوصفنا للياقوت والزمرد بالأحجار الحمراء والخضراء. لقد أجمع كل من شاهدها على أنها نبتة ذات جمال استثنائي

تماماً. فقد كانت ذات ساق رفيعة، تحمل الزهرة بعيداً عن أوراقها، وتتباهى بألوانها الحيوية لإحداث التأثير الأمثل. وهي إذ تبدأ كزهرة بلون أزرق خالص عند التقاء الساق بقاعدة الزهرة، سرعان ما يتحول التويج إلى اللون الأبيض النقي.

وتنبثق من وسط البتلات الست جميعاً شعلات رقيقة، ويُزين أطراف الزهرة نثار ورذاذ من درجة اللون ذاته. أما أولئك الذين كان لديهم ما يكفي من حسن الطالع، فشاهدوا عيّنة من زنبق سمبر أوغسطس وهي مزهرة فقد اعتقدوا أنها من العجائب الحية، وتثير من الإغراء ما تثيره أفروديت، إلهة الجمال.

بيد أن الحقيقة تشير إلى أن القلة القليلة من الناس قد توافرت لديهم ميزة حيازة ذلك الصنف من الزنبق المعروف باسم سمبر أوغسطس، الذي حظي باحتفاء لا حدود له من قبل الخبراء، والذي احتوت كتب الزنبق على رسوم توضيحية له تفوق كل الأنواع الأخرى. وورد اسم هذا الصنف بصورة دائمة فيما يتصل بظاهرة الولع بالزنبق إلى درجة أنه أصبح تقريباً اسماً مرادفاً للزنبق ذاته. وعلى الرغم من ذلك كله،

لم يتم الإتجار بهذا الصنف لأنه كان شديد الندرة حتى إنه لم تكن تتوافر أبصال لهذا الصنف يمكن الإتجار بها.

ويعود تاريخ أول إشارة لهذا الصنف من الزنبق إلى عشرينيات القرن السابع عشر، وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ الهولندي نيكولاس فان فاسيناير، الذي يُعدّ تقريباً المصدر الموثوق الوحيد في هذا الشأن، أنه في عام 1624 تقريباً، لم تكن توجد أكثر من دزينة من أبصال هذا الصنف، وكانت جميعها بحوزة رجل واحد أُشيع بصفة عامة أنه كان يعيش في أمستردام. وتمثل هوية هذا الخبير المجهول إحدى الأسرار الكبيرة للولع بالزنبق. فالمؤرخ فان فاسيناير كان حريصاً على عدم الكشف عن اسمه. وفي ظل غياب أية أدلة أخرى، يبدو أنه من غير المحتمل أن يتم حل هذا اللغز أبداً. وربما كان إخفاء الاسم أمنية من أمنيات هذا الخبير المنعزل، ذلك أن المؤرخ يشير إلى أن ذلك الرجل كان مصراً على ألا يتخلى عن زهرة سمبر أغسطس لقاء أي سعر كان.

وكان بمقدروه أن يبيع أبصاله بسهولة. وفي وقت شهدت زراعة الزنبق انتشاراً واسعاً، فإن الحقيقة القائلة أنه لا يُوجد أكثر من اثني عشر صنفاً من الزنابق «فاتنة البهاء» قد جعلت

منها ندرة رائعة. وتشير الأدلة إلى أن المالك كان يستطيع طلب أي سعر يريده مقابل بصلة واحدة من أبصال سمبر أغسطس. وعوضاً عن ذلك، رفض كل الطلبات التي وردته لبيع أبصاله.

ولقد أمطره الخبراء الأثرياء في الجمهورية بوابل من عروض الشراء الباهظة مقابل بصلة واحدة على مدى عقد العشرينيات من القرن السابع عشر. ولم تكن المبالغ التي أبدوا استعدادهم لدفعها عالية فحسب، بل إنها كانت مذهلة، إلى درجة أن اثني عشر ألف جيلدر في عام 1623، لم تكن كافية للحصول على عشر بصلات، وفقاً لما يدونه فان فاسيناير في سجلاته.

ويقول المؤرخ إن خبير الأزهار المنعزل الذي ربى هذا الصنف من الزنبق كان يقدّر إلى حد كبير مجرد استمتاعه الخاص بتأمل جمال زهرة سمبر أغسطس بما يفوق أي ربح مادي ممكن. وكان إحجامه عن مجرد النظر في العروض التي ترده دافعاً لزملائه اليائسين لإنشاء مساكبهم الخاصة. وفي الصيف التالي جاءته عروض أسعار عالية بلغت ألفي أو ثلاثة آلاف جيلدر مقابل البصلة الواحدة، لكنه رفضها أيضاً دونما

إبطاء.

ومع الظهور الغامض لزنبق سمبر أغسطس بدأت أول أعراض ما سيغدو فيما بعد ظاهرة الولع بالزنبق. أما كيف وصلت هذه الزهرة أول مرة إلى الأقاليم المتحدة فأمر غير معروف. وطبقاً لما يقول فان فايسناير، زرعت الزهرة أصلاً عن طريق بذرة من قبل زهّار يعيش في شمال فرنسا. ولما لم يكن هذا البائع مدركاً لقيمتها فقد باعها بثمن بخس، ولابد أن ذلك قد حصل حوالي عام 1614. وبعد سنين عشر، أو اثنتي عشرة سنة، بزّ هذا الصنف كل أنواع الأزهار الأخرى فهرع خبراء من هولندا إلى الجنوب يطوفون بالمشاتل والحدائق في بلاد الفلمنك وبرابانت[1] وشمال فرنسا بحثاً عن أصناف أخرى من زهرة سمبر أغسطس. وكانت مهمتهم شاقة بصورة خيالية، كما أخفقت جهودهم في الحصول على غايتهم، وإن كانوا قد عثروا على أنواع أخرى من الزهور المشابهة لها، إلى درجة أن إحداها حملت اسم باريم أوغسطو، تيمناً بصلة القرابة بين الزهرتين. لكن الثانية كانت مختلفة إلى حد ما عن سيدة الزنبق في حيوية لونها ونقاء

(1) برابانت (Brabant) دوقية قديمة كانت جزءاً من هولندا، وجرى تقسيمها فيما بعد بين هولندا وبلجيكا. (المترجم)

صورتها.

وقد أرغم هذا الإخفاق خبراء الزهور الهولنديين على اتباع سبيل آخر، فحاولوا في لحظة معينة الحصول على أفخر أصناف الزنبق مما توافر لديهم من مجموعات الأزهار بغية منافسة زهرة سمبر أغسطس. ويذكر المؤرخ فان فايسيناير في هذا الشأن أصنافاً مثل تيستامينت كلوسي، وتيستامينت كورتهيرت، وموتاروم فان تشاستيلين، ويوفركنز فان مارتن دي فورت. وعلى الرغم من روعة هذه الزنابق فإن أياً منها لم يثر شيئاً من الإعجاب الذي حمله الناس لسيدة الزنبق ذات الشعلات الحمراء. أما الشائعات المستمرة حول العثور على نوع جديد من الزنبق في حديقة مدينة كولون يبز جمال زهرة سمبر أغسطس فقد أخفقت في إحداث أي أثر يذكر.

على أن جهود مالك الزهرة الغامض في السيطرة على انتشار زنبق سمبر أغسطس قد فشلت في نهاية الأمر. ويفسر فان فايسناير أن ذلك المالك الخبير الذي اكتشف ذاك النوع النادر كان قد وافق في وقت مبكر على بيع بصلة واحدة ثمينة مقابل ألف جيلدر، وهو مبلغ كبير. وعندما انتُشلت الزهرة من مسكبتها لاحظ أنها أنجبت فسيلتين من قاعدتها.

وكاد هذا الاكتشاف أن يفتك بالخبير إذ كان بإمكانه أن يطلب، وبصورة معقولة، ثلاثة آلاف جيلدر بدلاً من ألف جيلدر مقابل الزنبقة. أما بالنسبة للمشتري فقد كان شراء تلك الزنبقة إيذاناً بثروة هائلة، وتوافرت لديه كل الحوافز لأن يبيع إحدى الفسيلتين كي يسترد المبلغ الذي دفعه ثمناً للزنبقة. وها قد غدا آنذاك حائزاً لكل العناصر التي تشكل مجموعة قيمة من هذه الأزهار.

ومن هذه البداية غير المؤكدة أخذت زهرة سمبر أغسطس تتوافر تدريجياً للقادرين على شرائها. ويبدو أن أبصال هذه الأزهار الأكثر جذباً للباحثين عنها لم تكن قادرة على إنجاب فسائل قابلة للحياة إلاّ فيما ندر، وتلك كانت خصيصة من خصائص الزنابق الأكثر فتنة وبهاء. وربما عزي ذلك إلى أنها كانت عُرضة للإصابة بالفيروس الفسيفسائي أكثر من أصناف الزنبق البدائي، ولذا لم يبق منها بعد عقد من الزمان سوى عدد ضئيل للغاية. على أن تلك النّدرة المتواصلة لزنبق سمبر أغسطس لم تحد بالطبع من لهفة الخبراء لامتلاك الزهرة، بل إنها في الحقيقة ألهبت حماستهم للحصول عليها. وكانت تلك الندرة مقياساً جيداً مماثلاً لأي مقياس

آخر لهوس الأبصال الذي أخذ في الاندلاع في الجمهورية الهولندية حينذاك.

وتُعد ندرة الزنابق في هولندا القرن السابع عشر مسألة أساسية من أجل فهم صحيح لظاهرة الولع بالزنبق. إذ لم تكن زهرة الزنبق للهولندي في العصر الذهبي مجرد زهرة عادية في المتناول في أي وقت، بل كانت وافداً جديداً مثيراً للإعجاب، وكانت ما تزال تحمل شيئاً من فتنة الشرق الساحر. ولم يكن بالإمكان الحصول عليها إلاّ بكميات قليلة جداً. ولما كانت الأصناف الأكثر جمالاً نادرة الوجود، فقد كانت هي الأكثر إثارة للهفة الناس للحصول عليها. ولأنها كانت نادرة ومرغوبة، فقد كانت باهظة الثمن، ولذا كانت واحدة من النباتات التي تدر زراعتها ربحاً متزايداً.

ولقد أنتج نفر قليل من خبراء الزنبق أزهارهم الخاصة بصورة دائمة، وكانوا بستانيين حريصين ومتمكنين بقدراتهم الذاتية. فعلى سبيل المثال، كان الأَخَوان بالتاسار دي نوفيل ودانيال دي نوفيل من تجار الكتان الأثرياء في مدينة هارلم، وقد قاما بتربية نوعين جديدين من الزنبق في حديقة منزل داخل أسوار المدينة سموه «أرض الميعاد». على أن معظم

معاصريهم كانوا أقل منهما مهارة. وعند أواخر عشرينيات القرن السابع عشر ازداد الوضوح بأن الطلب على الزنبق لا يمكن أن يُلبى ببساطة عن طريق تبادل كميات ضئيلة من الأبصال فيما بين الخبراء. وهكذا بدأ متحمسون جدد للزنبق يدخلون السوق دون أن تتوافر لديهم أي من المهارات اللازمة لتربية أنواع خاصة بهم أو لا يمتلكون إلا القليل من البصلات اللازمة للحصول على أبصال الزنبق بالطريقة التقليدية.

وكان بعضهم يمتلكون حدائق شاسعة ويرغبون بزراعتها بأنواع الزنبق المختلفة، فاضطر هؤلاء الوافدون الجدد إلى البحث عن أماكن أخرى للحصول على إمداداتهم من الزنبق.

وهكذا يمموا وجوههم شطر تلك الحفنة من البساتنة المهنيين الذين كانوا قد بدأوا في تربية الزنابق الجديدة، التقليعة السائدة حينئذ، فكانت تلك تطوراً كبيراً في تاريخ زهرة الزنبق لأنه ما من شك في أنه دون جهود المهنيين يتعذر تطوير أعداد كبيرة من الأزهار الجديدة. وسوف يقل أيضاً عدد الأبصال المتداولة، كما ستتباطأ سرعة انتشار الزنبق في أرجاء الأقاليم المتحدة.

وما إن حل عام 1630 حتى كان يمكن العثور على مربين مهنيين للزنبق في كل مدينة من مدن الجمهورية الهولندية تقريباً. وقد زرع معظمهم أصناف الزهور كافة، إلا أن عدداً من هؤلاء بدأوا يتخصصون في زراعة الزنبق مثل هنريك بوتباكر من مدينة جودا الذي ابتكر نوعين من زنبق الروزن عُرف الأول باسم بوتباكر جيفلامت، والثاني أدميرال بوتباكر الذي يتميز بشعلاته البنية والصفراء. لقد كانوا خبراء في البستنة، وعلى ذات الدرجة من الأهمية كانوا أصحاب بصيرة حاذقة حيال ما هو قيّم وما هو أكثر مرغوبية في السوق.

كانت زهرة الزنبق المعروفة باسم نائب الملك في قمة الأزهار الأقرب لمنافسة زهرة سمبر أغسطس التي كانت تتربع على عرش السوق. وتتسم زهرة نائب الملك بأنها ذات معالم واضحة وشعلات أرجوانية، وتوصف بأنها ملكة الزنبق القرمزي. وكانت هناك زهرة تدعى زهرة لايدن الحمراء والصفراء تنتمي إلى صنف البيزاردين. وفي ذيل قائمة سوق الزنبق توافرت أزهار أرخص وأقل مرغوبية، وهي أصناف بسيطة بلون واحد، فإما أن تكون بتلاتها صفراء أو حمراء

أو بيضاء. ولما كانت هي الزهور الأقدم من بين أنواع الزنبق الهولندي، فقد كانت الأوسع انتشاراً.

هؤلاء البستانيون، من أمثال بوتباكر، لم ينبثقوا فجأة من فراغ، بل اكتسبوا مهاراتهم من عدد قليل من المزارعين السابقين الذين كانوا أقل خبرة عند نهاية القرن السادس عشر، وكانوا يحصلون على قوتهم بشق الأنفس في أسواق محدودة آنذاك. كان كلوسيوس ودائرته المحيطة من أصدقاء ينتمون إلى الطبقات العليا يعدّون هؤلاء المهنيين الأوائل أصحاب مهارات متواضعة، وينتقدونهم لجهلهم الشديد غالباً في علم النبات، ويحتقرون رغبتهم في إطلاق أسماء شعبية فظة على الأصناف الجديدة التي كانت تنمو في حدائقهم بين الحين والآخر، ربما بمحض الصدفة أكثر من نموها على أساس من العلم. بيد أن هؤلاء البستانيين ظلوا يزرعون الزنبق، ويزدادون خبرة.

وعند مطالع القرن السابع عشر كان يتعين على تلك الحفنة من رواد زراعة الزنبق، والذين استقروا في المناطق الريفية خارج مدينة بروكسل، أن يخوضوا تنافساً مع مجموعة ذات سمعة أسوأ مكونة من جامعين متجولين للزهور. لقد جاب

أولئك الأفراد الأرياف بلا كلل، وبخاصة الريف الفرنسي، بحثاً عن أصناف فريدة وباعوها لجامعي الزنبق، ومعظمهم في هولندا. أطلق هؤلاء على أنفسهم اسم (rhizotomi) وهي كلمة يونانية تعني «قاطعي الجذور». وحتى كلوسيوس نفسه، في سنوات هزاله الصحي، وجد فيهم مصدراً للزهور حين لم يعد قادراً بما فيه الكفاية على التنقل كي يجمع لنفسه أزهار الزنبق.

وفي أقل تقدير، فقد كانت قلة من «قاطعي الجذور» أولئك جديرة بالاحترام، ويذكر كلوسيوس من بينهم نيكولاس لو كويت من باريس، وجويلياموس بويليوس، كموردَيْن موثوقَيْن للأبصال النادرة التي كان كلوسيوس مايزال يسعى لاقتنائها. إلاّ أن المجموعة في مجملها كانت ذات سمعة مقيتة لأنه كان من اليسير عليها أن تخدع المشترين ببيعها البذور والأبصال العادية على أنها بذور وأبصال لأصناف الزنبق النادرة. وكانوا يطلبون أسعاراً عالية لقاء مبيعاتهم، مطمئنين إلى أنهم سيكونون قد مضوا في طريقهم وعادوا إلى ديارهم عبر الحدود الفرنسية قبل أن يزهر الزنبق بمدة طويلة وتُكتشف عملية الاحتيال. ولما كان من المستحيل تماماً،

حتى لخبير في علم النبات مثل كلوسيوس، تحديد نوع الزنبق الذي سينمو من بصلة بنية اللون مجهولة، فقد كان من المحتم أن تثير هذه المشكلة كل أشكال النزاع قبل أن يبلغ هوس الأبصال ذروته.

ولم يكن قاطعو الجذور الفئة الوحيدة التي تطوف الريف بحثاً عن النباتات النادرة في السنين الأولى من القرن السابع عشر، إذ ازدادت الزنابق البرية وفرة عن طريق الصيادلة أيضاً، أولئك الذين كانوا يجمعون الزنابق في أثناء رحلاتهم لجمع النباتات والأعشاب الطبية. ومن بين هؤلاء الصيادلة الذين عرفوا بجمع كميات كبيرة من الأبصال ثلاثة هولنديين هم: فيلين فان دي كيمب من مدينة أوتريخت، وبيتروس جاريت من أمستردام، وكريستيان بوريت من لايدن.

ظهر هؤلاء الصيادلة في وقت مبكر، وكانوا عبارة عن باعة متجولين لعلاجات شعبية مزيفة لأولئك العاجزين عن دفع تكاليف العلاج لتلك القلة المؤهلة من أطباء ذلك الزمان. وكانت تلك الفئة من الصيادلة موجودة على نطاق واسع آنذاك مثلما يتوافر الصيادلة المهنيون في وقتنا الحاضر. فقد كان أولئك الصيادلة يرتدون الزي ذاته الذي يرتديه أطباء

ذلك العهد: أردية ومعاطف سوداء وأربطة للياقات، وقبعة مدببة. وكان من اليسير التعرف على مقراتهم من خلال الرمز التقليدي المتمثل في صورة تمساح محنط مثبتة في إطار يتدلى في العادة من السقف ليستقر فوق المنضدة.

ومع أن بعض هؤلاء الصيادلة الأوائل كانوا من أصحاب المبادئ بلا شك، إلاّ أن تلك الفئة كانت تشاطر «قاطعي الجذور» سمعتهم السيئة كانتهازيين في السنوات الأولى من القرن السابع عشر. والسبب في ذلك أنه لم يمض وقت طويل على خروجهم من نقابة أصحاب محلات البقالة التي انتموا إليها لعدة قرون، حتى انضموا لنقابة الأطباء. وإذ نقول أنهم كانوا حقاً أصحاب بقالات حتى وقت قريب آنذاك، فذلك لأن بقالاتهم كانت هي الأماكن الوحيدة التي يُسمح للهولنديين بشراء كعكات الفاكهة منها.

على أن الكثير من هؤلاء الصيادلة انتهجوا سبلاً أفضل لجمع المال عوضاً عن هذه الطريقة. فلقد لعبت مقراتهم في الغالب دورين اثنين يتمثلان في تحولها إلى أوكار سرية لمعاقرة الخمر، علاوة على أن الكثير من المقرات كانت تقدم استشارات طبية فما يفترض أن يكون ذلك في الحقيقة

مقتصراً على الأطباء فحسب.

رجال كأولئك كانوا سعداء لتلبية الطلب المتنامي على زهور الزنبق عن طريق تقديم أبصال مجففة. كان بعض زبائنهم عشاقاً حقيقيين للزنبق، وكان بعضهم خبراء زنبق، ولكن يبدو أنه حتى تلك الفئة الأقل وقوعاً في دائرة الشك من أولئك الصيادلة الأوائل قد روّجوا للزنبق باعتباره طعاماً مثيراً للشهوة الجنسية.

وفي الفترة الواقعة بين عامي 1600 و1630 فقط استُبدل، بصورة متدرجة، أولئك التجار المغامرون من نوع قاطعي الجذور والصيادلة الأوائل بفئة جديدة من أصحاب المشاتل المهنيين المحترمين، الذين كان الكثير منهم يقيمون في مدينة هارلم، ثاني أكبر مدينة في إقليم هولندة، والتي شيدت على نوع من التربة الرملية الجدباء والملائمة تماماً لزراعة الزنبق. وقد آثر هؤلاء المهنيون انتقاء قطع صغيرة من الأراضي المستأجرة خارج أسوار المدينة، وعلى مسافة قصيرة من بوابات المدينة. ووفق تقاليد هارلم أنشئت معظم حدائق زنبق المدينة خارج «بوابة الغابة العظيمة»، تلك البوابة التي كانت تحرس أحد المدخلين الجنوبيين للمدينة. ولعل أجود مزارع

الزنبق الصغيرة في هارلم كانت تلك المزارع التي أقيمت على امتداد «طريق الغابة الصغيرة» التي تبدأ من البوابة الأخرى على الجانب الجنوبي للمدينة، نزولاً عبر منطقة ماتزال حتى اليوم تعرف بمقاطعة الزهور، ووصولاً إلى غابة هارلم الشهيرة، التي كانت موطن الجمال الأثير في المدينة. وقد أنشأ أكثر من عشرين مهنياً مشاتلهم على طول هذا الطريق، حيث امتلك مربي الزنبق الشهير ديفيد دي ميلت حديقته الخاصة في بقعة تدعى تويجندايرسلان. ويحظى اسم دي ميلت بمكانة مرموقة في الكثير من المدونات التي ماتزال موجودة حتى اليوم فيما يتصل بظاهرة الولع بالزنبق. وحينما توفي دي ميلت عن عمر لا يتجاوز الثالثة والثلاثين، وفي ذروة الهوس، تحولت ملكية حديقته إلى مرب بارز آخر للزنبق هو بارنيت كاردويس، الذي وصفها ب «حديقة إلهة الزهور». وبفضل إدارة كاردويس أصبحت هذه الحديقة واحدة من أكثر حدائق الزنبق بهاء في هولندا.

كان بارينت كاردويس قد تعلم مهنته تلك في أثناء عمله لصالح مربٍ آخر للزنبق في مدينة هارلم، هو الشخصية المشهورة بيتر بول، الذي ابتكر النوع المعروف باسم فايوليتين

أنفرس بول، علاوة على أصناف أخرى بديعة للغاية. ولعله كان الأغنى من بين مربي الزنبق في زمانه. وبخلاف معظم أقرانه، كان بول فيما يبدو سليل طبقة عليا وخبيراً وظف بساتنة مهنيين مثل كاردويس ليقوم بالكثير من العمل الفعلي الذي تتطلبه تربية الأبصال. ولكن، في مكان ما جنوبي المدينة في مقاطعة فيانين، كان يعيش مربٍ آخر للزنبق ينحدر من خلفية اجتماعية أكثر تواضعاً يدعى فرانسيسكو جوميز داكوستا، ولعله كان أكثر البستانيين نشاطاً في الأقاليم المتحدة.

كان داكوستا بستانياً برتغالياً بنى شهرته فقط عن طريق ما ابتكر من أصناف الزنبق. ويبدو أنه لم يتحدث اللغة الهولندية بطلاقة فقط، لكنه كان مجدداً لا يُضاهى في مجال الحدائق. وما تزال مخطوطة كتاب عن البستنة أعده لاستعماله الخاص موجودة حتى وقتنا هذا، وترد فيها قوائم بأسماء أزهاره كلها مرتبة وفق الحروف الأبجدية، بحيث يستفيد من هذا الترتيب بالطريقة التي يراها ملائمة. وتشتمل المخطوطة على ما لا يقل عن ثمانية أصناف تحمل اسمه، وأشهرها زنبق باراغون داكوستا الذي يُعرّف– عامة–على أنه صنف محسن

من زهرة موجودة، إذ تغدو ألوانها عادة أكثر جمالاً وقوة. وعلى ذلك الأساس، ربما كان الإنجاز الأكثر مدعاة للفخر بالنسبة لـ داكوستا هو ذلك الصنف المعروف باسم باراجون فايسروي داكوستا، الذي زُعم أنه تحسين لزنبق نائب الملك المتعذر تحسينه.

كانت زراعة الزنبق لمهاجر مثل داكوستا جذابة، وللأسباب ذاتها بالضبط، التي جذبت الكثير من الهولنديين، ذلك أنها لم تكن تتطلب غير استثمار ضئيل فحسب، وقطعة صغيرة من الأرض وبعض بذور الزنبق أو أبصاله. وكان ذلك هو كل ما تستلزمه البداية. والزنابق صلبة، وتنمو بصورة جيدة في التربة الفقيرة، ولم يكن زُراع الأبصال مطالبين بالانتماء لأية نقابة تقيد نشاطهم أو تلزمهم بدفع اشتراكات باهظة، ناهيك عن مراقبتها الصارمة لمعظم الحرف والمهن القائمة في الجمهورية الهولندية.

ومهما كانت قوة ميل المرء للبستنة، فقد كان العامل الأشد إغراءً للعمل في هذا الميدان الأرباح التي يمكن الحصول عليها من الإتجار بالزنبق. ومن المؤكد أن مربي الزنبق قد أصبحوا أثرياء، وهنا يبرز اسم بيتربول كواحد من أولئك الذين جنوا

أكبر الأرباح عن طريق تجارة الزنبق. أما تاجر الزنبق جان فان دام فقد خلف بعد وفاته في عام 1643 ممتلكات قوامها الأساس أبصال زنبق قدرت قيمتها آنذاك ب (42ر000) جيلدر. وقد وضعته تلك الثروة في مصاف الكثير من التجار الأثرياء الذين جمعوا ثرواتهم عن طريق العمل في التجارات النفيسة.

فمن أين جاء كل هذا المال؟ يدين مربو الزنبق الناجحون مثل فان دام بنجاحهم إلى قدرتهم على استغلال كل سوق ممكنة لأبصالهم. وقد وجد معظمهم زبائن دائمين من بين الخبراء وأصحاب المنازل الريفية الجديدة المنشأة على أحدث طراز. لكنهم كانوا أيضاً سعداء لبيع أبصالهم أيضاً لأفراد طبقة التجار الجديدة. وكان عدد قليل من البستانيين الأذكياء يبيعون زنابقهم في وقت مبكر منذ عام 1610 في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، مثلما كانوا يبيعونها بلا ريب في جنوب هولندا وشمال فرنسا. وما بدأ كتجارة تصدير محدودة للغاية، نما في الحقيقة ببطء ولكن بثقة، إلى درجة أنه في الربع الأول من القرن الثامن عشر كان الهولنديون يبعثون بشحنات من أبصال الزنبق إلى أمريكا الشمالية ومنطقة البحر الأبيض

المتوسط، بل وحتى إلى الإمبراطورية العثمانية.

وربما كان أول متعامل هولندي بالأبصال يتحول إلى تجارة التصدير هو إيمانويل سويرتس، الذي كان صديقاً قديماً آخر لكلوسيوس. امتلك إيمانويل محلاً لعرض الزنابق النادرة في أمستردام، وكان تاجراً نشطاً في العقد الأول من القرن الثامن عشر. لم تقتصر جهود إيمانويل على جمع أبصال الزنبق من جميع أنحاء أوروبا فقط، بل امتلك محلاً لبيع الزنبق في معرض ميسي، وهو معرض ضخم كان يُنظم سنوياً في فرانكفورت أم مين. وجدير بالذكر أن معرض فرانكفورت للكتاب الذي مايزال يجتذب الآلاف من الناشرين إلى المدينة في كل عام، إنما هو في الحقيقة أحد الجوانب المتبقية من هذا السوق الهائل الذي كان ينظم في العصور الوسطى.

ولقد أفرزت المهنية المتزايدة لتجارة الأبصال مشكلة مهمة لبعض الناس مثل إيمانويل سويرتس، إذ إن الزنابق تحتفظ بزهورها لبضعة أيام فقط في كل عام، وهكذا ينبغي بيعها كأبصال. بيد أن هذه الرزم البنية الخالية من أية ألوان أخرى لا تحمل أي دليل على الأمجاد التي تخفيها في داخلها، ومن المؤكد أنها لم تكن تبدو سلعة مشجعة على الاستثمار.

وقد توصل سويرتس إلى حل يتمثل في طباعة مصنف يضم رسوم توضح زنابقه في أوج مجدها، وأقنع أبرز زبائنه، وهو إمبراطور روما المقدسة رودولف الثاني، بدفع تكاليف الطباعة. كان ذلك هو الإمبراطور ذاته الذي طرد كلوسيوس ذات يوم من الخدمة الإمبراطورية.

وكان سويرتس قد أخذ بعد ذلك يبدي اهتماماً بسيطاً بالزنبق على سبيل الهواية، لكنه ظل منهمكاً في إجراء التجارب الكيميائية القديمة التي ملكت عليه شغاف قلبه. وقبيل وفاته في عام 1612 أصدر مصنفه الموسوم بـ مصنّف الزهور في فرانكفورت، والذي استخدم فيه سويرتس نظام التصنيف المتبع في الأعشاب الطبية آنذاك. واشتمل الكتاب على القليل من النصوص المكتوبة، بل حظي كل صنف من أصناف الزنبق المدونة في الكتاب على وصف موجز باللغة اللاتينية يتضمن معلومات رئيسة حول شكل الزنبقة ولونها.

وبعد سنتين فقط من ظهور مصنّف الزهور أصدر فنان هولندي يدعى كريسبجن فان دي باسي كتاباً مشابهاً أطلق عليه «زهور البستنة» . كان فان دي باسي ابناً لرجل فلمنكي يعمل نقاشاً على الأخشاب والمعادن. وحين أصدر الابن كتابه ذاك لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة من عمره لكن ثبت أن ذلك الكتاب كان واحداً من أنجح الكتب في علم النبات في ذلك الزمان. وسرعان ما تُرجم الكتاب من لغته اللاتينية الأصلية إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والهولندية. وقد تضمنت الطبعة الهولندية قائمة بالرواد المتحمسين للزنبق في مطالع القرن السابع عشر، فيما احتوت الطبعات اللاحقة فهرساً مكرساً برمته لزهرة الزنبق يتضح فيه أنه كانت توجد آنذاك تجارة حيوية في أبصال الزنبق بين الأقاليم المتحدة وألمانيا.

ولم يمضِ وقت طويل حتى غدت «زهور البستنة» مصنفاً في متناول أصحاب المشاتل الذين لم يتوافر لديهم ترف أصحاب المؤسسات الأثرياء القادرين على الدفع نقداً لإنتاج كتاب مثله. بيد أنه لم تكن هناك سوى جدوى محدودة لكتاب مطبوع ذي صبغة عامة، وبخاصة في الأيام الأولى لتجارة

الزنبق عندما كان كل مربٍ للزنبق يعرض أصنافه الفريدة للبيع. وقد حلت هذه المشكلة باستخدام أحد أبرز تقاليد هوس الأبصال المتمثل في إنتاج مخطوطات بأموال خاصة غنية بالصور والرسوم تسمى كتب الزنبق. وقد تم إنتاج عدد كبير من هذه «المصنفات» لأفراد من البساتنة الهولنديين يُعرف منها في وقتنا الحاضر قرابة خمسين مخطوطة مصورة بأحجام مختلفة احتوى أكبرها على خمسمائة صفحة، واشتملت في العادة على صورة توضيحية في كل صفحة مرسومة بألوان مائية أو بالغواش. ويصاحب كل صورة بشكل عام اسم زهرة الزنبق، ونادراً ما تُذكر أية معلومات تتعلق بسعر الزنبقة. وهناك شك في أن مربي الزنبق، شأنهم في ذلك شأن تجار الآثار القديمة في يومنا هذا، كانوا يؤثرون تحديد أسعار أبصالهم وفق تقديراتهم لثروات زبائنهم.

لم يُقتصر الاحتيال المالي من جانب مالكي كتب الزنبق على الزبائن الذين كانوا يدفعون مبالغ أكثر مما كانوا يتوقعون ثمناً للأبصال، بل إن الفنانين الذين كانوا يزودون تلك الكتب بالرسوم، وكان بعضهم رسامين بارزين معروفين، يتلقون بوجه عام أجوراً بخسة للغاية مقابل جهودهم. ولعلهم لم

يحصلوا على أكثر من حفنة ستايفرات للصفحة الواحدة.

وتشير الملاحظات التي دوّنها جاكوب فان سوانينبيرخ على كتابٍ رسم هو معظم لوحاته، إلى أن هذا الفنان رسم (122) صورة للزنبق مقابل أجر لا يزيد إلاّ قليلاً على ستة ستايفرات للوحة الواحدة، علماً بأن سوانينبيرخ هذا كان الأستاذ الذي تعلم على يديه رمبرانت فان ريجن.

لم يكن جاكوب فان سوانينبيرخ الفنان الوحيد الذي يحظى بتقدير عال، والذي أسهم في رسم صور الكتب لمربي الزنبق، فهناك جوديث ليستر التي كانت المرأة الوحيدة التي تكسب بالفعل قوت يومها من خلال عملها رسامة في الأقاليم المتحدة إبان العصر الذهبي. وقد رسمت جوديث صورتين لزنبق الروزين لمصنف بات يعرف اليوم على نطاق واسع باسم كتاب الزنبق لجوديت ليستر، الذي صدر تكريماً لها، مع أنه يضم لوحات لرسامين آخرين. كما رسم الفنان بيتر هولستايجن الأصغر مخطوطة لأحد مربي الزنبق يدعى كوس مؤرخة في عام 1637. وهو لم يشتمل على أسماء الزهور فحسب (بعضها ورد على شكل لغز أو كناية)، بل تضمن علاوة على ذلك سعر كل بصلة ووزنها عند زراعتها.

واحتوى كتاب بيتر على ثلاث وخمسين صورة للزنبق مرسومة بالغواش، واثنتي عشرة صورة إضافية، وعدد من صور أزهار القرنفل المرسومة بالألوان المائية.

وتبيّن الدراسة الفاحصة لهذا المصنف ولمصنفات الزهور الأخرى أن الكثير من الفنانين الذين أنتجوا هذه الأعمال قد ابتكروا شيئاً شبيهاً بفكرة خط إنتاج للرسوم عن طريق تنظيم عملية الرسم بأسلوب يتيح لمساعديهم رسم أوراق الأزهار وجذوعها. وغالباً ما كان يتم ذلك بشكل مبتذل قد لا يحمل سوى تشابه يعوزه الإتقان للصور الحقيقية للأزهار، فيما اقتُصر دور الفنانين فقط على رسم الجزء الصعب من صورة الوردة المتمثل في البتلات. فنانون آخرون نسخوا الرسوم التخطيطية للأصناف الأكثر ندرة والتي وردت في كتب صدرت في وقت سابق مع أن بعض أزهار الزنبق كانت نادرة للغاية، ولابد أن إلحاقها بكتبهم إنما كان بغية تقديم كتاب كامل، لا من أجل هدف آخر.

وإذ غدت كتب الزنبق في متناول مالكي المشاتل الهولنديين، فقد أصبحوا مسلّحين بأداة قيمة يمكنهم استخدامها في جذب المزيد من الزبائن لمبيعاتهم، وفي إغواء

الزبائن الفعليين لتجريب أنواع جديدة من زهور الزنبق. على أن مصنفات الزنبق التي ظلت موجودة حتى اليوم، والتي تزخر صفحاتها بكل أصناف الزنبق باستثناء ما تشابه منها مثل زنبق الروزن والفيوليتين والبيزاردين، تمدنا، دون قصد، بفكرة مهمة عن أساليب العمل في تجارة الزنبق في القرن السابع عشر، والتي اتسمت بالفوضى في غالب الأحيان.

وقد تمثلت إحدى الصعوبات الرئيسة التي واجهت كلاً من مربي الزنبق وخبرائه في مشكلة التمييز بين أصناف الزنبق التي تتشابه بصورة مذهلة. وحتى أكثر تجار الزنبق ومربيه معرفةً بالزنبق وجدوا أنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، التمييز بين زنبقة من صنف الروزن وأخرى من ذات الصنف تتمتع تقريباً بالعلامات ذاتها، مع أن هذه الأصناف كانت تساوي قيماً مالية مختلفة. وقد شكلت هذه المعضلة الأساس لعدد من النزاعات التي اتسمت بالحدة في بعض الأحيان بين مربي الزنبق وزبائنهم، تلك النزاعات التي تدونها بصورة جلية السجلات الباقية والمتعلقة بتجارة الزنبق.

إن حقيقة اختلاف أزهار الزنبق المنتمية إلى ذات الصنف من زهرة إلى أخرى ومن جيل إلى آخر لم تسعف في التمييز فيما بين تلك الأزهار، وفاقم من هذا اللبس تلك الكثرة المفرطة من الأسماء المتشابهة إلى حد الإرباك والتي كان يطلقها مبتكرو تلك الأصناف على أزهارهم. وقد وجد القادمون من الخارج أنه من المستحيل تقريباً التثبت من تلك التسميات الفوضوية للزنبق الهولندي، إذ غابت القواعد الصارمة في تلك الفترة، كما غابت، بالتأكيد، أية هيئة مركزية تستطيع فرض أي نوع من النظام على الطريقة التي تتم فيها تسمية أصناف الزنبق. فكل من ابتكر صنفاً جديداً احتفظ بميزة منحه اللقب الذي يريد، وكان هؤلاء، بصفة عامة، يختارون بين المغالاة في وصف الصنف بما يشير إلى الصفات الاستثنائية التي يشعرون أنها تميزه، أو إطلاق أسمائهم الشخصية عليها، ولطالما استخدموا الوسيلتين معاً.

أما الرجل الذي وجد نفسه، دونما قصد، مسؤولاً عن هذا الولع فقد كان مساعد مأمور التنفيذ في منطقة كينرميرلاند، وهي منطقة ساحلية تقع بين مدينة هارلم والبحر.

ابتكر ذلك الرجل زنبقة من نوع الروزن ذات الجمال الاستثنائي، وإذ أمضى وقتاً طويلاً بحثاً عن اسم يحمل تفوق هذه الزنبقة على غيرها، فقد قرر أن يسميها «أدميرال» (أي أمير البحر)، وسرعان ما أصبح اسم «أدميرال» الصفة الأرقى التي يمكن لأية زنبقة أن تطمح للحصول عليه. وما لبث مربو الزنبق أن اندفعوا أفواجاً لإطلاق الاسم على الزنابق التي ابتكروها مثل أدميرال ليفكينز، وأدميرال كريجنتي، وأدميرال فان انخويسن، ونوع آخر هو الأكثر شهرة منها جميعاً هو أدميرال فان دي إيجيك. وقد وقع أجانب أحياناً في خطأ الاعتقاد بأن هذه الأزهار كانت تُسمى تكريماً لأبطال من البحارة اشتركوا في الثورة الهولندية، لكن الحقيقة بالطبع هي أن هذه الأسماء لم تكن احتفاءً ببحارة، بل كانت أسماء للبستانيين الذين ابتكروا تلك الأصناف. وفي الحقبة التي شهدت ظاهرة الولع بالزنبق كان يوجد زهاء خمسين نوعاً مختلفاً من الزنبق مسبوقة بلقب الأدميرال، علاوة على ما يقرب من ثلاثين صنفاً أخرى حملت لقباً منافساً هو «الجنرال». وأطلق على واحدة من مجموعة أزهار الجنرال اسم جنرال فان دي إيجيك، ربما أملاً في أن يقنع

الاسم المشترين المحتملين أن هذه الزهرة تتمتع بخصائص ترقى إلى مستوى الخصائص الأسطورية التي كان يتمتع بها زنبق الأدميرال.

ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد، فما أن تنتشر سمعة زنابق الأدميرال والجنرال حتى يبادر مربو الزنبق إلى اتخاذ الخطوة المنطقية الثانية المتمثلة في البحث عن تعبيرات جديدة من صيغ المغالاة في الوصف، فابتكروا فئة من النباتات أطلقوا عليها اسم «جنراليسيمو»، أي سلسلة زنبق الجنرال. بعد ذلك برزت أصناف جديدة أطلقت عليها أسماء تكريماً لأبطال حقيقيين قدامى مثل الإسكندر الأكبر، وسيبيو. وأخيراً، أطلق على صنفين من الزنبق زُرعا في منطقة جودا، وبعنجهية تقطع الأنفاس، اسم أدميرال الأدميرالات وجنرال الجنرالات. لكن هاتين الزهرتين، في أقل تقدير، كانتا من بين الأصناف الفاخرة حقاً، والمعروفة بحجمها وخطوطها القرمزية النارية.

كانت تلك الممارسات تعني أن الكثير من زهور الزنبق ذات المكانة الأدنى احتفظت باسم فصيلة الأدميرال أو الجنرال، فيما لم يكن الزبائن قادرين بالضرورة حتى على

تحديد نوع الزنبق الذي يشترونه من خلال لقبه فقط. فمجموعة الجنرال، مثلاً، كانت تتكون دائماً تقريباً من زنبق الروزن، فيما كانت توجد ثلاثة أصناف من فصيلة الفيوليتين تحمل الاسم ذاته. كما توافرت أزهار من أصناف الفيولتين والبيزاردين تحمل اسم أدميرال. ومن الطبيعي أن تشير تلك الفوضى إلى أنه كان يتعين على مربي الزنبق أن يفعلوا ما باستطاعتهم لنشر أسماء الأصناف الجديدة التي كانوا يبتكرونها. وقد فسّر أحد الكتاب المعاصرين آنذاك الطريقة التي كان يتم بها ذلك بقوله:

إذا ما حدث تغيير في أصناف الزنبق، يتوجه أحدهم إلى بائع زهور ويبلغه بذلك. وسرعان ما يغدو هذا التغيير موضوعاً للحديث، ويصبح الجميع تواقين لرؤيته. فإن كان التغيير يتمثل في إنتاج زهرة جديدة، يبدي كل شخص رأيه فيها، وأحدهم يقارنها بهذه، وآخر بتلك. وإذا كانت شبيهة بزهرة الأدميرال فيمكنك أن تسميها زهرة الجنرال، أو أن تطلق عليها أي اسم آخر تتخيله، وتتحمل تكلفة زجاجة نبيذ لأصدقائك أملاً في أن يتذكروا مواصلة الحديث عنها.

أما فيما يتصل بالحديث، فلقد تحدثوا. وما إن حل عام

1633 حتى كانت الجهود المتضافرة لمربي الزنبق، وخبرائه، وقاطعي الجذور، والصيادلة القدماء قد تمخضت تقريباً عن حل لمشكلة الندرة القديمة. وتوافرت زهور الزنبق أخيراً على نطاق واسع في جميع أنحاء هولندا، حتى إن ما مجموعه خمسمائة صنف مختلف من الزنبق كانت تزرع آنذاك في الجمهورية الهولندية وحدها، وكان بعضها من الزنبق الفاخر والنادر إلى حد بعيد. بيد أنه كان يمكن الحصول على الأصناف الأخرى، التي لا تخلو من جمال أيضاً، بسهولة أكثر. وإذ ازداد عرض الأبصال تدريجياً في الأسواق، بدأت الزهرة في جذب معجبين جدد من أوساط الحرفيين والعمال في الجمهورية الهولندية، أولئك الذين كانوا حتى ذلك الحين إما عاجزين عن شراء الزنبق أو أنهم كانوا أشد اهتماماً بتجارة الأبصال.

كان ذلك عملاً تولاه مربو الزنبق جزئياً، إذ كان أهم زبائنهم، أي الخبراء، يطلبون باستمرار أزهاراً أكثر جمالاً وندرة، ما ألقى على زارعي الأبصال مهمة التخلص من الكميات المتزايدة للأنواع الأقدم والأقل جذباً، والتي كان من الطبيعي أن تشكل معظم مخزونهم من الأبصال. فأقدموا

على حل هذه المشكلة ببيع تلك الأزهار بأسعار متدنية لزبائن جدد كانوا قد سمعوا كثيراً من الكلام الحماسي عن جمال الأصناف الأحدث، وأرادوا اقتناء زنبق خاص بهم. بل إن بعض مربي الزنبق الأكثر طموحاً لجأوا إلى عرض أبصال غير مرغوبة لعدد هائل من باعة الزنبق المتجولين، الذين كانوا يرتحلون من مدينة إلى أخرى لبيع بضائعهم في المعارض والأسواق المحلية لتلك المدن. هؤلاء الباعة أسهموا في نشر الدعاية لزهور الزنبق في طول البلاد وعرضها، وساعدوا على تعريف المزارعين والعمال والعاملين في أراضي البحر المستصلحة من الأرياف بأزهار الزنبق الأكثر بدائية، وأشاعوا بشارة الزنبق في مناطق نائية وواسعة.

بيد أنه إذا نُظر للأمر من منظور أوسع، يتضح أن الاهتمام بتجارة الزنبق الذي نشأ لدى الكثير من الهولنديين آنذاك لم يكن مديناً للجمال الطبيعي للزنبق بقدر ما كان مديناً لتلك المعرفة الجديدة التي كان مؤداها أن تجارة الزنبق تدر مالاً وفيراً. على أن ذلك كان يقتضي المزيد من التقصي، وعلى الرغم من تلك الثروة الهائلة التي تدفقت على الجمهورية آنذاك فإن الكثير من مواطنيها لم يجنوا إلاّ النزر اليسير.

الفصل التاسع

زهارون

لم يتوقف الأجانب الذين كان يتملكهم العجب حول الثروة التي كان يتمتع بها الهولنديون خلال العصر الذهبي عن التساؤل عن السبل التي تمكّن بها الهولنديون من الحصول على ثروة كتلك. فربما كان حكام الأقاليم وكبار التجار في الأقاليم المتحدة أثرياء، لكن البلد الذي يعيشون فيه كان واحداً من أكثر الأماكن فقراً في أوروبا. أم قليلة أخرى كانت في وضع مماثل تقريباً لوضع الجمهورية الهولندية بافتقارها إلى الأراضي الخصبة والريف الخلاب والمناخ اللطيف، ولم يكن يوجد فيها ما يوحي أن تلك البلاد ستكون أرضاً لأي وعد كان. فالأقاليم الهولندية الجنوبية مزقتها الحروب، وأقاليمها الشمالية تعج بمستنقعات النباتات المتفسخة الممتدة على طول تلك الأقاليم.

في تلك البلاد عاشت أمة وصفها مواطن إنجليزي بازدراء قائلاً «إنها مستنقع كوني ... هي مؤخرة العالم». إنها بلاد بُنيت مدينتها الأكبر، أمستردام، على أرض سبخة، ولا يمكن

الوصول إليها إلاّ عبر تحدي بحر زويدر؛ ذلك البحر الداخلي الذي يبلغ طوله خمسين ميلاً ويعج بالقُرارات الرملية والمياه الضحلة الغادرة. كانت أمستردام مكاناً حيث الهواء «كله مليء بالضباب والسديم ما لم يأته الصفاء عن طريق نوبات الصقيع الحاد»، على حد تعبير سفير إنجليزي هو السير ويليام تمبل الذي يستطرد فيقول أن الطقس «عنيف ومفاجئ»، وغير صحي إلى حد بعيد، وبارد ورطب حتى ليبدو وكأنه مسبب لكل أنواع الحمى والطاعون.

أما فيما يتصل بحكام الأقاليم في الجمهورية الهولندية، فقد ترتب على المال المتوافر لديهم أن جعل من الفقر في البلاد أمراً يمكن تحمله. كما تمتع أصحاب المزارع بأحوال مالية حسنة خلال العصر الذهبي. وفيما كانت البلاد تعج بأفواه كثيرة بحاجة للغذاء، كان الطلب يزداد على منتجات مربي الزنبق من الإمبراطورية الرومانية المقدسة. كانت حرب الثلاثين عاماً التي اندلعت بين الشمال البروتستانتي والجنوب الكاثوليكي، والتي امتدت من عام 1618 حتى عام 1648 قد دمرت الزراعة المحلية. وبالنسبة إلى العمال العاديين، كالنساجين والنجارين والحدادين والإسكافيين وتجار السوق

الذين كانوا يعيشون في المدن وشكلوا ما سماه الهولنديون طبقة الحرفيين، فقد كانت الحياة في الأقاليم المتحدة شاقة إلى حد بعيد.

وعمل جميع الحرفيين الهولنديين تقريباً لساعات طويلة لقاء أجور ضئيلة في القرن السابع عشر. وعندما كانوا ينتهون من عملهم اليومي ويعودون في آخر المطاف إلى بيوتهم، فإنما كانوا يعودون إلى بيوت ضيقة، لا توجد فيها غير غرفة واحدة أو اثنتين، ولا تحتوي إلاّ على قطع من الأثاث مبعثرة هنا وهناك. وإذ كانت البيوت قليلة العدد، فقد كانت إيجاراتها عالية الأسعار. وحتى الطعام الشعبي السائد كان آنذاك رتيباً.

وبالنسبة إلى أناس محاصرين في حياة من هذا القبيل، فإن فكرة مثل إمكانية كسب عيش كريم عن طريق زراعة الأبصال كانت لا تقاوم، إذ يكفي أن يجلس المرء مطمئناً يراقب الأبصال وهي تنمو.

ولقد دأب معظم الحرفيين لسنوات طويلة على بدء أعمالهم قبل بزوغ الفجر لينتهوا منها بعد الغسق. وفي عام 1630 كانت الأصوات المنبثقة من ورشات المدن وهي

تؤدي أعمالها في ساعات الصباح الباكر مزعجة إلى حد كبير حتى إن مدناً عديدة اضطرت إلى إصدار مراسيم تمنع قصاري النسيج من بدء العمل قبل الثانية صباحاً، وبائعي القبعات قبل الرابعة صباحاً. وقد عانى الحدادون من أكثر القيود تشدداً إذ كانت محلاتهم مثيرة للإزعاج إلى درجة أن أصحابها أُمروا بأن تظل محلاتهم مغلقة إلى أن يُقرع الجرس الذي يعلن انبلاج النهار.

وخلال أيام عملهم الطويلة لم يكن العمال الهولنديون يتناولون من الطعام غير وجبات خفيفة من الجبن وسمك الرنة النيئ والمخللات، وغداء بسيط يتناولونه في منتصف النهار، ويتكون في العادة من الطبق الشعبي المتمثل في لحم مطبوخ يعرف باسم الطبق الساخن، الذي يتكون من قطع من لحم الضأن والجزر الأبيض والخل وقطع البرقوق المسلوقة في الدهن.

ولكي يحصل المرء على طبق ساخن طيب، كان يُفترض أن يترك الخليط يغلي لمدة ثلاث ساعات في أقل تقدير. أما في ظروف الطقس الردئ والعمل الشاق فلم يكن يتجاوز وقت الطبخ أكثر من ساعة واحدة. ولذلك، عندما كان يقدم طعام

كذاك، لم يكن «أكثر من ماء زاخر بالملح أو جوزة الطيب مع قطع من بنكرياس العجل مضافاً إليه لحم مفروم لا صلة له البتة بمذاق اللحم»، على حد وصف أحد الزائرين الفرنسيين المذعورين.

ومع ذلك فقد كان الطبق الساخن الفقير للكثير من الهولنديين ترفاً لا يتيسر الحصول عليه إلاّ بين الفينة والأخرى. فأولئك الذين لم يكن بمقدورهم دفع تكاليف اللحم إنما كانوا يعتاشون على الخضار وخبز الجودر الأسود اللزج، الذي كان سائداً آنذاك، والذي كان يباع على شكل أرغفة ضخمة تزن اثني عشر رطلاً أو يزيد. فكانت الأم في الأُسر الأشد بؤساً تشتري رغيفاً واحداً تُطعم به جميع أفراد العائلة على مدى يوم كامل. وحتى عندما كان يتوافر طعام آخر، فقد كانت تعيقه عادات غذائية لدى الهولنديين متحفظة للغاية بوجه عام. فالطعام البحري بالنسبة إليهم، على سبيل المثال، لم يكن يعني دائماً تقريباً غير سمك الرنّة أو سمك القد. وعلى الرغم من توافر بلح البحر فقد كان يُنظر إليه بازدراء، وكان يُعدّ النوع الأفقر من بين أصناف الطعام. وفي أحد المنازل الفخمة كان الخدم يشعرون بالاشمئزاز إذا قدم لهم

سمك السلمون، بل إنهم كانوا يتوسلون لسيدة المنزل أن تعدهم بألاّ تطعمهم هذا النوع من السمك أكثر من مرتين في الأسبوع.

وعندما كان العمال ينتهون من الغداء، كانوا يستأنفون العمل حتى وقت متأخر يستمر إلى حلول الغسق، ويمكن أن يزداد تأخرهم إذا ما توافر ضوء اصطناعي. وقد ساد اعتقاد إبان العصر الذهبي أن يوم عمل يمتد لأربع عشرة ساعة أمر عادي تماماً. وفي مدينة لايدن كان عمال القماش المضغوط في عام 1637 يعملون في ورديات تمتد الواحدة منها إلى ست عشرة ساعة في اليوم، وكانوا يقبلون بالعمل لساعات إضافية جراء حاجتهم الماسة للمال. لم يتوافر وقت كثير للراحة، فالكل يعمل ستة أيام في الأسبوع. وكانت إحدى النتائج التي لم تلق ترحيباً من العمال، والتي ترتبت على حركة الإصلاح، تتمثل في إلغاء عدد جيد من أيام العطلات التي كانت مناسبات للاحتفال في وقت مضى، ومثال ذلك العطلات المرتبطة بأعياد القديسين.

أما الحرفيون فنادراً ما تذمروا من ذلك إذ إنهم كانوا يتلقون أجورهم لقاء أعمالهم بالساعة. وكانت الأجور تدفع

لهم طبقاً لعدد الساعات التي عملوها خلال أسبوع واحد. وهكذا كانوا يرون أن عملاً ما في فصل الصيف يعود عليهم بدخل إضافي ضئيل هو أفضل قليلاً من عمل أيام قصيرة في فصل الشتاء التي لا تكاد تستطيع أجورها أن تقيهم مغبة المجاعة في ذلك الفصل.

وحتى في ظروف الطقس اللطيف والنهار الطويل، كانت الأجور التي تدفع لمعظم أصحاب المهن تتراوح ما بين نصف ستايفر واثنين مقابل كل ساعة عمل، فكان مئات الآلاف من الهولنديين يكدحون لوقت طويل مقابل جيلدر واحد أو دون ذلك في اليوم. وكانت النتيجة أنه في ظل منع العمل أيام الأحد، غالباً ما توقع الحرفي الهولندي المنخرط في عمل منتظم أن يكسب أجراً سنوياً لا يتجاوز (300) جيلدر، فيما كانت عائلة تضم خمسة أفراد تحتاج إلى حد أدنى من الدخل يصل إلى (280) جيلدر في السنة فقط لتتفادى المجاعة.

أما أولئك الذين حصلوا على أجور أعلى، فلم يكونوا بالضرورة أكثر غنى، ذلك أن معظم الحرف التي كان الحرفي يأمل أن يكسب عن طريقها عيشاً كريماً كانت ماتزال تخضع لسيطرة النقابات التي فرضت مستحقات عالية، كما

تتوقع من أعضائها المساهمة في تكاليف الولائم وحفلات الاستقبال المتكررة التي كانت تميز عمل النقابة على مدى عام كامل. ولطالما أخفق عدد لا بأس به من الحرفيين الذين أتموا بنجاح مدد تدريبهم الحرفي الطويلة التي كانت متوقعة منهم في دفع مبالغ كتلك، فاضطروا إلى البقاء عمالاً بالمياومة طوال حياتهم. وحتى في ذروة العصر الذهبي الذي تدفقت فيه الثروات في خزائن حكام الأقاليم عن طريق الاستثمارات والتجارات النفيسة، كان كبار الحرفيين في الجمهورية، الذين تجاوزوا كل العقبات وانضموا إلى نقاباتهم المختارة، يعانون من الفقر بعامة إلى درجة أنهم كانوا عاجزين عن تعيين مساعدين لهم من المتدربين الجدد.

ويتضح من هذا المنظور أن الأقاليم المتحدة كانت تتمتع بالثراء، بيد أن قلة قليلة من سكانها يُعدون أثرياء. صحيح أن بعض الحرفيين تمكنوا من كسب أجور توفر لهم عيشاً كريماً، بل حتى الأكثر فقراً من بينهم كانوا يتلقون أجوراً تصل إلى ضعفي الأجور التي يتلقاها فقراء البلاد الأخرى، لكن، بالمقابل، كانت الضرائب عالية والأسعار باهظة في جميع أنحاء الجمهورية. كما أن أولئك الذين توافرت لهم أعمال

منتظمة كانوا يعيشون في حالة من القلق الدائم حيال قيمة أموالهم، ما اضطر زوجاتهم بوجه عام للعمل بغية تأمين مصدر دخل إضافي للأسرة.

ومن هنا فإن الأسرة الهولندية العادية لم تكن قادرة على ادخار غير القليل من المال، ولم تتوافر لديها غير ممتلكات قليلة نسبياً. ولو أن هذه العائلات كانت عائلات لحرفيين ومواطنين يعيشون في واحدة من المدن الكبيرة، كما هي حال أكثر من رُبع سكان الجمهورية، فربما عاشوا خلف أبواب مصنوعة من خشب البلوط، مطلية بالشمع ومصبوغة باللون الأخضر وأقاموا في واحد من المنازل الصغيرة الأنيقة التي كانت تصطفّ على جوانب لشوارع تزدحم بالناس.

أما منازلهم من داخلها فقد كانت على نحو من اليقين شديدة النظافة إلى حد الهوس. لقد كان ولع الهولنديين بالنظافة أمراً لاحظه كل الزائرين تقريباً. ولم يكن أمراً غير عادي أن يظل البيت دائم الرطوبة من شدة الحت. كما لم يكن استثناءً أن يطلب إلى كل زائر لمنزل أن يرتدي نعالاً من القش فوق حذائه الذي يرتديه خارج المنزل للحيلولة دون وصول الأوساخ إلى داخل المنزل. أما المنزل ذاته فقد كان

خاوياً تقريباً من الأثاث. ولربما تباهت أسرة حرفي بامتلاكها منضدة، أو خزانة خالصة، أو بعض أدوات المائدة، أو ربما بعض المقاعد ذات المساند الخلفية المستقيمة، التي كانت تباع بجيلدر واحد للقطعة. وكان جمع ما يكفي من المال لابتياع أغلى قطع الأثاث، وهو السرير، يستغرق أمداً طويلاً. وكانت توجد أنواع رخيصة من الأسرّة يطلق على الواحد منها السرير- الخزانة لأنه كان يثبت في جدار ليحفظ الدفء، لكن هذا النوع من الأسرّة كان صغيراً للغاية إلى درجة أنه كان يتعين على مستخدمه أن يتخذ وضعية القعود عند النوم. وحتى هذا الصنف كان يكلف عشرة جيلدرات أو خمسة عشر جيلدراً. وحدهم أعضاء طبقة التجار كانوا قادرين على شراء سرير متسع مقابل ثمن باهظ يصل إلى مائة جيلدر. أما في أوساط عائلات الحرفيين، فقد كان أطفالهم ينامون على أرائك أو على ألواح من الخشب، أو في جوارير تحت أسرّة والديهم. وكان يُتوقع منهم عند بلوغهم الرابعة عشرة من العمل أن يجدوا عملاً وأن يسهموا أيضاً بقدر ما يستطيعون في إسناد الأُسرة.

وما أن حل عام 1630 حتى غدا الازدهار المضطرب

لطبقة الحرفيين موضع خطر متزايد جراء طوفان اللاجئين البروتستانت القادمين من الجنوب. وكان الناس حتى في القرن السادس عشر قد بدأوا يشيعون أن جمهوريتهم تزداد ازدحاماً، إذ إن معظم الأراضي القابلة للزراعة، حيث أغلبية السكان، كانت تتركز في ثلاثة أقاليم تتمتع بخصب نسبي وتقع في وسط البلاد وهي: إقليم هولندة، وإقليم جيلدرلاند، وإقليم أوتريخت (إحدى المناطق المزدهرة حقاً كانت تقع جنوباً حيث شعب الزيلاند الذي كان غالباً ما يجني رزقه من مصائد الأسماك، بيد أن الأقاليم الباقية لم تكن قادرة على إعالة الكثير من الناس).

ومع وصول عشرات الآلاف من المهاجرين من جنوب هولندا، فيما كان معظمهم يبحثون عن عمل، تضخم عدد السكان ليبلغ نحو مليونين من البشر. والحقيقة أن العديد من الجنوبيين قد أحضروا معهم أموالهم ما أسهم بالتأكيد في التخفيف من وطأة العبء. وعلى الرغم من ذلك، شكّل الازدحام المفرط معضلة هامة، إذ إن أولئك الذين لم يصبحوا أثرياء بعد، كانوا قادرين على إدراك أن فرصهم في الازدهار ذات يوم تزداد تراجعاً.

بيد أن الفرص كانت متاحة، وكان الناس قادرين على رؤيتها ولديهم إرادة قوية للاستفادة منها، ولكن «حيثما توافرت فرصة لكسب ستايفر، كانت تتلقفه عشرات الأيدي»، كما قال الواعظ ويليام بوداريتوس في عام 1624. فإذا كان المرء فقيراً ويكافح من أجل لقمة العيش في سوق يعج بفائض العمالة في العصر الذهبي، فقد ينزلق في واقع الأمر إلى أدنى درجات السلم الاجتماعي بدلاً من صعوده. وهذا ما جعل من إغواء الزنبق أمراً لا يقاوم بالنسبة لأعداد كبيرة جداً من فقراء الهولنديين، وما جعل من الأرباح السريعة التي بدا وكأن الزنبق يعد بها أمراً مثيراً للغاية.

لقد اتسم الشعب الهولندي في الأقاليم المتحدة بسمة حيوية وطنية وعلى نطاق واسع، وبما يفوق أية أمة أخرى في أوروبا في النصف الأول من القرن السابع عشر، تلك السمة التي لعبت دوراً أكبر من أي عامل آخر في إقناع التجار والحرفين القلقين على مستقبلهم أن يجربوا حظهم في الإتجار بالزنبق. وقد تمثلت تلك السمة الوطنية في ذلك الإيمان الشديد لدى الناس بأن الحراك الاجتماعي حق منذ الولادة لكل هولندي. ففي فرنسا أو في الإمبراطورية

الرومانية المقدسة كان الفلاح موقناً أنه مهما حدث له سيظل فلاحاً على الدوام، تماماً كالبقال الذي كان ابناً لبقال وسيكون أباً لبقالين. على أن الأقاليم المتحدة كانت أرضاً أصبح فيها ابن مهاجر الرجل الأغنى في المدينة الأكثر ثراء على وجه الأرض، وانتُخب، رغم أصوله المتواضعة تماماً، عضوا في طبقة الحكام، وحيث يمكن لعامل قروي أن يجرب حظه في المدن. وفي تلك الأقاليم كان بمقدور حرفي معتدل الثروة أن يستثمر، بين الحين والآخر، أمواله في شراء حصة صغيرة للغاية في سفينة تستعد للإقلاع للإتجار في منطقة البلطيق، وفي إعادة استثمار أرباحه مواصلاً شق طريقه صعوداً إلى أن يصبح مالك السفينة. كانت حقبة العصر الذهبي بالنسبة إلى الهولنديين حبلى بأمل التغيير، فقد شعر الفقراء بذلك الإحساس في الأقل، مثلما شعر به الأثرياء بالقدر ذاته، لكن الشعور الأقوى تملّك تجار الزنبق.

وإذ تصاعد الطلب على الزنبق، وارتفعت أسعار أصناف خاصة منه سنة بعد أخرى، فقد بات واضحاً بصورة متزايدة أن تجارة الزنبق ميدان لجمع المال. ومنذ مطالع العقد الثالث من القرن السابع عشر، شرعت فئة جديدة من المشترين

تتجول بحثاً عن مشاتل الجمهورية الهولندية. لم يكن أولئك القادمون الجدد خبراء في الزهور، وربما لم يعرف الكثير منهم عن تربية الأبصال سوى النزر اليسير، هذا إن عرفوا عنها أي شيء. ولم يكن لدى أولئك الذين نعتوا أنفسهم بـ «الزهارين»، أي اهتمام غير جمع المال من الزنبق.

ولعل الزهارين الأوائل قد فكروا في أن يصبحوا هم زارعين للزنبق، ذلك أن فكرة تناول بصلة بسيطة وتحويلها إلى مال في غضون فصل شتاء واحد، كانت فكرة مثيرة للغاية. ومن الطبيعي أن تلقى فكرة كتلك هوى بشكل خاص لدى المتجولين، والكسالى، وقناصي الفرص في المجتمع الهولندي. كان الزهّارون جزءاً من تلك الفئة من الشعب التي تفتقر إلى العمل المستقر أو الدخل الثابت، لذا رحبوا بما بدا فرصة رائعة لكسب شيء من المال اليسير. وكثير من الحرفيين الشرفاء الذين كانوا يكدحون بعناء ليحصلوا على أجر لا يكاد يذكر مقارنة بالأموال التي يكسبها مربو الزنبق، وجدوا هم أيضاً انجذاباً متزايداً نحو الإتجار بالزنبق. ومن الطبيعي أيضاً، وبالقدر ذاته، أن تكون تجارة الزنبق أقل إغراء للأثرياء وللمستقرين في مهن ثابتة، الذين كانوا ينعمون

بحياة مريحة بصورة معقولة.

ولقد غدت فكرة إنشاء مشتل صغير لزراعة الزنبق أمراً طبيعياً للكثير من الزهارين، وما إن حل العقد الثالث من القرن السابع عشر حتى أخذت تقليعة إنشاء الحدائق في الانتشار إلى مناطق تتجاوز حدود البلاد بعد أن كانت فيما مضى مقتصرة إلى حد كبير على طبقتي الحكام والتجار. وأصبح لدى الكثير من الحرفيين الذين كانوا يقيمون في مدن مثل هارلم وأمستردام قطعاً من الأراضي تقع خارج أسوار المدينة. وقبل أن ينطلق هوس الأبصال فعلياً بلا توقف، كانت تلك القطع مستخدمة في زراعة الخضروات، لكن القليل منها آنذاك كان متقناً بصورة تثير الدهشة. وقد لاحظ الرحالة السير ويليام بريريتون أن حديقة يملكها رجل فقير في مدينة لايدن اتسمت بشيء من التشذيب البديع قد جسدت عن طريق تقليم شجيرات البُقس حياة جندي في جميع الأوضاع، كما مثّلت صورة قائدٍ عسكريٍ على ظهر جواد».

واعتقد رحالة انجليزي آخر هو بيتر ماندي أن المتع التي تنطوي عليها زراعة حديقة صغيرة أعانت أهل أمستردام على التعويض عن أشكال البؤس التي يجرها عليهم العيش

في مناخ سبخي. وكتب بيتر في يومياته يقول «إن الرغبة في التنزه في الحقول والمروج التي يتمتع بها آخرون في أماكن أخرى جعلت هؤلاء يستعيضون عنها بمسرات منزلية مثل ... الحدائق الصغيرة وآنية الزهور التي كان ينبت فيها فيما بعد جذور ونباتات وزهور، وغيرها، غريبة ونادرة للغاية».

واستمتع القرويون الهولنديون بمباهج البستنة، ذلك أنه في ذروة العصر الذهبي كان يوجد بشكل عام، حتى في المستوطنات الأصغر مساحة، أندية لمربي الزنبق، ولكل ناد قواعده ومهرجاناته الخاصة التي يحييها في الهواء الطلق. وكانت أغلبية هذه الأندية تنظم مهرجانات للزهور في فصل الربيع، كما هو الحال اليوم، تعرض فيها، على سبيل المنافسة، أصناف مختلفة وتمنح جوائز لأجود الأصناف. وعادة ما تنتهي تلك الاحتفالات بوليمة تقام على شرف الأزهار الفائزة (وهو مسوّغ للدعوة إلى وليمة أخرى كما لاحظ مراقبون أجانب بخبث). وباختصار، غدا إنشاء الحدائق ولعاً وطنياً لدى الهولنديين.

وفي وقت ما قبيل عام 1635 بدأ أوائل الزهارين في تحقيق ربح مما كان من المحتمل أن يكون استثماراً أولياً مؤقتاً نوعاً ما

في أبصال الزنبق. وسرعان ما انتشرت أنباء ثرواتهم الجيدة، فقرر أيضاً نفر آخر من القادمين الجدد أن يجربوا حظوظهم في تجارة الزنبق. ويُجمع الكتّاب ومؤلفو الكراريس آنذاك على أن الكثير من القادمين الجدد كانوا من النساجين الذين تمتعوا بميزة معينة على الحرفيين الآخرين وهي أن أنوالهم كانت تساوي مبالغ مالية جيدة، وكان يمكنهم إيداعها على سبيل الرهن أو الضمان للحصول على مزيد من رأس المال اللازم لشراء البذور، والعمل في تجارة الأبصال. لكن سرعان ما لحق بالنساجين رجال يعملون في حرف أخرى. ويقول مؤلف مجهول لكراس عن تلك الحقبة (ولعله كان أيضاً قد مارس شيئاً من تجارة الأبصال منحرفاً عن مهنة الكتابة) أن أُناساً من كل مجالات الحياة التي يمكن تخيلها أصبحوا تجاراً للزنبق، منهم البنّاؤون والنجارون والزجاجون والحلوانيون والحلاقون ومجلدو الكتب ومربو الخنازير، وعمال الهدم، وحتى بعض أفراد الطبقات المهنية كالمحامين وأصحاب المطابع والقساوسة.

لقد كان جميع أنواع الحرفيين تقريباً تواقين للثراء، وكان بعضهم، في أقل تقدير، يمتلك رأس المال المطلوب ليقوم

باستثمار بسيط في تجارة الأبصال. أما المغامرون فقد كان لديهم أموال أقل، لكنهم تمتعوا بإرادة أقوى كي يغامروا بأموالهم.

ويتضح هنا أثر فعالية خصيصتين من الخصائص المذهلة للمجتمع الهولندي: الولع بالادخار والولع بالمقامرة. وقد يبدو هذان الدافعان على طرفي نقيض تماماً، لكنهما في واقع الأمر تضافرا معاً ليشعلا الولع بالزنبق.

ولقد ذُهل الكثير من زائري الأقاليم المتحدة جراء ذلك الذعر العام الناجم عن الخوف من إنفاق يتجاوز الموارد المالية للمرء.

فإذا ما أضيف إلى ذلك الزيادة العامة للثروة التي تمتعت بها الجمهورية في الفترة ما بين عامي 1600 و1630، فمعنى ذلك أن عدداً مهماً من العائلات الهولندية كانت تحتفظ بمدخرات مالية، وتلك حالة فريدة بالمقارنة مع جميع الأمم الأوروبية في تلك الفترة. ولمّا لم تكن هناك مصارف في الجمهورية آنذاك بالمعنى الحديث للكلمة، فإننا لا نملك فكرة عن الأرقام التي تمثل نموذجاً للمدخرات الأسرية. إلاّ أن السير ويليام تمبل، على سبيل المثال، كان يعتقد أن الهولندي المقتصد ربما كان

يوفر خُمس دخله الإجمالي. وإذا ما اتخذنا من هذا الرقم دليلاً فمعنى ذلك أن حِرفياً غنياً بشكل معقول ويكسب ما بين (300) إلى (500) جيلدر سنوياً، يتوقع أن يتبقى لديه مبلغ يقدر ب (60) إلى (100) جيلدر في السنة لاستثماره. أما الطبقات العاملة فقد كانت تعيش بالطبع حالة أقرب بكثير إلى خط الفقر من طبقة التجار الذين تحدث عنهم تمبل عندما أعطى تقديره ذاك. لذلك، ربما يكون من قبيل التفاؤل أن نستخدم حتى أرقامه التقديرية. ومع ذلك فقد كان من المؤكد أنه يمكن لأسرة يعمل فيها الوالدان بصورة مستقرة ويحاولان بجد أن يدخرا مالاً، فانهما يستطيعان معاً جمع عشرين أو خمسين جيلدراً في نهاية سنة طيبة. وكان يمكن في الأوقات العادية أن يُنفق هذا المبلغ على وسائل الترف كالمنتجات الكتانية والأثاث المنزلي وبعض قطع الخزف الصيني. ولكن حتى بعد أن ارتفعت أسعار الزنبق على امتداد العشرينيات من القرن السابع عشر، فإن ذلك المبلغ كان يكفي لشراء عدد من أبصال الزنبق.

ومثلما كانت الحال فيما يتصل بالادخار، كان الولع بالمقامرة قد سرى بعدواه إلى طبقات المجتمع كافة. فما

من هولندي يؤثر أن يضع أمواله في حصالة قديمة في وقت يستطيع أن يستخدمها في كسب المزيد من المال، على حد قول رجل الأعمال فيليم أوسيلينكس. وربما عنى ذلك لتاجر غني أنه قادر على استثمار كل ما يستطيع في رحلة بحرية خطرة إلى جزر الهند. أما بالنسبة لبقية المجتمع فقد كان التعامل بالمراهنات في الغالب نتيجة للمصاعب التي خبرها كثير من الهولنديين في سعيهم لتحسين ظروف عيشهم في بلد يعاني ازدحاماً مفرطاً. وكانت تلك المصاعب قد بدأت تظهر للعيان. فعلى سبيل المثال، كان التعامل بأوراق اليانصيب وسيلة شعبية في هولندا إبان العصر الذهبي مثلما هي شائعة في أيامنا هذه، ذلك أنه بالنسبة لكثير من الأشخاص الفائزين برهانات بدا التعامل بأوراق اليانصيب طريقة بسيطة تغري بكسب شيء من المال.

وقد شاعت عن الهولنديين سمعة رديئة جراء إدمانهم المقامرة. وكتب الرحالة الفرنسي تشارلز أوجيه ماشوداه أنه كان يستحيل أن تجد حمالاً للأمتعة في روتردام، فما إن ينتقي الزائر واحداً من هؤلاء حتى يجيء آخر فيلعب النرد مع الأول للفوز بالحمل. وتشير السجلات المعاصرة لتلك الحقبة

إلى أن رجلاً يدعى بارينت باكر فاز برهان قاتل إذ استطاع أن يبحر في قناة طينية نزولاً إلى بحر زويدر من جزيرة تيكسيل إلى فيرنجن. وتورد السجلات قصة رجل آخر من بيليز ويجيك يدعى أبراهام فان ديرستاين كان قد خسر منزله في رهان حول الشكل الدقيق لعمود معيّن في مدينة روما. كما شوهد جنود هولنديون يخوضون رهانات على نتائج معارك كان أُوارها مايزال مشتعلاً حتى ذلك الحين.

وبالمقارنة مع هذه الرهانات المجنونة بدت تجارة الزنبق استثماراً حسناً، ذلك أن تربية الزنبق أسهل بكثير من العمل لمدة ثمانين ساعة أسبوعياً في طرق حذوات الجياد، أو في تشغيل الأنوال. وإذ كان الطلب على الزنبق في ازدياد متنامٍ، فقد تواصل ارتفاع أسعارها انسجاماً مع الطلب المتزايد، أو في أقل تقدير، أسعار تلك الأصناف ذات الجودة الأعلى.

فلا غرابة إذاً أن يعتقد الهولنديون آنذاك أنهم قد عثروا بمحض الصدفة على حلم يراود كل مقامر: الرهان الآمن.

الفصل العاشر

الطفــرة

تقع مدينة هورن الهولندية في إقليم فريزلاند الغربية وتقبع في عمق الشريط الطويل المنخفض من الجزر التي تفصل الأقاليم الشمالية للجمهورية الهولندية عن بحر الشمال. كانت هورن ميناءً متوسط الحجم أقيم على شاطئ محمي مواجه لبحر زويدر من ناحية الجنوب، ذلك البحر الداخلي الهائل الذي يكاد يشطر الأقاليم الموحدة إلى قسمين. كانت هورن حتى خمسينيات القرن العاشر واحدة من أهم الأماكن المزدهرة بفضل الإتجار مع منطقة البلطيق. وبعد قرابة قرن من الزمان أخذت السفن التي كانت ذات يوم تفرغ حمولاتها من بضائع القنب والأخشاب تبحر متجهة إلى أمستردام. عندها بدأت مدينة هورن مرحلة الاحتضار، ودخل الميناء في حالة من التردي الطويل والبطيء.

وفي مكان ما وسط هذه المدينة المدمرة في النصف الأول من القرن السابع عشر، انتصب مبنى حفرت على واجهته الأمامية ثلاثِ زهرات حجرية من زهور الزنبق. لم يتمتع

ذلك المبنى بأية ميزة خاصة أخرى تسترعي الانتباه سوى أنه قد تحول في نهاية الأمر إلى كنيسة كاثوليكية، لكن من هذا المكان بدأ الولع بالزنبق.

حُفرت الزهور الحجرية على واجهة البيت إحياء لذكرى بيعه في صيف عام 1633 لقاء ثلاث زهرات من زهور الزنبق النادرة.

إنه ذلك العام الذي وصل فيه سعر زهرة الزنبق إلى ذرى لم يسبق لها مثيل في إقليم فريزلاند الغربية، وفقاً لما يذكره مؤرخ محلي يدعى ثيودوروس فيليوس في مدونته التاريخية. وفيما سرت الأنباء عن بيع منزل الزنبق، بيع بيت في مزرعة مع قطعة أرض تابعة له في فريزلاند مقابل رزمة من أبصال الزنبق.

كانت تلك الصفقات المثيرة للانتباه، والتي أُبرمت في جزء من الأقاليم المتحدة الذي تضرر بشدة جراء ركود اقتصادي، أولى الأمارات التي تنذر بأن شيئاً ما يقترب من الهوس آخذ في التطور. فعلى مدى عقود ثلاثة استخدم عشاق الزنبق المال في شراء زهور الزنبق، أما في تلك المرحلة فقد استخدم الزنبق بحسبانه مالاً لأول مرة. وما يثير العجب بالدرجة

ذاتها أنه جرى تقييم الزنابق بمبالغ ضخمة.

ويصعب التأكد من مدى أهمية بيع بيت الزنبق من دون معرفة أي نوع من الزهور كان ثمن البيع. لكن حتى لو لم يكن سعر المنازل في إقليم فريزلاند غير مرتفع مقارنة مع المنازل في أمستردام، فإن منزلاً بحجم مقبول ضمن أسوار مدينة هورن لا يمكن أن يساوي أقل من خمسمائة جيلدر أو نحوها. كما أن مزرعة حسنة الجودة قد تساوي مبلغاً يزيد عن خمسمائة جيلدر. وبناء على ذلك فإن قيمة كل بصلة من أبصال الزنبق كانت عالية وفق معايير ذلك الزمان. صحيح أن أسعار الأبصال كانت في حالة ارتفاع على مدى بضع سنوات قبل عام 1633، وصحيح أيضاً أن بعض الصفقات التي تثير الذهول بذات الدرجة قد نُفذت في سنوات سابقة من دون أن تبقى سجلات تدونها. لكنه من المحتمل أيضاً أنه إذا كانت مزرعة قد بيعت حقاً لقاء بعض الأبصال، فإن الرجل الذي باعها كان مالك أرض خبير لديه ممتلكات أخرى كثيرة غيرها، وبدوره باع تلك المزرعة لواحد من معارفه الأثرياء مثله، كاملة مع مزارع مستأجر مقيم، وليس لمزارع يتخلى عن مورد عيشه الوحيد. وحتى لو كان الوضع على هذه

الشاكلة، فقد نفذت تلك الصفقات على نطاق أوسع بكثير ما كانت عليه الحال في عشرينيات القرن السابع عشر.

وشهدت تجارة الزنبق تغيراً أيضاً. فالأبصال التي كانت تُشترى وتباع في ثلاثينيات القرن السابع عشر لم تكن فريدة تماماً مثل زهرة سمبر أغسطس التي كان يتعذر الحصول عليها لقاء أي مبلغ كان، بل كانت أصنافاً أخرى فاخرة للغاية. وفي وقت لاحق كان يمكن شراء زنابق ذات جودة أدنى حينما لم تتوافر منها غير أعداد محدودة من مربين محترفين مستعدين لبيعها لأي شخص قادر على دفع أثمانها.

وإذ ازداد عدد الناس الذين جذبتهم تجارة الزنبق، أخذ سعر الأصناف ذات المرغوبية الأعلى في الارتفاع، بطيئاً أول الأمر، لكن بتسارع أشد منذ نهاية عام 1634. واستمر هذا التسارع في عام 1635 إلى درجة أن قيمة بعض الأبصال كانت تتضاعف خلال أكثر من أسبوع بقليل، خلال شتاء عام 1636.

وبلغ الهوس ذروته في غضون شهرين من السعار فحسب، هما شهر كانون الأول من عام 1636، وشهر كانون الثاني من عام 1637. ففي تلك الأسابيع القليلة تدفق الناس والأموال

على تجارة الزنبق، فيما هرع الهولنديون عبر الأقاليم المتحدة لاستثمار كل ما لديهم في الأبصال. ومن الطبيعي أن الزيادة على الطلب قد دفعت الأسعار إلى مستويات أعلى. ولفترة وجيزة، في أقل تقدير، استطاع كل مستثمر أن يجني ربحاً، ما جذب المزيد من الزهّارين الجدد إلى تجارة الزنبق.

ويقدم مؤرخ معاصر لتلك الفترة فكرة بسيطة عن الكيفية التي ارتفعت بها الأسعار: فزنبقة من نوع أدميرال دي مان كانت تُشترى بخمسة عشر جيلدراً أصبحت تباع بـ (175) جيلدراً.. وزهرة من نوع بيزاردين تدعى جيل إن روت فان لايدي تضاعفت قيمتها اثنتا عشرة مرة، من (45) جيلدراً إلى مبلغ ضخم وصل إلى (550) جيلدراً. وتضاعفت قيمة زهرة جنراليسيمو عشر مرات، من (95) جيلدراً إلى (900) جيلدر. أما سعر زنبقة أخرى من الصنف الفاخر للغاية هي جنرال الجنرالات فان جودا فقد ارتفعت بنسبة الثلثين بين شهر كانون الأول من عام 1634 وشهر كانون الثاني من عام 1635، ثم ارتفعت بنسبة (50) بالمائة أخرى ما بين شهر آيار من عام 1636، وكانون الثاني من عام 1637. وهكذا، فإن زهرة كانت باهظة الثمن أصلاً أصبحت تباع بمائة جيلدر في

بداية الطفرة لتصل قيمتها إلى (750) جيلدراً بعد عامين فقط. وزهرة جنرال الجنرالات زهرة كبيرة ذات خطوط قرمزية ملتهبة تقع على خلفية بيضاء، والتي سرعان ما أدى اسمها الثقيل إلى اختصاره باسم بسيط هو «جودا».

ومن الطبيعي أن الأسعار المحددة لبصلة واحدة من الأبصال الأكثر شهرة من كل الأبصال الأخرى وهي زهرة سمبر أغسطس، قد شهدت بدورها ارتفاعاً حاداً: من 5500 جيلدر للبصلة الواحدة في عام 1633 إلى مستوى سعر مذهل وصل إلى (10ر000) جيلدر في الشهر الأول من عام 1637. وما كان يمكن لأحد في أنحاء الجمهورية الهولندية كلها أن يدفع مبلغاً كهذا باستثناء قلة قليلة.

كان ذلك المبلغ كافياً لغذاء وكساء وإسكان أسرة هولندية بكاملها لنصف حياتها. كما كان ذات المبلغ كافيا للشراء نقداً واحداً من أفخم المنازل المنشأة على أحدث قناة في أمستردام كاملاً مع بيت لعربة الحنطور وحديقة طولها ثمانين قدماً. حدث ذلك في زمن كانت البيوت في المدينة باهظة الثمن كملكية عقارية، شأنها في ذلك شأن العقارات في أي مكان آخر في العالم.

كانت تلك الأرباح مذهلة حتى في بلد كان اقتصاده قد تعافى من ركود أصابه في عشرينيات القرن السابع عشر، وكان بالإمكان مرة أخرى أن تتحقق أرباح في كل مهنة من المهن، من الإتجار بالتوابل إلى غلي الصابون. ولم يكن بمقدور أولئك الذين خاضوا تجربة الإتجار بالزنبق وحققوا منها أرباحاً أن يقاوموا إبلاغ أصدقائهم وعائلاتهم عن مصدر ثروتهم الجيدة. ولقد أكدت جدة القصص وصعوبة تصديقها حول تحقيق أرباح من أزهار الزنبق، أنها كانت تُروى، وتتناقلها الألسن بعد ذلك، ويقيناً أنها لم تخسر شيئاً خلال هذه العملية.

وعند نهاية عام 1634 أو بداية عام 1635 كانت الحكايات المثيرة عن المال المكتسب من الإتجار بالزنبق موضوع الحديث في هولندا كلها.

وتحدثت إحدى هذه النوادر أن قطعة أرض زراعية في منطقة شيرمر التي تم استصلاحها من البحر قد بيعت بست زهرات من الزنبق، فيما أشارت حكاية أخرى إلى رجل كان مدمن تجارة الزنبق إلى درجة أن المرأة التي خطط للزواج بها قد تخلت عنه لصالح رجل آخر. قصة ثالثة تحدثت عن تاجر

ثري من أمستردام قيل أنه اشترى بصلة زنبق نادرة بصورة استثنائية من صنف الروزن، ثم وضعها للحظة على منضدة في مستودعه. وعندما ألقى نظرة ثانية اكتشف أن البصلة اختفت. قلب الخدم المكان رأساً على عقب بحثاً عن البصلة ولكن بلا طائل. وأخيراً أدرك التاجر أن بحاراً كان عنده في المستودع آنذاك ولابد أنه هو الذي التقطها. كان ذلك البحّار قد عاد لتوّه من رحلة بحرية استغرقت ثلاث سنوات في جزر الهند الشرقية ويجهل تماماً ما يجري من ولع بالزنبق. طاف التاجر بأمستردام بحثاً عن الرجل، وأخيراً عثر عليه جالساً على لفة من الحبال على رصيف للميناء وهو يمضغ آخر لقيمات البصلة النفيسة، ظناً منه أنها بصلة طعام.

وعندما أدرك التاجر ما حصل طالب بتوقيف البحّار، وزُج به في السجن. وتحدثت حكاية رابعة عن رحالة إنجليزي جاهل أيضاً بالهوس شق بسكين جيبه بصلة زنبق وجدها ملقاة في مستنبت زجاجي يملكه مضيفه الهولندي الثري.

ومن سوء طالع هذا الرحالة الإنجليزي أن البصلة التي يُطلق عليها اسم أدميرال فان ديرايجيك، كانت نوعاً من أنواع الروزن، مزينة بخطوط أرجوانية مستقيمة وقوية بصورة استثنائية، فيما كان سعرها لا يقل عن أربعة آلاف جيلدر. وقد وجد هذا الإنجليزي الفضولي نفسه أيضاً مسوقاً أمام القضاة وأُرغم على دفع قيمة مخالفته. أو هكذا رويت القصة.

والحقيقة أن تلك الحكايات وخليط من نوادر أخرى تداولها الناس عن تجارة الزنبق غير قابلة للتصديق في أحسن الأحوال ومستحيلة في أسوأها. وكثير منها لم يكن أكثر من ثرثرة عامة، ويبدو أن البقية بدأت كحكايات أخلاقية بسيطة نسجت في منابر غايتها تحذير الناس من مخاطر التعامل مع الزنبق. على أنه إذا كان القصد من تلك الحكايات ردع الناس عن التعامل بالزنبق فإن الإفراط فيها على هذا النحو جعلها تخفق في تحقيق مبتغاها. بل إنها جعلت الأبصال تبدو مرغوبة، وتدر ربحاً أكيداً. والحديث المثير عن المال الذي يمكن أن يُكسب عن طريق تجارة الزنبق حث المزيد من الناس على أن يخوضوا التجربة بأنفسهم.

فما الذي دفع الكثير من الناس العاملين في مهن كثيرة للغاية ومختلفة لأن يكونوا حريصين إلى هذا الحد على تجريب حظهم في تجارة كانوا جميعاً تقريباً يجهلونها تماماً؟ إنه إغواء الربح بالتأكيد. وهو احتمال كسب مال أكبر بكثير مما كسبوه قبل ذلك. كما ساعد على هذا الإقبال أن الأقاليم المتحدة كانت تتعافى لتوها من ركود اقتصادي استمر طويلاً حتى معظم عشرينيات القرن السابع عشر، وكان الأقسى على امتداد القرن السابع عشر كله. وقد تسبب به جزئياً اندلاع الحرب مجدداً مع إسبانيا، والعواقب التي خلفها الحصار الإسباني. إلاّ أن طفرة شديدة النشاط بشكل متزايد في الاقتصاد الهولندي بمختلف قطاعاته أعقبت ذلك الكساد بدءاً من عام 1631 أو عام 1632، فيما استطاعت الطفرة أن تجمع قواها حتى نهاية القرن. وكان مغزى تلك الطفرة أنه في الكثير من الحالات تتوافر في البلاد أموال أكثر مما يتوافر في أي وقت مضى.

إلاّ أن الكثير من العوامل، معظمها محلي، كان لها تأثير في حدوث الطفرة. فالكثير من النساجين الذين اندفعوا إلى تجارة الأبصال جاؤوا من مدينة هارلم التي تبعد اثني عشر ميلاً

إلى الغرب من أمستردام. ولم تحل الطفرة العامة دون التردي الشديد لصناعة الكتان في هارلم، لأن مدينة لايدن سيطرت على صناعة القماش الهولندي.

وتمثّل عامل مؤثر آخر في حدوث الطفرة في ذلك الانتشار الشديد للطاعون الدبلي الذي ترافق تماماً مع ولع الزنبق، وأصاب الكثير من المدن الهولندية في الفترة ما بين عامي 1633 و1637. وقد كتب المؤرخ ثيودوروس شريفيليوس الذي عاش في مدينة هارلم خلال تلك الفترة يقول إن ذلك المرض أودى بحياة ثمانية آلاف من مواطنيه منذ الفترة التي شهدت ظهوره لأول مرة في شهر تشرين الأول من عام 1635 حتى اختفائه نهائياً في شهر تموز من عام 1637. ومن بين الآلاف الثمانية قضى أكثر من (5700) شخص بالطاعون حينما كانت تجارة الزنبق قريبة من أوجها بين شهري آب وتشرين الثاني من عام 1636. وهؤلاء كانوا يشكلون ما نسبته واحد إلى ثمانية من إجمالي عدد سكان المدينة. كان العدد كبيراً جداً إلى درجة أنه لم يتوافر ما يكفي من القبور لدفن الموتى. وقد ترتبّت على الأثر المرعب للطاعون نتيجتان هامتان: أولاهما حدوث نقص في اليد العاملة نجم عنه ارتفاع في الأجور

جراء تنافس أصحاب الأعمال على القوة العاملة، ما أسهم في إيجاد دخل إضافي يمكن استثماره في تجارة الزنبق. أما النتيجة الثانية فقد تمثلت فيما وُصف بخلق مزاج من القدرية واليأس المفضي للتهور بين تجار الزنبق أنفسهم، ما عزز من تلك الحماسة التي تعاملوا فيها مع الأبصال.

وسواء أكانوا متفائلين أم قدريين، فلم يكن بوسع الزهارين الجدد الذين عقدوا العزم على تجريب حظوظهم أن يأملوا في حيازة زهرة قيمة كزنبقة جودا أو أدميرال فان دير ايجيك، فكان باستطاعتهم أن يبدأوا بشراء ما توافر من أرخص الأبصال وبيعها. وقد أشار المؤرخ سيمون شاما أن أولئك الوافدين الجدد كانوا قادرين على نيل موطئ قدم فيما أصبح سوقاً غالية الأسعار جراء قيام مربي الزنبق المهنيين بإدخال عدد كبير يفوق المعتاد من أصناف الزنبق الجديدة في عام 1634. وقد ترتب على ذلك انخفاض في أسعار الأبصال.

ويبدو أنه لا يوجد أي دليل مباشر على أن الوضع كان على تلك الشاكلة. وأيا كانت الحالة فقد كانت أيضاً أصناف الزنبق الأحدث والأندر هي الأغلى بصورة عامة.

والرأي الذي يبدو مرجحاً أكثر من غيره أن بعض الزنابق

الأقدم والأكثر رسوخاً قد تضاعفت آنذاك إلى درجة أنها أصبحت متوافرة على نطاق واسع وبأسعار متواضعة.

ولابد أن أولئك الوافدين الجدد على تجارة الزنبق قد دخلوا إلى السوق عن طريق شراء تلك الأزهار وبيعها.

كان دخول سوق الزنبق أمراً بسيطاً، إذ إن الاستثمار في بضعة أبصال كان يتطلب امتلاك قليل من المال، ومنفذاً إلى مشتل مجاور، ولا شيء غير ذلك سوى القليل. ففي النصف الأول من عام 1635 إذاً بدأ سوق الأبصال في الانتعاش كما لم يحدث من قبل في أنحاء الأقاليم المتحدة كافة.

وحيثما توافرت الزنابق كان سوقها يتقدم بوتائر سريعة. ونشأت مجموعات من الزهارين في كل مدينة وُجد فيها خبراء ومربو زنبق معترف بهم بصورة حسنة، فظهر زهارون جدد في هارلم، وأمستردام، وجودا، وروتردام، وأوتريخت، وديلفت، ولايدن، وألكمار، وإنخويزن، وميديمليك، وهورن.

ولم ينحصر دور المربين والخبراء بتزويد الوافدين الجدد بمخزونهم من الأبصال فحسب، إذ إن التجارة التي ابتكروها كانت قد أصبحت منظمة ومعترفاً بها. ولم توجد

قوانين مجهولة ليتقن معرفتها المتعاملون بالزنبق، كما لم توجد تعقيدات ينبغي التغلب عليها. فقد استندت قواعد شراء الزنبق وبيعه إلى الفطرة السليمة، وكانت تلك القواعد معروفة ومقبولة بصورة جيدة قبل أن يبدأ الزهارون الأوائل تعاملهم بالزنبق بأمد طويل.

وربما كانت المبيعات في أول الأمر تتم بالبصلة الواحدة، لكن تغيرت هذه الطريقة بسبب الزيادة في عدد الزنابق المتوافرة. ويبدو أنه في عام 1610 تقريباً، كانت تباع فعلياً بعض أزهار الزنبق الأدنى قيمة «بالمسكبة»، التي هي وحدة للتبادل لا يبدو أنه قد تم تعريفها بدقة. وتشتمل السجلات القانونية لمدينة هارلم على سجل للمبيعات في عام 1611 دُوّن فيه بيع أربع مساكب زنبق زرعها صيدلي يدعى جوس لشخص آخر يدعى جان برانتس الذي دفع مائتي جيلدر ثمناً لها، وهو مبلغ كبير آنذاك. وفي العام الذي تلاه اشترى برانتس مسكبتين أخريين من الزنبق كانتا ملكاً مشتركاً لشخص يدعى داميس بيترز وواحد من صناع الجعة يدعى أوجستين ستين، وتسلما منه مبلغ (450) جيلدراً.

بعد ذلك بوقت قصير، لم تحدده السجلات، أصبح بالإمكان شراء فسائل وبيعها إضافة إلى الأبصال الأم. ومن الواضح أن تلك كانت الخطوة التالية لأن المنطق كان يملي أنه لا بد أن لتلك الفسائل، التي سرعان ما تغدو هي ذاتها في نهاية الأمر أبصالاً، قيمة معينة في ذاتها.

ومع ذلك، فإن ذلك التوسع في تجارة الزنبق كان محفوفاً بالصعوبة لأنه كان يستحيل ضمانة نضج الفسائل بصورة مقبولة، أو، كما رأينا، ضمانة أن الزنابق التي تنتجها تلك الفسائل مطابقة للبصلة الأم. وبسبب هذه المشكلات كان الإتجار بالفسائل أمراً ينطوي على مغامرة، واستغرقت هذه الفكرة فترة من الزمن ليقتنع بها الناس. ففي ربيع عام 1611 سُئل خبير زنبق من هارلم يدعى أندريس ماهيو ما إذا كان مستعداً لبيع تاجر كتان من معارفه بعض الفسائل، فأجاب الخبير سائلاً صديقه ما إذا كان راغباً بشراء «سمك في بحر». وانطبعت تلك العبارة بقوة في ذهن بستاني شاهدٍ على الحوار يدعى مارتن دي فورت حتى إنها لاتساع تداولها دُونت في السجلات القانونية أيضاً.

على أن الإتجار بالفسائل كان مسألة مهمة لسبب آخر. فقد كان كلوسيوس وأوائل مربي الزنبق الآخرين على دراية مسبقة أن النباتات البصلية تنتعش بصورة أفضل إذا نُقلت من التربة مباشرة بعد سقوط أزهار موسم واحد، ثم جففت وحفظت فوق الأرض حتى حلول فصل الخريف. ولذلك كان شراء الأبصال وبيعها يجري فقط خلال أشهر الصيف عندما تكون الأبصال فوق الأرض ويمكن تبادلها بصورة عينية. ومن ناحية ثانية، فإن الأبصال لا تنضج إلاّ على مدى عدد من السنوات ومن هنا كان بيع الأبصال عند أول ظهورها أمراً مغرياً.

وكان الإتجار بالفسائل الخطوة الأولى نحو تحرير تجارة الزنبق من اعتمادها التقليدي على التقويم الزمني. إذ إن بعض عمليات الشراء والبيع التي كانت تتكدس فيما مضى فيما لا يزيد على أربعة أشهر أصبح بالإمكان القيام بها على مدى العام. على أن بيع الفسيلة المفردة قبل بضعة أشهر من نضجها الفعلي لتنفصل عن أمها البصلة لم يشكل في حد ذاته خطراً على استقرار تجارة الزنبق، لكنه مثّل سابقة خطيرة. وكلّما تدفق المزيد والمزيد من الزهارين على سوق الزنبق،

ازداد الضغط لجعل الإتجار بالزنبق نشاطاً مستمراً على مدى السنة.

إن موسماً تجارياً ممتداً ما بين شهر حزيران حتى شهر أيلول فقط كان أمراً ذا معنى بالنسبة للخبراء الذين كانوا يفضلون رؤية النبتة مزهرةً قبل أن يفكروا بشرائها، كما كانوا يرغبون في إتمام جميع مشترياتهم لسنة عندما يحين موعد إعادة الأبصال إلى مسكبة الزنبق.

لكن ذلك كان يحد إلى درجة كبيرة من انخراط الجيل الجديد من المتاجرين بالزنبق. ولما كان الزهارون الجدد عامة لا يميلون إلى تربية أبصالهم، لم تنطو الفروق القديمة بين موسم الزراعة وموسم القطاف لهؤلاء الزهارين إلاّ على أهمية ضئيلة. إذ كان هؤلاء أقل احتفاء من الجيل السابق بالجمال المادي لزهرة الزنبق، واهتموا أكثر بقدرتها على أن تمدهم بالمال. أراد الوافدون الجدد أن ينتزعوا أكبر قدر ممكن من الأرباح من زنابقهم. ولربما كان بعضهم يقدر فوائد زراعة الأبصال وتحقيق الربح من فسائلها، لكن معظم هؤلاء الزهارين الجدد كانوا أكثر اهتماماً إلى حد كبير بشراء الزنبق فقط من أجل بيعه.

لقد حدث إذاً تغير جوهري للأبد في تجارة الزنبق منذ خريف عام 1635، إذ تطور عمل الأعداد المتزايدة من الزهارين، الذين تجاهلوا عادات الخبراء، من مجرد الإتجار بالزنابق التي كانت في حوزتهم إلى شراء الأزهار وبيعها وهي ماتزال تحت الأرض. ومنذئذٍ لم تعد الأبصال وحدة التبادل، وأصبح التبادل يتم عبر شيء وحيد فقط هو السند الإذني[1]. وهو قصاصة من الورق تدون عليها تفاصيل الزهرة المباعة، وتتضمن التاريخ الذي ستقلع فيه البصلة وتصبح جاهزة للتسليم.

واتسم هذا النظام بعدد من المزايا، إذ من المؤكد أنه سمح للمتاجرة بالزنبق بأن تجري على امتداد أشهر فصول الخريف والشتاء والربيع. ولأن الأبصال كانت تبقى في مكانها حتى يحين موعد اقتلاعها بصرف النظر عن مالكها الجديد فقد كان ذلك يروق للزهارين الذين كانوا يفتقرون إلى المهارة أو الرغبة في زراعة الأبصال بأنفسهم. لكن ذلك كان ينطوي

(1) السند الإذني (promissory note) أو الكمبيالة بالاصطلاح الدارج، هو بلغة الاقتصاد الجديدة التزام مكتوب من شخص أو أكثر بدفع مبلغ معين من النقود أو أداء مواد معينة ذات قيمة لشخص أو لأمره أو لحامله في تاريخ معلوم (المترجم).

أيضاً على خطورة ممكنة، إذ لا فرصة لدى المشترين لفحص الأبصال التي اشتروها أو لرؤيتها مزهرة. فلم تكن هناك أية ضمانة للجودة. كما لم يكن بمقدور الزهار أن يوقن من أن الأبصال التي اشتراها مملوكة للبائع، أو حتى ما إذا كانت الأبصال موجودة بالفعل.

أطلق الهولنديون على هذه المرحلة من الولع بالزنبق ما يمكن ترجمته بـ «الإتجار بالريح». وهي وصف غني بالمعنى. فهي تعني للبحار الصعاب التي يواجهها في توجيه دفة السفينة في مهب الريح، وهي تذكِرة لسمسار الأوراق المالية بأن الأوراق المالية لأولئك التجار وكذلك أرباحها لا تعدو كونها ورقاً في الريح، أما بالنسبة للزهارين فإن عبارة «الإتجار بالريح» كانت تعني متاجرة نقية وبسيطة، خالية من القوانين ومتحررة من القيود.

كان ذلك هو الابتكار الذي جعل من أشد أشكال المغالاة في الولع أمراً ممكناً ذلك أن استحداث السندات الإذنية لعب دوراً أكبر بكثير من جعل تجارة الزنبق نشاطاً منتعشاً على مدى العام، بل إنه جعل من تلك التجارة تمريناً في المضاربة لأن التسليم كان يتم في العادة بعد شهور عدة. ولم تشجع

تلك السندات على بيع الكثير من الأبصال وإعادة بيعها، بقدر ما شجعت على بيع السندات ذاتها وإعادة بيعها.

فالأزهار التي كانت قيمتها ذات يوم تنبع من جمالها، لم تعد آنذاك غير تجريدات يتعامل بها تجار لا يأبهون إلاّ بالأرباح التي يدرها الزنبق. وأصبح النقل المتكرر لمطالبة بملكية مشكوك فيها من تاجر إلى آخر، السمة الرئيسة لتجارة الزنبق. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح أمراً عادياً تماماً أن يقوم الزهارون ببيع الزنابق التي عجزوا عن تسليمها لمشترين عجزوا بدورهم عن دفع ثمنها، ولم يكونوا راغبين قط في زراعة الأبصال، فكان ذلك بمثابة فضيحة للمتشددين من معاصريهم.

لقد أوجدت موافقة تجار الزنبق على شراء أبصال لن تكون جاهزة للتسليم قبل عدة أشهر، ما يعرف في وقتنا الحاضر بأسواق الدفع الآجل التي تُعرف ببساطة بأنها شكل من أشكال المضاربة يقامر فيها التاجر بسعر مستقبلي لبعض السلع، سواء أكانت زنبقاً أم نفطاً، بأن يقطع على نفسه عهداً بأن يدفع سعراً محدداً لتلك السلع بتاريخ محدد في فترة قادمة. كان ذلك حدثاً ذا مغزى تاريخي، ففي ثلاثينيات القرن

السابع عشر كان مفهوم الدفع الآجل مايزال أمراً جديداً تماماً. فقد كانت أولى أسواق الدفع الآجل قد نظمت في أمستردام قبل أقل من ثلاثين سنة آنذاك، وكان ابتكاراً ابتدعه تجار يتعاملون بالأخشاب أو القنب أو التوابل في سوق الأوراق المالية الهولندية.

وكان الزنبق أول سلعة تشترى وتباع خارج أسواق أمستردام مثلما كان أول سلعة يتاجر بها أي شخص آخر من خارج دائرة كبار التجار وخبراء سوق الأوراق المالية.

وقد شكّل ذلك جزءاً كبيراً من شغف الناس بالزنبق. فبحلول عام 1635 كان بمستطاع الحكام وكبار التجار في الأقاليم المتحدة اختيار السبل المتعددة لاستثمار أموالهم، إذ كان بإمكانهم أن يحصلوا على فائدة مضمونة عن طريق شراء أسهم حكومية أو إيداع أموالهم في أحد المصارف العديدة الجديدة التي بدأت تنبثق بصورة متزايدة. وإذا ما شعروا أنهم أكثر استعداداً بقليل لخوض غمار مغامرة، كان بوسعهم شراء أسهم في سوق الأوراق المالية، أو حصة في مشروع محلي لإنشاء شبكة من مصارف المياه، أو في سفينة تتأهب للإبحار في رحلة تجارية إلى الأمريكتين. على أن كل استثمار من

هذه الاستثمارات كان يستلزم رأسمال كبيراً. وكان أمراً يقارب حدود المستحيل أن يجد حرفيو الجمهورية وتجارها ومستأجرو مزارعها طريقة مربحة لاستثمار ما توافر لديهم من مال قليل. ولم تكن توجد صناديق تعاونية في القرن السابع عشر ولا شهادات إيداع، ولا خطط لحقوق المساهمين، ولا تعويضات ضريبية ولا ملاذات ضريبية. كان الاستثمار بالنسبة لنساج من هارلم يعني شراء مزيد من خيوط الكتان أو دفع مبلغ مقدم لشراء نول جديد، لكن سبيلاً جديداً انفتح فجأة آنذاك وبدا بسيطاً ومباشراً بصورة مغرية. وتراءى كأنه يقدم ربحاً مضموناً، وفوق ذلك كله لا يتطلب غير القليل من رأس المال.

وتعد المتاجرة عن طريق الدفع الآجل وسيلة مغامرة في إدارة العمل، لكنها تنطوي على مزايا مهمة. فهي ترضي بائعاً قد ينتظر، مثلاً، وصول شحنة قادمة مما وراء البحار، ومن المحتمل أن يكون هو ذاته بشكل من الأشكال لا يمتلك ما يعتزم بيعه. وهو بالفعل يبيع المغامرة المتمثلة في هبوط سعر بضائعه قبل أن يدفع بها إلى السوق. وبإمكانه أن يدفع عربوناً يساوي (10٪) من سعر البضاعة المتفق عليه، ووُجد

من ضمن له مبلغاً محدداً من المال بتاريخ معلوم، فيستطيع أن يرتب أموره المالية بناء على ذلك.

ويمكن لترتيب من هذا القبيل أن يكون طريقة مدرّة لربح كبير على المشتري طالما أنه يخمن بصورة صائبة ما إذا كانت الأسعار سوف ترتفع أو تنخفض. فعلى سبيل المثال، إذا عرض زهّار مائة جيلدر مقابل سند إذني يضمن له حيازة زنبقة من فصيلة جودا منذ اقتلاعها خلال أربعة أشهر، فإنه كان يراهن على أنه سيبيع السند بثمن أعلى مما دفع قبل أن يصبح مطالباً بدفع ثمن الزهرة. وإذا لم يستطع، مثلاً، أن يحصل على أكثر من ثمانين جيلدراً لقصاصة الورقة التي أصبحت بحوزته، فسوف يتحمل، بالطبع، خسارة تصل إلى عشرين جيلدراً عند موعد اقتلاعها. ولكن في سوق زنبق متواصل الارتفاع، لا بد أن المقامرة على أسعار المستقبل قد بدت بسيطة بصورة عبثية، وبدت احتمالات تكبد خسارة فعلية لأولئك الذين هرعوا آنذاك لشراء الأبصال أمراً مستبعداً.

على أن الحقيقة تشير إلى أن المتاجرة عن طريق الدفع الآجل يمكن أن تكون أي شيء إلاّ أن تكون أمراً بسيطاً، بل إنها كانت أكثر مغامرة إلى حد بعيد مما بدت عليه في

أول الأمر. لقد كانت خطيرة بصورة استثنائية. فالزهار الذي كان يملك رأسمال لا يتجاوز خمسين جيلدراً، وكان موقناً أن الأسعار ستواصل صعودها قد يرمي بحذره للريح، على سبيل المثال، ويوافق على شراء خمسة من بصلات جودا التي تكلف الواحدة منها مائة جيلدر. والمبلغ المتاح لديه يكفي أن يدفع ما نسبته (10٪) عربوناً عن كل بصلة، فإن تضاعف سعر الزنابق عند اقتلاع الأبصال يصبح مالكاً لما قيمته ألف جيلدر من الأبصال. وبعد بيع الأزهار بالسعر الجديد الأعلى، يمكنه أن يدفع ما تبقى من رصيد التزامه، ويمضي في سبيله وقد حقق ربحاً صافياً قدره خمسمائة جيلدر. وهكذا، إذا ظلت التجارة عائمة يستطيع الحرفيون الفقراء أن يأملوا بكسب أرباح طائلة من أبصال الزنبق، أما إذا انخفض سعر الأبصال فإنهم يواجهون كارثة مؤكدة وإفلاساً محتماً تقريباً.

وإذا انخفض سعر أبصال الجودا إلى نصف القيمة، على سبيل المثال، سيتكبد الزهار، الذي استثمر جميع مدخراته البالغة خمسين جيلدراً في الأبصال، خسارة تصل إلى مائتي جيلدر، وهو مبلغ قد لا يأمل أن يكون قادراً على دفعه.

ومنذ أمد طويل كانت الحكومة الهولندية على وعي

بمخاطر ما بات يعرف اليوم بـ «البيع على المكشوف» ولم تتوقف عن الحكم على المتاجرة بسلع ليست بحوزة أي من المشتري أو البائع بأنها خطيرة فحسب، بل وصفتها بأنها عملية غير أخلاقية بصورة أساسية.

وبعد أقل من عامين من البدء بهذه الممارسة في عام 1608، قامت الحكومة بحظرها. وأصدرت قوانين تكرر تحريم المتاجرة عن طريق البيع الآجل في الأعوام 1621، 1623، 1624، 1630، و 1636. وهكذا كانت المتاجرة بالزنبق عن طريق البيع الآجل، التي تطورت في الثلاثينيات من القرن السابع عشر، ممارسة غير قانونية من الناحية الفنية. على أن الحقيقة المتمثلة في قيام برلمان الأقاليم المتحدة بست محاولات منفصلة لإيقاف تلك الممارسة توضح بشكل جلي الإمكانية الضعيفة لوضع أي حظر من هذا النوع موضع التنفيذ وفق الأصول.

إذاً، كان البيع على المكشوف ممارسة خطيرة حتى وإن كانت البضائع المعنيّة ذات طابع بسيط وواضح مثل شحنة من خشب مستورد من منطقة البلطيق. بيد أن الزنبق كان سلعة ذات أحوال متقلبة بصورة غير اعتيادية، حتى وفق

المعايير المرنة للتجارة عن طريق الدفع الآجل. فالتاجر المتعامل بالأخشاب كان يعرف ما يشتري بصورة دقيقة، أما التاجر المتعامل بالزنبق لتسليمها عندما يحين موسم الاقتلاع، فليست لديه أية فكرة عما يشتريه. فهو يقامر على شيء مازال ينمو، ولكي يحقق النجاح، يتعين عليه من ناحية أن يتوصل إلى تقدير دقيق للسعر المتوقع للبصلة خلال عدة شهور، كما ينبغي، من ناحية أخرى، أن يعرف شيئاً عما يحدث للبصلة وهي ماتزال تحت الأرض.

كانت الوسيلة المثلى لتحقيق ربح من الإتجار بالزنبق هي شراء بصلة توشك أن تطور فسائل يمكن انتزاعها وبيع كل واحدة منها على حدة. وبناء عليه، كانت الأبصال التي يحتمل أن تنمو بشكل سريع أعلى قيمة من تلك الأبصال التي لم تنضج بعد أو تلك التي نضجت تماماً من دون احتمال بأن تنتج أكثر من عدد قليل من الفسائل قبل أن تموت. على أن أكثر مربي الزنبق خبرة كانوا يجدون صعوبة في التنبؤ الدقيق بما يمكن أن تنتجه بصلة منفردة من صنف معين. أما فيما يتعلق بالزهارين المحدثين، فقد كان الإتجار بالأبصال تمريناً في المضاربة الخالصة.

ولكي يمتلك تجار الزنبق المعلومات الأساسية التي يحتاجونها لتخمين الكيفية التي تتطور فيها البصلة بعد زراعتها، كان أمراً مألوفاً النظر إلى وزن كل بصلة عندما يعاد زرعها في باطن الأرض. وكانت الأوزان تقدّر «بالذرات». والذرّة وحدة قياس صغيرة للغاية استعيرت من لغة الصاغة، وكانت تساوي أقل من اثنين من ألف من الأوقية (الأونس)، أي واحد من عشرين غراماً. ويمكن أن تزن البصلة الناضجة ما يتراوح من عشرين ذرة إلى ما يزيد على ألف ذرة، حسب صنف الزنبقة.

وعلاوة على وزن البصلة، كان من المهم معرفة التاريخ الذي ستكون فيه البصلة جاهزة للقطاف. ومن هنا كانت السندات الإذنية التي يتداولها الزهارون تدوّن وزن البصلة عند زراعتها، كما أن السجلات التي كان يستخدمها كل تاجر ليدون مشترياته تضمنت عموداً يسجل فيه المتعامل حجم أبصاله بالذرات.

ومن هذه الزاوية لم يكن يتبقى سوى خطوة صغيرة لبيع الزنبق بحيث تكون وحدة البيع هي الذرّة لا البصلة. ومن مزايا هذه الطريقة أنها كانت تحقق النتيجة المرغوبة، بأن تجعل

المتاجرة أكثر إنصافاً. ذلك أنه بموجب النظام القديم للدفع على أساس البصلة، كان يتعين على الزهار أن يدفع ذات السعر لقاء زنبقة غير ناضجة تزن، مثلاً، مائة ذرة، والتي قد لا تنتج فسائل لسنة قادمة أو أكثر، مثلما يدفع لبصلة ناضجة تزن أربعمائة ذرة. فكان اعتماد الذرّة أساساً للدفع يعني أن يدفع المتعامل مبلغاً يعكس بدقة أعلى مدى تطور البصلة. بيد أن ذلك النظام الجيد كان يعني كذلك أن الأسعار كانت تتصاعد بوتيرة أعلى بكثير من وتيرتها السابقة. لقد كانت معظم الأبصال تزداد حجماً بصورة كبيرة وهي ماتزال تحت الأرض. وعليه، فحتى لو ظل السعر المغرّم لبصلة معينة يتم على أساس الذرّة ثابتاً تماماً من دون تغيير، من لحظة زراعة البصلة في شهر أيلول أو شهر تشرين الأول إلى أن يحين موسم قطافها في شهر حزيران التالي، فقد كان من المؤكد تقريباً أن قيمة البصلة سوف ترتفع إلى حد كبير.

وتقدم السجلات الخاصة بتجارة الزنبق أمثلة على الزيادات المتضاعفة المذهلة التي يمكن لمال مستثمر في بصلة واحدة أن يحققها. ومن هذه الأمثلة، أن تاجر نبيذ من مدينة ألكمار يدعى جيريت بوش زرع بصلة من نوع

«نائب الملك» في حديقته خارج أسوار المدينة بقليل وكانت تزن إحدى وثمانين ذرة لدى زراعتها في خريف عام 1636. وعند اقتلاعها في عام 1637 كانت قد نضجت ليغدو وزنها (416) ذرّة، أي أن حجمها قد تضاعف خمس مرات. وفي ذات الحديقة زرعت زهرة من صنف أدميرال ليفكنز بوزن مقداره (48) ذرة لتنمو محققة وزناً يصل إلى (224) ذرة، فيما ازداد وزن أخرى من نوع باراجون ليفكنز من (131) ذرة إلى (434) ذرة. فلو بقيت الأسعار المدفوعة لهذه الأصناف الثلاثة ثابتة دون تغيير فسوف يجني زبائن بوش عوائد تتراوح ما بين (330٪) إلى (514٪) في غضون فترة ضئيلة لا تتجاوز تسعة شهور.

وربما لم يكن بمقدور أي استثمار آخر في طول الأقاليم المتحدة وعرضها أن يدر أرباحاً مذهلة بهذه السرعة، أو أن يكون من المؤكد مضموناً تقريباً.

لقد استطاعت بعض الرحلات البحرية التي قامت بها شركة الهند الشرقية الهولندية، التي تمتعت باحتكار تجارة التوابل المربحة، أن تحقق أرباحاً وصلت إلى ما نسبته (400٪) أو يزيد. بيد أن رحلة بحرية واحدة لجزر الهند كانت تستغرق

سنتين أو نحو ذلك كي تنجز مهمتها تماماً. كما أن سفن الشركة وهي تمخر عباب البحار كانت عرضة لمخاطر المرض والغرق والقرصنة والهجوم الإسباني. إذاً، فحتى الإتجار بالسلع النفيسة كانت تعرّض النخبة الثرية القليلة التي كان يُسمح لها بالإتجار بتلك السلع لمخاطر لم يعرفها الزهارون الهولنديون.

ويرجع تاريخ المدونة الأولى للبيع على أساس الذرّة إلى مطالع شهر كانون الأول من عام 1634، عندما ذهب مرب للزنبق من مدينة هارلم يدعى ديفيد دي ميلت برفقة عامل كتان يدعى جان أوكز إلى حديقة يملكها جان فان دام في منطقة كلاين هوتويج. وبناء على نصيحة أسداها ميلت، اشترى أوكز بصلتين من صنف جودا تزنان ثلاثين ذرّة مقابل ثلاثين ستايفراً، أي ما يعادل جيلدر واحد ونصف الجيلدر للذرّة. كما اشترى بصلتين من نوع أدميرال فان دير إيجيك، من دون أن يدفع بطريقة الذرات، إذ دفع (132) جيلدراً لكل زنبقة، ما يشير إلى أن النظام القديم المتمثل بالتعامل بالأبصال كان مايزال قائماً في عام 1634. إلاّ أنه بحلول عام 1635 كانت كل التعاملات قد أصبحت تتم على أساس الذرات،

وفقاً لما ورد في جميع المدونات الباقية.

وفيما كانت تجارة الزنبق تتسع بثقة وتعقيد، شرع الزهّارون بين الحين والآخر في إدخال تفصيلات على ذلك النظام الأساسي. فعلى سبيل المثال، كان من الممكن شراء أبصال شريطة أن تكون بلغت حداً أدنى معيناً من الوزن عند اقتلاعها. وفي حالة أخرى شملت ديفيد دي ميلت، اشترى صانع قباقيب من مدينة هارلم يدعى هنريك لوكاش زنبقتين من نوع الروزن (سيبلوم فان كوننج) وأخرى من نوع الفيوليتين تدعى لاتور في مزاد نظمه رجل يدعى جوست فان هافربيك في نهاية شهر تشرين الأول من عام 1635. وإذ كان دي ميلت شاهداً، فقد وافق لوكاش على أن يدفع ثلاثين جيلدراً لزهرة سيبليوم وسبعة وعشرين جيلدراً مقابل زهرة لاتور، لكن مع ضمانة أن يصل وزن البصلتين عند اقتلاعهما على الأقل سبعة ذرات ونصف، وسبع عشرة ذرة على التوالي. وعندما حان وقت الاقتلاع تبيّن أن وزن الأولى لم يزد على ذرتين فيما لم تزد الثالثة على ما يقرب من ثلاث عشرة ذرة، وبناء على ذلك طلب لوكاش من هافربيك أن يعيد له المبلغ الذي دفعه له مقدماً.

كان فان هافربيك تاجراً من مدينة هارلم، مسكوناً بسرعة انفعال عادت عليه بسمعة سيئة. رفض هافربيك بشدة أن يعيد المبلغ الذي تسلمه، وانتهى الأمر في يد أحد المحامين. (جدير بالذكر أن لوكاش بالكاد نجا بحياته نسبياً. وتبين سجلات تلك الفترة أن فان هافربيك وأباه الذي لا يقل عنه فظاظة قد وجها بصورة مستمرة تهديدات عنيفة ضد بعض زبائنهما، وكانا المشبوهين الرئيسين عندما تعرضت الزنابق القيمة المزروعة في حديقة دي ميلت لأعمال تخريب في شتاء عام 1635). كما كان من الممكن توافر أشكال أخرى لشراء الأبصال، إذ إن قلة من أفقر الزهارين ابتاعوا أسهماً في أبصال غالية الثمن. وذات مناسبة باع أحد مربي الزنبق من أمستردام، ويدعى جان أدميرال، نصف سهم في ثلاثة أبصال لزبون اسمه سيمون فان بويلنبيرخ. وفي مناسبة أخرى دخل أدميرال في صفقة معقدة مع تاجر يدعى مارتن كرايستر اتفق فيها الطرفان على تبادل بضع زنابق و(180) جيلدراً نقداً مقابل إحدى عشرة لوحة فنية مع نقش يشير إلى مالكها كرايستر.

ومع ذلك، لم يكن إدخال نظام التسعير على أساس الذرّة

يعني أن الزنابق من صنف محدد آنذاك كانت تكلّف المبلغ ذاته في أي مكان آخر من الجمهورية الهولندية. ولما لم تكن عملية نقل حتى أهم الرسائل أسرع من رجل يمتطي ظهر جواد، فقد غابت وسائل إبلاغ التغييرات في السعر بصورة سريعة ودقيقة من مكان إلى آخر، مما حال دون وجود سوق موحدة للزنبق. وبدلاً من ذلك، كانت كل مدينة مشاركة في تجارة الأبصال تقيّم الأزهار بطريقة مختلفة نوعاً ما، الأمر الذي ترتب عليه وجود أماكن يباع فيها الزنبق بسعر باهظ، وأخرى بسعر زهيد.

وقد أسهمت عوامل أخرى في انتشار الفوضى العامة التي اجتاحت أسعار الزنبق. فالزهارون، كأفراد، كانت لهم تفضيلاتهم الخاصة، وتأثروا بأنواع الأبصال التي كانت تباع وتشترى آنذاك، وأيها كان الأكثر مرغوبية، وأيها أصبح سهل المنال بصورة أكبر. فالأبصال الأكبر حجماً كانت بصفة عامة أرخص من الصغيرة إذا ما بيعت على أساس الذرّة. فإذا ما أُخذت هذه العوامل جميعاً بالحسبان يتضح أنه حتى الزنابق التي كانت تباع في مكان ما وفي يوم ما تباينت أسعارها إلى حد كبير.

لقد بيعت سبع من أزهار الزنبق من صنف جودا في مدينة ألكمار في غضون ساعة أو ساعتين بأسعار تتراوح ما بين ستة جيلدرات وثلاثة ستايفرات للذرّة الواحدة إلى عشرة جيلدرات وستايفرين. ذلك يعني أن المشترين دفعوا ما بين (765) جيلدراً إلى (1500) جيلدر للبصلة الواحدة. فقد بيعت ثلاث زنابق من نوع يسمى باراجون فان ديلفت خلال دقائق بجيلدر واحد وأربعة عشر ستايفر للذرّة الواحدة، وبعدها بجيلدرين وأربعة ستايفرات ثم بأربعة جيلدرات وستايفرين على التوالي. أما أبصال ثلاث من نوع أدميرال فان دير إيجيك تزن (92) ذرة، و (214) ذرة و (446) ذرة فقد بيعت بـ (710) جيلدرات ، و (1045) جيلدراً ، و (1620) جيلدراً للبصلة الواحدة.

XXX

لقد ترتبت على الزيادة السريعة في أسعار الأبصال في عام 1635 وخلال النصف الأول من عام 1636 نتائج مهمة. فالأثرياء من المربين والمتاجرين بالزنبق الذين كانوا حتى ذلك الحين يتاجرون بالأبصال مع الخبراء أو فيما بينهم فقط أدركوا أنه تتوافر فرص جديدة لجمع المال، فشرعوا في

عرض أزهارهم لزهارين يتدفقون على السوق. أما الخطوة التالية فقد تمثلت في التكتل فيما بينهم لزيادة رؤوس أموالهم إلى الحد الأقصى أو تحسين نوعية المخزون الذي كان يتعين عليهم أن يقوموا بعرضه. وأنشئ عدد من الشركات للإتجار في الزنبق، إذ أقدم التاجر المقيم في مدينة هارلم كورنيليوس بول الأصغر، على سبيل المثال، على عقد شراكة مع أحد مربي الزنبق، ويدعى جان كوبال، في شهر أيلول من عام 1635. فأسهم بول بما لا يقل عن (8746) جيلدراً وستايفرين من رأسمال الشركة. وفي شهر كانون الأول من عام 1636 أقدم تاجران من مدينة هارلم هما هنريك جاكوبس وورولاند فيروسترايتن على التشارك مع تاجرين آخرين من مدينة أمستردام هما فيليب جانس وماتيوس بلوم. وقد شرحت بنود تأسيس الشركة بشيء من التفصيل كيفية سير العمل، فكان فيروسترايتن، الشاب ذو الخمسة وثلاثين ربيعاً، الذي ربما كان آنذاك قد أصبح للتو تاجراً خبيراً، هو الشريك الوحيد المخوّل بالإتجار بالأبصال، وأنه سيشتري الأبصال ويبيعها بوساطة أموال يحددها المديرون الثلاثة الآخرون. واتفق المديرون الأربعة على أن الإتجار بالأبصال يكون نيابة

عن الشركة وليس لحساب مؤسسيها قط.

ولا بد أن شركات الزنبق والمربين المهنيين قد فكروا باهتمام، في خريف عام 1636، حيال أصناف الزنبق التي سيزرعونها للموسم القادم. فقد كانت أعلى الزنابق قيمة مثل مجموعات الأدميرال والجنرال، والجنراليسيمو وما شابه، غالية الأسعار إلى حد كبير بحيث يعجز عن شرائها الكثير من الزهارين. أما التجار الأفقر القابعون في قاع السوق فقد بدأوا يطلبون أزهاراً أقل مرغوبية، وأكثر وفرة، وأقل سعراً بكثير.

وقد وصفت تلك الأزهار بـ «السلع المفردة»، أي تلك الزنابق التي تباع وتشترى بالقطعة الواحدة، شأنها في ذلك شأن الأصناف ذات البهاء الأرقى التي شكلت الأساس في تجارة الزنبق في مطالع الثلاثينيات من القرن السابع عشر. ولما كانت الزنابق المفردة الأقل مرغوبية رخيصة الثمن لم يكن تسعيرها يتم على أساس الذرّة، بل بآلاف الذرّات. وكانت الأنواع التي تباع بهذه الطريقة تشتمل على أصناف عدة أصبحت فيما بعد مشهورة بذاتها مثل زهور روتجانز وأدوينارز ذات الخطوط القرمزية، ومثل تلك الزهرة المتميزة

المعروفة باسم لاك فان ريجن ذات اللون الأبيض القائم على خلفية أرجوانية.

كما كان عدد الناس المتاجرين بأزهار الزنبق يزداد بشكل متسارع لأن زهارين من طبقة الحرفيين ارتقوا إلى طبقة الخبراء والتجار الذين كان لهم باع طويل في تجارة الأبصال. وطفق بعض الحرفيين الطموحين يشترون الزنبق ويبيعونه في عام 1634 أو عام 1635. ولم يتمكن الزهارون الأكثر فقراً من دخول سوق الزنبق بأعداد كبيرة إلاّ في خريف السنة التالية بالترافق مع أكبر تدفق للتجار الوافدين الذين انضموا للسوق في شهر كانون الأول من عام 1636 وشهر كانون الثاني من عام 1637.

لقد جاؤوا من جميع مشارب الدنيا. ويقول أحد كتاب الكراريس المعاصرين لتلك الفترة أن من بين أولئك الوافدين الجدد من كان يعمل في البناء والنجارة والحطابة والسباكة ونفخ الزجاج، والزراعة، والبقالة، والطبخ، وصناعة الحلوى، والحدادة، وتصليح الأحذية، وطحن القهوة، والحراسة، وتجارة الخمور، ناهيك عن الحلاقين، وتجار الفراء، والدباغين، والنحاسين، ورجال الدين، والطباعين،

والمحامين، ومدراء المدارس، وأصحاب المطاحن، وحتى عمال الهدم. وهكذا، وفيما تشير السجلات القانونية إلى أنه حتى أوان متأخر يصل إلى صيف عام 1636، كانت معظم الزنابق ماتزال تباع من قبل مربيها مباشرة إلى الزبائن الذين يعتزمون زراعتها في حدائقهم، فإنه بحلول فصل الخريف كان السوق تقريباً تحت سيطرة الزهارين الذين كانوا يشترون ويبيعون فقط لتحقيق ربح ما.

ولم يتبق لدينا من معلومات عن هوس الإتجار بالزنبق الذي حدث عندما بلغت الطفرة ذروتها في آخر شهرين أو ثلاثة من عام 1636، سوى تفاصيل قليلة. غير أن سلسلة صغيرة من الكراسات التي تتضمن وصفاً خيالياً لتجارة الزنبق في الحانات، والتي نشرت في مدينة هارلم في بداية عام 1637، قد شهدت إجماعاً حيال كل من مصداقيتها وتمثيلها للأحداث التي وقعت بالفعل. وكان عنوان تلك السلسلة الثلاثية هو: حوارات بين لسان صادق وسلع جشعة صاغها مؤلف مجهول، ونشرها أبرز الطباعين أدريان رومان، الذي كان يقيم آنذاك في مدينة هارلم.

لقد كتب تلك الحوارات نسّاج تخلى عن حرفته ليصبح

زهاراً، فرهن كل أدوات مهنته ليؤمّن لنفسه رأسمال عامل، وراح يرتحل من مدينة إلى أخرى متاجراً بالأبصال. وفي إحدى زياراته النادرة لبلدته التقى مع زميل قديم له يدعى فيرمونت، وأوشك أن يتورط في الولع بالزنبق الذي يزداد اتساعاً، وقدم له من الشراب نبيذاً وجعة. ثم حاول هذا النساج السابق (مؤلف الحوارات) أن يقنع صديقه بأن يغتني عن طريق شراء الأبصال وبيعها. ويقول المؤلف إنه عندما طرح الفكرة على صديقه فيرمونت كان الثاني يحصل بشق الأنفس على ما نسبته (10٪) من عمله، لكنه يستطيع عن طريق الإتجار بالزنبق أن يحصل على (100٪) من الأرباح أو ما يربو على تلك النسبة. «نعم، عشرة إلى واحد، ومائة إلى واحد، وأحياناً، ألف إلى واحد».

لقد نحت الحوارات منحى أخلاقياً تنبؤياً فيما يتصل بتجارة الزنبق. وإذ كان النساج القديم صاحب كبرياء ونزعة مثالية، فقد كان موقناً بسذاجة أن سعر الأبصال سيواصل ارتفاعه إلى الأبد. وكان يتباهى أنه قد كسب ثروة عن طريق إتجاره بالأبصال، وأنه سيستمر في طريق التعامل بالزنبق طوال حياته، فلقد كان أصدقاؤه من بستانيين ونساجين

أثرياء أيضاً، يتنقلون من مدينة إلى أخرى ومن جمعية إلى أخرى في عربات زُينت بترف.

أما فيرمونت، الذي يصوره الكاتب المجهول على أنه رجل مبتدئ مشدوه لكنه صادق، فيجد من العسير عليه أن يصدق أن مجرد نسّاج يستطيع كسب كل هذه الأموال. وتحت إلحاح أسئلته يضطر النساج للاعتراف أنه لم يتسلم معظم المال المستحق له من تجارته الناجحة، إذ إن أرباحه لن تتحقق حتى تُقتلع الزنابق مرة ثانية في فصل الصيف القادم، وهو مايزال مصراً على القول «إن هذه التجارة ماضية قُدماً»، وأن مواصلته التجارة لمدة سنتين أو ثلاث أخرى في سوق الزنبق سترتقي بمكانته لما تبقى من حياته. ثم يضيف قائلاً إنه سيوظف أرباحه في شراء مصنع للجعة وبقعة أرض مستقلة لحسابه، وحتى مقاطعة تقع تحت نفوذه كواحد من «اللوردات».

على أن فيرمونت شخصية مفطورة على الشك، وهو يعتقد أن الأمر برمته مثير للغاية إلى درجة أنه لا يمكن للمرء أن يصدقه. وكان يعجب كيف أن أناساً عاديين انخرطوا في هوس الزنبق يمكنهم أن يغامروا بكل الأموال التي تسلّفوها

مقابل أرباح في تجارة الزنبق. وعلى الرغم من أن الكلام حول المال كان يغريه بصورة مؤكدة إلاّ أنه يقول لصديقه أنه لا يؤثر أن يزج بنفسه في مغامرة الغوص في تجارة الأبصال.

ولا بد أن الكثير من الهولنديين قد فكروا في خريف عام 1636 بالطريقة التي فكر بها فيرمونت وهي أن الأرباح المتحصلة من الزنبق كانت ببساطة مثيرة إلى حد كبير إلى درجة لا يمكن أن تكون أمراً حقيقياً. بيد أن الآلاف من الهولنديين لم يفكروا بذلك المنحى، فأخذوا مدخراتهم ورهنوا سلعهم كي يشتركوا في فوضى تجارة الأبصال.

ولم يكن لدى أغلبيتهم سبيل يسير للوصول إلى مال متوافر، لكن التجار والزهارين الذين كانوا قد خبروا السوق وجدوا فرصة في بيع أزهارهم لوافدين جدد لا يمتلكون غير معرفة قليلة حيال الزنابق القيّمة وتلك الأدنى قيمة. وغدا من الممارسات العادية أن يقبلوا من الوافدين الجُدد عربونات عينية غير نقدية. كان ذلك يعني بالنسبة للزهارين القابضين بأيديهم على ثرواتهم، أياً كانت تلك الثروة، أن يأخذوا قيمة الأبصال بأية طريقة ممكنة. فالشخصية الخيالية التي اتخذت اسم «السلع الجشعة» في الحوارات دفعت عربونات تتراوح

ما بين قطعة قماش تكفي لخياطة معطف وبذلة، إلى عدة أرطال من البرقوق[1]. كان الزهارون الحقيقيون يدفعون ثمن الأبصال أدوات أو ملابس أو سلعاً منزلية إذا كانوا من طبقة الحرفيين، وإذا كان الراغبون في الشراء من المزارعين فقد كانوا يقدمون حيوانات أو محاصيل من مزارعهم. وإذا كان المشترون من الأثرياء فقد كانوا يقدمون لوحات فنية وقطعاً أخرى من قطعهم المنزلية الفاخرة. وكان الشرط ألاّ يُدفع ما تبقى من سعر الشراء إلاّ عند التسليم فقط، الذي يتم عادة في موسم الاقتلاع. وفي بعض الحالات تكون شروط الدفع أكثر مرونة، إذ حدد أحد العقود أن الدفع سيتم فقط في يوم رأس السنة الجديدة لعام 1638، أي بعد عام كامل من توقيع العقد. كان ذلك عندما قام صاحب محل من هارلم يدعى إيرت دوسنس ببيع حديقته كاملة لسيد محلي يدعى سيفيرجين فان دي هيو فيل مقابل ستة عشر ألف جيلدر.

لقد زخرت الحوارات بأمثلة أخرى عن أنواع العقود التي كان يبرمها أولئك الأغرار من تجار الزنبق بمجرد أن تصبح فكرة الدفع بالمواد العينية مقبولة لديهم بوجه عام.

---

(1) في الأصل «quarter of prunes»، والكوارتر وحدة وزن تساوي (28) رطلاً إنجليزياً أو (25) رطلاً أمريكياً. (المترجم)

وإذ تُحدّث الشخصية الموسومة بـ «السلع الجشعة» صديقها المدعو «اللسان الصادق» عن الصفقات التي أبرمها ودوّنها في سجله الرئيس، تذكر واحدة من تلك الصفقات التي باعت فيها باقةً من أزهار الزنبق من صنف «التاج الأبيض» مقابل (525) جيلدراً نقداً، مع تأمين يتمثل في أربع بقرات تسلم على الفور. وتتحدث عن صفقة أخرى اشترت فيها كمية من الزنبق من نوع جينتين مقابل عربون يتكون من «واحد من أجمل معاطفي الموشاة، وقطعة من عملة قديمة تدعى «روز نوبل»[1]، وقطعة من العملة المعدنية مثبتة بسلسلة فضية تُعلق حول رقبة طفل». وقد وافقت تلك الشخصية على دفع ثمانية عشر ألف جيلدر نقداً عندما تصبح الأبصال جاهزة للتسليم. بل إن بعض الاتفاقيات تبدو أكثر تعقيداً من ذلك. فعلى سبيل المثال تذكر الحوارات أن زهارين عرضوا أحياناً مبادلة جزئية لصنف من الزهور بصنف آخر. وتضيف الحوارات أن زهارين عرضوا أحياناً مبادلة جزئية لصنف من الزهور بصنف آخر. وتتحدث «الحوارات» عن

(1) في الأصل «rose-noble» وهي عملة إنجليزية ذهبية قديمة كانت تساوي ستة شلنات وثمانية بنسات. ويبدو أن الهولنديين حذوا حذو الإنجليز وسكوا عملة مشابهة لها وكانت تساوي ثمانين ستايفراً. (المترجم)

واحدة من الترتيبات الأكثر تهوراً والتي قامت بها شخصية «السلع الجشعة» واقتضت منها أن تتسلم كمية كبيرة من زنبق «التاج الأبيض» إضافة إلى عربة وجياد، وطاستين من الفضة، و(150) جيلدراً نقداً. ووافق النساج بدوره على أن يتسلم طبقاً من الفضة يساوي ستين جيلدراً، وكمية مساوية من زنبق «التاج الأصفر» ومائتي جيلدر نقداً.

وإذ اتسمت أجواء خريف عام 1636 بسمة شتوية، فقد بدا ذلك أمراً مبشراً بالخير لتجارة الزنبق. إذ تواصلت الزيادة في عدد الزهارين وعدد الأبصال المتداولة، مثلما استمرت الأسعار في ارتفاع تدريجي. كانت الأرباح هائلة، لكنّ الحقيقة هي أن تجارة الزنبق التي بناها الزهارون كانت مستندة إلى أوهى الأسس.

ولم يكن الأمر ببساطة ما إذا كان بإمكان السوق أن يتحمل الارتفاع السريع في أسعار الأبصال، إذ إن كل أنواع المشكلات قد وقعت عندما لم يعد الزهار قادراً على فحص الأزهار التي يشتريها. وأول تلك المشكلات أنه لم تكن توجد ضمانة بأن يتم التعامل مع الزنابق بعناية مناسبة. وتشتمل محفوظات هارلم على تفاصيل لحالة تتعلق بخباز محلي يدعى

جوريان جانز الذي شاهد في ربيع عام 1636 عينة جميلة من صنف أدميرال ليفكنز مزهرة في حديقة مارتن كريستر في أمستردام.

فأبرم جانز صفقة لشراء الفسائل. وبعد أشهر قليلة كان الخباز يجلس في حانة عندما أبلغه زهار آخر أن البصلة قد اقتلعت قبل أوانها ولعلها بذلك قد تلفت. وكان على جانز أن يهدد باتخاذ إجراء قضائي يرغم به كريستر أن يعفيه من التزامه بشراء الفسائل. لقد غامر حتى الخبراء الأثرياء بشراء سلع معطوبة، ومن هؤلاء كورنيليس جولديواجن، عضو المجلس التشريعي لمدينة هارلم، الذي كان يحوز ما لايقل عن (1300) زنبقة من أنطوني فان فلوري المقيم في لاهاي، والذي أبقى على بارينت كاردوس ليزرعها في حديقته خارج كروسبورت على مقربة من الخندق المائي المحيط بالمدينة. وحينما تم تفريغ الأبصال تبين لكاردوس ومساعده أنها قد قطفت بطريقة يعوزها الإتقان، وأن ما يقرب من نصفها قد اعتراه تلف شديد.

كما أن المعرفة البائسة بأسرار انقسام النبات قد أفرز مشكلات كبيرة. فأي امريء اشترى فسيلة كان يغامر بشراء

بصلة مستولدة وليس الزنبقة المنقسمة التي كان يرغب فيها. ففي شهر آيار من عام 1633 اشترى إبراهام دي جويير، أحد أشهر تجار الزنبق في أمستردام، زنبقتين من صنف باراجون شيلدرز في مزاد نظمهُ الرجل الذي ابتكر الصنف ذاته ومنحه اسمه الشخصي. كانت زنبقة باراجون شيلدرز صنفاً جديداً ومرغوباً فيه بدرجة كبيرة. وإذ قدّر دي جويير الأمر من خلال التاريخ الذي اختاره دي شيلدرز لإقامة مزاده، فربما كان الأول قد شاهد الزنبقة مزهرة قبل أيام من بدء المزاد فافتتُن بها. وعلى أي حال، فقد دفع ما كان بمعايير ذلك الزمان ثمناً هائلاً لقاء بصلتين. كلفته إحداهما خمسين جيلدراً والثانية واحداً وأربعين جيلدراً. زرع دي جويير البصلتين في حديقته خارج أسوار المدينة بالضبط وجلس ينتظر مدة تسعة شهور طويلة كي تزهر البصلتان مرة أخرى. وأخيراً أزهرت البصلتان اللتان طالما تاق لرؤيتهما في ربيع عام 1634، فإذا هما لا تمتان بصلةٍ إلى زنابق الروزن البديعة التي توقعها دي جويير. ولم يشاهد الزنابق البيضاء النقية ولا القرمزية الزاخرة بالحيوية التي وقع في حبها عندما رآها في حديقة دي شيلدرز. وأخفقت التسعون جيلدر التي دفعها

دي جويير في شراء شيء سوى زنابق مستولَدة رديئة بلون الطين. وظل مربي الزنبق سيئ الطالع يطالب باسترجاع أمواله مدة ثمانية عشر شهراً بعد ذلك، مع أنه كان أمراً مقبولاً بوجه عام أن يعدّ تجار الزنبق من ذوي السمعة الطيبة صفقة شراء لاغية وباطلة إذا أخفقت فسيلة في التماهي مع جودة البصلة الأم.

على أن أخطر الحالات جميعاً تمثلت في عدد من قضايا الاحتيال المباشر التي ربما لم يكن منها مفر في سوق غني وضعيف التنظيم كسوق الزنبق. فعندما تختلف في الغالب زنابق من ذات الصنف اختلافاً جوهرياً في مظهرها، بحيث تتشابه زنبقة رديئة من نوع «نائب المالك» إلى حد كبير مع زنبقة أقل قيمة من صنف الفيوليتين تدعى أدميرال فان إنجيلاند، فقد كان من العسير في كثير من الأحيان أن يتم التمييز بين خداع حقيقي وأخطاء حقيقية. ويبدو من المؤكد أن المحفوظات القانونية للجمهورية الهولندية تشتمل على حالات قليلة ثبت فيها الخداع. بيد أن شخصية «اللسان الصادق» في الحوارات قال إنه تحدث لابن عمه الذي كان ذا خبرة في تجارة الزنبق، وأبلغه الثاني عن أناس دفعوا مبالغ

لقاء حصولهم على زنابق «التاج الأبيض» وتسلموا بدلاً منها زنابق بلا قيمة وذات لون واحد. ولأن جميع تلك الأبصال كانت تبدو متشابهة إلى حد بعيد فمن الطبيعي ألاّ تكتشف حالات الاحتيال تلك إلاّ عندما تزهر الزنابق في فصل الربيع.

إلاّ أنه وعلى الرغم من أن مشكلات كهذه قد تورط فيها هولنديون أكثر تحفظاً وحذراً، فقد ركز الزهارون، الذين اندفعوا زرافات للإتجار بالزنبق في خريف عام 1636، اهتمامهم كله تقريباً فقط على المال الذي كانوا يجمعونه. وإذ كان الطلب على الزنبق يزداد يوماً إثر يوم فقد كانت أسعاره تواصل ارتفاعها بصورة متسارعة. حينئذ كتب المؤرخ المعاصر لتلك الفترة ليوي فان أيتزيما يقول إن كل شيء كان يمكن أن يطلق عليه زنبق كان آنذاك ذا قيمة مالية، بما في ذلك تلك الأبصال التي كانت تُعدّ غير صالحة البتة، إلى درجة أنه كان يُقذف بها إلى المزابل قبل أشهر فقط.

وهكذا توافرت، في معظم الأوجه، كل الظروف المطلوبة كي تتحول الطفرة في أسعار الزنبق إلى هوس كامل. إذ ابتُكرت أصناف كثيرة مختلفة، بعضها كان مرغوباً

فيه على نطاق واسع لكنه كان نادراً، وبعضها الآخر كان أدنى مرغوبية لكن الحصول عليه أسهل من سابقه. كما وجدت مجموعة صغيرة من البساتنة المهنيين تمثلت مهمتها في إنتاج أزهار جديدة، وفي أقل تقدير تلبية شيء من الطلب على الزنابق الموجودة. ووجدت مجموعة كبيرة من الهواة الأكفاء والمتحمسين الذين بلغ عددهم عدة مئات من الرجال الأقوياء، والذين كانوا يزرعون الزنبق في حدائقهم الخاصة، إلى درجة أن الزنبق كان متوافراً في كل مدينة تقريباً.

وقد أرسيت قوانين للإتجار بالزنبق، وتوافرت معايير لتقدير قيمة الزهرة ووضعها في مكان معين على مقياس يتدرج من زنبق فائق البهاء إلى زنبق بدائي، وانضم إلى تجار الزنبق ومربيه الذين هيمنوا على السوق، آلاف من الزهارين الراغبين في بيع كل ما بحوزتهم لشراء الأبصال. وفي نهاية المطاف، ارتفعت أسعار الزنبق إلى مستويات أعلى مما بلغته في أي وقت مضى. وكان كل ما هو مطلوب آنذاك التوصل إلى طريقة تجمع الطامحين إلى الإتجار بالزنبق بعضهم ببعض، أي وجود مكان للمتاجرة.

الفصل الحادي عشر

عند لافتة «الكرمة الذهبية»

في قلب مدينة أمستردام مباشرة، وعلى وجه التقريب على قمة السد الذي منح المدينة اسمها فعلياً، أُقيم مبنى بهي رباعي الزوايا مكون من طوابق أربعة، مشيّد على النمط المعماري الفلمنكي، ومتوج ببرج ساعة أنيق رشيق. انتصب ذلك المبنى مقابل البنك المركزي وعلى مقربة من قاعة المدينة في هيئة أكدت الدور الرئيس الذي لعبه المبنى في حياة المدينة، وحقيقة، في حياة الأقاليم المتحدة برمّتها. كان ذلك المبنى هو «بورصة» أمستردام الجديدة، أي سوق الأوراق المالية للمدينة.

قبل سنوات قليلة كان التجار الذين أصبحوا يشغلون مكتباً أو غيره من أصل (123) مكتباً يشتمل عليها سوق الأوراق المالية مضطرين لأداء أعمالهم في العراء على جسر أمستردام الجديد. أما إذا كان الجو ماطراً فكانوا يلوذون بمقصورات القديس أولاف أو بكنيسة المدينة القديمة. بيد أنه مع اندلاع الطفرة الاقتصادية للمدينة في مطالع القرن

السابع عشر ومع تدفق التجارة الخارجية، غدا من الواضح أن السوق المالي بحاجة إلى مقر دائم يقي المتعاملين من الأحوال الجوية. وقد استجابت «البورصة» التي افتتحت أعمالها في عام 1610، لتلك الحاجة وأسهم مجرد وجودها المادي بطريقة ما في التخفيف من شكوك مواطني أمستردام الأشد محافظة، والذين كانوا يشعرون بأن التعامل بالأسهم ينطوي على شيء من الإثم.

على أن المتاجرة في السوق المالي كانت منظمة بشكل صارم، وكان التعامل مسموحاً به فيما بين الساعة الثانية عشرة والثانية بعد الظهر، فيحتشد عمل يوم كامل في تلكما الساعتين. وكان الهوس الصاخب المندلع في داخل المبنى حين تعلن الساعة الكبيرة في البرج انتصاف النهار شديداً إلى درجة أن أي شخص يمر بمحاذاة السوق المالي عند الساعة الثانية عشرة ظهراً يكون معذوراً إذا استنتج أن المتعاملين كسبوا نقطة في «البورصة». أُدير العمل في السوق المالي بوتيرة تتضح من سلوك السماسرة الذين كانوا قبل سنوات يختمون كل صفقة من صفقاتهم بطقس مفصل للسلام بالأيدي، فأصبحوا بعد ذلك يصفعون أيادي بعضهم ببعض

قبل أن يندفعوا إلى المبادلة التالية.

مئات من التجار حصلوا على تراخيص للتعامل في السوق المالي، وربما عمل في البورصة أربعمائة سمسار رسمي في ثلاثينيات القرن السابع عشر، والتحق بهم في قاعة المضاربة قرابة ثمانمائة من المتعاملين المستقلين غير المرخصين الذين تخصصوا في التعامل برزم صغيرة من الأسهم ذات الأسعار المتدنية. وفي وصف للسوق المالي لاحظ الكاتب المعاصر لتلك الفترة جوزيف دي لا فيغا أن أحد المتعاملين المستقلين «كان يقضم أظافره، ويشد أصابعه، ويغلق عينيه، ويسير أربع خطوات ويحدث نفسه أربع مرات، ويرفع يده إلى خده كما لو كان يعاني من ألم في الأسنان، وترافق ذلك كله مع سعال غامض».

لا يورد فيغا شيئاً عما كان ذلك السمسار التافه يأمل أن يبيع أو يشتري بما يمتلك من حفنة جيلدرات، لكن كانت لديه خيارات واسعة. ذلك أنه في عام 1636 كانت تتم المتاجرة بما لا يقل عن (360) سلعة مختلفة في سوق أمستردام المالي، بيد أن الزنبق لم يكن إحدى تلك السلع.

وقد تنطوي هذه الحقيقة على مفاجأة لأولئك الذين

يفترضون أن كارثة مالية ناجمة عن تردي سمعة الولع بالزنبق كانت بالضرورة خطيرة وواسعة الانتشار، وأثرت بقوة على السوق المالي، وعلى التجارة، وعلى الاقتصاد الهولندي بصورة عامة. وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، إذ إن المضاربة بأبصال الزنبق كانت دائماً تتم على هامش الحياة الاقتصادية الهولندية.

لم يُقدم على المضاربة بالأبصال تجار مهنيون بقدر ما عمل فيها هواة، ولم تكن تلك المضاربة خاضعة قط للعادات، أياً كانت غرابتها، ولا للأنظمة التي تحكم عمل السوق المالي. والحقيقة أن الولع اتخذ شكل محاكاة هزلية فجة، ولكن مقصودة، للمضاربة بسلع وأسهم كانت تحظى برواج في السوق المالي. ولم تكن المضاربة بالزنبق ميداناً لنشاط أصحاب رؤوس الأموال المتمرسين في أساليب العمل، بل أقبل عليها أبناء الريف والمعوزين من سكان المدن الذين من المؤكد أنهم لم يحوزوا في حياتهم كلها قط سهماً واحداً تقريباً عندما شرعوا في التعامل بالأبصال.

على أن الحقيقة القائلة بأنه لم يتم التعامل بالأبصال في السوق المالي لا تعني أن تجارة الزنبق لم تكن عملاً محكوماً

بقوانين. ففي واقع الأمر، أن تلك التجارة سرعان ما تطورت لتغدو نشاطاً معقداً، بل إنها أصبحت تتمتع بطقوس يتعامل فيها المشتري والبائع وفقاً لقواعد محددة. وكان الطرفان يرتبطان بالتزامات متبادلة يُتفق عليها أمام شهود ويتم توثيقها خطياً. ومثلما تجمع السماسرة ذات يوم على الجسر الجديد، فقد احتاج تجار الزنبق مكاناً للقيام بأعمالهم. وكما فعل السماسرة، لجأ بعض تجار الزنبق إلى استخدام بيت الله إذا اقتضت الحاجة. فعندما حدث ولع الزنبق كانت الكنيسة المحلية مكاناً عاماً للاجتماع يحتشد فيها الجميع، من تجار محليين إلى عاشقيْن يتبادلان الغَزَل. بيد أن معظمهم وجدوا في الحانات الملائمة أماكن أكثر راحة إلى حد بعيد لبيع أبصالهم وشرائها. وهكذا غدت الحانة المحلية هي السوق المالي للمتاجرين بالزنبق.

لقد مثلت «مجموعات» مربي الزنبق ومتداوليه الذين كانوا يلتقون في الحجرات الخلفية للحانات الهولندية ملمحاً رئيساً من ملامح الولع بالزنبق بحيث يغدو من المهم أن نقدم لمحة عن أحوال الحانات في ثلاثينيات القرن السابع عشر. وما لم تُفهم الظروف التي كانت تجري في ظلها تجارة

الزنبق فعلياً من حيث سهر الليالي المتأخر، والغرف العابقة بالدخان، والرجال السكارى، فإن الولع في حد ذاته سيظل دوماً سراً غامضاً.

لنبدأ بالقول إن الحانات كانت شائعة على نطاق واسع في الأقاليم المتحدة إلى درجة أنها كانت أمراً مألوفاً. ففي عام 1613، على سبيل المثال، توافر في أمستردام خمس حانات لكل مائة من السكان، ما يشير إلى أنه من المحتمل أن يكون عدد الحانات في عام 1636 قد بلغ مائتي حانة في داخل أسوار مدينة هارلم، تلك المنطقة التي لا تزيد مساحتها كثيراً على مساحة «الهايد بارك». وتنوعت بيوت الشرب تلك بين حانات كاملة، إلى أقبية قذرة، إلى محلات الصيدلة القديمة. وربما أقيمت حانات غير مرخصة وغير قانونية متخصصة في التهرب من الضريبة المالية المفروضة على الجعة التي كانت أموالها تستخدم في تمويل الحرب مع إسبانيا. وكان يتعين على السلطات أن تقوم بحملات متكررة غايتها الإبقاء على انتشار هذه المحلات قيد المراقبة.

على أن توافر حجرات خاصة يطلبها المتاجرون بالزنبق لم يكن أمراً ممكناً إلاّ في الحانات الأكبر ذات السمعة الأفضل،

والتي عُرفت بأسماء مثل «كبير الشياطين»، «الحسّون»، «الأسد»، «الشيطان المكبّل». وكان يمكن العثور على محلات من هذا النوع في داخل أسوار المدينة وخارجها.

ففي مدينة هارلم، على سبيل المثال، احتشد عدد من الحانات جنوب المدينة وسط المساحات الخالية والممرات في غابات هارلم الشهيرة. ولأن تلك الحانات كانت قريبة من أولى مزارع الزنبق في الشمال تماماً، يبدو الأمر منطقياً أن نفترض أن بعضها، في أقل تقدير، لابد أن استضاف مجموعات من الزهارين المتاجرين بالأبصال. وإذا كانت الحال كذلك، فلابد أن المتعاملين بالزنبق قد أقاموا في تلك الأماكن إلى جانب زملاء من ذوي الأخلاق المتدنية. ولما كان البغاء ممارسة خارجة على القانون، ولو ظاهرياً في الأقل، في داخل أسوار هارلم، فقد لعبت حانات هارلم دوماً دوراً مزدوجاً إذ غدت أيضاً بيوتاً للدعارة. وليس من اليسير على المرء أن يصرف النظر عن أسوأ تلك المباغي المحلية سمعة، والذي يرد في مدونات ذلك الزمان بوصفه «البيت الأحمر خارج بوابة الصليب».

ولسنا نعرف على وجه اليقين كم حانة من عشرات الحانات في مدينة هارلم قد استضافت بذاتها مهووسي الزنبق في عام 1636، بيد أنه يمكن أن يكون تخميناً معقولاً القول أن إحدى تلك الحانات التي استضافت مثل أولئك كانت حانة كبيرة معروفة على نطاق واسع تدعى «الكرمة الذهبية». وقد احتلت تلك الحانة موقعاً مهماً عند الزاوية التي تربط ميدان السوق والشارع الرئيس للمدينة المعروف بشارع كوننج. كانت تلك الحانة ملكاً للأخوين جان وكورنيليس كوايكل، مع أنهما لم يتعهدا إدارتها يوماً إثر آخر. كان الأخوان كوايكل ابنين لصاحب حانة يدعى كورنيليس جيرتيز كوايكل الذي كان واحداً من أهم الرواد في تربية الزنبق في هولندا. وقد حملت اسمه في الأقل خمسة أصناف جديدة من الزنبق ابتكرها هو ذاته في الربع الأول من القرن السابع عشر، وذلك عرفاناً بإنجازاته. وكان من بين تلك الأصناف الزنبقة البيضاء والبنفسجية لاك فان كوايكل، وزنبقة شعبية من فصيلة بيزاردين مرفيلي فان كوايكل، أي معجزة كوايكل.

مات كوايكل العجوز في عام 1632 عن عمر يقارب السبعين عاماً، بيد أن ابنه الأصغر جان واصل نشاطه في

تجارة الزنبق حتى المرحلة التي شهدت ذروة الولع بالزنبق، والفترة التي أعقبتها. ولم يكن لديه أمر أكثر أُلفة من استضافة تجار مدينة هارلم في إحدى الغرف الخلفية من حانته، التي لم تكن تتمتع فقط بموقع ملائم تماماً، بل كانت وجار الشراب الأكثر شهرة في هارلم.

فلنفترض إذاً أنه كان يتعين علينا أن نسافر من أمستردام لزيارة حانة «الكرمة الذهبية» في يوم من أواخر أيام الخريف في عام 1636 ومشاهدة تجار الزنبق يزاولون أعمالهم، فماذا كنا سنرى؟ إذا غادر أولئك الزائرون أمستردام في وقت متأخر بعد الظهر مسافرين، ربما، على امتداد قناة الأسفار، التي افتتحت حديثاً آنذاك وربطت بين المدينتين وكانت الأولى من نوعها في الأقاليم المتحدة، فإنهم سيصلون هارلم عند الغسق. فالرحلة من مدينة إلى أخرى كانت تستغرق ساعتين وربع الساعة فقط. لقد كان السفر سريعاً وملائماً إلى درجة أن أصحاب التقليعات من سكان أمستردام سرعان ما تبيّن لهم أنه من الأيسر لهم أن يرسلوا غسيلهم القذر بالمراكب إلى أفخم مصابغ هارلم بدلاً من أن يقوموا بتنظيفها بأنفسهم. أما أولئك الذين كانوا يسافرون في المراكب فقد

كانوا يصرفون وقتهم في مناقشة أمور راهنة، وفي قراءة نشرات صغيرة تسمى «ثرثرات مراكب القَطر». ومن المؤكد أنه خلال فصلي الخريف والشتاء في عام 1636 غدت المراكب الكبيرة الجديدة ذات الألوان الزاهية مراتع للقيل والقال عن آخر التطورات في ولع الزنبق.

وحينما يقترب المركب من هارلم، فإن أول ما تقع عليه عيون المسافرين من المدينة صف طويل من سقوف حمراء داكنة تعلوها خيوط من الدخان منبثقة من آلاف عديدة من المداخن. كانت تلك السقوف تبرز واضحة من بين المروج التي تحف بالمدينة من كل جانب. وسوف يرى المسافرون بعد ذلك أن سوراً دائرياً منخفضاً مصنوعاً من الطوب، وخندقاً مائياً دفاعياً انتصبت عليه تسعة جسور قد أقيما لتوفير الحماية للمدينة. وبعيداً باتجاه الغرب، وراء مشهد السقوف، يمكن للمرء أن يرى الأطراف المثلّمة للكثبان الرملية العملاقة الممتدة على طول ساحل بحر الشمال ترتفع لتلتقي مع سماء هولندا الرمادية الناعمة المميزة. أما باتجاه الجنوب فسوف يلمح الزائرون الامتداد الأسود المتجهم لبحر هارلم، ذلك البحر الداخلي، الضخم، قليل الملوحة، الضحل الذي يظل

عرضة لعصف الرياح العنيفة التي تؤدى إلى تآكل مستمر في ضفافه، والتهام المزيد والمزيد من الأراضي الزراعية المحيطة به حتى أنه كان آنذاك لا يحتاج إلاّ إلى ميل واحد فقط أو نحو ذلك ليصل إلى أسوار هارلم ذاتها.

ارتبط ذلك البحر بسمعة مشؤومة لأنه قضى على حياة أناس كان لديهم ما يكفي من الحمق للإبحار فيه، فسماه أهالي هارلم «الذئب المائي».

وإذ يترجل القادمون من أمستردام من مركبهم الكبير خارج أسوار المدينة بالضبط، يجدون أنفسهم واقفين في مواجهة بوابة تدعى «ميناء أمستردام»، حيث نصب حكام هارلم عدداً من المشانق على شكل مثلث مكون من ثلاثة أعمدة من الطوب شُدت إليها دعامات حديدية وبعض الأعمدة الخشبية التي كانت تعلق عليها أجساد مجرمين أُعدموا منذ وقت قريب. ولما كانت المدينة موطن المنفذ الرسمي للإعدام في أنحاء الإقليم كافة، لم يكن أمراً مستبعداً أن تكون المشانق مملوءة بأجساد المجرمين المعدومين. وقد أُطلق على المنفذ الرسمي للإعدام لقب «سيد الأعمال السامية لهولندا»، وكان هو ذاته يتدبر أمور إرسال السجناء من أمستردام

وكذلك مجرميها. وعندما مرّ السير ويليام بريريتون من تلك الطريق في عام 1634، لم يشاهد فقط هيكلين عظميين بلا لحم لشخصين بائسين يتدليان من مشنقتين، بل رأى أيضاً جسماً مشوهاً لفتاة تم تعذيبها بالدولاب[1] لأنها قتلت طفلها. كما شاهد جثة متفحمة لمتسول أُحرق بالخازوق لأنه أشعل النار في قرية بكاملها.

وما إن يدخل المسافرون مدينة هارلم من خلال ميناء أمستردام، فإن أول انطباع قد يتولد لديهم يتأتى من الرائحة المميزة للمدينة، إذ تزكم الأنوف الروائح المنبعثة من مخيض اللبن ومنقوع الشعير. كما تنبعث روائح صناعتيها الرئيستين: تبييض القماش والجعة. كانت مصانع الجعة في هارلم تنتج ما مقداره خُمس الكمية التي تنتجها مصانع هولندا كلها. أما المصابغ المشهورة في المدينة في تبييض الكتان، والتي أنشئت خارج الأسوار تماماً، فقد كانت تستخدم مئات الجالونات من مخيض اللبن في اليوم الواحد لصبغ قماش يرد إلى المدينة من جميع أنحاء أوروبا ليصبح قماشاً أبيض يأخذ بالألباب. كان الحليب يملأ سلسلة من حفر ضخمة لتبييض القماش

(1) الدولاب «wheel»، طريقة للتعذيب في العصور الوسطى.

على طول الأسوار الغربية، وعند كل مساء كان يتم تصريفه إلى خندق هارلم ومن هناك إلى نهر سبارني، فتنصبغ المياه باللون الأبيض.

في أواخر الخريف يخيم الليل سريعاً في الجمهورية الهولندية، ويكون الظلام قد عم البلاد عندما يجد مسافرون قادمون إلى المدينة من خارجها طريقهم إلى ميدان السوق.

لم تكن في هارلم في عام 1636 إضاءة سوى تلك الإضاءة البدائية للشوارع، وكان الضوء الوحيد في متاهة شوارعها الضيقة يصدر عن نيران ومصابيح زيتية تومض من خلال مصاريع تسدل اتقاء للبرد. وكانت بعض الطرق ضيقة إلى درجة أنه كان بمقدور قاطني منزل على أحد جانبي الطريق أن يمدوا أيديهم ويصافحوا جيرانهم على الجانب الآخر. وإذ تعج المدينة بالازدحام والحيوية المنبعثة من الضوضاء خلال النهار، فإنها تكون أهدأ بكثير حين يحل الليل. وباستثناء الجلبة الطقسية التي يُحدثها عاملون في جهاز حراسة شعبي (ميليشيا) تكون معظم الطرق خاوية إلاّ من هيئات بشرية من السكيرين المحدودين المحتشدين يتدافعون عبر الأزقة سعياً وراء دفء منبعث من دخان حانتهم الأثيرة.

وقد يكون الدخان، أكثر من الدفء، هو الذي يلف الرواد الدائمين لحانة «الكرمة الذهبية» بمجرد دخولهم الحانة. كان الدخان المسيل للدموع، الذي ساد في كل حانة من حانات القرن السابع عشر، كثيفاً إلى درجة أنه غالباً ما تعذرت الرؤية في فضاء الغرفة. ومن المؤكد أن جزءاً من هذه القتامة كان ينبعث من دخان النيران الصاخبة المفتوحة التي كانت المصدر الوحيد للتدفئة. وكان يتم إذكاء النار عن طريق نبات محلي يستخدم وقوداً، ويستخرج بكميات كبيرة، حتى إن الهولنديين الذين كانوا يرتادون حانة «الكرمة الذهبية» يقيمون مستنقعات وسبخات جديدة بالسرعة ذاتها التي كانوا يصرّفون القديمة منها. وكان ذلك النبات المستخدم كوقود يكدّس في الموقع على شكل هرم أجوف. وقد وجد زائرون من مِثل بيتر ماندي، أن هذا الوقود النباتي الهولندي يحترق بصورة «جميلة ونظيفة للغاية» على الرغم من أن عنصر الكبريت الذي يحتويه قد جعل من أولئك المتحلقين حول المواقد رجالاً ذوي «وجوه شاحبة بلا لون كالأشباح». وعلى ذلك، فإن الدخان الذي كان يملأ حانة «الكرمة الذهبية» كان ينبعث برمته تقريباً من الغلايين التي

يمجها رُواده.

في عام 1636 كان التدخين منتشراً في أوساط الهولنديين إلى درجة أنه كان عملياً سمة من سماتهم الوطنية، فقد كانوا يدخنون التبغ المستورد معظمه من أمريكا فيما كانت الأقاليم المتحدة حديثة العهد بزراعته آنذاك، بوساطة غلايين رفيعة وطويلة مصنوعة من الفخار. كان المدخنون يواصلون تدخينهم بصورة مستمرة تقريباً، وليس أقل الأسباب أن أطباء تلك الفترة صرحوا بأن التبغ دواء فعال، وقادر على الوقاية من الطاعون، وعلى معالجة كل شيء بدءاً من ألم الأسنان حتى الديدان.

كما أن ما قيل عن أن التبغ يمتص سوائل الجسم الحيوية بحيث يحدث عقماً عند مدخنيه، لا يبدو أنه قد أقنع الكثيرين بالإقلاع عنه. لقد كان دخول حانة «الكرمة الذهبية» في تلك الفترة، شبيهاً بدخول واحدة من حجرات التدخين المبتذلة ذات الرائحة الكريهة والمقامة في مكان ناءٍ من قبل شركات القرن العشرين التي تحظر التدخين في أي موقع آخر من مكان العمل.

بيد أنه عندما يعتاد وافد جديد على تلك القتامة، تصبح

الحانة في نظره زاخرة بالناس والحيوية. وبعض التفاصيل التي لا تثير انتباه أي من أبناء مدينة هارلم المعاصرين لتلك الفترة، باعتبارها أموراً غير عادية بأي شكل من الأشكال، قد تبدو غريبة في زماننا هذا.

ومن بين تلك التفاصيل أنه كان مطلوباً من مرتادي الحانات أن يركنوا أسلحتهم عند الباب، وقد اتخذ هذا الإجراء نتيجة لوقوع حالات عديدة للغاية من المشاجرات بالسكاكين في وقت مضى. (كان للهولنديين في العصر الذهبي ميل خطير لهذا النوع من العراك)، وقد حذّر مثل سائر عندهم بكل صراحة «مائة هولندي يعني مائة مدية». ويتمثل أحد التفاصيل الأخرى في جودة اللوحات المعروضة على الجدران، إذ كانت الأعمال الفنية في العصر الذهبي منتشرة في كل مكان في البلاد وبأسعار زهيدة لا تتجاوز عدة ستايفرات أو جيلدر واحد أو اثنين في بعض الحالات. وقد كان أمراً مألوفاً أن تعرض الحانات لوحات زيتية مرسومة على قماش، أو قطعاً من النسيج المزدانة بالصور والرسوم، من دون أن يكترث أحد لما يصيبها من شحوب وقتامة بفعل الهواء الذي يعج بالدخان.

ومع ذلك، فإن أبرز التفاصيل في تلك الآونة كان مدى الفسوق المطلق في البلاد، إذ إنه حتى عندما كان شرب الخمر والسّكر سلوكين شائعين على نطاق واسع، كان الهولنديون أسوأ السكيرين سمعة في أوروبا. كانت الجعة تباع بأسعار زهيدة، إذ يمكن للمرء أن يستمتع بالشرب على مدى مساء كامل مقابل سعر يقل عن جيلدر واحد. ونادراً ما رأى ويليام بريريتون رجلاً غير مدمن خمر في الحانات التي زارها. وحتى البريطانيون الذين لم يقلوا عنهم إقبالاً على الخمر، كانوا يتذمرون من شهية الهولنديين للجعة، واتهموهم بأنهم هم الذين صدّروا عادة السّكر إلى بريطانيا.

والحقيقة أن كل هولندي تقريباً كان يرتاد حانة أو أخرى، وكذلك فعلت النساء اللاتي لا ينتمين للطبقات العليا، وعدد لا بأس به من الأطفال. كان الجو في تلك الحانات يتسم بالبهجة والألفة معاً، على الرغم من وجود شك عام في العديد من الحانات الأقل اهتماماً بصحة روادها أن العاملين فيها كانوا يقومون بمحاولة منظمة لغش زبائنهم، وهو ما كان يحدث بين الفينة والأخرى.

ومن بين ممارسات الخداع ألاّ يعاد باقي الحساب كاملاً للزبائن المخمورين، أو أن يُضاف الماء إلى الجعة. كما لجأ بعض أصحاب الحانات إلى تلوين النبيذ الأصفر بلون عباد الشمس، أو إلى حشو قطع من القماش في قاع أباريق الجعة لتقليص كمية الجعة التي تتسع لها الأباريق. ولطالما شعر الزائرون لتلك الأماكن، على الأقل أولئك الذين كانوا حذرين من الوقوع في الخديعة، بالرعب جراء الطريقة المنظمة التي كان الهولنديون يتهيأون بها للسّكر. ونادراً ما يعاقر الهولنديون الخمر فرادى، فهم يردون الحانات جماعات، أما إن جاء أحدهم وحيداً فإنه يلقى الترحيب للانضمام إلى إحدى المجموعات التي سبقته في احتساء أباريق كبيرة من الجعة. وقد جرت العادة أن يبدأ استهلاك كل جولة جديدة من الشراب بتبادل الأنخاب الذي كان واحداً من الطقوس التي تبنّاها تجار الزنبق بحماسة. وقد لاحظ الفرنسي ثيوفايل دي فياو رواد إحدى الحانات التي زارها فوصفهم بقوله «لدى هؤلاء الرجال قواعد وطقوس عديدة استعداداً للسّكر إلى درجة أنني أشعر بالاشمئزاز جراء هذا النظام، بقدر ما أشعر حيال الإفراط في السّكر».

لقد كان من المستحيل تقريباً، في جميع الحالات، تجنب احتساء الجعة في القرن السابع عشر، إذ كان الماء بوجه عام غير صالح للشرب، وتلك كانت حقيقة مؤكدة في مدينة هارلم بسبب مصانع تبييض القماش. وكان كل من الشاي والقهوة ضرباً من ضروب الترف، وغير معروفين إلاّ على نطاق ضيق، فيما كان النبيذ مرتفع السعر نسبياً. لذا كان الهولنديون يشربون الجعة مع كل وجبة، ويقومون بتدفئتها وتتبيلها بجوزة الطيب والسّكر عند الإفطار، فيما يحتسونها كما هي عند الغداء والعشاء. وقد كان أمراً طبيعياً ألا تحتوي جميع أنواع الجعة المستهلكة في هارلم كميات عالية من الكحول، لذا كان يتم تصنيعها وفق درجتين من القوة: درجة «بسيطة» وأخرى «مضاعفة». فكانت الغاية من الأولى إطفاء العطش، أما الثانية فكانت تُحتسى بغية السّكر. على أن الهولنديين كانوا يشربون كل ما توافر لديهم بكميات كبيرة. ففيما كان عدد سكان مدينة هارلم لا يتجاوز ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال، والرضّع عند نهاية القرن السابع عشر، وصل استهلاك الجعة إلى (120٫000) باينت[1]

(1) الباينت (pint) وحدة وزن تساوي نصف كوارت أو ما يعادل ثُمن جالون. (المترجم)

في اليوم الواحد، أي ما يعادل خمسة ملايين ونصف المليون جالون في السنة، استُهلك ثُلثها في الحانات. ولكي تتم تلبية الطلب، أُقيم في هارلم وحدها ما يقرب من مائة مصنع للجعة، خمسون منها كانت منشآت كبيرة الحجم.

ولم يكن أصحاب مصانع الجعة أثرياء فحسب، بل كانوا كذلك قوة سياسية متنفذة في المدينة، ذلك أن عصبة تضم واحداً وعشرين رجلاً منهم قد أحكمت سيطرتها على حكومة هارلم لعدد من السنوات ابتداء من عام 1618.

وكان زهّارو المدينة يلتقون وفق ترتيب معين في اجتماعين أو ثلاثة في الأسبوع، منعزلين في قاعة خلفية تابعة لحانة «الكرمة الذهبية»، ونائين بأنفسهم عن أسوأ ضجيج وأردأ رائحة في المدينة، بل وفي الحانة ذاتها. وفي الأيام الأولى لتجارة الزنبق كانت تلك الاجتماعات تستغرق ساعة أو ساعتين في أبعد تقدير، أما وقد اندلع ولع الزنبق فقد طالت لقاءات تلك المجموعات لتبدأ أحياناً في الصباح، ولا تنتهي من آخر صفقاتها إلاّ عند مطلع فجر اليوم التالي. وكانوا يحتفون بكل صفقة بدعوة لشرب النبيذ، وإذ كان النبيذ في الحانات الهولندية يُقدم في دنان قصديرية ضخمة،

تتسع لكميات شتى بدءاً من «باينتين» اثنين إلى جالون ونصف الجالون، فقد كانت معظم الصفقات تتم في نشوة من السُّكْر.

أما الدعوة إلى احتساء النبيذ في حد ذاتها فقد كانت رمزاً للتباهي والثراء في إقليم لا يشرب سواد الناس فيه غير الجعة. ومما لا شك فيه أن أجواء السّكر، المترافقة مع تبجح بالشجاعة، تقوده زُمر من الأصدقاء اللاهين المثرثرين حتى آخر الليل، تفسر الكثير من آليات الزنبق المثيرة للحيرة من نواح أخرى.

ويبدو أن زُمر الحانات، في جوانب مهمة، كانت تدير أعمالها بصورة مستقلة عن بقية العاملين في تجارة الزنبق. إذ على الرغم من أن تلك الجماعات كانت تضم في عضويتها عدداً قليلاً من التجار وعدداً آخر من المتعاملين الأثرياء، فإن معظم أعضائها كانوا ينتمون بصورة شاملة إلى الطبقات العمالية. ولم يكن لدى أولئك الرجال سوى صلة ضئيلة بخبراء الزنبق أو بمربيه الراسخين، هذا إن وُجدت صلة أصلاً. وكل ما توافر لديهم بوجه عام، وفي أفضل الأحوال، معرفة ثانوية ليس فقط في ميدان أصناف الزنبق، بل أيضاً

في مجال المال، والسوق المالي، والطريقة التي كان الحكام والتجار يتداولون بها الأسهم، ويشترون السلع ويبيعونها.

وكثير من الممارسات التفصيلية التي طورتها تلك الزُمر قد تمت نمذجتها، كما يبدو، على نسق أساليب العمل في السوق المالي بشكل مقصود. ولابد أن ممارسة كهذه قد ارتقت بإحساس الزهارين بأهميتهم الذاتية، وساعدت في إقناع تجار الزنبق أنهم كانوا منخرطين في عمل حقيقي منظم حسب الأصول، فأصبحت الأبصال تُعرض للبيع في المزاد.

وفيما قصد مربو الزنبق ومتداولوه الأكثر رسوخاً أحياناً محامياً محلياً لتوثيق عقودهم كي يضمنوا استبعاد أية إمكانية لأي نزاع، استبدل الزهارون النظام الأسرع والأرخص في تسجيل صفقاتهم كافة في سجلاتهم الرئيسة الضخمة، وانتخبت كل مجموعة أيضاً «سكرتيراً» مهمته حفظ سجلات الصفقات المبرمة حول طاولته.

ونادراً ما كانت الزنابق التي تُشترى وتباع من قبل تجار الحانات أولئك تنتمي إلى الأصناف ذات البهاء الفاتن التي شكلت هاجساً لخبراء الزنبق ومتداوليه الأثرياء مثل جان كوايكل. وربما كانت تلك الأصناف بادئ ذي بدء من

أبصال الدرجة الثانية، وبعد ذلك، حينما اشتد الطلب أكثر وأصبحت حتى تلك الأصناف نادرة الوجود، راحت تلك الزُمر تتعامل في معظم الأحيان بأصناف الزنبق الأقل مرغوبية والأكثر انتشاراً. وقد وُصفت تلك الأزهار بـ«حثالة» الزنبق، أو أطلق عليها وصف أكثر لباقة هو «السلع الشائعة». وقد كانت تلك الأبصال إما ذات لون واحد أو فقيرة التنوع، وغالباً ما كانت تنحدر من سلالة أقدم الأصناف التي وصلت إلى الأقاليم المتحدة. ولما كانت تلك الأبصال موجودة منذ مدة طويلة، ولم تكن تحظى باهتمام المتعاملين الأكثر ثراء، فقد كانت متوافرة على الفور عند نهاية عام 1636.

ولم تكن تلك الأزهار «الحثالة» تباع بالذرّة بل بالسلال التي كانت تتسع لما وزنه نصف رطل أو رطل، علماً بأن الرطل في هارلم كان يساوي (9ر728) ذرّة، فيما يعادل في أمستردام (10ر240) ذرة. وكانت تلك الأبصال تدعى بلغة الزهارين العامية «سلع الأرطال» لتمييزها عن الأزهار التي كانت تباع فرادى موزونة بالذرّة أو بألف من الذرات. وربما كانت السلة ذات الرطل الواحد تحتوي على عدد كبير يبلغ خمسين أو مائة بصلة، وبذا يتم تسعير الزنبقة الواحدة، حتى

في ذروة الهوس، بمستوى يكون في متناول جميع التجار باستثناء أشدهم فقراً.

وبوجه عام، فقد بدأ مئات الزهارين الجدد الذين تدفقوا على تجارة الزنبق في خريف وشتاء عامي 1636 و 1637 التعامل بكميات صغيرة من «سلع الأرطال»، وما التضخم المذهل الذي نشب بسرعة في أسعار تلك الأبصال إلاّ مؤشر أفضل من كل المؤشرات على قوة تجارة الزنبق والهيمنة التي سرعان ما فرضها ولع الزنبق على زُمر الحانات.

إن رزمة من الزنبق الأرخص المدعو «سلع الأرطال» من صنف جيل كرونين التي كانت تشترى بما لا يزيد على عشرين جيلدراً في شهر أيلول أو تشرين الأول من عام 1636 أصبحت تباع بـ (1200) جيلدر في نهاية شهر كانون الثاني. أما زنبق «السويسرية» الأكثر شيوعاً، والذي هو صنف باهت نسبياً من فصيلة البيزاردين، فقد وصل إلى السوق في خريف عام 1636 ولم يتجاوز سعره (60) جيلدراً للرطل. وما إن حل منتصف شهر كانون الثاني من عام 1637 حتى ارتفع السعر إلى (120) جيلدراً، وواصل ارتفاعه ليصل في الثالث والعشرين من ذات الشهر إلى (385) جيلدراً. أما في شهر

شباط فقد تضاعف سعره أربع مرات تقريباً ليبلغ (1400) جيلدر للرطل الواحد. وبعد يومين وصل سعر هذا الصنف الذروة، إذ بيع الرطل الواحد بـ (1500) جيلدر.

وعلى الرغم من الإثارة التي ينطوي عليها تاريخ الزنبق حتى تلك اللحظة، فإن شهري كانون الأول من عام 1636، وكانون الثاني من عام 1637 هما اللذان شهدا حقاً وصول الولع بالزنبق إلى ذروته وتحول الإتجار به إلى ولع بالزنبق. وإنه لمن سوء الطالع ألاّ تتوافر روايات لشهود عيان على حقيقة ما جرى في أوساط زمر الزنبق خلال الشتاء الاستثنائي لعام 1636، أو وصف يوضح بالضبط كيف كانت الأبصال تُشترى وتباع. غير أنه يبدو أن الحواريات الثلاث قد كتبت من قبل مؤلف توافرت لديه معرفة مفصلة عن زُمر الحانات. ويوجد اتفاق عام على أن تلك الحواريات ترسم صورة دقيقة للهوس في ذروته.

ففي الحوارية الأولى يحاول جورجوت، النساج الذي تحول إلى زهار، أن يقنع صديقه فيرمونت أن يصبح زهّار زنبق. ويشرح له بأنه سيعلمه أسرار تجارة الزنبق في الحانات، ويعد بأن يبلغ صديقه بالطريقة التي تمكنه من أن يُقبل في

واحدة من تلك الزمر وأن يُبرم صفقته الأولى. ثم يحث صديقه فيرمونت على تناول كأس من النبيذ معه. ويُسرّ لصديقه بالقول «يجب أن تُنفذ هذه التجارة برأس مخمور، والرأس الأكثر شجاعة هو الرأس الأفضل». وما كان يمكن لحكمة أن تفوق حكمة النساج التي فسّر فيها بسطر واحد أسوأ صور الغُلو التي رافقت هوس الزنبق.

وأول ما يشرحه النساج هو أنه ينبغي في فيرمونت أن يعثر على واحدة من الحانات التي يلتقي فيها الزهارون، وهناك يتعين عليه أن يطلب من صاحب الحانة أن يقوده إلى ملتقى تجار الزنبق. وينبّه النساج صديقه بقوله «لأنك وافد جديد سيصيح بعضهم كالديكة، وبعضهم سيقول: «عاهرة جديدة في المبغى، لكن لا تكترث»».

ويواصل النساج حديثه قائلاً أنه بمجرد قبول فيرمونت في الرفقة فإنه يستطيع البدء في التعامل بالأبصال. وأول شيء ينبغي أن يعيه أنه قد جرت العادة لدى تلك الزمر ألاّ يعرض أحد فعلياً الزنابق للبيع، وكان المتوقع عوضاً عن ذلك أن يعلن الزهارون عن نواياهم عن طريق إرسال تلميحات وإيماءات مبطنّة. فيُسمح مثلاً بالقول «لدي زنابق

صفراء أكثر مما أستطيع استعمالها، لكنني أريد بعض الزنابق البيضاء». وعندما يتضح في نهاية الأمر أن صفقة توشك أن تُعقد، تستخدم في حانات الزنبق طريقتان للمتاجرة. ويعتمد استعمال أي منهما على ما إذا كان التاجر يريد أن يشتري أو يبيع. وأياً كانت الطريقة المستخدمة، فإن التاجر الذي يقع عليه الاختيار ليصبح «سكرتيراً» للزمرة سوف يدون جميع التعاملات، كما تقتضي كل صفقة التبرع «بمال من النبيذ» للبائع.

أما الطريقة الأولى المعروفة «بالألواح» فقد كانت تستخدم من جانب الراغبين في الشراء، إذ كان يُعطى كل من المشتري والبائع لوحاً مدعّماً بالخشب ويقوم الزهار الذي يرغب في الشراء بتدوين السعر الذي يعتزم دفعه على لوحه، لكنه يختار رقماً أقل بكثير من القيمة الفعلية للأبصال التي يريدها. كذلك يحدد البائع السعر الذي يريد على لوح آخر، ومن الطبيعي أن يكون السعر باهظاً إلى حد كبير. بعدها يُمرر العطاءان إلى وسطاء يعينهم الرؤساء، وهؤلاء يتفقون فيما بينهم على ما يعدونه سعراً عادلاً، وهو سعر يقع في مكان ما بين السعرين المكتوبين على اللوحين، لكن ليس بالضرورة في

الوسط. ثم يُدون السعر التوافقي بشكل سريع على اللوحين ويعادا إلى الزهارين.

وفي هذه اللحظة لمشتري الزنبق وبائعه الخيار، فإما أن يقبلا بالتحكيم أو يرفضانه. فإذا كان موقفهما قبولاً يدعون السعر المعدّل قائماً، وعندها تُبرم الصفقة، ويدوّن سعر الشراء في سجل الزمرة. ويُتوقع بعد ذلك من المشتري أن يدفع عمولة قدرها نصف ستايفر عن كل جيلدر من سعر الشراء. فإذا كان السعر المتفق عليه (120) جيلدراً أو أكثر يتم تثبيت العمولة عند حد أقصى قدره ثلاثة جيلدرات. وتلك كانت الطريقة المعروفة «بالألواح».

أما إذا رفض أي من المشتري أو البائع إتمام الصفقة، فعليه أن يعبر عن رفضه قبول السعر التوفيقي بمسحه عن لوحه. وإذا قام الطرفان بذات الخطوة يتم إلغاء الصفقة. وفي حالة مسح السعر الجديد من طرف واحد فعليه أن يدفع الثمن المتمثل بغرامة تتراوح بين ستايفرين وستة ستايفرات بسبب عناده. وهكذا، وفّر نظام «اللوح» حافزاً للمتاجرة.

أما الراغبون بالبدء في عملية بيع فقد كانوا يستخدمون نظاماً مختلفاً بصورة بسيطة يُعرف «بطريقة حرف O

الصغير»، وهي عبارة تستخدم في وقتنا الراهن في العامية الهولندية بمعنى «سحب رِجل لشخص ما». لكنها خلال الولع بالزنبق كانت تشير إلى جزء من شكل تخطيطي يرسمه سكرتير الزمرة ليتقصى مسار العطاء الذي كان يتخذ فعلياً شكل المزاد العلني. وقد كان ذلك الشكل التخطيطي على النحو التالي:

وعند البيع بطريقة «حرف o الصغير» يُرسم الشكل ذاته على لوح كل عضو من أعضاء الزمرة، فالزهّار الذي يرغب في التخلص من بعض أبصاله يكتب في داخل حرف o الصغير في نهاية الشكل عدد الستايفرات المستعد لتقديمها هبة

أو عمولة للمشتري. ويختلف المبلغ استناداً إلى تقدير البائع لقيمة أبصاله، لكن، ومرة أخرى، سيقع المبلغ بين ستايفرين وستة ستايفرات، أي ما يعادل تكلفة جولتين من الشراب تقريباً. بعد ذلك يتقدم زهارون ذوو بصيرة من وسط الزمرة بعرض السعر الذي يعتقدون أنه المبلغ المناسب لقيمة الزنبق،

فيما يقوم السكرتير بمتابعة سير العطاء بتدويل العرض الأعلى المقدم بالآلاف في شبه الدائرة الأعلى، والعرض المقدم بالمئات في شبه الدائرة الأدنى، وإذا قُدم العرض بالوحدات يدون تحت الخط العمودي. وحينما ينتهي العطاء يرسم السكرتير ثلاثة خطوط تتخلل الشكل المرسوم على لوحة ويحيط الشكل كله بحرف O كبير. وتعادل تلك الصيغة في تجارة الزنبق ما يجري في وقتنا الحاضر صرخة المشاركين في المزادات العلنية الحديثة «الصفقة مستمرة .. مستمرة ... انتهت». وكان ذلك إيذاناً بانتهاء المزاد، وللبائع أن يختار بين قبول العطاء الأعلى أو رفضه. فإذا رفض سيظل ملزماً بأن يدفع للمشتري المحبط العمولة المحددة بوساطة «O الصغيرة». لكن هذه الطريقة فرضت مبلغاً مالياً يُدفع على سبيل الهبة من جانب من يقبل عطاءً جيداً.

حتى هذه اللحظة تسير الأمور سيراً حسناً، ومن الواضح أن أندية الحانات كانت تيسر تجارة الزنبق عن طريق تقديم مكان للقاء بين زهارين يفكرون بالطريقة ذاتها، كما كانت توفر لهم بيئة دافئة ومريحة، وتضمن تنفيذهم لصفقاتهم بنشوة من الحماسة الكحولية. ولو أن تلك الأندية لم تقدم غير

تلك الخدمة فلربما ضمنت الزمر أن أسعار الأبصال سترتفع بصورة حادة، وسيندلع ولع الزنبق بصورة أو بأخرى. والحقيقة أنه كان لعادات الإتجار بالزنبق في الحانات أثر أهم من ذلك.

وكما رأينا حتى الآن، أثبتت الزمر، باديء ذي بدء، إرادة في المتاجرة ليس فقط في الزنابق الحقيقية المادية، بل وكذلك في حقوق امتلاك الأبصال التي كانت ما تزال تحت الأرض. وهكذا غيّرت تجارة الزنبق من نشاط موسمي يمكن حدوثه فقط خلال أشهر الصيف القليلة بعد قلع الأبصال إلى تجارة يمكن أن تستمر على مدار السنة. وكان من شأن هذا التغيير أن يوفر للتجار عملاً يؤدونه خلال فصل الشتاء، ويعظّم من فرصهم في الربح، ويتأكدوا من أن «مال النبيذ» يواصل تدفقه بطريقة تحظى برضاء الجميع. وينبغي أن نتذكر أن هؤلاء التجار نادراً ما امتلكوا حدائقهم الخاصة ليقوموا بالعناية بها. ثانياً، أخفقت الزمر تماماً في التحقق مما إذا كان أعضاؤها يمتلكون ما يكفي من المال لتسديد ديونهم أو حتى إذا كانت بحوزتهم الزنابق التي كانوا يتاجرون بها.

لقد بدا غياب أبصال حقيقية ذات وجود مادي تحذيراً أولياً، لكن الزمر غضت عنه البصر. وهكذا شجعت أندية الحانات المضاربة المنفلتة من كل عقال من دون أن تقدم لأعضائها أية حمايات قط من العُسر والغُش.

لقد غدا متاحاً تماماً آنذاك لزهار لا يمتلك شيئاً من الأبصال أن يتاجر بها وأن يستخدم الربح المتحقق من صفقة ما في تمويل مشترياته الثانية، أملاً منه في أنه سيكون قادراً على تحويل التزامه بشراء فعلي لزنبق معين إلى متعامل آخر قبل أن يُستدعى للمساءلة بمدة طويلة.

وكان من الممكن للرجل ذاته، وبنفس الدرجة، أن يصبح معسراً من الناحية الفنية في اللحظة التي تهوي فيها أسعار الزنبق.

يتباهى جيرجوت (النساج) في حواراته بأنه كسب ستين ألف جيلدر من الإتجار بالزنبق في غضون أربعة أشهر، وفي شتاء عامي 1636 و1637 كان المهووسون الحقيقيون بالزنبق يمنون النفس بفرصة تتيح لهم أن يكسبوا ما كسب النساج.

الفصل الثاني عشر

أيتام ووتر وينكل

جعل الولع بالزنبق من ووتر بارتلميز وينكل واحداً من أغنى الرجال في مدينة ألكمار رغم أنه لا يتعدى كونه قيّماً على حانة من حيث المهنة، فقد كان باستطاعته أن يعدّ على أصابع اليد الواحدة عدد المواطنين من زملائه الذين كانوا يفوقونه ثراء. كان وينكل صاحب حانة تدعى أودي شاترز–دويلين في وسط المدينة، وكانت المشكلة الوحيدة التي يشترك فيها مع كل تاجر آخر من تجار الزنبق هي أنه لم يكن قادراً على وضع يديه على ماله لأنه كان مدفوناً تحت الأرض على شكل أبصال.

ويبدو أن ووتر بارتلميز قد انحدر أصلاً من قرية وينكل التي تقع نحو عشرة أميال شمالي ألكمار في الطرف الأقصى لإقليم هولندة. لم يكن والداه صاحبي ثروة كبيرة، لكنهما كانا ذَوَيْ حظوة معقولة من الغنى. واستطاع شقيقه لوريس أن يكمل فترة تدريب أصبح بعدها صائغاً للذهب، وهي حرفة كانت على الدوام تدر أفضل أجر على صاحبها،

والتي يطمح للعمل فيها أي فرد ينتمي لطبقة الحرفيين. وعندما تزوج ووتر بإليزابيث هارمانز في عام 1621 كان باستطاعته أن يَعد زوجته بأن تكون لديهما عائلة كبيرة تخصهما وحدهما.

وقد نجا ما لا يقل عن سبعة من أبنائه الذين أنجبهم من إليزابيث، من الموت في مرحلة الطفولة. ولا بد أن الأسرة كلها كانت تعيل نفسها من أرباح الحانة ومن إتجار وينكل بالأبصال، ذلك أنه حتى في عام 1636 لم يكن لدى العائلة سوى فتى واحد فقط في الرابعة عشرة من عمره يدعى ويليم قد كبر بما يكفي ليبدأ في كسب قوته بنفسه.

كانت مدينة ألكمار واحدة من أصغر المدن في الأقاليم المتحدة، لكن لابد أنها كانت بالنسبة إلى قروي من وينكل تشتمل على كل مغريات عاصمة من العواصم. وكانت بمثابة المدينة-السوق للكثير مما كان يدعى الحي الشمالي لإقليم هولندة، حيث كانت تتنافس تجارياً مع منافستيها القديمتين مدينتي هورن وإنخويزن. كذلك كانت مكاناً مستقلاً ذا سمعة رديئة جراء إحجامها عن الانصياع للتقليعات المتّبعة في بقية الجمهورية. فعلى سبيل المثال، لم تكن نساء ألكمار

يرتدين قبعات كتانية بيضاء، بل كن يصففن شعرهن بطريقة غريبة تتمثل في ضفائر متناسجة شبيهة بالخوذة، وكنّ وحدهن تقريباً اللواتي يفعلن ذلك من بين النساء الهولنديات.

وقد تقلصت كثيراً مساحة الريف التي هيمنت عليها المدينة منذ العصور الوسطى عندما كانت تسيطر فعلياً على معظم مساحة هولندا الشمالية علاوة على عدد من الجزر الواقعة على طول مدخل بحر زويدر. على أن مدينة ألكمار كانت ماتزال محاطة بأرض زراعية خصبة، واستفادت إلى حد كبير من التجفيف الذي تم آنذاك لعدد من البحيرات الصغيرة باتجاه الجنوب. وتخصصت المدينة بإنتاج لحم البقر والألبان، وبخاصة تلك الأجبان الضخمة المستديرة التي حظيت بفضلها الأقاليم المتحدة بشهرة واسعة في أنحاء أوروبا.

ويبدو أن أسرة وينكل قد تمتعت بانتعاش في مدينة ألكمار لفترة من الزمن، لكنها مثل كل أسرة أخرى في تلك المرحلة، عاشت حياة على حافة المأساة بصورة دائمة. ذلك أنه حتى خلال العصر الذهبي ظلت الجمهورية الهولندية فريسة للكثير من الأخطار التي جعلت من الحياة في أوروبا في

القرن السابع عشر بائسة باستمرار. كانت حقبة من الحرب والفاقة، ومعدلات الحياة القصيرة، والطاعون المتواتر، والمعدلات العالية لوفيات الأطفال. وكان العدد القليل من الأطباء مايزالون عاجزين تقريباً عن مواجهة حتى الأمراض العادية، وكانت جرعات الأدوية والعلاجات التي يصفونها تؤدي بصورة متكررة إلى هلاك يفوق مخاطر الأمراض التي يفترض أن يواجهوها.

قلة هي العائلات التي كانت تأمل في مواصلة الحياة دون أن تفقد طفلاً أو اثنين، أو زوجاً أو زوجة.

كانت إليزابيث هارمانز أول الراحلين في عائلة وينكل، إذ ماتت في وقت ما بين عامي 1631 و1635، ربما جراء مرض، أو خلال ولادة، مخلّفة لزوجها ثلاثة أولاد وأربع فتيات ليعتني بهم. ولا تظهر في المدونات أية إشارة إلى زواج ثان، ومن هنا نفترض أن وينكل قد كافح كثيراً وحده، فيما كان أطفاله الأكبر سناً يعتنون بأشقائهم وشقيقاتهم الأصغر، وربما كان يتم ذلك بمساعدة خادمة أو بمساعدة الفتيات الخادمات في أودي شوترز دويلين.

في تلك الآونة كان الأطفال يلتحقون بمدارسهم في سن السابعة، وهكذا فقد كانت العائلة كلها في سن المدرسة، باستثناء كلانس، الطفل الأصغر البالغ من العمر ست سنوات. ويوحي ذلك بأن ووتر وينكل لم يكن محتاجاً بالضرورة لأن يستأجر أحداً كي يساعده في رعاية الأطفال. وعلى الرغم من ذلك، فلا شك أنه كان يشعر بخسارة زوجته من الناحيتين المادية والعاطفية. كان لا بد لدفع أجر لمن تقوم بأعمال الحياكة والنظافة والطبخ التي كانت تقوم بها اليزابيث، ولذا أصبحت أرباح الإتجار بالزنبق أكثر أهمية لمن تبقى من أفراد العائلة حينئذٍ.

ويبدو أن ووتر بارتلميز قد انغمس في التعامل بالأبصال منذ وقت مبكر نسبياً، فقد كان يشتري الزنابق ويبيعها في عام 1635، قبل أكثر من سنة من اندلاع طفرة السوق بصورة حقيقية، ومن المحتمل أنه قد شرع في الإتجار بالزنبق قبل سنة أو سنتين من الطفرة. وقد مكنّته تلك البداية المبكرة، بالتزامن مع شيء من حسن الطالع وفهم جيد لتجارة الزنبق، من مراكمة مجموعة من الأزهار ذات الجودة المذهلة.

وما إن حل ربيع عام 1636 حتى كان بحوزة القيّم على الحانة أكثر من سبعين بصلة من أبصال الأزهار الفاتنة أو فائقة الفتنة، تمثّل ما يقرب من أربعين صنفاً مختلفاً، علاوة على كمية كبيرة من الزنبق الذي يباع بالرطل تزن في مجموعها نحو ثلاثين ألف ذرّة من الأبصال ذات القيمة الأدنى. وكان من بين ما حاز من أبصال بعض أعلى الأزهار قيمة، كالتي يمكن أن توجد في الأقاليم المتحدة مثل: زهرة نادرة للغاية من صنف فيوليتين تدعى أدميرال فان انخويزين، مع زهرتين من زهور نائب الملك وخمسة أزهار من نوع برابانسون من أنماط مختلفة. كما توافرت لديه ثلاث بصلات من أبصال الروزن الشهيرة من نوع أدميرال فان دير إيجيك، وبصلة من نوع أدميرال ليفكنز وبصلة من الصنف «البني والأرجواني» وواحدة من صنف باراجون شيلدر، وما لا يقل عن سبعة نماذج من زنبق جودا الذي يشتد عليه الطلب بصورة متزايدة. في ذروة الولع، كانت كل زنبقة من هذه الأصناف تباع بسهولة بألف جيلدر، وغالباً ما تباع بأكثر من ذلك بكثير. وكان جمع كمية كتلك من الأبصال الأكثر مرغوبية في الأقاليم المتحدة عملاً تجارياً مذهلاً من جانب

وينكل. فحتى لو لم تكن زنابقه تمثل المجموعة الأكثر بهاء في الجمهورية، فلابد أنها كانت قريبة من ذلك، إذ لم يُعثر على أي سجل عن تاجر أبصال اقتربت أبصاله من الكم والنوع اللذين توافرا لدى ووتر بارتلميز.

على أن أكثر الأمور إثارة حيال مجموعة وينكل لم تتمثل في التنوع أو في البهاء الذي انطوت عليه أزهاره، بل في حقيقة أنه كان يمتلكها فعلياً في مخازنه. ولربما كان ووتر تاجر زنبق، بيد أنه لم يكن خبيراً ولا زهاراً، بل كان مربياً للزنبق، وكان ذلك يعني أن موجوداته كانت أكثر قيمة من تلك المتوافرة لدى معظم التجار الذين لم يكونوا يمتلكون شيئاً سوى سندات أذنية مدون عليها سعر وتاريخ وهمي للتسليم. ولم تتوافر لهم أية ضمانة بأن زنابقهم كانت ذات جودة عالية أو حتى أنها موجودة بالفعل. أما موجودات وينكل فقد كانت أبصالاً مزروعة في حديقة على مقربة من حانته.

ومن سوء طالع ووتر وينكل وأطفاله السبعة أنه لم يعمّر طويلاً بما يكفي ليجني الأرباح الهائلة التي كانت ستعود عليه من تجارته البارعة. لقد رأى زنابقه تزهر في ربيع عام 1636، لكنه توفي في وقت ما من مطالع الصيف، وربما عن عمر لا

يتجاوز أواخر الثلاثينيات أو أوائل الأربعينيات. ولسنا ندري أي مرض أو حادث أودى بحياته، لكننا نعلم أنه بعد وقت قصير فقط من وفاته وصلت ثُلة من رجال عابسين ممثلين لمحكمة الأيتام المحليين إلى أودي شاترز دويلين وأخذت أطفال القيِّم على الحانة إلى ميتم مدينة ألكمار.

لم تكن مصيبة الأطفال في بعض جوانبها فاجعة تماماً كما كانت تبدو. صحيح أن موت الوالدين كان حدثاً شائعاً نسبياً في القرن السابع عشر، بيد أن الأقاليم المتحدة ربما كانت تقدم خدمة في رعاية الأيتام أفضل مما كانت تقدمه أية دولة أخرى في ذلك الزمان. وقد توافرت في معظم الأماكن أياً كانت مساحتها مياتم خاصة بها، تمولها المدينة، ويحكمها مجلس حكام يتحملون المسؤولية حيال مصالح الأطفال، ويشرفون على الموظفين الرسميين، ويتأكدون من جمع ما يكفي من الأموال كي تستمر المؤسسة في أداء عملها بيُسر. كما جرت العادة أن توفر المدن ذاتها مآوي للطاعنين في السن، واحد للرجال وآخر للنساء، وكانت مفتوحة للمواطنين المسنين الذين تنطبق عليهم شروط إقامة معينة. وقد كانت تلك المؤسسات، التي نسميها اليوم مراكز

الخدمات الاجتماعية، قائمة في هولندا فقط، الأمر الذي كان يحسدها عليه الأجانب الذين يشاهدونها.

ومع ذلك، فقد كان يمكن لأيتام ووتر وينكل أن يواجهوا مستقبلاً غامضاً لو أنهم اتخذوا من ميتم ألكمار ملاذا لهم. فمما لا شك فيه أن الوصيّين عليهم، وهما لوريس بارتلميز وفيليب دي كليرك كانا سيؤديان ما باستطاعتهما لمساعدتهم، كما ستقوم المدينة بتوفير الطعام والكساء والتعليم لهم لمدة سنة أو سنتين. لكنهم كانوا متأكدين من الحصول على المأكل والمأوى في الميتم إلى أن يبلغوا فقط سناً معينة يصبحون بعدها قادرين على العمل لكسب قوتهم. ثم سيكون أمراً متوقعاً إلى حد كبير أنهم سيُحشرون في مصنع من المصانع، أو في مطحنة أو مشغل معين ليتعلموا حرفة نافعة تقيهم مغبة البقاء عبئاً على مدينتهم. ولم يكن لدى الأطفال سوى القليل من الخيارات فيما يتصل بالمكان الذي سيرسلون إليه. ومع أنه من المحتمل أنهم لم يكونوا حينئذٍ أكثر فقراً من أطفال الحرفيين الآخرين، فلم تكن لديهم غير فرصة وحيدة فقط ليؤمّنوا لأنفسهم حياة أكثر طمأنينة وهي أنه يتعين عليهم بيع زهور أبيهم.

فتمثلت أولى خطاهم في التأكد من سلامة الزنابق، وكان ذلك إجراء احتياطياً ضرورياً للغاية. وإذ كانت الأسعار في ارتفاع سريع متواصل، فقد كان كل مربٍ للزنبق يخشى خسارته لأبصاله، بل إن بعضهم كانوا قد اتخذوا فعلاً احتياطات واسعة لحماية أبصالهم. منهم من نام حيث كان يحتفظ بأبصاله، ورجل من قرية بلوكر ثبّت أسلاكاً معدنية حول أبصاله وربطها بجرس يتدلى على مقربة من سريره.

كان الخطر محدقاً بشكل خاص بأبصال أطفال وينكل ولاسيّما أن والدهم قد مات فيما بقوا هم رهن الميتم، ولا بد أنهم قد استقبلوا موسم اقتلاع الزنبق بشيء من الارتياح. ففي غضون يوم أو يومين أمكن جمع الأبصال كافة بطريقة سليمة واحتفظ بها في غرفة آمنة في الميتم، فيما كان أمناء محكمة اليتامي يتدبرون أنجع السبل في مواصلة عملهم.

كان ذلك في شهر تموز من عام 1636، بيد أن الأمناء لم يسمحوا أخيراً ببيع الأبصال إلاّ في شهر كانون الأول، بعد أن صنفت الأبصال بعناية حسب قيمتها ووزنها، وأعيدت زراعتها مرة ثانية تحت المراقبة الدقيقة لبستاني يدعى بيتر ويليمز.

ولم يتضح ما إذا كان سبب التأجيل الطويل للبيع هو البيروقراطية الرتيبة في عمل محكمة اليتامى، أم أن أحداً من حكام الميتم قد لاحظ الارتفاع في أسعار الأبصال وانتظر اللحظة المواتية لبيع أبصال وينكل. وسواء أكان الأمر محض صدفة أم خطة مرسومة فمن الصعوبة بمكان أن يشك أحد في أن المزاد العلني الذي أجري في نهاية المطاف بنوشاترز دويلن في ألكمار في الخامس من شباط من عام 1637 قد تم في اللحظة المناسبة تماماً. ففي الشهور التي تلت موت ووتر وينكل تضاعفت أسعار الزنبق مرتين، ثم تضاعفت مرات ومرات. وإذ لم يتبق في السوق عدد كبير للغاية من المشترين الجدد، فقد كانت أبصال وينكل الأكثر ندرة وبهاءً، مرغوبة أكثر من أي وقت مضى. ولقد كان من محاسن الصدف أن يُنظم المزاد العلني في اللحظة الملائمة بالضبط لبلوغ أسعار الزنبق ذروتها.

لقد أخذ أمناء محكمة اليتامى على عاتقهم مهمة الإعلان عن البيع، ولا بد أن أصحاب الحانات في ألكمار قد حققوا ربحاً جيداً نتيجة احتشاد العشرات من الزهارين ومربي الزنبق في المدينة في الأيام القليلة الأولى من شهر شباط. وقد

وجهت دعوات لمقدمي عطاءات محتملين ليتفحصوا كتاباً خاصاً عن الزنبق ممّول من قبل المحكمة، ويضم (124) لوحة فنية مائية لزنابق وينكل، وأربعة وأربعين لوحة من أزهار السوسن، وشقائق النعمان والقرنفل التي أحدثت توازناً في مجموعته. كان الكتاب أشبه بمصنّف لبيع الأزهار، وأسهم في تذكير المشترين المحتملين بالأمجاد التي سينالونها خلال شهر أو شهرين إذا ما تقدموا بعطاءاتهم بصورة سليمة.

كان المزاد العلني الذي أقيم في مدينة ألكمار اللحظة الأبرز في الولع بالزنبق، إذ يبدو أن الجمهور الذي جذبه البيع كان أرقى بدرجة أو اثنتين بصورة عامة من جماهير الحانات. ومن المؤكد تقريباً أنه لم يُسمح لمقدمي العطاءات باللجوء إلى ممارسة المجموعات كأن يدفعوا جزءاً من الثمن بمواد عينية. فقد أقيم ذلك المزاد للخبراء والمتعاملين الأثرياء؛ مزاد تباع فيه أبصال حقيقية بكميات كبيرة مقابل الحصول على المال نقداً.

وحتى قبيل بدء الإجراءات، قام واحد من المصممين على الشراء بالتخطيط للتفاوض بصورة سرية مع حكام الميتم لشراء جوهرة مجموعة زنابق وينكل، تلك الزنبقة المعروفة

باسم فيوليتين أدميرال فان إنخويزين. فعندما اقتلعت تلك الزنبقة في الصيف السابق، كانت البصلة الأم قد أنجبت فسيلة صغيرة من شأنها أن تصبح هي ذاتها بصلة قابلة للحياة في السنة الجديدة. وقد أسهمت تلك الفسيلة في رفع قيمة البصلة، النادرة أصلاً، إلى مستويات عالية. وقد باعها حكام الميتم بمبلغ مذهل وصل إلى (200ر5) جيلدر، أي ما يقرب من السعر الذي حققته زنبقة سمبر أغسطس في عام 1636، كما اشترى الرجل الثري ذاته زهرتين من زنبق برابانونز الأرجواني الموشى بالشعلات، الذي كانت شهرته قد أخذت تتسع آنذاك، مقابل (200ر3) جيلدر لكلا الزهرتين. واشترى كذلك تشكيلة متنوعة من الأزهار اشتملت فيما يبدو على أكثر الأزهار ندرة، وعلى مجموعة وينكل من أزهار السوسن والقرنفل وشقائق النعمان. وقد دفع لقاء هذه التشكيلة (467ر12) جيلدراً إضافياً، ليكون بذلك قد دفع ما مجموعه (000ر21) جيلدر، وهو مبلغ صاعق حين يُدفع في صفقة شراء واحدة فقط. كان ذلك المبلغ كافياً لا لشراء منزل واحد فقط وإنما لشراء منزلين كبيرين في قيصر جراخت في أمستردام.

لقد حددت عملية البيع السرية المربحة لتلك الأبصال القليلة مسار المزاد الذي بدأ بعد ذلك. ويبدو أن المشترين كانوا على يقين، إما بسبب كتاب الزنبق أو بفضل سمعة وينكل، أن الأزهار تتمتع بأرقى مستويات الجودة، وأنها فرصة نادرة للحصول على بعض الزنابق ذات المرغوبية الأوسع في الأقاليم المتحدة. فخاضوا مزاداً ضارياً، حتى إن مستوى الأسعار الذي تحقق في مدينة ألكمار كان، باستثناءات قليلة، المستوى الأعلى الذي سجل آنذاك في تاريخ مبيعات الزنبق على اختلاف أصنافها.

وتم تركيز أفضل مجموعات الزنبق في بداية المزاد، فبيعت أول مجموعة بـ (263) جيلدراً وكانت من فصيلة بوترمان ذات المستوى المتوسط وتزن (563) ذرّة من الأبصال، أي بما يقرب من نصف جيلدر للذرّة الواحدة. أما المجموعة الثانية فقد كانت صغيرة الحجم من نوع سيبيو، ولا يزيد وزنها على (82) ذرّة، وبيعت بـ (400) جيلدر، وبمعدل خمسة جيلدرات للذرة الواحدة. وبيعت مجموعة أخرى من صنف باراجون فان ديلفت بـ (605) جيلدرات، كما بيعت مجموعة من أبصال وينكل الممتازة من نوع بروين بوربر بـ (2,025)

جيلدر، ما يساوي ستة جيلدرات وسبعة ستايفرات للذرة الواحدة. وتتميز هذه الزهرة برقّتها وبجمعها بين مسحة من اللون البني في شعلاتها الأرجوانية الفاتحة.

وسارت الأمور على تلك الوتيرة، زهرة وراء الأخرى تحقق أسعاراً قياسية. مجموعتان فقط من أصل سبعين مجموعة رئيسة بيعتا في القسم الأول من المزاد.بما يقل عن مائة جيلدر، كما قُدّر ثمن تسع عشرة زنبقة بأكثر من ألف جيلدر للزهرة الواحدة. أما أغلى سعر تحقق فقد كان من نصيب زهرتين كبيرتي الحجم من صنف نائب الملك تزن كل منهما (658) و(410) ذرات، وقد بيعت الأولى بـ (4ر203) جيلدر والثانية بـ (3000) جيلدر. أما فيما يتصل بقيمة البصلة مقابل كل ذرة فقد حققت مستوى المرغوبية الأعلى فصيلة الروزن من نوع أدميرال ليفكنز. فعندما زرعت تلك البصلة كان وزنها لا يتعدى (59) ذرة، فكانت بذلك البصلة الأخف وزنا (الفئة الأولى) التي تباع في ذلك اليوم. ولعلها كانت أكبر قليلاً من فسيلة، لكنها كلفت مشتريها (1ر015) جيلدر، أي ما يعادل سبعة عشر جيلدراً وأربعة ستايفرات للذرة الواحدة.

وحتى الأبصال الأرخص التي بيعت في نهاية اليوم، بعد أن وجدت الأصناف ذات البهاء الفاخر مشتريها، فقد حققت أسعاراً جيدة، إذ بيعت خمسمائة ذرة من أبصال فيوليتين روتجانز بـ (805) جيلدرات، وبيعت مجموعة أخرى من ذات الوزن بـ (725) جيلدراً لمشترٍ آخر. كما بيعت ألف ذرة من أبصال ينتجها جان كاستيلجين، المقيم في هارلم والذي يربي الزنبق في حديقة له تقع على الجانب الجنوبي من كامبسلاين، بألف جيلدر.

ولابد أنه كان جلياً لأولئك المراقبين للمزاد أنه حتى قبل أن يصل المزاد إلى نهايته التامة، كانت أبصال ووتر وينكل قد حققت أرقاماً مذهلة للغاية حتى بمقاييس الولع بالزنبق. فبالإضافة إلى (467ر21) جيلدر التي تم الحصول عليها من البيع السري المبكر، فقد بيعت الزنابق السبعون المفردة التي عرضت في المزاد في نيوي شوترز دويلين بما مجموعه (923ر52) جيلدر. أما الأبصال المشتملة على اثنين وعشرين صنفاً والتي بيعت بالألف من الذرات فقد حققت مبلغاً وصل إلى (610ر15) جيلدر.

وقد بلغت القيمة الإجمالية للمزاد برمته علاوة على

صفقة البيع السري ما يقرب من (90ر000) جيلدر.

وفي غضون ساعة أو ساعتين، ارتقى أطفال وينكل من وضع يتامى فقراء إلى فتيان وفتيات أثرياء بصورة استثنائية. ولسنا نعلم شيئاً عن الطريقة التي جمعت بها الأموال التي تحققت في المزاد العلني، ولا عن العمولات والخصومات والضرائب التي قد تكون دفعت عن هذا الكسب المفاجئ الخيالي، ولكن لو أن كلاً من أبناء وينكل السبعة نال ببساطة سُبع المبلغ الإجمالي، فسوف يحصل كل فرد منهم على ما يقرب من ثلاثة عشر ألف جيلدر، وهو مبلغ يفوق أربعين مرة الدخل السنوي لعائلة حرفية عادية. ومن شأن فتى طموح أن يستفيد من ذلك المبلغ ليشق طريقه نحو أية مهنة تقريباً كان يتمنى الالتحاق بها. أما إذا كان الفتى حريصاً ومستعداً للعيش باعتدال، فلم يكن بحاجة إلى أن يزاول أي عمل يومي طوال حياته. كما أنه في مقدور أية فتاة تحظى بثروة كهذه أن تعتمد على قدرتها بأن تكون شريكة حياة مناسبة.

ويبدو أنه لم يخامر تجار الزنبق الهولنديين أدنى شك في أن المزاد العلني الذي أُجري في مدينة ألكمار كان حدثاً استثنائياً

جديراً بالاحتفاء. ففي غضون أيام قلائل بعد البيع ظهرت للبيع نشرة مكونة من صفحة واحدة تحمل عنواناً متواضعاً يقول: «قائمة ببعض أزهار الزنبق التي بيعت لمقدم العطاء الأعلى في الخامس من شباط من عام 1637»، وقدمت النشرة بضعة تفاصيل موجزة عن الظروف التي أحاطت بالمزاد وأوردت الأسعار التي دفعت في كل مجموعة من المجموعات التسع والتسعين. لقد رأى بعض الكتّاب أن الغاية من تلك النشرة تتمثل في التحذير من الإسراف، لكن يبدو أن غرضها الأساسي كان يرمي إلى تعزيز الثقة بتجارة الزنبق، بتعريف أكبر عدد ممكن الناس بالأسعار الباهظة التي بلغتها آنذاك أسعار الزنبق.

وقد نجحت النشرة في ذلك جزئياً في أقل تقدير، إذ حققت مبيعات واسعة بما يكفي، لأن الأسعار التي أوردتها كانت تُعد بطريقة ما أسعاراً رسمية، أو حتى عادية. بل إن عدداً من الكتب المعاصرة لتلك الفترة التي أشارت بالفعل إلى تكلفة الأصناف المختلفة للزنبق، اعتمدت مستوى الأسعار الذي تحقق في مدينة ألكمار، على الرغم من أنها كانت أعلى بكثير من أي مستوى آخر بلغته أسعار الزنبق قبل ذلك في

فترة الهوس. (ومن المفترض أن تكون الفكرة من وراء ذلك إقناع مشتري الزنبق المحتملين أنه يتعين عليهم أن يدفعوا أسعاراً أعلى).

وهكذا فإن أبصال الزنبق من صنف أدميرال ليفكنز، الصنف الأغلى الذي اشتُري في المزاد وفق مقياس جيلدر لكل ذرة، كان يساوي ما لا يزيد على ستة جيلدرات واثني عشر ستايفراً للذرّة الواحدة في شهر حزيران من عام 1636. أما زنابق وينكل الثلاث من نوع أدميرال فان دير إيجيكس، والتي بيعت بجيلدرين وعشرة ستايفرات للذرّة في شهر تموز السابق، فقد حققت سعراً وصل إلى سبعة جيلدرات وأربعة عشر ستايفراً للذرّة في ألكمار.

لقد بلغ الولع بالزنبق ذروته في أرجاء الأقاليم المتحدة كافة في الأسبوع الأخير من شهر كانون الثاني، والأسبوع الأول من شهر شباط من عام 1637. وخلال هذين الأسبوعين الاستثنائيين تم التعهد بدفع مبالغ ضخمة من الأموال في غضون لحظات فقط. إذ دفع خباز من هارلم يدعى هنريك بيترز مائة جيلدر مقابل زهرة جودا تزن ما لا يزيد على سبع ذرات، وهو سعر يتجاوز مستوى أربعة عشر جيلدراً للذرة

الواحدة. وكان ذلك هو السعر الأعلى الذي سُجل تاريخياً لقاء زنبقة واحدة. وتشير مقتطفات من سجل المتاجرة الخاص بأحد تجار هارلم ويدعى بارتولوميوز فان جينيب والمحفوظ في سجلات مدينته، أنه قد وافق في آخر أيام شهر كانون الثاني أن يدفع لتاجر واحد اسمه إبراهام فيرسلويس أكثر من (3200) جيلدر مقابل مجموعة من أبصال الدرجة الثانية الخالية من أية أصناف من ذات المرغوبية العالية التي ارتبطت عموماً بولع الزنبق. وكانت المجموعة على النحو الآتي:

- رطلان من زنبق التيجان الصفراء والحمراء 385 جيلدراً
- رطل من زنبق السويسري 280 جيلدراً
- (3000) ذرّة من زنبق سنتن 380 جيلدراً
- نصف رطل من زنبق أودينارز 1430 جيلدراً
- ألف ذرة من زنبق لوجراندز 480 جيلدراً
- ألف ذرة من زنبق جيفليجيلدي كورنهايز 220 جيلدراً
- (70) ذرة من زنبق جيستمايكر 12 جيلدراً

• (410) ذرات من زنبق جيفلا مدي نيولانت 54 جيلدراً

• المجموع ....3241 جيلدراً

علاوة على ذلك، فمع أن الميل نحو الإتجار بالزنبق كان مايزال متركزاً في معقليْه الأقدمين، وهما مدينتا هارلم وأمستردام، فقد امتد الآن إلى ما وراء حدود إقليم هولندة وفريزلاند الغربية. ومن المؤكد أنه وصل إلى إقليمي أوتريخت وجرونجن، كما أنه من المحتمل جداً أنه قد بلغ الأقاليم الأخرى أيضاً. والحقيقة أن خبير البستنة إبراهام مانتنج، الذي كان صبياً خلال فترة الولع، قد كتب دون أن يورد تفاصيل أن المضاربة في الزنبق قد احتدمت أيضاً للمرة الثانية في شمال فرنسا.

ولا بد أن عدد الناس الذين انهمكوا في شراء الزنبق وبيعه في أرجاء الأقاليم المتحدة كافة قد غدا حينذاك عدداً كبيراً بمعنى الكلمة. وتشير إحدى الوثائق المفصلة القليلة التي لم تندثر أن مدونة أوتريخت التي كان من المستبعد للغاية أن تكون واحدة من أكبر مراكز تجارة الأبصال، كانت تضم فقط ما يقرب من أربعين مربياً حقيقياً للزنبق في شهر شباط

من عام 1637. ومن المؤكد تقريباً أن ذلك الرقم يعني أن مائتي زهار ومتطفل على المهنة كانوا كذلك يتاجرون بالزنبق في المدينة. ولأن زراعة الزنبق والإتجار بالأزهار انتعشا فيما لا يقل عن اثنتي عشرة مدينة ومقاطعة في إقليم هولندة وحده، بدءاً من مدينة ميديمبلك في الشمال حتى مدينة جودا في الجنوب، فمن المحتمل ألاّ نُجافي الصواب إذا قدرنا أن ما لا يقل عن ثلاثة آلاف شخص وجدوا أنفسهم في شرك ولع الزنبق في ذلك الإقليم وحده. وإذا كان الأمر كذلك، فمن المستبعد أن يوجد أقل من خمسة آلاف مربٍ وزهار في الجمهورية الهولندية كلها عندما بلغ الولع بالزنبق ذروته، وهو رقم يمكن أن يكون تقديراً متحفظاً إلى حد بعيد.

ولا بد أن القيمة الإجمالية للأزهار التي بيعت واشتُّريت من قِبل ذلك العدد الكبير من الناس كانت مثيرة للذهول. وتذكر بعض المصادر التاريخية الموثوقة أنه في ذروة الولع، كان سعر الأبصال يتضاعف عشر مرات في يوم واحد، إذ يُفترض أن سعرها يواصل ارتفاعه مع إبرام كل صفقة. وبالاستناد إلى الأدلة التي وفرها مزاد ألكمار فإن أندر الأبصال كانت قادرة على أن تحقق أربعة آلاف أو خمسة

آلاف جيلدر للبصلة الواحدة. وحتى إذا سلّمنا بالقول أن الأسعار التي تحققت في نيوي شوترز دويلين كانت أسعاراً استثنائية، فمن المؤكد أنه لا يبدو أمراً غير عادي أن تباع الأبصال ذات البهاء الفاخر بألفي جيلدر للبصلة الواحدة.

كما لم يكن أمراً غير عادي أيضاً أن تباع الأصناف الأقل جودة بمبالغ تتراوح بين (350) جيلدراً للألف ذرّة من نوع سنتن الحمراء والبيضاء و(750) جيلدراً لألف ذرة من أبصال زنبق بيزاردين واسع الانتشار من فصيلة جيل إن روت فان لايدي. وكذلك لم يكن أمراً عادياً أن يباع مجرد رطل من الأبصال العادية بما يتراوح بين (250) و (1500) جيلدر للرطل الواحد. وهكذا حتى لو حسبنا بتقدير متحفظ أنه في أحد أكبر مراكز تجارة الزنبق، في هارلم أو أمستردام، اجتمع، مثلاً، أربعمائة زهّار في زمر للمتاجرة بالأبصال أربع مرات في الأسبوع، فإن المبلغ الذي تداوله المتعاملون في تلك المدينة وحدها خلال الأشهر الثلاثة أو الأربعة التي بلغ فيها الولع ذروته يكون قد وصل إلى رقم مكون من سبعة أعداد. فإذا ما قام الزهار العادي، على سبيل المثال، بالإتجار برطل واحد من الزنبق في اليوم الواحد وبمعدل سعر يصل إلى (250) جيلدراً

للرطل فإن حجم الإتجار بالزنبق في مدينة كبيرة واحدة يكون قد قارب سبعة ملايين جيلدر، فقط في الفترة الواقعة بين بداية شهر تشرين الأول من عام 1636 ونهاية شهر كانون الثاني من عام 1637.

ويبدو أن بعض التجار قد اتّسموا بنشاط مماثل في أقل تقدير. ففيما كان الولع في ذروته في الفترة ما بين شهري كانون الأول وكانون الثاني أقدم تاجر زنبق واحد يدعى بيتر فان روزفين من هارلم على شراء أبصال بقيمة (913ر2) جيلدر في غضون ستة أسابيع فقط. وبدأ بشراء (360) ذرّة من نوع بيترز، وهي فصيلة من زنبق الروزين يمتلكها ووتر تولكنز من مدينة ألكمار. ثم واصل الشراء بحيازة (288) ذرة من نوع فيوليتين جان جيريتس، و (275) ذرة من نوع تورلونز، ونصف رطل من نوع أدوينارز من التاجر ذاته. ودفع فان روزفين تسعين جيلدراً مقابل (122) ذرة من زنبق ليجرانت. (ويبدو أن تولكنز كان يعمل سمساراً لعدد من مربي الزنبق، إذ إن إحدى الأبصال التي باعها لفان روزفين كانت مزروعة في حديقة كورنيليس فيروار، وأخرى زرعت في قطعة أرض يملكها قس من أنصار كالفين يدعى هنريكوس سواميسوس،

تقع على خط الأبصال الممتد جنوب هارلم، وثالثة في حديقة الرسام فرانز جرير). وتلك كانت الصفقات الوحيدة التي وجدت طريقها إلى المحفوظات القانونية لمدينة ألكمار نتيجة لدعوى رفعها فان روزفين ضد تولكنز لعدم وفائه بتسليم أبصاله. ولعله كان قد اشترى وباع الكثير من الزنابق الأخرى خلال الفترة القصيرة ذاتها.

ومن المؤكد أن فان روزفين لم يكن المثال الفريد. ففي الحواريات يروي النساج جورجوت أنه شاهد في لقاءات الزمر التي حضرها، الكثير من الأبصال تباع وتشترى بأسعار مرتفعة إلى درجة أن مال النبيذ المقدر بثلاثة جيلدرات لدى إبرام صفقة تزيد على (120) جيلدراً «كان يتساقط مثل قطرات المطر التي تتسرب من سقوف مخرومة».

ويضيف الزهّار قائلاً «لطالما دخلت حانات وأكلت فيها أسماكاً ولحوماً مشوية ومقلية. نعم، أكلت دجاجاً وأرانب وحتى فطائر طيبة، وشربت نبيذاً وجعة من الصباح حتى الثالثة أو الرابعة فجراً، ثم أعود إلى البيت بمال يزيد على ما كنت أحمله حينما غادرته». وعندما خمّن المؤرخ ليوي فان أتيزيما أنه تم تداول ما قيمته عشرة ملايين جيلدر من الزنبق في

مدينة هولندية واحدة في غمرة فترة الولع برمتها، فربما كان بالفعل يقلل من المدى الحقيقي لولع الإتجار بالزنبق.

فماذا كانت حصيلة الولع إذاً؟ إنه لمن الصعب أن يقاوم المرء النتيجة التي تقول بلغة مالية صريحة أن الولع كان حدثاً لم يضاهه حدث آخر من حيث الحجم، وبمعايير الأقاليم المتحدة في أقل تقدير. وإذا ما سلمنا أن فان أيتزيما كان مصيباً، وأن ما قيمته عشرين مليون جيلدر من الأبصال قد تم شراؤها وبيعها في مدينتي هارلم وأمستردام معاً في الفترة الواقعة بين عامي 1633 و1637، فإن مجرد الافتراض بأن التجارة في كل مركز من المراكز العشرة المعروفة الأخرى المرتبطة بالولع قد وصلت إلى ما لا يقل عن عُشر ذلك المبلغ في تلكما المركزين الكبيرين، يجعل دورة رأس المال الإسمية للإتجار بأبصال الزنبق بصورة كاملة خلال تلك السنوات الأربع لا تقل عن أربعين مليون جيلدر.

وإذا كان زهّارو هولندا قد تاجروا حقاً بالأبصال بصورة متهورة وغير مسؤولة مثلما أكد نُقاد تجارة الأبصال، وإذا كان عدد المنهمكين في تلك التجارة بعشرات الآلاف وليس بالآلاف، فإنه من الممكن تقبل أن يكون مجموع المنخرطين في

تلك التجارة ضعفي ذلك الرقم أو أكثر. وعلى سبيل المقارنة، لعل المبلغ الإجمالي الذي كان مودعاً من قبل التجار الأثرياء من ذوي الحسابات في مصرف أمستردام خلال عامي 1636 و 1637 لم يتجاوز قرابة ثلاثة ملايين ونصف المليون جيلدر، في حين أن شركة الهند الشرقية الهولندية، المؤسسة التجارية الأقوى والأكبر في أنحاء أوروبا كافة في ذلك الزمان، كانت تحظى برأس مال مقداره ستة ملايين ونصف المليون جيلدر.

وقد تُرك الأمر لكاتب كراريس معاصر لتلك الفترة ليقدم في شهر كانون الأول من عام 1636 ما قد يكون صورة حية عن المغزى الحقيقي للأسعار التي كانت تدفع ثمناً لأبصال الزنبق بالنسبة للشعب الهولندي في ذلك الزمان.

فأشار الكاتب إلى أنه كان يمكن استبدال الزهرة التي كانت تساوي ثلاثة آلاف جيلدر بكمية ضخمة من السلع، وفق الجدول الآتي:

- ثمانية خنازير سمينة
  240 جيلدراً
- أربعة ثيران سمينة
  480 جيلدراً

- اثنتا عشرة نعجة سمينة

120 جيلدراً

- أربعة وعشرون طناً من القمح

448 جيلدراً

- ثمانية وأربعون طناً من نبات الجودار

558 جيلدراً

- برميلان كبيران من النبيذ

70 جيلدراً

- أربعة براميل من الجعة (الواحد بثمانية جيلدرات)

32 جيلدراً

- طنان من الزبدة

192 جيلدراً

- ألف رطل من الجبن

120 جيلدراً

- كوب شرب مصنوع من الفضة

60 جيلدراً

- حزمة من الثياب

80 جيلدراً

- سرير مع فرشة وغطاء

100 جيلدر

- سفينة

500 جيلدر

- المجموع

3000 جيلدر

يتضح من هذا المنظور أن تجارة الزنبق لم تكن في الحقيقة في حالة عادية، بل كانت تحقق طفرة بصورة إيجابية في هولندا في خريف وشتاء عامي 1636 و 1637. ولكن حتى مع وصول الولع ذروته، كانت هناك مؤشرات مثيرة للقلق أن الأمور لا تسير بصورة سليمة في زمر الحانات.

إحدى أمارات التحذير تمثلت في البحث الذي لا يعرف الكلل من قبل التجار عما هو جديد. ومع أن معظمهم بدوا متفقين أن صنفاً أو اثنين، مثل «نائب الملك»، كان فوق منافسيه من الأصناف الكثيرة الأخرى، فإنهم لم يتوصلوا إلاّ إلى اتفاق محدود للغاية حيال الزنابق التي تستحق المرتبة الثانية. وقد تفاقمت المشكلة جراء أوجه الشبه الكثيرة المشتركة بين العديد من الأزهار الأكثر شعبية. مجموعة أو مدينة ما كانت

تفضل صنفاً معيناً، وآخرون يؤثرون أصنافاً أخرى.

علاوة على ذلك فإن الأذواق والآراء كانت تتغير، واستمر وصول أصناف جديدة من الزنبق إلى السوق لتتحدى الأصناف المفضلة الثابتة. ولهذا السبب لم تكن تجارة الأبصال غير مستقرة فحسب، وإنما كانت في جوهرها تفتقر إلى المنطق. فلا يمكن لسوق أن ينتعش طويلاً ما لم يعتمد على عناصر الاستقرار والقدرة على التنبؤ. ولم يكن لسوق الزنبق الهولندي أي من ذلك.

ومن الأمثلة التي تنطوي على سمعة رديئة حيال رغبة الزهّارين التي لا تعرف الكلل في العثور على شيء جديد ومختلف، بحثهم عن الزنبقة السوداء، التي هي زهرة ذات ندرة خرافية، ومن المؤكد أن سعرها سيكون أعلى بكثير حتى من زنبقة سمبر أغسطس لو وجدت زهرة واحدة منها فقط. بل إن الروائي الفرنسي ألكساندر دوماس قد كتب رواية بعنوان الزنبقة السوداء تصور طبيباً شاباً يدعى كورنيليوس فان بارلي في سعيه للفوز بجائزة ضخمة مقدمة لأول رجل يزرع زهرة كهذه. ومن المحتمل إلى حد كبير أن دوماس قد استلهم حكاية هولندية قديمة عن حادثة زُعم أنها وقعت في

فترة ذروة الولع. ووفقاً لإحدى الروايات التي سردت القصة، أنه قد نما إلى مسامع نقابة الزهارين في مدينة هارلم أن إسكافياً يعيش في لاهاي قد نجح في إنبات زنبقة سوداء، فقررت شراء تلك الزهرة الوحيدة التي يملكها الإسكافي. وتمت زيارته في محله، وبعد مساومة يسيرة وافق الإسكافي على بيع زنبقته بألف وخمسمائة جيلدر وسلم الزنبقة لزائريه. على أن ما أثار دهشته تماماً أن زهاري هارلم قذفوا بالزهرة أرضاً على الفور وسحقوها بأقدامهم، صارخين في وجهه «أيها العبيط: نحن نملك زهرة سوداء أيضاً، ولن يكون الحظ حليفك مرة ثانية. كنا سنعطيك (10ر000) جيلدر لو طلبت هذا المبلغ». وعاد زهّارو هارلم واثقين أن زهرتهم السوداء قد بقيت فريدة من نوعها وأنها لذلك لا تقدر بثمن، فيما بقي الإسكافي ذو الطالع السيئ في حالة من الذهول الشديد مفكراً بالثروة التي كان يمكن أن تكون من نصيبه. وفي الليلة ذاتها شنق نفسه.

وقصة الزنبقة السوداء أسطورية بالطبع. والحقيقة أن علم نبات الأجناس قد حسم الرأي بالقول أنه مستحيل فعلياً إنبات زهرة ذات بتلات خالصة السواد.

وما تلك الحفنة من الزنابق «السوداء» التي توجد في وقتنا

هذا سوى زنابق أرجوانية داكنة بصورة استثنائية.

ومع ذلك، فإن حقيقة أسطورة الزنبقة السوداء التي حققت انتشاراً معيناً خلال سنوات الولع بالزنبق ربما تكون قد نبّهت أذكى الزهارين إلى حقيقة مفادها أن هوّة خطيرة بدأت تتسع بين طلب لا يتوقف عن الازدياد على أبصال السوق وما يستطيع زارعو الزنبق أن يعرضوه فعلياً، بالنظر إلى الزمن الذي يستغرقه إدخال صنف جديد، والمخزون الضئيل المتاح من الزنبق النباتي.

على أن الأمر الذي مايزال مثيراً للمزيد من القلق هو اندلاع طفرة في سوق بيع الزنبق بالرطل في خريف عام 1636. فالأسعار المذهلة التي كانت تُدفع في مطالع عام 1637 مقابل تلك الأبصال التي كانت بلا قيمة في وقت مضى كان من شأنها أن تمنح أي زهار مهلة للتوقف. ومهما بلغ الارتفاع في أسعار الزنابق ذات فاتنة البهاء فقد كان يوجد دائماً مبرر لذلك. وعلى امتداد سنوات الولع استمر طلب محدود، لكنه حقيقي، على الأبصال الفاخرة من جانب خبراء الزنبق القدامى، الذين تفردوا فعلياً بالرغبة في زراعة وتربية الأبصال بدلاً من مجرد الإتجار بها.

ولم يحدث طلب مماثل على الأبصال المباعة بالرطل، فالخبراء لا يقتربون منها، كما لم يكن لدى معظم زهّاري المجموعات أدنى اهتمام بتربيتها فعلياً، إذ كان يتم الإتجار بها لأنها موجودة فحسب. وفي مطالع شهر شباط أخذ حتى عتاة المهووسين بالزنبق يدركون بصعوبة أن سوقهم يوشك أن يفلت من عقاله.

لقد وفّر نجاح المزاد العلني في مدينة ألكمار بعض التوكيد على أن الأبصال كانت ماتزال تحقق مستويات عالية من الأسعار، لكن وعلى الرغم من ذلك، لابد أن قلة من أكثر التجار حذراً كانت قد بدأت تتساءل عن المدة التي ستواصل فيها الأسعار ارتفاعها. فباع تاجر منفرد هنا وتاجر هناك ممتلكاته منها وأحجم عن إعادة استثمار أرباحه في مزيد من الأبصال. وفي زمر الحانات التي تمتد في طول هولندا وعرضها نظر التجار المنافسون وتساءلوا ما إذا كان ذلك التاجر الذي باع ممتلكاته قد عرف شيئاً يجهلونه. وربما فكروا في أن يتخلصوا من صنف أو صنفين من الأبصال.

كان ذلك في الأسبوع الأول من شهر شباط من عام 1637. حينذاكِ انتهى عهد الطفرة.

الفصل الثالث عشر

الانهيـــار

بدأ الانهيار الكبير في أسعار الزنبق في مدينة هارلم في أول ثلاثاء من شهر شباط، ذلك الشهر الذي اجتمعت فيه ثلة من الزهارين لتشتري وتبيع، كما جرت العادة، في واحدة من زمر الحانات في المدينة.

فقد افتتح، كالمعتاد، أحد الأعضاء الرسميين من الزمرة يوم التبادل باستشعار حالة السوق، فعرض للبيع رطلاً من زنابق التاج الأبيض والسويسري طالباً سعراً معتدلاً يبلغ (1250) جيلدراً للأبصال. وفي مجرى الأحوال العادية للأحداث كان يجد عدداً من المشترين المتلهفين، وكانت تُوزع الألواح والطباشير فيحصل المزاود الأعلى على الزنابق، فيما تستمر بقية يوم التداول في الولع المعهود. بيد أنه في ذلك اليوم لم يتقدم أحد بالمزايدة على الأبصال بسعر 1250 جيلدراً. عرض الدلال الأبصال مرة ثانية بسعر أقل بلغ (1100) جيلدر، وظل الإحجام عن المزايدة قائماً. وإذ استبد به اليأس، فقد عرض أبصاله للمرة الثالثة بمبلغ مثير للضحك وصل إلى ألف جيلدر،

ولم يتقدم أحد للمزايدة.

ويمكن للمرء أن يتخيل ذلك الصمت المربك الذي خيّم على زمرة الزهّارين الذين انحنوا حول طاولتهم في الحانة مع استمرار ذلك المزاد المثير للسخرية والرعب على تلك الشاكلة.

أباريق نصف ممتلئة بالجعة معلقة في الهواء، وقريبة نوعاً ما من شفاه الشاربين الذين أدركوا على نحو مفاجئ أهمية ما كان يجري أمامهم، والنظرات المتوترة التي يتبادلها تجار يفتقرون إلى أدنى فكرة عما ينبغي عليهم أن يفعلوه بعدئذ، أو كيف يُفترض فيهم أن يتصرفوا حيال ذلك. ولا بد أن الصمت قد ساد ثانية أو اثنتين ثم كسره صخب طنان متزايد صادر عن محاورة قلقة، فيما لفّ الزمرة هرج ومرج، وطفق الزهّارون الحاضرون يتحدثون دفعة واحدة.

وفي كل الاحتمالات، كان كل تاجر من التجار الحاضرين قد دفع سعراً مشابهاً لأبصال مشابهة في غضون الأيام القليلة الماضية أملاً في بيعها مرة أخرى وتحقيق ربح جيد آخر. والآن، وفي أقل من دقيقة أو نحو ذلك، تبخرت أحلامهم، وأُثير السؤال الصعب عما سيحلّ بتجارة الأبصال.

وكان واضحاً أنه من المستحيل الاستمرار بأسلوب العمل المعهود في ذلك اليوم، وربما جرت محاولة صغيرة لبيع أبصال أخرى دون جدوى، لكن لا بد أن الزمرة قد علقت التبادل على الفور تقريباً. وفي حمأة الارتباط العام تحرك بلا شك، واحد أو اثنان من الثُلة المجتمعة لإبلاغ أصدقائهم وعائلاتهم بما حدث. وفي طرفة عين كانت الأخبار قد طرقت مسامع كل زمر التجار في هارلم، فيما استحوذ هاجس بسيط على كل زهّار في المدينة ووراء أسوارها يدعوه لبيع أبصاله.

ولم يستغرق الرعب سوى أيام قليلة ليعمّ بقية الأقاليم المتحدة، إذ اكتشف الزهّارون المحبطون، مجموعة إثر مجموعة، وفي مدينة بعد الأخرى، أن الأزهار التي كانت تساوي آلاف الجيلدرات قبل يوم أو يومين فقط لم تعد قابلة للبيع بأي ثمن. نفر قليل من التجار حاول أن يحافظ على توازنه عن طريق إثارة اهتمام متجدد بالزنبق فنظموا مزادات علنية وهمية، أو عرضوا أبصالاً بحسومات ضخمة، لكن الجموع تجاهلتهم. لقد انهارت في معظم الأماكن تجارة الأبصال في الحانات بصورة كاملة إلى درجة أن المسألة لم تعد هبوطاً في الأسعار بنسبة الرّبع أو العُشر قياساً إلى ما كانت

عليه في ذروة الولع. لقد تلاشى سوق الزنبق، هكذا وبكل بساطة.

ولا بد أن العديد من الزهارين قد وجدوا أنفسهم في مصيبة شبيهة بالمصيبة التي ألّمت بجورجوت، النساج الذي وصفه مؤلف الحوارات. فلماّ وجد جورجوت نفسه في شرك انهيار غير متوقع للأسعار، كان أول تصرف أقدم عليه هو أن مضى إلى الخارج ليشتري الزنبق ويبيعه. وإذ كان يحتفظ بشيء من ثقة بالنفس قديمة، يقول لصديقه فيرمونت «قد تكون فلورا مريضة، لكنها لن تموت». وفيما كانت زوجته كريستينتيه تندب قرار زوجها ببيع نوله وجميع أدوات النسيج التي كانت بحوزته، يعود جورجوت إلى الزمر ليجد فقط أن السوق قد انهار حقاً وأن عملية التبادل كلها قد توقفت. ولما عجز عن العثور على مشترٍ واحد لأبصاله، مدركاً للديون الكثيرة التي تحملها جراء شراء الزنبق وإعداد حديقة له، يسأل النساج سيئ الطالع صاحبه عما يتعين عليه أن يفعل. وتجيء نصيحة فيرمونت مباشرة بصورة فجة: لقد ماتت تجارة الزنبق ولا أمل في بعثها من جديد، ولا خيار أمام الزهّارين سوى العودة إلى أعمالهم القديمة وأماكنهم المناسبة،

وأفضل ما يمكنهم أن يأملوه أن ينالوا فرصة لتسديد ديونهم بصورة مشرّفة.

وتمثل الثقة كل شيء في سوق تشهد طفرة، لكن حقيقة أن تجارة الزنبق قد انهارت بصورة سريعة للغاية تشير إلى أنه لا بد أن الزهارين الأقل تفاؤلاً كانوا يشعرون بقلق حيال الارتفاع المتواصل لأسعار الزنبق قبل أيام من وقوع الانهيار. كان الهوس قد اندلع قبل ابتكار الصحف اليومية، ولم تتيسّر وسيلة للتأكد من تسلسل الأحداث خلال الأسبوع الأخير من شهر كانون الثاني والأيام الأولى القليلة من شهر شباط. بيد أنه من غير المحتمل أن تكون تجارة الأبصال قد توقفت تماماً ومن دون إنذار فقط لأن مزاداً علنياً واحداً في مجموعة واحدة في مدينة هارلم حاق به الفشل. ومن المؤكد أن الإتجار بالزنبق قد ازداد صعوبة في كل مكان في هولندا على مدى الأسبوع السابق أو نحو ذلك. ولابد أن الدلالين قد واجهوا صعوبة متزايدة في دفع الأسعار إلى مستويات أعلى بذات الوتيرة السريعة القديمة، وأن بعض أصناف الزنبق قد بلغت الذروة في قيمتها، وأن عدد المتاجرين التواقين للبيع قد أخذ يفوق أولئك الراغبين في الشراء وليس ضرباً من ضروب الخيال

المفرط الافتراض بأنه قبل يوم أو يومين من الاجتماع الفاجع الذي عقد في مدينة هارلم خيّم شعور عام من الاضطراب والذعر على زمر هارلم وأمستردام فكان أشبه بضباب خريفي دبق يلف بحر زويدر. لقد كان تجار الزنبق ينتظرون حدوث شيء ما، وها هو قد حدث.

ومن المؤكد أن الشائعات حول استنفاذ الأسعار قدرتها على الارتفاع كانت قد انتشرت قبل الثالث من شهر شباط، كما لم يعد بعض المشترين موقنين من أن استثماراتهم ستدر عليهم ربحاً. وفي وقت مبكر يعود إلى أواخر شهر كانون الأول لم يستطع صيدلاني يربي الزنبق ويدعى هنريكوس مانتنج من سكان مدينة جرونجن أن يبرم صفقة مربحة مع رجل من سكان مدينة ألكمار يبيعه بموجبها حفنة من الزنبق مقابل سبعة آلاف جيلدر إلاّ بعد أن قطع على نفسه عهداً للزبون المتوتر بأنه إذا ما هوت الأسعار قبل صيف عام 1637 سيكون بإمكان المشتري أن يلغي الصفقة وألاّ يدفع أكثر من (10٪) من السعر المتفق عليه. وقبل الانهيار بيومين حاول هنريك، شقيق بيتر وينانتس الأصغر، خلال حفلة كان يقيمها الأخير في منزله، أن يلحّ على واحدة من الضيوف أن

تشتري رطلاً من الزنبق من فصيلة السويسري بـ (350ر1) جيلدر. استهدف هنريك أرملة ثرية تدعى جيرتروت شوت، لكنها ترددت ولم يتمكّن من إقناعها. لكن شوت استسلمت واشترت الأبصال عندما قدّم ضيف آخر كان مدعواً على العشاء، وهو صباغ محلي يدعى جاكوب دي بلوك، ضمانة للسعر لمدة ثمانية أيام.

لقد اكتمل انهيار تجارة الأبصال تماماً بعد الثالث من شهر شباط إلى درجة أنه لم تتبق أية معلومات حيال الأسعار التي كانت تُدفع ثمناً للأبصال في ربيع عام 1637. ويبدو أن الخبراء كانوا هم المشترين الوحيدين الذين لم يغادروا السوق، وربما ظل معهم قلة من الزهّارين الأثرياء الذين لم يكونوا معتمدين بصورة كلّية على الزنبق في تكوين ثروتهم. وتوقف تداول الأبصال باستثناء الزنابق الأكثر ندرة وبهاء التي تمتعت بفرص ضئيلة للبيع. وطبقاً لأحد المصادر المعاصرة لتلك الفترة، فإن الزهرة التي كانت تساوي خمسة آلاف جيلدر قبل الانهيار بيعت بعد ذلك بما لا يتجاوز خمسين جيلدراً. وقيل إن مسكبة الزنبق التي كانت تباع في شهر أيار بسعر يتراوح بين (600) إلى (1000) جيلدر قد هوت قيمتها في شهر كانون

الثاني إلى ستة جيلدرات. كما أن عيّنة مختارة من الأبصال كانت تساوي (400) جيلدر خلال فترة الطفرة قد بيعت بما لا يربو على (22) جيلدراً وستايفراً واحداً.

وتشير الأسعار إلى أنه إذا ما بيعت الأبصال، ففي أفضل الأحوال بما يزيد قليلاً جداً على (5٪) من قيمتها القديمة، وفي الغالب بيعت بما نسبته (1٪) أو أقل من ذلك. وبناء على ذلك، فما من شك في أن الانهيار كان مذهلاً حقاً. وحتى لو لم يحدث الانهيار في اللحظة ذاتها تقريباً في كل المدن التي تأثرت بالولع، ولربما حدث ذلك، فمن المؤكد أنه ما كان ممكناً لانهيار تجارة الزنبق أن تستغرق أكثر من ثلاثة أشهر أو أربعة. فقد كان انهياراً أكثر سرعة واكتمالاً من الكارثة المالية الأسوأ سمعة في التاريخ والمتمثلة في انهيار «سوق وول ستريت» في عام 1929، و «الكساد العظيم» الذي أعقب الانهيار، إذ استغرق هبوط أسعار الأسهم إلى مستواها الأدنى ما يزيد على عامين، وحتى في أثناء تلك الكارثة ظلت الأسهم محتفظة بـ (20٪) من قيمتها القديمة.

ويبدو أن قلة من الزهّارين قد أدركوا بالضبط، وسط كل ذلك الارتباك، الأسباب التي أدت إلى انهيار تجارة الأبصال

بتلك الطريقة المثيرة للذهول.

على أننا إذا ما استرجعنا الماضي فليس من الصعب أن نرى أن الانهيار كان أمراً محتماً تقريباً. إنها حالة شبيهة بالشمس، فقد أضاء ولع الزنبق بصورة ساطعة ومتواصلة طالما احتفظ بوقود يغذيه على شكل عرض مستمر للأبصال. لكن الطلب على الزنبق خلال الفترة ما بين شتاء عامي 1636 و1637، قد فاق العرض بصورة شاملة، وحينها بدأ ولع الزنبق فعلياً يستهلك كل ما يحيط به. فقد أُقحمت الزنابق المباعة بالرطل والزنابق ذات اللون الواحد في التداول، وفي سوق كان يحتقر حتى ذلك الحين زنابق السويسري والتاج الأبيض، التي بيعت بأكثر من ألف جيلدر للرطل الواحد، فقد تاجر زهّارو هولندا بكل آخر بصلة طالتها أياديهم.

وإذ تم الإتجار بأردأ أصناف الزنبق، فلم تعد ترد إلى السوق أية أصناف جديدة قابلة للتداول بأسعار يمكن دفعها. كما كان غياب الأبصال الرخيصة يعني أنه كان من المستحيل تقريباً أن يدخل السوق زهّارون جدد. فمن كان بوسعه أن يرتاد السوق إذا كانت أرخص الأسعار للغاية تباع بعشرات أو حتى بمئات من الجيلدرات؟ نفر قليل من التجار الموجودين

كانوا يبيعون الأبصال في محاولة لجني أرباحهم. وهكذا كانت مجموعة متناقصة من الزهارين لا تملك من المال غير النزر اليسير تعمل بطريقة أو بأخرى على استمرار ارتفاع دائم وسريع في أسعار الزنبق.

وحتى أولئك الذين كانوا ما يزالون يعتقدون أن حالة الإتجار بالزنبق سليمة في الأساس سيصبحون، عاجلاً أم آجلاً، عاجزين عن تلبية الارتفاع اللاحق للأسعار، كما سيترددون في الالتزام بأية أسعار. وهكذا، ومع بداية شهر شباط، كان المال والأبصال اللذان يمثلان الوقود التوأم للولع بالزنبق قد استنفدا. ومثل شمس أحرقت آخر وقودها، كان ولع الزنبق قد شهد اندلاعه الأخير في انفجار مجنون للإتجار بالزنبق قبل أن ينهار الولع على نفسه.

كان ذلك سبب الانهيار، ولكن ليس لمجرد اتساع هوة الانخفاض في الأسعار، إذ إن تفسير تلك الكارثة يكمن في السرعة الاستثنائية التي كان يتم فيها تناقل الأبصال من يد إلى أخرى في ذروة الطفرة. ففي معظم أسواق المضاربة برفع الأسعار يوجد كذلك من يضاربون بخفضها، فيقبضون على رأس المال انتظاراً لهبوط الأسعار كي يتمكنوا من شراء سلع

مخزنة بأثمان زهيدة. بيد أن معظم الزنابق التي تم الإتجار بها في الشهر السابق، أو الشهرين السابقين، على الولع، مثل الزنابق المباعة بالرطل وبعض الأنواع التي تباع بألف ذرة، كانت بلا قيمة بالمعنى الحرفي للكلمة. فلم يوجد طلب عليها، ولم يكن أي خبير راغباً في زراعتها، ولم يكن لها قيمة إلاّ في عيون المتاجرين بها. فلم يبق شيء للمضاربين بخفض الأسعار ليستغلوه.

والأسوأ من ذلك، كما يبدو، أن ولع الزنبق قد امتص كل من مسّه في زمر الحانات. قلة قليلة من الزهّارين كانت بحوزتهم رؤوس أموال يدخرونها عندما دخلوا السوق، ولم ينجُ منهم أحد تقريباً من شرك واحدة أو اثنتين من السلاسل المعقدة التي ابتدعتها تجارة الزنبق. وعدد كبير باعوا أو رهنوا ممتلكاتهم القليلة لتمويل تعاملاتهم في سوق الأبصال. أما أولئك الذين خبروا ذلك الموقف اليائس فلم يواجهوا الخسارة فحسب، بل واجهوا الدمار. وفي القرن السابع عشر، وحتى في الجمهورية الهولندية، لم يعن الدمار مجرد فقر مدقع، بل بيعاً لمكان العمل أو حتى مجاعة أو موتاً مبكراً. وكان آخر ما رغب أولئك الناس في فعله هو دخول مناقصة على زنبقة

أخرى، فقد غدا حينها كل زهّار بائعاً للأبصال.

ولا يعني ذلك أن نقول أن الأسعار قد هوت في غمضة عين وفي اللحظة ذاتها في جميع أنحاء الأقاليم المتحدة. لقد تنقّل بعض الزهّارين من مدينة إلى أخرى، لكن معظمهم لم يفعل، وعليه فقد استغرقت الأخبار يوماً أو يومين للانتقال. ومهما يكن من أمر، فقد تكونت تجارة الأبصال الهولندية في الحقيقة من عدد من الأسواق المنفصلة، إذ توافر سوق في كل مدينة من المدن التي تأثرت بولع الزنبق. فالأسعار في مدينة ما تراجعت عن الأسعار في مدينة أخرى، وتاجر الزهّارون بأبصال مختلفة. وتجار الزنبق الذين التقوا في حانة ما كانوا مختلفين بصورة دقيقة عن أولئك الذين كانوا يشكلون كل زمرة أخرى في الجمهورية.

وهكذا، فيما كانت تجارة الزنبق في حالة من الدمار في هارلم، فإنها واصلت ازدهارها بشكل محدود في الأماكن الأخرى. وفي أمستردام، حيث لا بد أن أنباء الكارثة في هارلم قد بلغت الزمر يوم الأربعاء كانت تجارة الزنبق ماتزال قوية في يوم الجمعة، الموافق للسادس من شهر شباط، إذ بيع رطل الزنبق السويسري ب 1ر065 جيلدر في زمرة حانة

تدعى «العرس المنيوني». لكن يبدو أن تجارة الزنبق في أمستردام قد اقتربت من حافة أزمة مماثلة في اليوم التالي، الموافق للسابع من شهر شباط حين أقدم زهار يدعى جوست فان كويك على مناقصة بقيمة (1100) جيلدر لأندريس بوشر مقابل رطل آخر من زنبق السويسري المتوافر في كل مكان. ويبدو أن فان كويك قد تردد بشأن الحكمة من تلك الصفقة إذ إنه سأل دي بوشير أن يقدم له ضمانة بأن السعر لن يهبط، فما كان من دي بوشير إلاّ أن أبرز له اسم زميل يدعى بيتر فان دي كرويس الذي كان مستعداً لأن يعده بدفع (1200) جيلدر مقابل الأبصال. لكن حتى تلك الضمانة لم ترُق تماماً لفان كويك. ويبدو أن شكوكاً قد خامرته حيال قدرة فان دي كرويس على الإيفاء بضمانته. وهكذا مضى مع دي بوشير قاصديْن كاتب عدل محلي لتوثيق الاتفاق برمته وجعله ملزماً بصورة قانونية. ولا بد أن ذلك يعني أن الصفقة كانت ماتزال سارية المفعول بعد ثمانية أيام من عجز زهّاري هارلم على بيع زنابق الأرطال بألف جيلدر للرطل الواحد، وأن التجارة في أمستردام قد تواصلت لمدة أسبوع في الأقل بعد الانهيار الأولي. ومع ذلك، يشير القلق الواضح الذي أبداه

فان كويك أنه ما أن وصلت أنباء هارلم سرعان ما بدأ الذعر يهز الثقة فيما تبقى من مراكز تجارة الزنبق.

وحدث الأمر ذاته في الجنوب، حيث كانت الصفقات المربحة ماتزال تُعقد في مدينة لاهاي في الرابع من شهر شباط. ومن بين الصفقات التي توافرت معلومات عنها كانت تتعلق بـ جان فان جويين، الذي كان فناناً معروفاً والرسام الأكثر تأثيراً في رسم المشاهد الطبيعية في أرجاء الأقاليم المتحدة كافة.

كان فان جوين ابناً لصانع أحذية، وقد عاد عليه نجاحه كفنان برخاء ما كان يمكن له أن يتخيله في شبابه. كان أبوه هاوياً متحمساً للفن، وقد تمتع بثروة مكنته في أقل تقدير من امتلاك منزل خاص به، لكنه كان يعاني من نوبات جنون انتهت به إلى مصح للأمراض العقلية في مدينة لايدن. فكان على جان أن يجد لنفسه مكاناً يتدرب فيه على مهنة، فعمل مع مدرب مشهور من مدينة هارلم يدعى إيساياس فان دي فيلدي، وغدا اسماً معروفاً بفضل لوحاته الفنية التي صورت كثباناً رملية ومناظر نهرية. وعلى الرغم من أن جان لم يكن ثرياً حقيقياً، فقد استخدم المال الذي كسب في المضاربة في

العقارات، ثم في الزنبق في وقت لاحق. فاشترى عشر أبصال من عمدة لاهاي ألبيرت فان رافنشتين في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني في عام 1637، وأتبعها بأربعين بعد ثمانية أيام بمبلغ إجمالي وصل إلى (912) جيلدراً إضافة إلى لوحتين من أعماله الفنية. كانت الصفقة الثانية التي أبرمت بعد يوم واحد من الانهيار الذي حدث في مدينة هارلم هي الأكبر إلى حد بعيد، إذ بلغت قيمتها (858) جيلدراً. لكن، بعد وقت قصير من موافقة الرسام على شراء الأبصال، انخفضت الأسعار أيضاً في سوق لاهاي، وسرعان ما وجد فان جويين نفسه في عُسر مالي شديد.

لقد تفاقم يأس تجار الأبصال جراء حقيقة مفادها أن معظم الزهارين الأثرياء قد شاركوا في الولع، كما فعل جورجوت، وعندما انهار السوق كانوا ما يزالون مسؤولين عن الإيفاء بعقودهم المستقبلية التي أبرموها. فمن الناحية العملية، كان كل تاجر قد وضع عربوناً على زنابق غدت حينئذٍ بلا قيمة، لكن كان متوقعاً منهم أن يدفعوا مبالغ إضافية كبيرة لاستكمال مشترياتهم عند قطف الأبصال خلال أشهر قليلة فقط. ولم يكن أمام الكثيرين منهم غير العجز عن إيفاء

الدين.

وهكذا خلّف انهيار تجارة الزنبق آثاراً خطيرة حتى على أولئك الذين باعوا زنابقهم قبل الانهيار، وبدوا كما لو أنهم قد نجوا بما جنوا من أرباح جيدة. وكان أيتام ووتر وينكل من بين أولئك الذين تأثروا بهذه الطريقة، إذ وجدوا أنفسهم متورطين بقضيتين قانونيتين في أقل تقدير جراء المزاد العلني الذي حدث في مدينة ألكمار. تعلقت إحدى القضيتين بتاجر محلي يدعى جيريت أمستردام، الذي حاول أن يدعي أن بصلة الزنبق التي تنتمي إلى صنف فيربيتردي بوترمان التي تزن (563) ذرّة، والتي اشتراها بـ (263) جيلدراً اتضح أنها لا شيء سوى بصلة بوترمان العادية والتي تقل قيمتها كثيراً عما دفعه من ثمن لها.

أما القضية الثانية فقد كانت تتعلق بـ ويليم لوريس، وهو زهّار من ضاحية هيمسكيرك التي تقع خارج مدينة هارلم. كان ويليم قد عرض مبلغاً مقداره (512) جيلدراً مقابل بصلة من نوع روزن يطلق عليها اسم أنفيرس فيساس بحيث يدفع الثمن حينما تزهر الزنبقة بصورة مقبولة. وبعد عام ونصف من انتهاء المزاد العلني لم يكن لوريس قد أوفى بدينه بعد، فما

كان من جاكوب فان دير مير وجاكوب فان دير جيست، القيّميْن على ميتم ألكمار واللذيْن كانا وصيّيْن على أطفال وينكل، إلاّ أن قادا لوريس إلى المحكمة بتهمة عدم الإيفاء بالديْن.

وأقسم القيّمان أنهما طلبا إلى الزهار مراراً وتكراراً أن يفحص زهرته وأن يفي بدينه، لكن لوريس رد في دفاعٍ واهٍ أنه تواعد على لقاء فان دير مير خارج الحديقة التي كانت تنمو فيها البصلة في صبيحة يوم من أيام شهر آيار من عام 1637، وأن القيّم أخفق في الالتزام بالموعد، وبعد نصف ساعة غادر الزهار المكان. فردّ فان دير مير بغضب قائلاً أنه لم يكن بينهما موعد قط، وأن الزهرة قد أينعت بصورة بديعة، وكانت جاهزة للفحص لعدة أسابيع، وأنه ينبغي على لوريس أن يدفع ثمنها حسب الاتفاق.

على أن وضع مربي الزنبق كان أفضل قليلاً من وضع الزهّارين، إذ إنه حتى بعد توقف تجارة الزنبق في الحانات، استمر الخبراء في دفع أسعار استثنائية لأبصال الزنبق. ففي السابع عشر من شهر آذار باع تاجر من هارلم يدعى ديرك بورتينر كمية من الأبصال من ضمنها صنفان هما أدميرال

ليفكنز وسايلوم لشخص اسمه بيتر فان ويلسين بمبلغ لم يقل عن (11ر700) جيلدر. وإذ مضى فان ويلسين لفحص أزهاره في منتصف شهر نيسان، فقد تبيّن له أن بعضها في حالة متردية، ما جعل بورتينر يوافق على حسم مبلغ مقداره (300) جيلدر من السعر الأصلي. ولم يكن فان ويلسين قلقاً بشأن انهيار زمر الزنبق لأنه أكدّ أنه مايزال راضياً تماماً عن دفع مبلغ (11ر400) جيلدر، ووافق على دفعه على أقساط ثلاثة: (4000) جيلدر في شهر حزيران، و (3700) جيلدر في نهاية شهر آب، وما تبقى من المبلغ وقدره (3700) جيلدر يدفع في اليوم الأول من شهر شباط من عام 1638.

وكان ذلك اتفاقاً خاصاً بين اثنين من عشاق الزنبق الحقيقيين، اللذين من المحتمل أنهما لم يكونا ليزعجا نفسيهما بما يدور حولهما من ولع بالزنبق، واللذين كانا قادرين على تحمّل ترف خيالي يقتضي دفع عشرة آلاف جيلدر أو يزيد على نباتات سيتمتعان بها لأسابيع قليلة فقط في كل عام. وفي أوساط تجار الزنبق الأكثر ثراء ورجال الطبقة العليا، كانت تصدر بين الفينة والأخرى إشارات تفاؤل تتصل بحالة السوق. فقد سافر جان كوايكل، مربي الزنبق الثري

المقيم في مدينة هارلم وصاحب حانة «الكرمة الذهبية»، إلى ألكمار لحضور المزاد العلني بعد يوم واحد من انهيار الأسعار في مجموعات الزنبق في مدينته، ومايزال يشعر بما يكفي من الثقة لدفع مبلغ قدره (260ر3) جيلدر مقابل شراء بعض أزهار بديعة من أزهار ووتر وينكل. وفي شهر أيار من عام 1637 وافق جان أدميرال على أن يضمن لعميله باولوس دي هوجي أنه سيربح ما لا يقل عن نسبة (20٪) على مدى الاثني عشر شهراً القادمة من أي زنابق اشتراها من مساكب زهوره. كان أدميرال تاجراً متابعاً لتطور الأذواق في أمستردام، وكان يربي الزنبق في حديقة منزله الخلفية في منطقة قنال الأمير الأنيقة.

بيد أن الانهيار في زمر الحانات كان ينطوي على مخاطر بالإفلاس ليس فقط للزهارين وإنما لعدد كبير أيضاً من زُراع الزنبق. لقد تأثر بالانهيار كل مربٍ للزنبق كان يحاول إبان الولع أن يتوسع في تجارته وأن يبيع للزهارين وللخبراء، فيما كانت الأزمة خطيرة بما يكفي لتدفع المهنيين لاتخاذ إجراء سريع لم يسبق له مثيل. ومن دون تأخير، اتفق مربو الزنبق في إقليميْ هولندة وأوتريخت في السابع من شهر شباط،

أي بعد أربعة أيام فقط على الانهيار الذي حدث في مدينة هارلم، على الترتيب لاجتماع عام يعقد في مدينة أمستردام لمناقشة أساليب تقليل الأضرار التي سببها انهيار الأسعار. وحتى في بلد بحجم الأقاليم المتحدة كان السفر بين تلك المدن يستغرق رحلة مدتها يومان، وهذا ما يؤكد أن استجابة مربي الزنبق كانت سريعة بصورة تثير الذهول. وما كان يمكن لتلك الاستجابة أن تتم بتلك السرعة لولا أنها كانت نتيجة للقلق الأشد حدة من جانب التجار على مستقبلهم.

وباستثناء وحيد مثّلته مدينة أمستردام حيث بعث مربو الزنبق فيها رسالة يوافقون فيها على الالتزام بقرارات الأغلبية، فإن كل مدينة ومقاطعة من المدن والمقاطعات الاثنتي عشرة التي كانت متورطة بصورة مباشرة في تجارة الزنبق عقدت اجتماعات خاصة بها لتنتخب ممثلين لها من أجل حضور ذلك الاجتماع العام.

وسافر إلى أمستردام معظم كبار مربي الزنبق بمن فيهم فرانسيسكو دا كوستا من فيانين، وبارنت كاردوس ويليم شونايوس من هارلم، وفرانسوا سويرتس من أوتريخت. وسافر أيضاً مربون أقل شهرة مثل و.ج.سلوتنج من لايدن،

وكلايوس هيرتجنز الذي كان واحداً من ممثلي منطقة ستريك، وهي قطاع من الأرض منتج للأبصال الجيدة، ويقع بين ثلاثة من مدن إقليم فريزلاند هي هورن وانخويزن وميديمبليك.

وعُقد الاجتماع الكبير لمربي الزنبق في الثالث والعشرين من شهر شباط، في وقت كان من المؤكد أن تجارة الزنبق قد أصبحت في حالة من الفوضى المطلقة لأن الوفود كما يبدو لم يضيعوا غير النزر اليسير من الوقت في التفكير بالوسائل التي يمكن بوساطتها إنعاش تجارة الزنبق، بل تركزت مناقشتهم، عوضاً عن ذلك، على الطرق التي يستطيعون من خلالها التقليل من خسائرهم إلى الحد الأدنى.

كانت مشكلات مربي الزنبق في بعض جوانبها تماثل في صعوبتها تقريباً تلك المشكلات التي واجهها الزهارون، إذ إن معظمهم قد تحملوا تكاليف باهظة على مدى السنة السابقة جراء شراء الأبصال والفسائل، وتعهدوا حدائقهم بالعناية. ومن الممكن تماماً أنهم قد توسعوا في عملياتهم في محاولة لتلبية الارتفاع الحاد على الطلب، وها هم قد غدوا مثقلين بمبالغ هائلة لعملاء لم يدفعوا سوى تأمينات ضئيلة ثم باعوا زنابقهم لتجار آخرين. وفي حالات كثيرة تبددت حقوق

الملكية في واحدة من سلاسل التجارة والصفقات الطويلة والمعقدة بصورة لا تصدق، والتي ابتُدعت خلال فترة الولع. فكان إذا ما وجد زهار واحد فقط من أولئك الزهارين المتورطين في واحدة من تلك الاتفاقات نفسه عاجزاً عن سداد ديونه، فإن الانهيار كان يصيب سلسلة بكاملها. أما مربو الزنبق الذين يقبعون عند نهاية السلسلة فلم يكن أمامهم أدنى احتمال بأن يتلقوا الرصيد المتبقي لهم من بيع أبصالهم عندما يحل موعد الدفع في شهر حزيران.

ولا جرم أن جميع تلك المشكلات قد نوقشت في اجتماع أمستردام، وكان الحل الذي تبناه مربو الزنبق هو أن يدّعوا، في الأساس، أن ظاهرة الولع لم تحدث قط. وإذ دنا الاجتماع من نهايته، دعمت الأغلبية قراراً مفاده أن الصفقات التي أُبرمت قبل موسم الزراعة الأخير يجب أن تظل ملزمة، وأنه في الوقت الذي يحق للمشترين إلغاء أية صفقة شراء أبرمت منذ الثلاثين من شهر تشرين الثاني لعام 1636، فإنهم مطالبون بدفع ما نسبته (10٪) من سعر البيع على سبيل التعويض. وكان ممثلو أمستردام الرافضين الوحيدين للتوقيع على ذلك الاتفاق.

وفي سياق تعزيزهم لذلك الحل الوسط الذي توصلوا إليه، كان مربو الزنبق يسعون بطريقة ساخرة نوعاً ما إلى تقليل الخسائر التي لحقت بهم إلى حدها الأدنى. فقد كانوا يدركون أن مُعظم الأبصال التي بيعت قبل نهاية تشرين الثاني اشتراها خبراء ومتعاملون أثرياء قادرون على تسديد ديونهم بصورة كاملة. ولم يشهد سوق الزنبق تغيراً إلاّ خلال شهري كانون الأول وكانون الثاني، عندما تدفق على السوق الزهّارون الأفقر إبان انفجار تجارة الزنبق واندلاع الولع بصورة تامة. لقد كان استيفاء الديون من أولئك التجار أمراً مختلفاً، واعترف القرار الذي اتّخذ في أمستردام بتلك الحقيقة.

في الحوارات يشرح فيرمونت لجورجوت كيف يتم تنفيذ خطة مربي الزنبق في الممارسة. فإذا بيعت بصلة سعرها الأصلي (30) جيلدراً وأعيد بيعها ثلاث مرات، على سبيل المثال، بـ (60) جيلدراً، ثم بـ (100) جيلدر، وأخيراً بـ (200) جيلدر، حينها يختار الرجل الذي عرض (200) جيلدر بين أن يسلّم الثمن ويتسلم الزهرة. أما إذا لم يعد راغباً في الاحتفاظ بها فيتعين عليه أن يدفع (20) جيلدراً للرجل الذي باعها له

نظير إلغاء العقد المبرم بينهما، وحينها يعود حق الملكية للزهّار الذي دفع (100) جيلدر، وللثاني بدوره أن يختار إما أن يبقي على الزهرة التي في حوزته أو أن يدفع تعويضاً قدره (10) جيلدرات للرجل الذي اشترى منه زهرة الزنبق. لم يصف فيرمونت الوضع على هذه الشاكلة، لكن نوايا مربي الزنبق كانت تنطوي على افتراض مفاده أنه إذا ما تم إبرام عقد بصورة تامة، فإن جميع الأسعار المندرجة تحته في السلسلة، بما في ذلك السعر الأصلي الذي أقره المربي، يجب أن تنال استحقاقاتها أيضاً. وإذا لم يرغب أحد من الزهّارين في الاحتفاظ بالبصلة، تعود ملكيتها إلى المربي، الذي سيحظى بـ (10٪) من سعر المبيع على سبيل التعويض. وعندها يتمتع بكل الحق في بيع الزنبقة لمشتر آخر إذا أمكنه ذلك.

ولم تُعرف الأسباب التي حالت دون مصادقة مربي الزنبق في أمستردام على الاتفاق، لكنه أمر مفهوم تماماً أنهم قد أصيبوا بالصدمة من مجرد مدى التنازل الذي كان زملاؤهم يقترحونه.

ورأى ممثلو أمستردام أن زراع الأبصال، في نهاية المطاف، يتمتعون بكل حق في نظر القانون لمتابعة مطالباتهم بمبالغ كاملة لقاء منتجاتهم. وما من شيء سوى موقف «براجماتي» يعرف أنه سيكون مجرد مضيعة للوقت أن تتعقب مئات المدينين المعسرين في المحاكم، يمكن أن يقنع الأغلبية بالتنازل طوعاً عن حقوقهم في استرداد مبالغ تصل في كثير من الحالات إلى آلاف الجيلدرات.

ولابد أن نسبة الـ (10٪)، التي كانوا يقصدون بها عُشر سعر المبيع الأصلي وليس القيمة النهائية للزنبق حينما بلغ الولع ذروته، كانت هي كل ما اعتقد معظم زارعي الزنبق أن لديهم فرصة لاستعادته من الكارثة.

لقد تمثلت مشكلة مربي الزنبق في أنه حتى تلك المطالبة المتواضعة بجزء من الدين كانت تفتقر إلى قوة القانون. صحيح أنه كان يمكن لهم أن يطلبوا من عملائهم النظر في إمكانية الوصول إلى تسوية، لكنهم لا يستطيعون مطالبتهم بقبولها. وإذ لم يأمل معظم الزهارين في العثور على ما يكفي من المال لتسديد عُشر المبالغ المطلوبة منهم إلاّ إذا دفعت لهم أثمان الأبصال التي باعوها بدورهم إلى آخرين، فلم يكن

أمام الكثيرين منهم غير احتمال ضئيل بالوصول إلى تفاهم مع مربي الزنبق إلاّ إذا اضطر المربون لذلك. في الحوارات يطمئن جورجوت أحد الدائنين بقوله «عندما يدفع لي من اشترى مني، سأدفع لك»، ثم يضيف عبارة تنطوي على توضيح ينذر بشؤم تقول «لكنني لا أعثر له على أثر».

وهكذا يتضح أنه لم يكن بالإمكان حل مشكلات الإتجار بالأبصال عن طريق تجار الزنبق بمفردهم، ولابد من وجود سلطة أعلى تقرر من يملك آلاف الزنابق المشتراة والمباعة قبل شهر شباط من عام 1637. والأهم من ذلك من يدفع ثمنها. علاوة على ذلك فإن أية تسوية كان يتم التوصل إليها بصورة نهائية يجب أن تتمتع بقوة القانون.

لقد غدا الولع بالزنبق مشكلة للمحاكم. ولكن بينما كان يتم الاستماع لقضية الزنبق، سيكون لمنتقدي الظاهرة رأي حاسم.

الفصل الرابع عشر

إلهة للبغايا

لم يعشق أحد من الأقاليم المتحدة زهور الزنبق أكثر من كلايس بيترز من أمستردام، الذي ربما كان أكثر طبيب يتابع آخر التعليقات في أنحاء الجمهورية كافة. قد يزرع رجال آخرون الزنبق، وقد يتاجرون به، بل ويمكن لهم أن يصنعوا منه ثروات، إلاّ أن بيترز استبدل اسمه بسبب الزنبق، ليصبح، حرفياً، الدكتور زنبق.

بدأ كلايس بيترز بتبني اسمه الجديد، وهو نيكولايس تولب (تولب Tulp هي الكلمة الهولندية لزهرة الزنبق) في عام 1621، تلك الفترة التي أصبح فيها الزنبق تقليعة في أوساط الأعضاء الأكثر غنى وإدراكاً في طبقة الحكام. واستخدم زهرة الزنبق شعاراً شخصياً أيضاً. وعندما انتُخب حاكماً لأمستردام في عام (1622) وكان عليه أن يختار شعار النبالة، وشح الدكتور (تولب) درعه بزنبقة رفيعة ذات شعلات قرمزية من نوع الروزن. أما خاتم الحاكم الذي استعمله الدكتور زنبق فقد كان يطبع صورة زنبقة حمراء شمعية

على مئات من الوثائق الرسمية التي كان يوشحها بموافقته. وعندما عاد إلى منزله بعد يوم طويل في خدمة المدينة فقد كان ذلك بسبب لوحة فنية لزهرة زنبق قيل إنها واحدة من أجمل زنابق الأدميرال الخرافية، والتي كانت تزين يافطة تترنح جيئة وذهاباً فوق منزله المقام وفق أحدث طراز في برنزنجراخت.

ارتقى دكتور تولب إلى منصب رفيع في الوقت المناسب، وكان في أواخر العشرينيات من عمره حين استبدل اسمه. أصبح صديقاً لرامبرانت وكان موضوعاً لواحدة من أبدع لوحات الفنان، وكانت بعنوان «درس التشريح للدكتور زنبق» والتي يبدو فيها كجراح بارع يُشرّح باهتمام جثة مجرم كان قد أُعدم حديثاً آنذاك. كان الدكتور زنبق معروفاً لمعاصريه كعالم نبات وكمروّج قوي للفوائد الطبية للشاي، الذي وصفه بأنه مضاد للإرهاق الجسدي والتشنجات العضلية. وكان سياسياً ناجحاً ظل عمدة لمدينة أمستردام أربع مرات. وكان كذلك نصيراً صارماً لكالفن بصورة أساءت لسمعته، إذ كان يكنّ احتقاراً مبدئياً للمعربدين السكارى الذين طالما وجدوا حتى في أرقى حفلات الزفاف الهولندية. وقد دعاه ذلك إلى تبني تشريع مايزال الناس بفضله يتذكرون الدكتور

زنبق بين الفينة والأخرى. كان ذلك «قانون الإنفاق» في أمستردام الذي صدر في عام 1655، والذي جعل من إقامة حفلات زفاف تضم أكثر من خمسين ضيفاً أو تمتد لأكثر من يومين بمثابة جنحة.

فلا عجب إذاً أن يكون الدكتور زنبق كارهاً بالغريزة للإفراط في الثمالة من قبل الجماعات المرتادة للحانات. ظل دكتور زنبق خبيراً بالزنبق حتى نهاية حياته الطويلة، والحقيقة أنه في عام 1652، وبمناسبة تقاعده من نقابة الجراحين، قدم لزملائه القدامى كأساً كبيرة على شكل زهرة زنبق، تتسلق جذعها سحلية، وطالب أن تستخدم الكأس في المستقبل في شرب النخب الأخير لولائم النقابة التي لا تقع تحت حصر. أما في حياته العامة، وبعد عام 1637، فقد آثر نيكولايس تولب ألاّ يرتبط اسمه بالزهرة الشهيرة التي شاركها الاسم. وأُنزلت اليافطة التي كانت تقبع خارج المنزل في برنزنجراخت، ولم يعد شعار النبالة يعرض بشكل بارز كما كانت الحال فيما مضى. لقد شعر الدكتور زنبق بالعار لمظاهر التطرف المختلفة التي أحدثها الولع بالزنبق.

كان الكثيرون يشاطرون الدكتور زنبق هذه المشاعر،

فهذا أدولفوس فورستيوس، الأستاذ الذي شغل الكرسي القديم لعالم النبات كلوسيوس في جامعة لايدن، وكان يقدم فيها محاضرتين أسبوعياً في مجال الحدائق عن خصائص نباتاتها وأعشابها، أصبح يحتقر فظاظة التجار وهوسهم للأبصال، فحمل نبّوتاً وشرع في تحطيم كل أزهار الزنبق.

وحتى الأجانب الذين لم يكن لهم أي دور في الولع بالزنبق غالباً ما شاركوا الخبراء آراءهم السيئة عن الزهّارين. ففي خلال المراحل الأخيرة من هوس الأبصال بدأ الكثير من الناس العاديين يشيرون بسخرية إلى الأعضاء في زمر الحانات باعتبارهم «أصحاب القبعات». وكانت تلك إهانة كبيرة، إذ إن هذا الاسم بالنسبة للهولنديين في العصر الذهبي كان يستدعي صورة الأحمق الذي يرتدي زي مهرج.

لم يحصر جميع المنتقدين لولع الزنبق أنفسهم في النكات والإهانات، فبعضهم، وبخاصة المتدينون من المجتمع الهولندي، اتخذوا موقفاً أكثر تشدداً تماماً، متهمين تجار الأبصال بالتخلي عن المبادئ المسيحية في الإحسان والاعتدال. وحتى قبل الإنهيار النهائي لسوق الزنبق، كان عدد من المُعادين الصاخبين للولع قد ذهبوا إلى المطابع

يحملون انتقاداتهم لتجارة الزنبق. واتخذوا من الكراسة وسيلة للتعبير عن ذلك. وبحلول الأشهر الأخيرة لعام 1636 تدفق من المطابع في جميع أنحاء هولندا طوفان من النشرات يتناول ظاهرة الولع بالزنبق.

اشتمل معظم تلك المطبوعات على شتائم بذيئة، وباستثناءات قليلة، كانت الشخصية الرئيسة التي استخدموها في وصف الولع الإلهة الرومانية فلورا، والتي كانت دائماً أشد الإلهات فُحشاً. ووفق الأسطورة المتعلقة بفلورا، فقد كانت تلك الإلهة محظية سيئة السمعة في عهد روما الأول، وقد تبرعت للمدينة بالكثير من مكتسباتها التي جنتها بطرق غير أخلاقية عند وفاتها، حتى إن أولئك الذين لا ينكرون الجميل من الرومان قدروها إلى حد التأليه. فأصبحت إلهة الزنبق وحامية البغايا. أما مؤلفو الكراسات الهولنديين فقد كان أشد ما يبهجهم القيام بعقد مقارنات واضحة بين البغي الرومانية والزنابق القيمة في انتقالها من يد لأخرى بسرعة كبيرة في ذروة اندلاع الولع. وأعادوا إلى أذهان قرائهم أن فلورا كانت تمارس بيع نفسها لأعلى مزايد حتى ظل سعرها في ارتفاع مستمر، إلى أن غدا سعراً باهظاً لم يكن باستطاعة

أحد من الرجال الاحتفاظ بها لديه لفترة طويلة. وعلى الرغم من أن كل واحد من عشاقها كان أكثر ثراء وكرماً من الذي سبقه، فقد دمرتهم بمتطلباتها الملحاحة الدائمة بأن يقدموا لها أدلة متعددة على عشقهم لها وحتى بعد صعودها إلى معبد الآلهة اللاتيني متخذة من زفير إله الريح الغربية زوجاً لها، أثبتت فلورا أنها غير قادرة على إصلاح أساليبها. وما هو إلاّ وقت قصير بعد اقترانها بزفير حتى ديّثت زوجها الجديد بمغازلة هرقل.

رفيقة بلا عقيدة، ومحظيّة آسرة: مجاز مكتمل الوصف. كان تجار الأبصال في هولندا في نظر مؤلفي الكراريس آخر مجموعة بالضبط تقف في صف طويل من الرجال الذين سلموا أنفسهم لإلهة البغايا، لكي تخونهم في نهاية المطاف. كثير من مطبوعاتهم كانت تلمّح إلى العسر المالي الشديد الذي حاق بالزهّارين، وحملت عناوين من نوع: «فراش مرضى فلورا» وبعضها حمل عناوين أكثر صراحة مثل «سقوط عاهرة الجنّة الكبرى، فلورا الإلهة النذلة».

وظهرت مطبوعات أخرى اشتملت على شكاوى خيالية لتجار وجدوا أنفسهم عبيداً لإله وثني زائف. في

إحدى النشرات يروي نساج بغضب كيف أن فلورا أغوته. وفي نشرة أخرى تحمل عنواناً فاضحاً هو «اتهام ضد أبصال الزنبق الوثنية والتركية»، تأمر فلورا والأرواح الأرضية الأخرى أن الزنبق وجميع الأعشاب والنباتات الأخرى ينبغي أن تعود لمواطنها الأصلية في خطة الخلق، خشية أن تحيق بالأرض مصائب الوحوش الضارية وكوارث الطقس العاصف. أما الطابع العام لهذه المطبوعات فقد كان يحمل عداوة مريرة لإلهة وعدت بكل شيء، لكنها تركت أولئك الذي كان لديهم ما يكفي من الحمق ليمنحوها الثقة في حالة أدنى من العدم.

وفي الوقت ذاته كان مؤلفو الكراريس يصبون سيلاً جارفاً من الشعر الهجائي، فظهرت أولى الأعمال الفنية العديدة التي يمكن تذكرها، وكل قصيدة منها غنية بتفاصيل تجارة الزنبق، لتكشف المزيد من نمط السخرية الذي كان يتعين على الزهارين المحطّمين أن يتحملوه بعد الانهيار. وظهرت لوحة فنية للفنان بيتر نولبي تحولت فيما بعد إلى قطعة نحاسية محفورة على يد فنان يدعى كورنيليس دانكرتس وحملت عنواناً طويلاً رتيباً هو:

«زي المهرجين الذي ارتدته فلورا، أو مشاهد من سنة 1637 الاستثنائية حينما فقس أحمق أحمق آخر، وحين فقد الأثرياء الكسالى ثروتهم وفقد الحكماء صوابهم».

يصور العمل الفني الذي رسمه نولبي تجار الأبصال مجتمعين في نُزل للشراب يُدعى «عند لافتة الأبصال الساذجة»، والتي هي فعلياً عبارة عن قبعة لمهرج ضخم الجثة. وتظهر اللافتة الخارجية للنزل رجلين يقتتلان، وفي صدر الصورة رجال يحملون سلالاً ويدفعون عربات ذات دولاب واحد مليئة بالأبصال التي لم تعد تساوي شيئاً، ويتجهون نحو كوم للقمامة لإلقاء أبصال الزنبق عليها. يقف ثلاثة بستانيين يشاهدون الموقف، فيما يقف وراءهم بالضبط كبير الشياطين مسلحاً بقضيب لصيد الأسماك باحثاً عن عقود زنبق لا قيمة لها. وفي يده اليمنى يمسك الشيطان بساعة رملية تشير إلى أن عهد تجارة الزنبق قد ولّى. وفي خلفية الصورة يقف منزل مهجور، ويُمكن رؤية الإلهة فلورا تمتطي حماراً، مشيرة إلى الجماهير الغاضبة ألا يقتربوا منها. ويوضح النص المكتوب في أدنى الصورة أنها «مطرودة لفسقها الفاجر».

وبنفس الطريقة، ظلت الانتقادات الموجهة لأشكال

المغالاة في تجارة الزنبق مستمرة لسنوات تلت، وهكذا تعزز الأدلة الفنية الرأي القائل أن الولع بالزنبق كان ذا تأثير كبير، حتى على أولئك الذين لم يلعبوا دوراً نشطاً في تلك التجارة. في عام (1640) نقشت لوحة توضيحية عنوانها «عربة حمقى فلورا» من قبل كريسبجن فان دي باس، وهو ذات الشخص الذي كتب كتاب الحدائق المزهرة والذي أسهم في إرساء الولع بالزنبق قبل أكثر من عشرين سنة خلت.

وتبدو في اللوحة الإلهة مرسومة كفتاة شابة بصحة نضرة وفستان قصير تركب يختاً رملياً مجهزاً تجهيزاً فاخراً، مليئاً بسكارى يحتفلون بصخب، ويرتدون أزياء المهرجين. هذه الأشكال المجازية تحمل رقاعاً كُتبت عليها عبارات من نوع «الأمل الضائع» ، و «مدمن الخمر» ، و «ادخرها كلها». أما اليخت ذاته فرُسم وهو يشق الشاطئ خارج مدينة هارلم، مزداناً بلافتات معلقة خارج بعض الحانات المحلية المتورطة في ولع الزنبق، مثل لافتة «الصورة البيضاء» ، و «الدجاجة الصغيرة» علاوة على أربع لافتات أو خمس أخرى. ويظهر في الصورة قرد يتسلق سارية اليخت ويتبرز على الزهارين من تحته. أما فلورا، التي تجلس بأُبهة في مؤخرة المركب،

فتحمل في إحدى يديها باقة من أزهار الزنبق الأكثر مرغوبية لدى الناس من أصناف مثل : الجنرال بول ، الأدميرال فان هورن ، و -بالطبع- سمبر أوغسطس. أزهار أخرى بما في ذلك زهرة جودا وزهرة نائب الملك الثمينة تقبع على الرمل منتظرة أن تُسحق تحت عجلات اليخت الرملي. هذا اليخت، الذي بدا غريباً في شكله آنذاك، يتجه مباشرة نحو البحر، لكن جمهرة من الراغبين في أن يصبحوا تجار زنبق يركضون خلف اليخت، تحدوهم رغبة شديدة للحاق به في اندفاعته السريعة نحو الهلاك.

وفي اللوحة نساجون، وهم في اندفاعهم السريع يسحقون تحت أقدامهم كل أدوات مهنتهم القديمة. وفي الزوايا الأربع للوحته رسم فان دي باس صوراً صغيرة في إطار اللوحة، تصور إحداها الحديقة الشهيرة لمربي الزنبق هنريك بوتباكر في مدينة جود، فيما تظهر الصور الأخرى مشاهد لتجارة الأبصال في الحانات في مدينتي هارلم وهورن. إن الملمح الرئيس للوحته الفنية، المتمثل في اليخت الرملي المتحرك بسرعة شديدة، هو بحد ذاته مجاز لتجارة مميتة لم تخلّف سوى قبض ريح.

وفي ذات السنة التي رسم فيها فان دي باس لوحة عربة الحمقى، رسم جان بروغل الأصغر لوحة فنية طموحة سماها «قصة رمزية عن الولع بالزنبق». كان بروغل أكثر رسامي الزهور تأثيراً في العصر الذهبي. ومع أن بعض نقاد الفن المحدثين يرون أنه صاحب أسلوب جاف إلاّ أن رسوماته للزهور تتسم دائماً بالحيوية التي يُنعشها إدخاله لتفاصيل صغيرة مثل حشرات تزحف على أوراق الشجر. ومن المؤكد أن لوحة «القصة» هذه قطعة فنية حيوية بصورة استثنائية، إذ تزخر بالأحداث كأي رسوم كرتونية لجورج جروكشانك أو جيمس جيلراي.

أكثر من عشرين زهاراً أشبه بالقردة يظهرون منهمكين في جميع طقوس تجارة الأبصال. أحدهم يؤشر إلى بعض الزنابق المتفتحة، وآخر يمسك زهرة بمخلب وحقيبة من النقود بمخلب آخر، وخلفهم مجموعة من القردة يتقاتلون على من سيدفع ثمن الأبصال التي لم تعد لها آنذاك أية قيمة، فيما يُحمل أحد المضاربين إلى قبر بدائي.

على الجانب الأيمن من الصورة يشترك زوج من القردة في واحدة من ولائم الزهارين التقليدية، فيما يساق قرد آخر أمام قاض لتخلفه عن إيفاء دين. وفي إحدى الزوايا يبول قرد ساخط للغاية على مسكبة مليئة بأبصال الزنبق.

ومما لا شك فيه أن هذه الانتقادات الساخرة الخالية من الحشمة قد تركت أثراً بعيداً، حتى أنه بعد مائة عام ظل ولع الزنبق جرحاً حياً لم يندمل في روح الشعب الهولندي.

ويُعزى الفضل، وفق مقياس معقول، إلى مؤلفي الكراريس والرسامين في العصر الذهبي، في الاعتقاد بأن مجرد فكرة الإتجار بالأبصال مقابل مبالغ مالية ضخمة تبدو للكثيرين فكرة سخيفة تماماً في وقتنا الحاضر. ومع ذلك فإن الأهمية الكبيرة للكراسات التي تناولت ولع الزنبق لا تنبع مما احتوته، بقدر ما تنبع من الأسباب التي كانت تقف وراء إنتاج هذه الكراسات. فلقد كانت تلك الكراسات في الأغلب مجرد أوراق متفرقة، سريعة الزوال، تنطوي على رسومات توضيحية أُنجزت بوساطة «كليشيهات» خشبية رديئة، فيما تمت طباعتها بشكل سريع، وبتكلفة رخيصة على عجينة من الورق ذات جودة رديئة، ويقوم ببيعها باعة متجولون لقاء

بضعة ستايفرات للقطعة الواحدة.

لقد كتبت قلة من تلك الكراسات ببساطة بهدف التسلية. ففي الجمهورية الهولندية حيث كانت معدلات التعليم عالية كان إنتاج الكراسات عملاً إضافياً مفيداً ومربحاً لرجال مثل أدريان رومان الطباع الرسمي للحكومة في مدينة هارلم. كان رومان قد نشر الحوارات الثلاثة بين فيرمونت وجيرجوت، آملاً أنه قد يبيع (1000) أو (1250) نسخة من نشرة عادية، ومن الكتب الأكثر مبيعاً مثل سامنسبريكن والتي أعيدت طباعتها في عدد من المناسبات، ويمكن أن تصل إلى (15ر000) شخص. إلاّ أن أغلبية هذه المطبوعات كانت تنتج بشكل خاص للتأثير في الرأي العام.

أما الكراسات من النوع الأخير فقد كانت في العادة تموّل من قبل رجال أثرياء يفتقرون إلى المهارات الأدبية لكتابة شيء من إنتاجهم الخاص. وبدلاً من ذلك كانوا يستأجرون كتّاباً ليصوغوا آراءهم شعراً، ويطلبون من الطباعين أن ينشروا ويوزعوا تلك النتاجات. كان المؤلفون الحقيقيون لتلك الأعمال في الغالب كتاباً فقراء يكتبون كلاماً مقفى أو حوارات بحيث يستسيغها الإنسان العادي. وكان من بين

هؤلاء ستيفن فان دير لاست، الذي كان كاتباً مسرحياً محترفاً من مدينة هارلم، والذي كتب على عجل أربع كراسات عن ولع الزنبق. كما كان هناك جان سويت، الكاتب الساخر ذو القلم الحاد، الذي كتب كراستين حول الظاهرة. كانت الغاية من كلماتهم أن تُقرأ بصوت عال على جماهير تتجمع في الحانات، وأماكن أخرى. من ناحية ثانية، كان رعاتهم المجهولون، عموماً، حكاماً ونبلاء ذوي غايات خاصة جداً.

وعلى صعيد آخر كان عدد أقل من الكراسات يهدف إلى حشد الدعم لمربي الزنبق وخبرائه الذين أصابهم الرعب أيضاً جراء ولع الزنبق، تماماً كما أصاب أشد المنتقدين لتلك الظاهرة. وقد حاولت تلك النشرات أن تبيّن أن عشاق الزنبق الحقيقيين لا يتحملون أية مسؤولية حيال الهوس، وهم مايزالون جديرين بالاحترام. لقد حملت تلك النشرات عناوين دفاعية شديدة التأثير مثل «أغنية جديدة حول الخبراء الذين لا يقصدون الحانات ولهذا السبب يتمنون أن يتم تمييزهم عن الزهّارين». إلاّ أن مجمل الأمر يشير إلى أنه لابد أن تكون تلك المحاججات قد بدت ضحلة لأولئك الذين

كانون ينظرون إلى تجارة الزنبق برمّتها برعب ونفور. ولذا كانت النشرات التي تحمل الهجوم الأقوى والنقد الأشد هي الأفضل مبيعاً آنذاك.

وبينما كان الكتاب والفنانون في الأقاليم المتحدة يصبون جام احتقارهم على أولئك الذين فقدوا كل شيء امتلكوه في ولع الزنبق، كانت سلطات الجمهورية تتوصل تدريجياً إلى تفاهم حيال المشكلة المتمثلة بتفادي الكارثة المالية التي تهدد البلاد جراء انهيار تجارة الزنبق.

تمثلت الصعوبة الأولى في حسم من يتعين عليه أن يحل مشكلة آلاف من عقود الزنبق المعلقة. وكان اليقين الوحيد هو أنه ينبغي إبطال الأغلبية العظمى من هذه الاتفاقيات. أو أنهم، وهذا هو الأهم، لم يعودوا يمتلكون الأموال لإنفاذ الاتفاقيات. أما ما إذا كان يتوجب إلغاء عقود الأبصال وفق الشروط المقترحة من قبل مربي الزنبق - أي دفع ما نسبته 10٪ من سعر البيع المتفق عليه- أو حسب الشروط المرغوبة من قبل الزهارين (الذين كانوا يتمنون ألا يدفعوا شيئاً)، فقد كانت تلك قضية أخرى تماماً.

وقد جرت العادة أن يعهد إلى حكام كل مدينة تورطت في هوس الزنبق بأن يختاروا الاقتراح المقبول لديهم، أو أن يقدموا هم حلاً بديلاً. لكن حكام تلك المدن وجدوا أن الولع ينطوي على كل عناصر المشكلة الخادعة تماماً، فعجزوا عن تقديم إجابات حاسمة.

في هارلم، المدينة التي نعرف عنها أكثر مما نعرف عن غيرها، أقر مجلس المدينة ثلاثة قرارات منفصلة في غضون ما يربو على شهر واحد بقليل. إذ اقترح المجلس أن النزاعات بين الزهّارين تحل بطرق ثلاثة مختلفة. أبطل مرسوم الحكام الأول، الذي صدر في السابع من آذار، كل صفقة عقدت في نطاق السلطة القضائية للمدينة منذ شهر تشرين الأول السابق، وكما يبدو من دون إصدار بند حول دفع أي تعويضات للبائعين. وفي أقل من خمسة أسابيع بعد ذلك، وفي قرار ثان أُبطل مفعول القرار الأول، وأصدر آباء المدينة بدلاً منه حُكماً يقول إن «أولئك الأشخاص الذين اشتروا الزنبق في المطاعم ملزمون بدفع قيمة صفقاتهم». (ولم يفسر أعضاء المجلس كيف يمكن لآلاف من الزهارين المفلسين إسمياً أن يجدوا الأموال اللازمة لتنفيذ القرار).

بعد ذلك، وفي غضون أسبوع من نشر ذلك المرسوم، غيّر حكام هارلم رأيهم للمرة الثالثة. وفي هذه المرة، وبدلاً من اقتراح حل آخر، قرروا أن يغسلوا أياديهم من الموضوع، وحوّلوا المشكلة برمتها إلى رؤسائهم المباشرين، أعضاء البرلمان الإقليمي أي برلمان «أقاليم هولندا» القابعين في لاهاي، وتوسلوا لهم أن يصدروا حكماً بهذا الخصوص. كما اقترحوا عليهم أن تتبنى الأقاليم الحل الوسط الذي اقتُرح أصلاً من قبل المربين في اجتماعهم يوم الثالث والعشرين من شهر شباط.

كانت تلك الحيرة في اتخاذ القرارات أمراً بعيداً عن خصائص حكام هارلم المتميزين بالحكمة والرصانة، وفي كل الاحتمالات فإن التغيرات في سياسة المدينة كانت نتاجاً لعمليات ضغط صاخبة قادتها أطراف عديدة ذات مصلحة: مربون للزنبق يطالبون بالحق في استلام مبالغ كاملة، وزهّارون يتوسلون الإعفاء من ذلك. ولا بد أن هذا الموضوع قد خضع لنقاشات لا نهاية لها طوال فصل الربيع لعام 1637، فيما كان أعضاء مجلس الحكام يتلقون خطابات رنانة باستمرار من قبل تجار الزنبق التواقين لفرض حلولهم للمشكلة. وكان

الإحباط الذي شعروا به واضحاً في قرار السابع عشر من آذار الذي منع طبع وبيع الكراسات النارية عن الولع بالزنبق، وأمر باعة الكتب والطباعين في المدينة بتسليم مخزونهم من النشرات التي تخالف القرار ليصار إلى حرقها. كانت رغبة الحكام في رفع الأمر إلى سلطة أعلى إشارة إلى أنهم أدركوا استحالة اجتراح تسوية مقبولة من الجميع.

وربما حدثت احتجاجات مشابهة في أماكن أخرى، كما انضمت مدن هولندية أخرى إلى مدينة هارلم متوسلة لبرلمان أقاليم هولندا إيجاد حل يقلل إلى الحد الأدنى من الخسارات التي لحقت بكل من المربين والزهارين. وفي منتصف آذار كان حكام مدينة هورن يطلبون من ممثليهم في لاهاي بذل ما وسعهم من جهد لتسريع عملية اتخاذ القرار. لكن الأقاليم، كما المدن، سرعان ما أدركت أن ولع الزنبق مشكلة فريدة تقتضي تفكيراً عميقاً.

لم يكن لدى مجلس الأقاليم سوى القليل من المعلومات التي يستطيع الاستناد إليها في التوصل إلى حل. وإذا ما اتخذنا من مثال هارلم منطلقاً للحكم حيث كان هناك عضوان فقط من أصل أربعة وخمسين حاكماً للمدينة في الفترة ما بين

عامي 1636 و1637 متورطين في ولع الزنبق، لوجدنا أن قلة قليلة من الحكام أنفسهم قد اشتركوا في تجارة الأبصال. كما أن الملخصات الهزيلة للأحداث التي يبدو أن بعض المدن قد رفعتها إلى لاهاي كانت تخفق في تقديم ما يكفي من التفاصيل، فطلب مجلس الأقاليم مزيداً من المعلومات. وإذ كان المجلس في حالة من الانتظار، فقد أشاح بانتباهه عن الأمر لصالح قضايا أخرى.

ولمدة تربو على شهر إذاً، بدءاً من منتصف آذار حتى نهاية نيسان، كان على كل من تورط في ولع الزنبق، من مربين وزهارين، أن يتحملوا ألم التوقع. فالزنبق الذي كان يدر ثروات قبل أسابيع قليلة فقط كان مزهراً في جميع أنحاء الأقاليم المتحدة، لكن، وفيما كان يضفي إشراقاً على الربيع الهولندي الكئيب، كان المئات من الزهارين مستغرقين في حالة من الخوف من أن يصلوا إلى حالة الإفلاس، وظلت آلاف الاتفاقيات التي تبلغ قيمتها ملايين الجيلدرات معلقة من دون حل.

أما فيما يتصل بأولئك الذين كانوا فعلاً منخرطين في ولع الزنبق، فقد كان اهتمامهم المُلح أن يتفادوا الكارثة المالية

الوشيكة، بيد أنهم كانوا أيضاً يريدون أن يفهموا أسباب انهيار السوق. وبالطبع، اعترفت قلة، حتى ولو لأنفسهم، أنهم يتحملون مسؤولية ما أصابهم، لكنهم آثروا أن يروا أنفسهم ضحايا. وتماماً مثل كل الضحايا في كل مكان عثروا على تفسيرات تعفيهم من إلقاء اللائمة على أنفسهم.

كثيرون بدأوا يعتقدون أن ولع الزنبق كان نوعاً من الاحتيال. فعلى أحد الأطراف برزت فئة رأت ببساطة أنها قد تعرضت لخديعة من قبل زملائهم الزهارين أو ربما من قِبل الدلاّل في زمرتهم، وعلى الطرف الآخر وقف رهط أقنعوا أنفسهم أن تجارة الزنبق كانت بحد ذاتها مؤامرة. وقد أشار مؤلف مجهول إلى أن سوق الزنبق قد تم اختلاقه والسيطرة عليه من قبل عصبة مجهولة مكونة من عشرين أو ثلاثين رجلاً من أغنى مربي الزنبق وتجاره الذين اعتمدوا التلاعب بالأسعار لتحقيق مآربهم الخاصة. أما كيف أمكن لمجموعة كهذه أن تأمل في تنسيق نشاطاتها عبر دزينة من المدن التي أصابها الهوس فقد ظل سؤالاً بلا جواب.

كما أُلقي بلائمة الهوس على أناس آخرين. فالكاتب نفسه الذي ألمح إلى وجود عصبة مجهولة أشار أيضاً إلى أن

بعض أسوأ أشكال التطرف في تجارة الزنبق كانت نتيجة لتلاعبات قام بها مفلسون، ويهود وأعضاء من الطائفة المينوية[1]، وهي مجموعات ثلاث كانت تقف بعيداً عن بقية المجتمع، ما جعلها كبش فداء ملائماً.

فالمفلسون، في نهاية المطاف، أخفقوا في التمسك بالمبدأ الهولندي المقدس الذي يحث الإنسان على العيش في حدود إمكاناته، وأُرغموا على تحمل نتائج تجاوزاتهم، وربما أيضاً كانوا يبحثون عن وسيلة للانتقام.

أما اليهود، فمع أنهم كانوا يحظون بمعاملة أفضل إلى حد كبير في الأقاليم المتحدة عن تلك المعاملة التي كانوا يتلقونها في ألمانيا أو في فرنسا، فقد ارتبطت صورتهم، رغم ذلك، في مخيلة العامة بإقراض المال وبأشكال أخرى من الاستغلال الفاحش. كما مُنعوا لأمد طويل من الاختلاط بحرية واسعة مع بقية السكان، فيما حُظر على رجالهم فعلياً مخاطبة النساء الهولنديات. وكانوا غير مسموح لهم قانونياً باستئجار خدم مسيحيين. كذلك كان أعضاء الطائفة المينوية أغراباً دعوا إلى

(1) الطائفة المينوية: تنسب إلى مينو سايمونز (1496–1561) وكانت تؤمن بتجديد التعميد للبالغين. وعندها ثلاثة أشكال للتعميد: تعميد بالروح وتعميد بالماء، وتعميد بالدم. (المترجم)

تجديد التعميد، وكان يمكن تمييزهم بيسر من خلال ملبسهم المتشح بالسواد الكامل والمكون من معاطف طويلة وسراويل قصيرة فضفاضة.

وعلاوة على رفضهم تعميد الأطفال فقد كانوا دعاة سلام، ولطالما رفضوا بشدة حمل السلاح. ولما كان تعميد الأطفال في نظر الهولنديين من المسيحيين التقليديين التزاماً أخلاقياً وضرورة مطلقة في زمن ما تزال فيه معدلات وفيات الأطفال عالية إلى حد بعيد، فقد جعلت معتقدات المينونيين منهم فئة غير محبوبة فيما كانت الأقاليم المتحدة ماتزال في حالة حرب مع إسبانيا.

ولا يصمد أي من هذه الاتهامات أمام الفحص الدقيق، والحقيقة أنه لا يوجد دليل حقيقي على أن أياً من تلك الزمر -ربما باستثناء مربي الزنبق أنفسهم- قد أسهمت في الترويج لولع الزنبق بغية التوسع في تحقيق غاياتهم الخاصة.

صحيح أن بعض أعضاء الطائفة المينوية قد تورطوا في ولع الزنبق، وكان أحدهم وهو جاك دي كليرك، تاجراً عقد صلات تجارية مع دول منطقة البلطيق والبرازيل، وكان يشتري الزنبق ويبيعه بمبلغ يصل إلى أربعمائة جيلدر للبصلة

الواحدة منذ وقت مبكر يعود إلى شتاء عام 1635.

لكن الكثيرين من أعضاء تلك الطائفة وجهوا انتقادات شديدة لتجارة الزنبق وحثوا أولئك المتعاملين بالأبصال على التوقف. وبالطريقة ذاتها، كان هناك فعلياً عدد قليل من اليهود في الأقاليم المتحدة. واليهودي الوحيد الذي كان متورطاً بشدة وعلى وجه اليقين، في تجارة الزنبق، هو مربي الزنبق البرتغالي الشهير فرانسيسكو دا كوستا الذي يبدو أنه كان رجلاً ذا سمعة نظيفة. أما فيما يتصل بالمفلسين، فحتى لو أن قلة منهم استطاعوا أن يُخفوا القليل من المال عن دائنيهم، فإن أياً من السجلات الخاصة بذلك العهد لا يُشير إلى أن طرفاً واحداً لعب أي دور في اندلاع ولع الزنبق.

ومن المحتمل أن تكون قلة قليلة فقط من الزهارين قد اقتنعت بنظريات المؤامرة تلك، إلاّ أنه يبدو أن عدداً منهم قد ساوره شك في أن المتاجرين الأفراد قد عملوا على رفع مصطنع للأسعار بغية تحقيق الحد الأقصى لأرباحهم. كان السائد أن تُحدد الأسعار عن طريق المزادات العلنية المزيفة الضاربة في القِدم. ويفترض أن تنظم تلك الأمور من قبل تجار ماكرين يفتتحون مجريات «بيع» الأبصال بأسعار

قياسية لأشخاص متواطئين معهم كي يثيروا اهتمام الآخرين ويقنعوهم بشراء الأبصال بأسعار باهظة.

عدد من الزهارين ألقوا باللائمة في الهوس على مربي الزنبق. بعضهم أُتهم بإذكاء فتيل الاهتمام بالزنبق عن طريق بيع الأبصال مع ضمانة بأن البائعين سوف يبتاعون الزنبق من المشترين في السنة القادمة بأسعار تفوق تكلفة الشراء. وزُعم أن آخرين كانوا يمررون أصنافاً رديئة من الزنبق مثل (فوديريج) باعتبارها أبصالاً قيمة. ويقال أن أحد مربي الزنبق في مدينة أمستردام، والذي كان يُشك في قيامه بهذا النوع من الاحتيال، كان يعبث بالأبصال التي يبيعها عن طريق ثقبها بالإبر لتدميرها إلى حد كبير حتى لا تزهر وتفضح خديعته. وفي نهاية الأمر قبض على الرجل عندما قام أحد الشارين الساخطين بفحص دقيق لأبصاله فاكتشف علامات خرق ضئيلة للغاية على سطح الأبصال.

ومن الممكن تماماً أن أساليب من هذا القبيل كانت تمارس حقاً بين الحين والآخر، لكن من المؤكد أنها لم تحدث بهذا الهزء والانتظام الشديدين لتُحدث تأثيراً كبيراً في أسعار الأبصال.

والحقيقة أنه لم تكن هناك حاجة لحبك نظريات مؤامرة مفصلة لتشرح أسباب درجات التطرف التي بلغها الولع بالزنبق. كان ذلك في الأسبوع الأخير من شهر نيسان قبل أن تختتم محكمة هولندا بصورة نهائية دراستها لمسألة ولع الزنبق. فقد مضت ثمانية أسابيع منذ لقاء مربي الزنبق في أمستردام لتقديم حلهم المقترح للأزمة، وكانت ثلاثة أشهر قد مضت منذ انهيار تجارة الزنبق في أنحاء الإقليم. بيد أنه حينما أقدم قضاة المحكمة الخبراء على إعادة النتائج التي توصلوا إليها إلى الأقاليم، فقد بدأوا بالاعتراف أنهم حتى ذلك الحين ما يزالون غير قادرين على أن يستوعبوا بصورة كاملة الأسباب التي أدت إلى ولع الزنبق، أو الأشياء التي أفلتت من السيطرة إلى حد بعيد.

على أن محكمة هولندا كانت على يقين من شيء واحد: إنها تريد أن ترتبط بأقل درجة ممكنة بتلك النزاعات المتشابكة والعسيرة التي أفرزتها ظاهرة هوس الزنبق. وبدلاً من ذلك أوصت أن النزاعات بين المشترين والبائعين، والزهارين والمربين يجب أن تعاد مرة أخرى إلى المدن ليتم التعامل معها على المستوى المحلي حيثما كان ذلك ممكناً.

ورأت المحكمة أنه يتعين على قضاة المدينة أن يشرعوا بجمع المعلومات التفصيلية حول تجارة الزنبق. وفقط عندما يتسنى لهم فهم أفضل لما حدث في مدنهم ينبغي عليهم أن يبدأوا بعقد جلسات الاستماع للنزاعات. وفي الفترة التي تشهد جمع المعلومات الضرورية، ينبغي إجراء تعليق مؤقت لكل عقود شراء الأبصال. وإذا ما صادف القضاة حالات يتعذر التعامل معها على المستوى المحلي، يمكن أن ترفع هذه إلى لاهاي. على أن هذا الاقتراح كان يشير ضمنياً إلى أن إحالة نزاعات كتلك إلى لاهاي احتمال بعيد، إذ كان قرار المحكمة واضحاً: يتوجب على المدن أن تحل مشكلاتها بنفسها.

ولما تم تقديم اقتراحات محددة لبرلمان الأقاليم في نهاية الأمر، فإنه لم يُضع كثيراً من الوقت في تداولها. ففي السابع من نيسان، أي بعد يومين فقط من تقديم المحكمة المحلية لاقتراحاتها، اتفق ممثلو الأقاليم في لاهاي على قرار دمج جميع التوصيات الرئيسة، وجعلوها ملزمة لمدن الإقليم.

رسول سريع حمل رسالة تفسيرية للقرار إلى جميع مدن هولندا. وهكذا، وبحلول الثامن والعشرين من نيسان، كان كل عمدة مدينة تأثرت بالولع قد تلقى أخيراً تعليمات حول

كيفية التعامل مع مئات من النزاعات التي ماتزال تنتظر قراراً.

كانت النقطة الأساس تتمثل في اقتراح محكمة هولندا الداعي إلى تعليق جميع عقود مبيعات الأبصال في الوقت الذي يتم فيه التحقيق بشكل شامل في ولع الزنبق.

وكما اقتُرح أصلاً، فإن المقصود من تلك التوصية أن تكون إجراء مؤقتاً. والحقيقة أن المحكمة قد اعترفت أنه بمجرد أن يبلّغ القضاة المحليون حسب الأصول فإنه يجوز لهم أن يقرروا إنفاذ العقود الموقعة في النقابة، وأشارت المحكمة أنه في هذه الحالة يجب أن يُسمح للبائعين الساخطين بملاحقة عملائهم المتخلفين عن أداء ديونهم.

إلاّ أنه وكما حدث فيما بعد، فإن المدن المتورطة في ولع الزنبق لم تقم بجمع معلومات تفصيلية عنه كما طلبت المحكمة، ولم يتخذ أي إجراء آخر قطّ في لاهاي. وما كان مقصوداً كإجراء مؤقت أصبح الأساس الذي تمت في ضوئه تصفية ظاهرة الولع.

كانت تلك أخبار طيبة جداً للزهارين. ومعظم المدن وضعت قرار برلمان الأقاليم موضع التنفيذ بأن أمرت محاميها

وقضاتها بالكف عن التعامل مع مسألة ولع الزنبق. ففي مدينة هارلم، على سبيل المثال، أمر حكام المدينة كل من يعمل بوظيفة نائب عام أو كاتب عدل بالتوقف عن إصدار أي أمر قضائي نيابة عن تجار الزنبق. كما أرسلت تعليمات للمراسلين الذين يتولون في العادة الإبلاغ عن الاحتجاجات الرسمية القانونية والاستدعاءات الرسمية للمثول أمام القضاء، تطالبهم بعدم التعامل مع أية قضية ذات صلة بولع الزنبق. كما صدرت أوامر مشابهة في مدينة جودا وفي مدن ويست فريزلاند الثلاث: انكويزن وميديمبليك وهورن.

وأصبح بمستطاع الزهّارين في هذه المدن، وهم الذين اعتقدوا أنه ليس لديهم أي خيار سوى عدم الإيفاء بالتزاماتهم، أن يقوموا بذلك دون خوف من جزاء. وهناك المئات من الحرفيين الفقراء الذين رجحت توقعاتهم أنهم سيرغمون على إعلان إفلاسهم، قد استفادوا استفادة كاملة من هذه الفرصة الرائعة التي هيأها حسن الطالع. عدد قليل من أولئك الذين وقعوا في شرك الولع كانوا أغنياء وشرفاء بما يكفي لتسديد ديونهم. وهذا صحيح، بما في ذلك الرجل من ألكمار الذي اشترى أبصالاً بما قيمته سبعة آلاف جيلدر من

هنريكوس مونتنج، ثم مارس حينها حقه في دفع سبعمائة جيلدر فقط لإلغاء العقد وإعادة الزنابق إلى مالكها الأصلي.

وكما لاحظ المحامي المقيم في هارلم أدريان فان بوزفيلت، كان من الصعب العثور على الشرفاء. وفي جميع أنحاء هولندا كتب بوزفيلت يقول «كان هناك عدد كبير من الأشخاص لا يريدون الدفع ولا الوصول إلى حل وسط». وحتى أولئك الذين أبدوا استعداداً لتسوية جزئية لديونهم على الأقل، لم يقتربوا من التخلي عن نسبة ال 10٪ التي أرادها مربو الزنبق. أما النفر القليل من الذين دفعوا مبلغاً ضئيلاً فلم يقدموا أكثر من «واحد، أو اثنين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو حتى خمسة بالمائة، التي كانت أعلى نسبة تدفع من كامل النسبة المئوية».

وسرعان ما حقق الحظر الشامل على قضايا الزنبق النتيجة المرجوة، إذ اضطر مربو الزنبق والزهارون إلى تسوية نزاعاتهم فيما بينهم، وتوقف ضيق الحكام جراء المشاحنات الناجمة عن الولع بالزنبق. ولكن حتى تلك اللحظة كان قد مضى وقت طويل قبل أن تتم تسوية آخر نزاع. ونحن نعلم أنه في هارلم استمرت عملية تصفية الأزمة على امتداد عامي 1637 و1638، لأسباب ليس أقلها أن بعض تجار الزنبق أثبتوا

أنهم أكثر رفضاً لتسوية خلافاتهم مما أمل برلمان الأقاليم. ومن المحتمل أن يكون الأمر ذاته قد حدث في مدن أخرى.

كثير من أولئك الذين وقعوا في شباك الهوس سعوا إلى إيجاد حلول خاصة مثلما تمنى الحكام. وألغيت أعداد كبيرة من الاتفاقات بقبول جميع الأطراف المعنية، إن لم يكن بمصادقتها عليها. والحقيقة أنه في مدينة ألكمار تم إبطال جميع عقود الزنبق بهذه الطريقة، إذ بذل المرّبون كل ما في استطاعتهم لاستعادة خسائرهم بأن عرضوا الآلاف من الأبصال التي لم يتم جمعها للبيع. (وليس هناك ما يثير الدهشة في القول أن بعض الناس كانوا مهتمين بشراء الأبصال، بيد أن كمية ضئيلة من الزنبق الأكثر ندرة قد بيعت في نهاية الأمر لخبراء مقابل مبالغ مرتفعة). الصباغ ذو الحظ السيئ من مدينة هارلم جاكوب دي بلوك، الذي طُلب إليه أن يفي بضمانته لـ جيرتروت شوت، حمل رطلاً من الأبصال غير القابلة للبيع من صنف السويسري، ومضى بها إلى أمستردام أملاً في التخلص منها هناك.

على أن بعض مربي الزنبق أصروا على القتال في سبيل ثرواتهم المفقودة، وكان أكثرهم حظاً أولئك الذين اشتروا

الأبصال وباعوها في نقابات أمستردام، والتي كانت تسمح برفع القضايا المتعلقة بالزنبق للمحاكم، ويبدو أنها كانت المدينة الوحيدة التي سمحت بذلك من بين المدن التي وقعت في شرك الولع. وفي غضون أسابيع قليلة شرع نفر من مربي الزنبق في المدينة بالاستفادة من ذلك السماح لمقاضاة عملائهم السابقين.

واحد من أنشط المتقاضين يدعى إبراهام دي جوبير، وهو من سلالة حاكمة عريقة، ومرب للزنبق، احتفظ بحديقتين على الأقل: واحدة في سنجل، خارج أمستردام ريجيولارسبورت بقليل، والأخرى في والبيات، على مقربة من أسوار المدينة. وفي العاشر من حزيران طالب الأول إبراهام واختندونك بـ (950) جيلدراً مقابل أربع أبصال من صنف لايتن بلينبيرج ورطل من زنبق الأودينايرز التي كان واختندونك قد اشتراها في الخريف السابق. وفي اليوم التالي بدأ دي جوبير بإجراء قانوني ضد ليبرت فان أكسل الذي وافق في الأول من تشرين الثاني على شراء فسائل من صنفي دي بستي جوري وبروين بورير مقابل ألف ومائة جيلدر، علاوة على فسائل من نوع بيربر إن ويت فان كوايكل (التي

هي واحدة من مبتكرات العجوز جان كوايكل من زهرة الفيوليتين) مقابل (750) جيلدراً. ولكي يعزز من قضيته، طلب مربي الزنبق من كاتب عدل يدعى بي جو فيربيك أن يرافقه إلى حديقته في واليبات، حيث انتزع الرجلان كل الأبصال وأثبتوا أن صنفي الزنبق بوربر ان ويت كوايكل وبروين بوربر قد أنبتا فسيلتين للزهرة الواحدة. ويبدو أن دي جوبير قد توقع مشكلة مع عميل آخر من عملائه لأنه طلب من فيربيك أيضاً أن يثبت أنه انتزع بصلة أدميرال ليفكينز بفسيلة واحدة والتي كان يزرعها في حديقة رجل يدعى فيليم فيليمز.

مربون آخرون للزنبق من ذوي الأعمال في أمستردام انتهزوا بدورهم الفرصة لتأكيد حقوقهم، فهذا هانز بايرت من هارلم قد طالب ب (140) جيلدراً لألفي بصلة من نوع جروت جيبو ماسيردي كان قد باعها لـ هنريك فان بيرجوم من أمستردام. أما جان أدميرال الذي مضى خطوات بعيدة في إقناع باولوس دي هوجي بشراء أبصاله فقد غيّر من لهجته عندما أخفق دي هوجي في دفع دينه، وطلب النصيحة من محاميه. ويلام شونايوس من هارلم طلب قرابة ستة آلاف جيلدر

من فرانسوا كوستر، وهو حاصل جمع المبلغ المدين لكوستر، ذي الطالع السيئ، لقاء كمية كبيرة من زنبق فوديريج علاوة على بعض السلع المتفرقة التي كان قد طلبها في الثالث من شهر شباط وكانت على النحو الآتي:

- أربعة أرطال من زنبق السويسري 6000 جيلدر
- ألفا بصلة من نوع ماكسين 400 جيلدر
- ألف بصلة من نوع بورسمايكرز 250 جيلدراً
- المجموع 6650 جيلدراً

كما لم يقبل جميع الزهارين بالحظر الذي فُرض على قضايا الزنبق في مدن مثل هارلم، إذ وجد بعضهم ذرائع في رفع نزاعاتهم إلى المحاكم تحت ذرائع مختلفة. وأخذت إحدى هذه القضايا مجراها في شهر تشرين التالي من عام 1637. أحد مربي الزنبق المحليين ويدعى بيتر كالويرت، طرق باب التاجر جاك دي كلميرك وحاول أن يسلمه رطل الأبصال من صنف ويتي كرونين، ورطلين من النوع السويسري، وخمسة أرطال من نوع أدوينايرز، وثلاثة أرطال من صنف ماكسين التي كان قد وافق على شرائها قبل عام واحد على وجه التقريب.

وعندما رفض كليرك أن يستلم الأبصال شرع كالويرت برفع دعوى قضائية ضده، ويفترض أنه فعل ذلك على أساس أنه رفض استلام بضاعته.

مفاد ذلك كله أن عدداً قليلاً للغاية فقط من قضايا الزنبق قد وجدت طريقها إلى المحاكم، حتى في أمستردام، وكان السبب بسيطاً: وهو أن نفراً من الزهارين كان لديهم ما يكفي من المال ليستحق المقاضاة. دي جوبير، وأدميرال وبايرت طالبوا بديونهم من عملاء أثرياء يمتلكون القدرة على تسديد ديونهم. أما الغالبية العظمى من الزهارين الذين سقطوا في شباك الولع فلم يكونوا على قدر من الغنى، ولم تكن هناك جدوى من جرهم إلى المحاكم.

ومع ذلك، كان هناك مايزال الكثير من الذين رفضوا تمزيق عقود الزنبق التي كانت بحوزتهم، والتسليم بخسائرهم. ففي نهاية شهر كانون الثاني من عام 1638، أي بعد مرور سنة كاملة على الانهيار، كانت هناك مئات من القضايا تنتظر حلولاً.

لقد ثبت أن تلك النزاعات قد أدت إلى تمزيق واسع النطاق، وأفسدت العلاقات بين أناس كانوا ذات يوم زملاء أو

أصدقاء. كما ثبت أيضاً أن تلك النزاعات كانت مذكِّراً دائماً ومحرجاً بدرجات الإفراط التي وسمت الولع بالزنبق. علاوة على ذلك، لم تبد هناك أية آفاق مهمة لحل تلك النزاعات ما لم تقدم السلطات المحلية على اتخاذ إجراء آخر.

ولهذا شكل حكام هارلم في (30) من كانون الثاني لجنة تحكيم للنظر فيما تبقى من قضايا الزنبق. وكانت هيئات من هذا النوع موجودة قبل ذلك في جميع أنحاء الأقاليم المتحدة. وجرت العادة أن يطلق على هؤلاء المحكّمين لقب «صناع الأصدقاء». وكما اكتشف السير ويليام بريريتون خلال جولته في هولندا في عام 1634 فإن هيئات كهذه كانت موجودة في معظم المدن الهولندية، وكان أعضاؤها يُختارون لنزاهتهم وفطرتهم السليمة. واكتشف بريريتون أن صناع الأصدقاء هؤلاء كانوا «يتمتعون بسلطة استدعاء أي رجل أمامهم لديه قضية أو خلاف. وكان يتعين عليهم أن يتوسطوا بطريقة ودية، مشابهة لأسلوب التحكيم، وأن يسووا الخلافات وينهوها». كما كانت لديهم ميزة إضافية، بخلاف المحاكم التقليدية، وهي أنهم كانوا يقدمون خدماتهم بلا مقابل.

بعض سجلات محكمة تحكيم مشابهة في أمستردام التي بقيت سليمة تشير إلى نوع الأحكام التي كان يصدرها صناع الأصدقاء. ففي إحدى القضايا التي كان طرفاها المتخاصمان جان أدميرال ويلهيلموس تايبيريوس مدير المدرسة اللاتينية في مدينة ألكمار، أمر المحكّمون أدميرال أن يدفع لتايبيريوس (375) جيلدراً لتسوية الخلافات فيما بينهما. على أن بنود التحكيم كانت كريمة بصورة لائقة بحيث مُنح مربي الزنبق من أمستردام عشرة شهور لتأمين المبلغ، وطُلب إليه أن يجعل التسديد نهاية للمشكلة.

في بداية إنشاء لجان التحكيم، لم يمنح مجلس حكام هارلم صناع الأصدقاء في مدينتهم غير سلطات محدودة لحل قضايا الزنبق العالقة. وكانت اللجنة الجديدة المكونة من خمسة أعضاء تجتمع مرتين في كل أسبوع، وكان بإمكانها استدعاء الشهود الذين كانوا يرفضون المثول أمامها. على أن قراراتها لم تكن ملزمة، والكثير من الزهارين المتحاربين أثبتوا رفضهم قبول تسويات أوصت بها لجنة التحكيم. ومن الأدلة الباقية لدينا، يبدو أنه لم يتحقق غير تحسن ضئيل في معالجة ركام من القضايا التي رفعت في مدينة هارلم.

كان ذلك في شهر أيار من عام 1638 فقط، عندما أمسك حكام المدينة زمام الأمور بأيديهم بشكل صحيح في نهاية المطاف، وأصدروا، لأول مرة منذ الاجتماع الفاشل لمربي الزنبق الذي عقدوه قبل ما يقرب من ثمانية عشر شهراً، إرشادات لحل جميع النزاعات العالقة. وأصدر مجلس المدينة حكماً مفاده أن المشترين الراغبين في إعفاء أنفسهم من التزاماتهم يمكنهم إلغاء عقودهم بدفع ما نسبته (5ر3) بالمائة من سعر البيع الأصلي. وبعدها تعود ملكية الأبصال لمربي الزنبق. وكان ذلك أفضل اقتراح يمكن تحمله، وأكثر حل عملي صدر حتى ذلك الحين. ودعم المجلس قراره بحكم آخر ينص على أن جميع الأحكام التي صدرت عن صناع الأصدقاء من الآن فصاعدا ستكون ملزمة في جميع القضايا.

كانت تلك التسوية تعني أنه حتى الزهارين المدينين بمبالغ تصل إلى آلاف الجيلدرات بمقدروهم أن يُصفّوا التزاماتهم بدفع مائة جيلدر أو أقل، وهو مبلغ يستطيع حتى أكثر الناس فقراً أن يسددوه على أقساط. ومع أن تلك التسوية كانت غير عادلة ضمنياً لمربي الزنبق، فإنها ضمنت لهم حداً أدنى

من الدفع يغطي، في كل الاحتمالات، تكاليفهم، ويجعلهم أقل فقراً مما كانوا عليه قبل اندلاع ولع الزنبق.

وهكذا بلغ الولع نهايته مثلما تمنت محكمة هولندا، ذلك أنه لم ينته بسيل من الإجراءات القانونية ذات التكاليف الباهظة، بل بتسوية لا تخلو من تذمر. وفي نهاية الأمر كان ولع الزنبق هو ولع الفقراء والطاحين، الذي لم يترك أثراً تقريباً على الاقتصاد الهولندي، بخلاف الاعتقاد السائد، ففي أعقابه لم يحدث ركود عام، كما أن الأغلبية العظمى من الزهارين خرجوا من التصفية مهزوزين ومعاقبين لكنهم كانوا إما أغنى قليلاً أو أفقر قليلاً عما كانوا عليه قبل بدء الولع. أرباحهم الورقية وخسائرهم الورقية عملياً ألغت الواحدة منها الأخرى، وحتى أغنى الزهارين لم يعاقبوا رسمياً لعدم الإيفاء بالتزاماتهم.

والحقيقة أن أكثر ما يثير الدهشة البالغة حيال العدد القليل من القضايا التي وصلت إلى أيدي المحامين في الأقليم أن أياً من هذه القضايا لم تتمخض عن محاكمات شهيرة، ولم تصدر فيها أحكام، ولم توجد مدونات تشير إلى أية إدانات.

واستطاع مربو الزنبق وعملاؤهم أن يتوصلوا إلى

تسويات دائمة لخلافاتهم خارج نطاق المحاكم. وحتى في أمستردام، لم تكن تصفية ولع الزنبق قضية قانونية، بل عملية تسوية ومصالحة اتفق عليها الزهارون أنفسهم.

وكانت آخر قضية معروفة ناجمة عن الولع بالزنبق قد سُمعت في هارلم في الرابع والعشرين من كانون الثاني من عام 1639. كان هناك مرب للزنبق يدعى بروين دن دابلدن وكان قد طلب (2100) جيلدر من عميل له يدعى جان كورفر من ألكمار، مقابل رطل من الزنبق من نوع جيل كرونن بسعر (800) جيلدر ، ورطلين من النوع السويسري بقيمة (1300) جيلدر. ولا تشير السجلات إلى أي حكم صادر. ومن المفترض أن يعني ذلك أن دن دابلدين، شأنه شأن المربين الآخرين، أُرغم على قبول تسوية يدفع فيها ما نسبته (5ر3٪). كما كان يعني أيضاً أن عقداً بقيمة أجور سبع سنوات من العمل الحرفي من هارلم قبل سنتين فقط، قد أُلغي مقابل دفع (73) جيلدراً و (10) ستايفرات.

وحتى عند نهاية تلك المرحلة ظلت قلة قليلة من القضايا لم تتم تسويتها لأسباب ذات صلة بالتاريخ.

كان الفنان سيئ الطالع جان فان جويين واحداً من قلة

عاندهم الحظ فاستمر يعاني جراء التعامل بتجارة الزنبق. وعلى مدى ما تبقى من حياته، ظل العمدة فان رافنستين يلاحق عميله السابق بلا كلل ليسترد منه كل دينه. أعطاه فان جويين إحدى لوحاته التي وعده بها. لكنه كان قد استثمر تقريباً كل رأس ماله المتوافر في تجارة الزنبق. ومع الانهيار في الأسعار انعدمت آفاق قدرته على تسديد ديونه. وإذ لم ينتج غير القليل من الأعمال الفنية في السنوات الثلاث التي كرسها للمضاربة في أسواق الممتلكات والزنبق، فقد اضطر الفنان مرغماً إلى العودة إلى حامل لوحاته ليكسب قوت عائلته.

كان الضغط البسيط المتمثل في توفير قوت عائلته قد جعل من المستحيل على فان جويين أن يسدد كل ديونه ل فان رافتسين. وعندما مات العمدة في عام 1641، لم يكن قد استعاد معظم دينه. وحتى في ذلك الحين لم يحظ الفنان بفترة راحة، إذ أن ورثة فان رافتسين واصلوا مطالبته بالدفع، وثبت أن الضغط على فان جويين لم ينقطع إلى درجة أن موارده المالية غير المستقرة قد تردت في حالة من الفوضى، واضطر إلى تنظيم مزادات علنية على أعماله في مناسبتين على الأقل

عندما كان في حاجة ماسّة للمال.

عاش جان فان جويين حتى عام 1656، أي بعد عقدين من انهيار ولع الزنبق الذي ألحق به الدمار، وكان مايزال معسراً عند وفاته. لقد ترك وراءه عدداً كبيراً من اللوحات الفنية البديعة، ولربما ما كان الكثير منها ليُرسم لو أن الفنان أثرى من تجارة الزنبق، ولو أنه لم يكن مديناً بما مجموعه (897) جيلدراً. لقد كان آخر الضحايا المعروفين لولع الزنبق.

الفصل الخامس عشــر

في بلاط ملك الزنبق

تركت التصفية النهائية للولع الهولندي بالزنبق في مطالع عام 1639 الكثير من الهولنديين يحملون بغضاً شديداً للزنبق. بيد أن هذا الفصل من فصول التاريخ لم يردع تماماً أكثر الناس ثراء من جامعي أندر أصناف الزنبق، فهم لم يكونوا متورطين بأي حال من الأحوال في تجارة الزنبق في الحانات، وبذا كان بمقدورهم غض النظر عن السخرية التي راكمها مؤلفو الكراسات على أولئك الذين وجدوا أنفسهم في شراك الهوس.

لقد واصلت تلك القلة الأكثر غنى دفع أسعار عالية لأبصال محددة على مدى مائة سنة أخرى ، أما فيما عدا أولئك فقد هوى شغف الناس بالزنبق في الأقاليم المتحدة، ولم تعد هناك أية إمكانية لصنع ثروة سريعة من تلك الزهرة.

على أن العالم لم يشهد الفصل الأخير من ولع الزنبق، الذي – كما الطاعون الدبلي– كان مرضاً غريباً ومعقداً يمكن أن يتفشى لحين من الزمن ثم يبدو وكأنه اختفى فيما يكون، تماماً

كالطاعون، في حالة من الكمون فحسب. وكما هي الحال في الطاعون، يمكن أن يظهر مرة أخرى على بعُد أميال من المكان المبتُلى، وبعد عقود من تفشيه فيه، ليظل مرضاً خبيثاً مثلما هو على الدوام.

هكذا كان الوضع في الإمبراطورية العثمانية. ففي النصف الأول من القرن السابع عشر فقد الزنبق شيئاً من بهائه لدى الأتراك. إذ بدأ هذا التردي حوالي عام (1595) بوصول السلطان الفاسق محمد الثالث إلى سدة الحكم، والذي كان أقل ولعاً بأزهار الزنبق إذا ما قيس بولعه بإغواء امرأتين أو ثلاث نساء من الحريم في كل ليلة. الحكام الذين جاؤوا في أعقاب السلطان محمد، بدءاً من كاره النساء بشكل غريب السلطان مصطفى الأول الذي أنهى حكمه سجيناً، كنوع من العقاب، في برج محصن برفقة امرأتين عاريتين من العبيد، وحتى السلطان عثمان الثاني سيئ الطالع الذي عانى من عذاب شديد أودي بحياته تمثل في «عصر خصيتيه» على أيدي الجنود التابعين له. هؤلاء الحكام كانوا إما عجزة أو جزارين. وفي أفضل الأحوال، فلم يبُدوا غير اهتمام منقطع بحدائق «مقام النعيم».

وظل الوضع على هذه الحال إلى أن تسلم العرش السلطان محمد الرابع الذي تولى الحكم في الفترة ما بين عامي (1647) و(1687) إذ استعادت الإمبراطورية العثمانية في عهده نوعاً من الاستقرار. ومع أن والده إبراهيم المجنون (وهو سلطان خليع أمر ذات يوم بإغراق (280) امرأة من نسائه يعشن في جناح الحريم ، فقط بغية تمتعه باختيار نساء بديلات لهن) قد عُرف عنه عشقه للزنبق ، إلاّ أن ولده محمد كان السلطان الأول على مدى نصف قرن من الزمان الذي كرس حياته للبستنة باهتمام بالغ، فقد كان هو الذي أنشأ حديقة إمبراطورية مقتصرة على أزهار الزنبق لا غير في الميدان الرابع للقصر، والتي ظلت مزدهرة مدة قرن كامل. كما كان هو الذي أصدر أمراً مفاده أنه يتوجب تسجيل وتصنيف كل نوع جديد من أنواع الزنبق. ولكي يشرف على هذه العملية أنشأ السلطان مجلساً رسمياً للزهارين ينعقد كي يحكم ما إذا كانت أصناف الزنبق التي تعرض عليهم جديدة أم لا. كما كانت مهمته أن يلاحظ خصائصها المحددة، وأن يطلق على الأصناف الخالية من أية عيوب أسماء شاعرية يحبها الأتراك، مثل «رماح الرمّان» و«المغناجات الرقيقات». وقد استمر

هذا المجلس إلى ما بعد رحيل سيده، وواصل إصدار أحكامه على الزنابق الجديدة لمائة عام أخرى.

ومن سوء طالع السلطان محمد أنه ثبت أن إدارة إمبراطورية أصعب بكثير من إدارة أزهار الزنبق، فقد شهدت السنوات الأخيرة من حكمه سلسلة من الكوارث العسكرية في منطقة البلقان أضعفت سلطته بصورة شديدة.

والأسوأ من ذلك أن أسعار الخبز في إسطنبول قد تضاعفت أربع مرات وترتبت عليها اضطرابات في العاصمة ذاتها، ومع نهاية عام (1687) أعد وزراء السلطان خطة لخلعه واستبداله بأخ له غير شقيق ليّن العريكة.

كان هناك سبب معقول يفسر إصابة الأتراك، على امتداد القرن السابع عشر، بلعنة وقوعهم تحت حكم سلسلة طويلة من السلاطين المجانين أو الفاسدين، والذين كانوا يشكلون خطراً من شأنه تدمير الإمبراطورية العثمانية. فمنذ عهد السلطان سليمان الرهيب تغيرت الأشياء في إسطنبول، إذ تشتت الكثير من قوة السلالة الإمبراطورية التركية، في وقت كان من الضروري أن يتم التخلي عن الأساليب القديمة في تأمين الخلافة الإمبراطورية على عرش البلاد.

ومنذ عهد السلطان بيازيد الذي انتصر في كوسوفو، أصبح الحكم السلطاني يؤول إلى أول من يسيطر عليه من الأمراء. وبعد النموذج الدموي الذي تجسد في عهد بيازيد، أصبح السلطان الجديد يفتتح عهده بإعدام كل إخوته حتى لا يتآمروا عليه ويغتصبوا العرش منه. ففي عهد السلطان محمد الفاتح، اتخذ هذا التقليد القاتل فعلياً صفة القانون، حتى إنه حين تسلم السلطان محمد الثالث في عام 1595 الحكم جُرّ ما لا يقل عن تسعة عشر أخاً للسلطان الجديد من جناح الحريم وكان بعضهم مايزال رضيعاً، وأعدموا بمناديل من حرير.

وكان يتم ختانهم قبل قتلهم ليضمنوا معاملة حسنة في الجنة. وإذ كان النظام على هذه الدرجة من الوحشية، فقد أنتج سلسلة من السلاطين الجريئين، الحاسمين، المعروفين بقسوة قلوبهم. إلاّ أنه في عام (1607) لم يعد السلطان الحاكم أحمد الأول قادراً على تصور احتمال قيام واحد من أطفاله الذين يحبهم بقتل إخوته الآخرين. وأمر أن تستبدل السياسة القديمة المتمثلة بالقتل القانوني للإخوة بسياسة جديدة قوامها سجن الإخوة غير المرغوبين في بقعة صغيرة في مقام الحريم تعرف باسم «القفص».

كان القفص جناحاً مكوناً من عدد من الحجرات ويقع غربي الميدان الرابع للقصر ويطل على مشاهد مثيرة لبساتين التين، وحدائق الجنة العثمانية، ومضيق البوسفور. وهناك، حيث الخصيان للرفقة، والمحظيات العاقرات لتقديم السلوى الجنسية، كان يعيش الأمراء غير المرغوب فيهم حياة جمعت بشكل بغيض بين الملل الدائم من حياتهم اليومية الرتيبة والرعب المُلحّ من أن الإعدام قد يكون مآلهم في نهاية المطاف.

وعند وفاة أحد الحكام العثمانيين كان يتم إطلاق ابنه الأكبر من القفص حيث أمضى حياته كلها ويُنصّب سلطاناً جديداً، فيما يعود رجال السلالة الإمبراطورية إلى مهنهم القليلة التي كان يسمح لهم بمزاولتها ومن بينها التطريز، وصناعة خواتم عاجية، وحياة اليأس الصامت.

ومع بداية القرن الثامن عشر آل الحكم في نهاية الأمر إلى أحد أبناء السلطان محمد الرابع وهو أحمد الثالث الذي أمضى أول عشرين عاماً من حياته سجيناً في القفص. وقد برهن السلطان أحمد أنه لم يكن فقط السلطان الأكثر تطورا وثقافة منذ سليمان الرهيب نفسه بل أثبت أيضاً، وبلا تردد،

أنه أعظم المهووسين بالزنبق في التاريخ. وإذ استلهم عشق الزهرة الإمبراطورية من أبيه، وفيما أمضى أيامه يرنو ببصره لحنين من شرفة قفصه الرخاميه على طول الحدائق الخاصة الهائلة في الإمبراطورية العثمانية والتي لم يكن مسموحاً له قط بأن يتجول فيها أو يلمسها، فقد جاء أحمد إلى العرش العثماني وهو يكاد يتفجر عشقاً للزنبق مزوداً - فجأة - بوسائل لا حد لها تقريباً ليروي ذلك العشق.

ولم يكن بمقدور أكثر تجار الأبصال جشعاً في نقابات هارلم أن ينافس حماسة السلطان أحمد، ذلك السلطان الجديد الذي سلبت الزهرة لبه حتى أصبحت الملمح الرئيس لمدة حكمه الطويلة.

وقد اتضح هذا الملمح في ذلك الوصف الذي أطلقه المؤرخ التركي أحمد رفيق على ذلك العهد بأنه «حقبة الزنبق». فمنذ وصول السلطان أحمد إلى سدة العرش في عام (1703) انفجر ولع الزنبق مرة أخرى ولكن في إسطنبول هذه المرة، ليظل مشتعلاً في العاصمة التركية قرابة عقود ثلاثة.

والحقيقة أن عهد الزنبق ذاك كان يشكل قناعاً لحقيقة غير مريحة وهي أن إمبراطورية العثمانيين العظيمة كانت تتردى

شيئاً فشيئاً. فالقوة التركية كانت تضعف في كل مكان، بدءاً من الساحل الإفريقي حتى منطقة البلقان التي مزقتها حروب لا تنتهي، والتي وقّعت فيها اتفاقية سلام كارلوفيتز في عام (1699)، والتي بموجبها تـم التنازل عن هنغاريا وترازيلفانيا للنمساويين. وبذلك انتهت حقبة من التوسع العثماني في أوروبا، وانحسرت الحدود الإمبراطورية بضـع مئات من الأميال إلى داخل إسطنبول.

ولم تكن مهرجانات الزهور التي ميزت حقبة الزنبق ومظاهر الأبهة التي رافقتها غير إجراءات أمر بها وزراء السلطان لصرف أنظار الناس عن حقائق الوضع السياسي وصرف انتباه السلطان عن المحن المترتبة على حكم إمبراطورية عسيرة الانقياد.

ويقتضي الإنصاف القول أن السلطان أحمد لم يكن مجرد مهووس بالزنبق، إذ إنه قاتل الروس بنجاح وكان بانياً ومحباً للكتب، وفي عهده أنشئت – ولأول مرة سفارات عثمانية في عواصم أوروبا لتجمع معلومات وأفكاراً من الغرب. وهو الذي ترك واحدة من أبرز المعالم الهائلة التي تزين العاصمة الإمبراطورية والمتمثلة في نافورة السلطان أحمد الثالث

والتي تنتصب اليوم خارج قصر توبكابي تماماً. ومع ذلك فقد تزعم السلطان أحمد بلا شك حقبة ساد فيها مذهب المتعة الذي كان فريداً حتى في البلاط التركي. فعلى مدى عقود ثلاثة، أطلق العثمانيون، الذين كانوا دائماً متحمسين للحرب، العنان لمتعهم، وانغمسوا في اللهو في احتفالاتهم العديدة التي كان ينظمها إمبراطورهم ووزراؤه. كتب شاعر البلاط «نعيم»، وأقرب أصدقاء السلطان أحمد، واصفاً الفلسفة غير الرسمية للحكم يقول «دعونا نضحك، دعونا نلهو، دعونا نتمتع بملذات الدنيا إلى أقصى الحدود».

ومع أنه غدا آنذاك حراً ليستمتع بمباهج السلطة، فقد اكتشف السلطان أحمد مساوئ كونه ملك الملوك، إذ إنه تذمر ذات مرة من اضطراره من طرد ما لا يقل عن خمسة وثلاثين غلاماً يخدمون غرفة نومه الخاصة، والذين كانوا على الدوام يتجمعون في غرفة نومه. فعل ذلك لكي يشعر بالراحة عند تغيير سراويله الإمبراطورية فقط أمام ثلاثة أو أربعة من الغلمان الباقين. على أن كون المرء سلطاناً له أيضاً، مزايا بلا شك.

ففي مناسبة زواج واحدة من بناته الأثيرات إلى نفسه أمر السلطان أحمد الحلوانيين في قصره أن يصنعوا عرائش سكر طول الواحدة منها ثمانية عشر قدماً بحيث يتمكن الضيوف من قضم شيء من أوراقها الحلوة. وفي مناسبات أخرى كان الضيوف يتجولون في حدائق مزدحمة بالبهلوانات والمصارعين والأقزام، ناهيك عن تجوالهم في بدعة عثمانية خاصة تتمثل بـ (النخيل الفضي)، حيث تنتصب أشجار اصطناعية مصنوعة من الشمع والأسلاك، ومجللة بمرايا وأزهار وجواهر، بارتفاع يصل إلى ستة أقدام.

وربما كانت أكثر الاحتفالات العثمانية ترفاً تلك التي كانت تقام بمناسبة الختان الطقسي لورثة السلطان، إذ كانت تنظم بصورة عامة قبل سنة أو يزيد من موعدها، وتستمر لأسابيع، وتتوج بأن تقدم لأمهات الأمراء القلفات المقطوعة على أطباق من ذهب. ففي عام (1720) أقام السلطان أحمد احتفالاً كهذا بمناسبة ختان أربعة من أبنائه، وزواج اثنتين من بناته. واستمرت الاحتفالات خمسة عشر يوماً في الليل والنهار، واشتملت على بناء أربعة وأربعين نخلة لكل أمير شاب، وختان متزامن لخمسة آلاف ولد تركي آخرين،

وقيادة عربات على حبال مشدودة تتدلى بين بعض السفن التي تملأ مضيق البوسفور مشاركةً في الاحتفالات. على أن ممارسات كهذه كانت نادرة بالضرورة. ففي غياب المزيد من فتياته للزواج وأبنائه للختان، كرس السلطان أحمد ووزراؤه الكثير من اهتمامهم لاحتفالات الزنبق السنوية التي يتم إحياؤها في الميدان الداخلي لحدائق قصر توبكابي.

كانت احتفالات الزنبق تقام في شهر نيسان حينما تزهر أبصال الزنبق. وكانت تستغرق أمسيتين متتاليتين عندما يكون القمر بدراً. وكان المقصود أن تكون الاحتفالات مثيرة للذهول. في الأمسية الأولى كان السلطان يجلس مرئياً في كشك بُنّي ضمن الحديقة، وكان يستقبل فيه وزراءه معبرين عن ولائهم، وبرفقة طيور مغردة تزقزق في أقفاص كبيرة معلقة في الأشجار. ضيوف آخرون كانوا يُمنعون بصرامة من ارتداء ملابس تتعارض مع ألوان الأزهار، وكانوا يتجولون بين مساكب الزنبق المضاءة بقناديل مثبتة على ظهور سلاحف بطيئة الحركة. في الأمسية الثانية يتم عزل الضيوف الرجال، فيما يظل السلطان يداعب نساء الحريم ويتسلى بلعبة الكنز بين الزهور. وفي بعض الأحيان تكون

الهدايا أنواع من الحلوى وأحياناً تكون حجارة ثمينة. وفي نهاية تسلية كل أمسية يقوم كبير الخصيان البيض - في العادة عبد مسيحي يعمل حاجباً، فيما يقوم زميله الحبشي، كبير الخصيان السود، بتولي مسؤولية الحريم من حيث توزيع العطايا، والأثواب، والجواهر، والنقود على أولئك النسوة اللواتي ينعمن باستحسان السلطان.

كان عشق السلطان أحمد للزنبق شديداً إلى درجة أن الزهرة سرعان ما قوبلت باستحسان جديد في أوساط الطبقات كافة في العاصمة. الحلاقون وصناع الأحذية عنوا بتربية الزنبق. وكذلك فعل شيخ الإسلام، الرجل ذو المرتبة الدينية الأسمى في الإمبراطورية العثمانية. واشتد الطلب على أبهى أصناف الزنبق حتى أن ثمن البصلة الواحدة من صنف «محبوب» وصل إلى ألف قطعة ذهبية. ولربما كان السلطان أحمد قد تعلم درساً من الهولنديين حين حال دون حصول هوس الإتجار بالزنبق بأن حدد بمرسوم إمبراطوري عدد الزهارين المسموح لهم بالعمل في العاصمة، كما حدّد أسعار أزهار الزنبق الأكثر مرغوبية لدى الناس. بل إن إجراءات أكثر صرامة قد اتخذت لكبح المضاربة في المقاطعات العثمانية.

وفي آخر الأمر، أصبحت عملية بيع أبصال الزنبق خارج أسوار إسطنبول جريمة عقوبتها النفي.

لقد أثمرت قرون من الجهد أنواعاً مذهلة من الزنبق حينما بدأ عهد السلطان أحمد. فقد ذكرت إحدى قوائم الأسعار الرسمية التي تحدد قيمة الأصناف الأكثر جِدّة، أسماء أكثر من (820) صنفاً من الزنبق، فيما تواصل تطوير أنواع جديدة على امتداد عهده. وقد بلغ الولع في الزنبق مستوى عالياً حتى أن مجرد الظهور الأول لصنف جديد كان غالباً ما يحتفى بذكراه شعراً، فألفّت المدونات الشعرية التاريخية التي سجلت التاريخ الميمون بأحرف البيت الأخير من القصيدة.

وفي جوانب مهمة، اتسم الولع بالزنبق في الإمبراطورية العثمانية بأنه كان محدوداً للغاية، ومتأخراً إلى حد بعيد، ذلك أن الإهمال الذي عانى منه الزنبق خلال فترات طويلة من القرن السابع عشر كان شديداً إلى درجة أنه عندما تسلّم السلطان أحمد سدة الحكم كان العثمانيون قد فقدوا ريادتهم في تربية الزنبق منذ أمد بعيد، وكانوا آنذاك يستوردون الآلاف من الأبصال في كل عام من هولندا وفرنسا. ومع

ذلك، احتفظ العثمانيون بأفكار ثابتة نوعاً ما عن الخصائص التي تمثل الزنبقة المثالية خير تمثيل. ميزان الأزهار أو دليل الأزهار، مخطوطة كتبها كبير بساتنة السلطان أحمد الشيخ محمد لااليزاري ويذكر فيها عشرين معياراً للحكم على جمال زنبقة.

وأوضح الشيخ محمد في كتابه أن جذع الزنبقة ينبغي أن يكون طويلاً وقوياً ، وبتلاتها الست ناعمة وثابتة ومتساوية في الطول، لكن يجب ألا تخفي الأوراق الزهرة، فيما ينبغي أن تكون الزهرة منتصبة وغير ملوثة بغبار طلعها. أما الزنابق المرقشة فينبغي أن تكون ألوانها منثورة على خلفية ناصعة البياض.

على أن هذا الوصف الدقيق قلما يتصف بالعدل حيال النكهة الشاعرية للأمنيات العثمانية. ففي مخطوطة أخرى لـ «لااليزارى»، ما تزال محفوظة في سجلات برلين وتحمل عنوان مقبولة وجميلة توصف الزنبقة المثالية بأنها «محنيّة مثل القمر الهلال، ولونها موزع بشكل ملائم، ونظيف، ومتناسب. لوزية الشكل رفيعة كإبرة، مزينة بخيوط تسر الناظرين، وأوراقها الداخلية عميقة، كبئر، وكما ينبغي

أن تكون، وأوراقها الخارجية مفتوحة قليلاً كما ينبغي أن تكون، والأوراق البيضاء المزركشة في تمام كمالها. إنها «مختارة المختارات». ويمكن للمرء أن يكون موقناً من أن الأصناف النادرة التي تلبي هذه المعايير الدقيقة قد وجدت طريقها إلى حدائق السلطان أحمد.

وسرعان ما وجد خدم السلطان أنه من المناسب أن يشاطروه عشقه للزنبق، وبعضهم أصبحوا متحمسين مهمين بجدارة. فهذا مصطفى باشا، أمير الأسطول العثماني، يبتكر أربعة وأربعين صنفاً جديداً، ومسؤولون طموحون أقل رتبة يكتشفون أنهم يستطيعون أن يشقوا طريقهم إلى المناصب العليا برشئ تتمثل في هدايا من أنواع الزنبق البديعة. ولم يكن من الحكمة أن يحرموا ملك الملوك من زنبقة كان مولهاً بها بشكل خاص.

وعندما فُقدت بصلة نادرة قدمت هدية لكبير الوزراء في حينها من سفير أوروبي بعيد النظر حشد هذا المسؤول عدداً كبيرا من المنادين في شوارع إسطنبول الضيقة ليعرضوا مكافآت ضخمة لمن يعيدها سالمة.

وفي وقت مبكر من حكمه سار السلطان أحمد الثالث على نهج سابقيه المباشرين بأن شق طريقة من خلال تعاقب عدد من الوزراء لفترات قصيرة. إن رجلاً أميناً ومجتهداً مثل فاضل باشا، آخر أفراد سلالة متميزة من الخدم الإمبراطوريين، لكنه رجل غريب الأطوار، كان يعتقد أن ذبابة تقبع عند نهاية أنفه تعود في كل مرة بعد أن يطردها إلى المكان ذاته.

إلاّ أنه في عام (1718) عين السلطان رجلاً يدعى إبراهيم باشا كولياسي في منصب كبير الوزراء في الإمبراطورية العثمانية. كان إبراهيم بالغ الدهاء في نصب شباك للإمبراطور، فيما جعل مهمته الرئيسة بناء أوثق علاقة ممكنة مع السلطان. وتمثلت خطوته الموفقة في زواجه بالابنة الكبرى للسلطان أحمد، فمُنح في أعقاب ذلك لقب «دامات» أي «زوج الابنة». وفي بلاد كان فيها منصب الوزير لمدة طويلة مرادفاً لفترة خدمة قصيرة، وينتهي في الأغلب بموت عنيف، نجح هذا الدامات في التشبث بالسلطة لما يزيد على عشر سنوات.

اتبع زوج الابنة سياسة تتسم بالتقدم الحذر، وكان ذلك ما تقتضيه إمبراطورية تتردى بشكل تدريجي، لكنها ماتزال محافظة على وضعها بشدة. وكان إبراهيم هو الذي أقنع

السلطان أحمد بإنشاء سفارات تركية لمعرفة أشكال التقدم التي وصلها الغرب. وكان هو الذي أسس أول فرقة عثمانية لمكافحة الحرائق، وهو الذي أصدر إذناً بإنشاء مطبعة رسمية لإنتاج الكتب في العلوم والجغرافيا. وجمع ضرائب جديدة، وأعاد رفد الخزينة الإمبراطورية بالمال، وحافظ على السّلم في معظم أنحاء الإمبراطورية. إلا أن الأهم من ذلك أن كبير الوزراء هذا احتفظ بالميزة التي كان يحتاجها لدفع برنامجه الإصلاحي قدماً، والتي تمثلت في إشباع عشق السلطان أحمد لأزهار الزنبق البديعة.

وصف السفير الفرنسي جان سوفنت دي فيلنيف إحدى حفلات المتعة الإمبراطورية التي أقيمت في حديقة الزنبق التي يمتلكها كبير الوزراء إبراهيم بقوله «بجانب كل رابع زهرة انتصب قنديل مساو في ارتفاعه لمستوى الزهرة، وعلى امتداد الأزقة علقت أقفاص مليئة بكافة أنواع الطيور. العرائش مزينة بكميات هائلة من زهور الزنبق الموضوعة في زجاجات، والمضاءة بعدد لا نهاية له من المصابيح الزجاجية ذات الألوان المختلفة. والمصابيح ذاتها معلقة أيضاً على الأغصان الخضراء للشجيرات التي نقلت خصيصاً إلى هذا

المكان من الغابات المجاورة ووضعت خلف العرائش من أجل هذا الاحتفال. كان لكل هذه الألوان المتنوعة، والأضواء التي انعكست بسبب المرايا التي لا حصر لها، أثر ساحر.

وأضاف فيلنيوف أن الأضواء استمرت تشع ليلياً على حساب إبراهيم، زوج ابنة السلطان «طالما ظلت الزنابق مزهرة».

واتخذ إبراهيم من تقارير سفرائه المثيرة للنشوة عن القصور الملكية الفرنسية في فونتنبلو وقصر لويس الخامس عشر فيمارلي دليلاً له، فبنى لنفسه (فيلا) على طراز شبه أوروبي، أنشئت على مضيق البوسفور لتطل على إسطنبول مباشرة. وعندما استضاف «الدامات» إبراهيم السلطان أحمد للترويح عنه في تلك الفيلا في ربيع (1721) أمر السلطان المأخوذ بالبهجة، على الفور، ببناء قصر إمبراطوري جديد له مجاور للفيلا وعلى الطراز ذاته. كان المكان الذي تم اختياره بقعة من الأرض يخترق مروجها جدولان يعرفان باسم «مياه أوروبا الحلوة» ويصبان في البحر. هناك بنى المهندسون قصراً فخماً للمتعة أُطلق عليه اسم «سعد آباد»، أي قصر السعادة، فيما لم يستغرق بناؤه غير ثلاثة أشهر هي

صيف عام (1722). وربما كانت المرة الأولى في الإمبراطورية العثمانية التي تنشأ فيها حدائق أقرب إلى الطراز الأوروبي الرسمي، حيث المسارات المشجّرة التي تؤدي إلى مساكب زنبق مربعة الشكل مصممة على ذات النسق. وتم تحويل جدولي «المياه الحلوة» ذاتهما إلى قناتين بضفاف رخامية تغذي الينابيع والشلالات التي تحف ببحيرة للزينة تتوسط المكان.

ظل الدامات إبراهيم في منصبه على امتداد العشرينيات من القرن الثامن عشر عن طريق توفير خبز رخيص السعر لشعب إسطنبول، وإغراق السلطان بالاحتفالات. بيد أن الحظ أفلت من يدي إبراهيم في نهاية الأمر، فالأحداث، بعيداً فيما وراء حدائق سعد أباد، كانت تمضي خارج سيطرته، فهناك الضرائب المدمرة والضرورية لتمويل ليس فقط مظاهر الترف في البلاط، بل أيضاً لتمويل حرب ضد الفرس اندلعت في مطالع الثلاثينيات من القرن الثامن عشر. وإذ ترافق ذلك مع مجاعة، فقد تضافرت جميع تلك العوامل لتثير الاضطرابات في المقاطعات الإمبراطورية. والأسوأ من ذلك أن الجيوش العثمانية سرعان ما ارتدت على أعقابها في حالة من

الفوضى على الحدود الشرقية، واستعاد الفرس، الذين يمقتهم العثمانيون، مساحات من الأراضي الصغيرة كان الأتراك قد سلبوها منهم في وقت سابق من ذلك القرن.

وعندما بلغت أنباء هذه الهزائم الإمبراطورية إسطنبول كانت غمغمات السخط السائدة في الأسواق قد تحولت إلى مطالبات صريحة بالتغيير.

ولم يكن بمستطاع حتى كبير الوزراء أن يحول دون وصول تلك الأنباء إلى السلطان ، وما كان حتى بمقدور السلطان أحمد الثالث أن يتجاهلها. وفي الوقت الذي كانت فيه جماهير إسطنبول، بقيادة تاجرة ألبانيّة للملابس المستعملة تدعى باترونا هليل، تتدافع نحو قصر توبكابي في خريف عام 1730 مطالبة بأصوات مجلجلة بأكباش فداء، أدرك السلطان أحمد أن حكمه قد أصبح في خطر شديد ينذر بأن ينهي حكمه قبل الأوان. كما أدرك أنه إذا ما أخفق في إرضاء الجماهير، فإن حياته قد تسير نحو نهايتها. وفي ظل أزمة مفاجئة كهذه لم يكن لدى السلطان غير أن يتصرف بطريقة نفعية. فأمر فيلقه من البساتنة، منفذي أحكام الإعدام، بتسليمه رأسي الدامات إبراهيم ومصطفى

باشا، الوزيرين الأكثر ارتباطاً بالسياسات غير الشعبية المتمثلة بالغربنة والإصلاح.

كانت تلك بداية النهاية لكل من السلطان أحمد ولحقبة الزنبق على حد سواء. وعُثر على كبير الوزراء في محل إقامته الرسمية مشنوقاً ومقطوع الرأس. ثم مضى البساتنة إلى مكان إقامة الوزير مصطفى في فيلّته المطلة على مسطح مائي قرب قصر سعد أباد. هناك وجدوا كبير أمراء البحر ينقل غراس الزنبق إلى حديقته بسعادة غامرة دون أن يعلم شيئاً عن الأزمة السياسية المفاجئة في العاصمة. ربما توقف البساتنة الذين جاؤوا لقتل الباشا للحظة، فيما كان ضحيتهم يعد نفسه للموت، وهم يلقون بنظرة محترفة على الأصناف الأربعة والأربعين من الزنبق التي ابتكرها الباشا مصطفى. ولو أنهم فعلوا ذلك، فمن المؤكد أنهم ما كانوا قادرين على معرفة أن زمن الزنبق قد أوشك على الأفول، في وقت كان وتر القوس الحريري محكماً حول عنق كبير أمراء البحر، لتبدأ رحلته من حديقة جنته إلى حدائق الجنة.

وكانت المحصلة أن السلطان أحمد لم ينجز إلا أقل القليل، وتصرف متأخراً للغاية لإنقاذ عرشه. لم تستجب الجماهير

لنداء الانصراف، فأصبح موقف السلطان حرجاً. فلو كان الإمبراطور أكثر عزماً، وكرّس مهاراته للشؤون العسكرية أكثر من توظيفها في تنظيم احتفالات الزنبق، لربما كان ما يزال قادراً على لم شعث بعض القوات الموالية وأنقذ نفسه. بيد أن أحمد لم يكن لواءً في الجيش، وقد نجا من تضحية أقرب مستشاريه بيومين فقط. فحين حاصر المتمردون إسطنبول، وأفلتت السيطرة على العاصمة من قبضته، فقد أُقنع السلطان بأن الفرصة الوحيدة الباقية أمامه لينجو برقبته من حبل المشنقة هي التنازل عن العرش.

أُطلق أبن أخيه ، محمود ، من القفص ونُصّب على العرش خلفاً للسلطان أحمد. وكان صعوده إلى سدة الحكم نقطة تحول للإمبراطورية والزنبق على حد سواء. فعلى الرغم من أن محمود تعامل بما يكفي من القسوة مع المتمردين الذين أطاحوا بعمه وانتشروا بشراسة في إسطنبول يحرقون أكشاك الزنبق الخشبية التي كانت رمزاً لحكم السلطان أحمد، فإن الاهتمامات الحقيقية للسلطان محمود كانت في جوانب أخرى. فقد كان متلصصاً حاد البصر لم يحب شيئاً مثلما أحب الاختباء خلف نافذة مصبّعة ذات قضبان في جناح

الحريم، والتلصص على نساء القصر. وذات مناسبة، ذهب السلطان إلى ما هو أبعد من ذلك حين طلب بصورة سرية إزالة غرزات الملابس الفضفاضة التي ترتديها النساء في أثناء استحمامهن وإلصاق تلك العباءات بالصمغ لعلمه أن الصمغ سوف ينصهر بسبب حرارة غرفة البخار، فتتعرى كل امرأة منهن ويمتّع هو نظره بالفرجة عليهن.

إمبراطور كهذا لم يمنح قط زهرة زنبق واحدة الاحترام المفرط الذي حظيت به في زمن السلطان أحمد الثالث. ومع أن عدداً من الاحتفالات كانت تنظّم في كل ربيع، إلا أنها كانت أكثر تواضعاً بكثير مما كانت عليه في «حقبة الزنبق». ويؤرخ الانهيار الثاني للزنبق في تركيا ببداية عهد السلطان محمود الأول.

واكتملت الحلقة في النهاية بأن اختفت تدريجياً الأبهة الهائلة برمتها لزنبق إسطنبول، وبأنواعه التي تربو على (1300) صنف، من حدائق الإمبراطورية ومن ذاكرة الرجال. واليوم لم يبق على قيد الحياة حتى صنف واحد.

ثم ماذا عن مصير السلطان الذي تزعم الإزهار المتأخر للزنبق؟ لقد سمح له بالعيش ولكن فقط بطريقة معينة. فأعيد

أحمد، ملك الزنبق، إلى قفصه ليتأمل مرة أخرى بساتين التين العثمانية، وليقضي لياليه حالماً بزنابق ذات بتلات شبيهة بشكل الخنجر، تستحم في ضوء البدر، وترخي ظلالاً مدببة كرؤوس الإبر حول الحدائق السرية «لمقام النعيم».

الفصل السادس عشر

إزهار متأخر

تلك كانت نهاية ولع الزنبق. فعندما أُغلق باب القفص العثماني لآخر مرّة على أحمد الثالث، بدأت زهرة الزنبق تغيب عن كتب التاريخ. لقد مضت سنواتها الأعظم، ولن تقوى ثانية على أسر ملك، أو استعباد نصف أمة بوعد المال اليسير. وفي الوقت المناسب تساءل الناس كيف أمكن لولع على هذه الشاكلة أن يحدث بأي حال من الأحوال.

لكن حتى وإن لم يعد الزنبق يمثل ولعاً شعبياً، فقد ظل مهوى الأفئدة، إذ إن انهيار تجارة الزنبق لم يشكل نهاية لكل اهتمام بزهور الزنبق حتى مع تردي أسعاره بصورة مطرّدة رداً على الغلوّ الذي تمادى فيه الهولنديون والأتراك. وعلى النقيض من ذلك ظل مُلاك الزنبق يطلبون مبالغ كبيرة نظير تلك القلة القليلة من أصناف الزنبق النادرة ذات المكانة الرفيعة.

ولم تستغرق تجارة الزنبق الهولندي غير عام أو عامين لتستعيد شيئاً من التوازن. صحيح أن المضاربين قد مضوا،

لكن كان سوق الزهرة ما يزال قائماً. وكان المشترون هم جامعو الزنبق أنفسهم الذين ظلوا بعيدين عن تجارة الزنبق في الحانات، وظلوا يقدرون قيمة الزنبق لأسباب جمالية محضة.

وحتى في صيف عام 1637، وخلال فترة تقل عن ستة أشهر بعد انهيار الأسعار، دفع خبير أزهار من هارلم يدعى إيرت هوييبرتز (850) جيلدرا ثمناً لبصلة واحدة من أزهار الروزن من صنف ماناسيير.

وكان جاك بيرتينس، الذي با ع البصلة لهوييبرتز، قد دفع قبل ذلك (710) جيلدرات ثمناً لتلك البصلة، وبذلك حقق ربحاً مقداره (140) جيلدراً، أو ما يعادل قرابة أجور ستة أشهر لحرفي محلي.

وفي السنوات التي تلت الولع بالزنبق اتبع خبراء الزنبق تقليعة تتمثل في تربية عينات منفردة من أصناف الزنبق المختلفة بقدر ما يستطيعون. وكان معنى ذلك أنه ما يزال آنذاك طلب محدود في الأقل على الكثير من أشد أصناف الزنبق جاذبية. وبدوره أسهم سوء السمعة الذي أحدثه الولع أيضاً في الزيادة على الطلب. كانت أوروبا كلها قد سمعت

آنذاك عن الزنبق، ورغب الكثيرون في أن يروا بعيونهم تلك الزهرة التي أثارت كل هذه العواطف. وهكذا أصبح بمقدور الزهارين الهولنديين أن يعوضوا عن كارثتهم المحلية بتطوير تجارة تصدير. وقد استطاع عدد لا بأس به منهم أن يحرزوا نجاحاً معتبراً. والحقيقة أن السيطرة التي ماتزال هولندا تتمتع بها في ميدان تجارة الزهور الدولية إنما ترجع في تاريخها إلى النصف الأول من القرن السابع عشر.

وقد مثّلت تلك التجارة المطردة قيمة تفوق التقدير بالنسبة للزهارين الذين خسروا بالتأكيد قسماً مهماً من زبائنهم بسبب ولع الزنبق. ويبدو من خلال إشارات متناثرة أن مربي الزنبق قد بذلوا ما بوسعهم للتقليل ما أمكن من عرض أكثر أصناف الزنبق مرغوبية. فكانت تلك حيلتهم في المحافظة على مستوى معقول للأسعار لسنوات قادمة مقاومين بحكمة بعيدة النظر إغراء إنتاج المزيد من الزنبق والمقامرة بإغراق السوق المحدودة التي بقيت متاحة لهم.

ولم يتبق من بيانات تتصل بأسعار الزنبق خلال السنوات التي أعقبت عام 1637 غير القليل نسبياً.

وقد أشار بيتر ماندي، الذي تنقل في الأقاليم المتحدة جميعاً في عام 1640، إلى أنه ماتزال تدفع «أسعار لا يمكن تصديقها» لقاء ما سماه «جذور الزنبق» من دون أن يقدم أمثلة على ذلك. بيد أن المبالغ التي يمكن لتاجر غني بشكل معقول مثل ماندي أن يعتبرها «غير قابلة للتصديق» كانت أقل بكثير من تلك التي كانت تُدفع فيما بين عامي 1636 و1637. فزنبقة «أدميرال فان ديرإيجيك» التي كانت تباع بمعدل يصل إلى (1345) جيلدراً تقريباً للبصلة الواحدة في بلدة ألكمار تدهور سعرها إلى (220) جيلدراً فقط. وعندما بيعت ممتلكات مرب آخر للزنبق في عام 1643 في مزاد، كانت زهرة روتجان التي تساوي (805) جيلدرات قد بيعت بـ 138 جيلدراً فقط.

ودون أن تتسنى لنا معرفة الأوزان الدقيقة للأبصال المعنيّة، يستحيل القول بصورة مؤكدة أن الأسعار السابقة واللاحقة قابلة للمقارنة حقاً. ولكن يتضح من الحالتين المذكورتين أن الأسعار قد تردت إلى مستوى السُدس عما كانت عليه في ذروة الولع، إذا ما اعتمدنا المعدل السنوي لانخفاض القوة الشرائية بما نسبته (35) بالمائة.

فإذا كان الهبوط في أسعار الزنابق النادرة حاداً إلى هذه الدرجة، فيمكن للمرء إذاً أن يتوقع أن أسعار الأبصال الأرخص قد شهدت تردياً أسوأ إلى حد بعيد.

لقد ارتفعت أسعارها في وقت متأخر، وقد حدث ذلك فقط عندما بدا أن مخزون الأبصال الأكثر مرغوبية قد نفد. كانت تلك الأبصال الرخيصة ذات جودة عادية وكئيبة للغاية، ولذا لم تكن تلقى هوى في نفوس خبراء الزنبق.

ففي شهر كانون الثاني من عام 1637 كان نصف رطل من زهرة «التيجان البيضاء»، ذات اللون الواحد، يُباع بـ (64) جيلدراً، ثم صعد هذا الصنف إلى ارتفاعات تصيب بالدوار وصلت إلى (1668) جيلدراً في بلدة ألكمار، لكن السعر هوى إلى ما لا يزيد على (37ر5) جيلدراً بعد خمس سنوات. وإذ وصلت إلى ذلك المستوى من الانخفاض، فإن ذلك يعني أن القوة الشرائية للعملة انخفضت إلى معدل يصل إلى 76٪ في السنة.

على أن مستويات الأسعار هذه لم تكن كافية للاحتفاظ بكل من اشتغل بتربية الزنبق، ففي السنوات التي أعقبت الولع انكمشت صناعة الزنبق التي كانت حديثة العهد آنذاك،

وهجرها، أو أُرغم على هجرها، معظم المربين الأغرار الجُدد الذين جذبهم احتمال جني أرباح طائلة. وتراجع إنتاج أصناف جديدة بصورة حرفية تماماً في الأراضي الرملية الصالحة لزراعته حول مدينة هارلم. والحقيقة أن تلك المدينة كانت قد حققت سيطرة على تجارة الأبصال في تلك الفترة بشكل لم تتمتع به من قبل قط في أوقات الرخاء، عندما كان الجميع يزرعون الزنبق. وفي عهد السلطان أحمد الثالث كانت مزارع هارلم تشحن عشرات الآلاف من الأبصال إلى البلاط العثماني في إسطنبول. وأصبحت المدينة وثيقة الارتباط بأبهى أصناف الزنبق حتى أن تلك القلة القليلة من الزهارين الذين اتخذوا مقرات لهم بعيداً عن المدينة كانوا يصفون عنوانهم بأنه «في جوار هارلم» لدى إرسالهم مصنفات الزنبق وقوائم أسعاره. وكانوا يعرفون أن منتجهم سيصنّف على أنه زنبق من الدرجة الثانية إن لم يكن مرتبطاً بمدينة هارلم.

بيد أن التجارة بعد الولع قد غدت أكثر رشداً، فالأزهار التي لم تكن تتمتع بأسعار عالية كانت تُحمل إلى أماكن إقامة المزادات، التي استمر تنظيمها في هارلم حتى نهاية القرن

السابع عشر.

كانت الزنابق التي تباع في هذه المزادات من الأنواع الجديدة التي تم تطويرها منذ وقت قريب، وماتزال نادرة بما يكفي لتجني سعراً استثنائياً. وبعد سنوات قليلة تفقد تلك الأزهار الجديدة بريقها فيبحث خبراء الزنبق عن أصناف جديدة أخرى. وحينذاك تغدو الأبصال التي كانت ذات يوم هي الصنف الدارج أبصالاً عادية نسبياً، فيشرع مربو الزنبق ببيعها للباعة المتجولين أو بيعها عن طريق الطلب بالبريد بوساطة المصنفات التي تكون فيها الأسعار أكثر تواضعاً.

ويبدو من بعض ما تبقى من قوائم أسعار لمشتريات أبصال بكميات كبيرة تعود إلى واحد من عشاق الزنبق الألمان يدعى تشارلز، الذي كان حاكماً عسكرياً لمنطقة بادن–دورلاخ، أنه في حوالي عام 1712 كانت الأبصال التي تسوقها تلك المصنفات لا تكلف في المعدل أكثر من جيلدر واحد للبصلة الواحدة، مع أن أصنافاً قليلة قد تباع بعشرة أو عشرين أو حتى بأربعين جيلدر للبصلة الواحدة. على أن عدد أنواع الزنبق وعدد الأبصال التي توافرت في القرن الثامن عشر كانت أيضاً أكبر بكثير. وتبين قائمة أسعار خاصة بمجموعة

الزنبق التي كانت في حوزة الحاكم العسكري أنه في عام 1736 لم يكن يمتلك 4796 نوعاً من الزنبق فحسب، بل كانت لديه أيضاً كمية من الأبصال بلغ عددها (80ر000) بصلة من نوع واحد.

ولم يحدث تغير كبير في أذواق الناس، فالأزهار التي كانت بحوزة الحاكم العسكري كانت معروفة بتحدرها من سلالة الزنابق التي كانت تزرع في سنوات الولع، كما ظل الفيروس الفسيفسائي سراً مجهولاً، فيما بقيت الزنابق ذات الشعلات الملونة البراقة تحظى بشعبية عالية. والحقيقة أن رغبات الناس المتصلة بأكثر الأصناف مرغوبية في تلك الآونة كانت معروفة تماماً لأي تاجر زنبق في الثلاثينيات من القرن السابع عشر. وقد لاحظ هنريك فان أوستنج في كتابه البستاني الهولندي أن الزنبقة المثالية ينبغي أن تكون ذات «بتلات مستديرة عند القمة، وينبغي ألاّ تكون جعداء ... أما فيما يتعلق بالشعلات فيجب أن تبدأ من منطقة منخفضة، مبتدئة من قاعدة الزهرة صاعدة إلى البتلة، وتنتهي على شكل صدفة عند حافة الزهرة ... أما لون القاعدة فيجب أن يكون من أبهى درجات الأزرق السماوي، فيما ينبغي

أن تكون السداة ذات لون أزرق قاتم». وفي كتابه الموسوم بـ الزهار الهولندي، والذي تُرجم إلى اللغة الانجليزية في عام 1763، أضاف نيكولاس فان كامبن أن «الخصائص المطلوبة لزنبقة بديعة» تتمثل في جذع طويل، وكأس متناسقة بصورة ملائمة، وألوان حيوية، ومن الأفضل أن تكون قائمة على خلفية بيضاء».

وحتى ضمن هذه المواصفات، لم تأمل نبتة، ولا حتى زهرة الزنبق أن تبقى دارجة إلى الأبد. فالأذواق تتغير، وأزهار أخرى تتوافر على جماليات مختلفة. ومع أن الفرنسيين في القرن الثامن عشر، والإنجليز في القرن التاسع عشر ظلوا على عشقهم للزنبق، فإن هذه الزهرة غالباً ما أنزلت إلى المرتبة الثانية عندما كانت أنواع أخرى من الزهور تلقى رواجاً أكبر لأمد قصير، وكانت، بين الفينة والأخرى، تحدث بذاتها نوبات محدودة من الهوس[1].

---

(1) حتى أكثر الأشياء انتشاراً وعمومية يمكن أن تصبح نادرة ومكلفة في ظروف معينة. ففي خلال الحرب العالمية الثانية عندما احتلت الإمدادات العسكرية الأولوية بصورة طبيعية، كان يتعين على الجنود الأمريكيين أن يجوبوا أطراف البلاد ليحصلوا على زجاجات الكوكاكولا. وذات مرة، تم بيع زجاجة واحدة من هذا المشروب، التي لا تتجاوز قيمتها خمسة سنتات، في مزاد على الجبهة الإيطالية بأربعة آلاف دولار.

ولعل أكثر الأمور إثارة في نشاطات من هذا النوع ما حدث في تجارة زهرة المكحّلة التي كانت تنمو في الأقاليم المتحدة في الثلث الأول من القرن الثامن عشر.

لقد جيء بهذه الزهرة إلى أوروبا الغربية من الإمبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر، شأنها في ذلك شأن زهرة الزنبق. عرفها كلوسيوس ووزع أبصالها، وكانت تزرع في هولندا على نطاق محدود لعدة عقود من دون أن تثير أية لهفة لدى عشاق الزهور. ثم تدخلت الصدفة. فعلى مدى سنوات كان مربو الزهور الذين يحاولون ابتكار أصناف جديدة قد أنتجوا بمحض الصدفة عدداً قليلاً من زهور المكحّلة ذات البتلات المضاعفة، والتي تتمتع بضعفي العدد المعروف من البتلات. ولما كانت هذه النباتات غير منتجة للبذور فقد جرت العادة أن يتم تدميرها. ولقد احتلت زهور المكحلة في محلات الزهارين مرتبة دون الزنبق والقرنفل. إلاّ أنه في عام 1684 مرض مزارع أبصال من مدينة هارلم يدعى بيتر فورهيلم ولم يستطع العناية بحديقته لفترة من الزمن. وعندما تماثل للشفاء ومضى إلى حديقته بغية اقتلاع بعض أزهار المكحلة المضاعفة بهدف التخلص منها، اكتشف أن مكحلة مضاعفة

ذات بهاء خاص قد أينعت، وأن بعض زبائنه يريدون شراءها. ليس هذا وحسب، بل إنهم كانوا راغبين في دفع ثمن لهذه الزهرة الجديدة يفوق ثمن زهرة المكحلة الفردية.

واستمر فورهيلم في زراعة النوع الجديد، وإذ أخذ الطلب يزداد شيئاً فشيئاً أنتج فورهيلم مزيداً من زهرة الحدقيّة ذات البتلات المضاعفة. وحذا حذوه زارعون آخرون حتى أنه بحلول عام 1720 كانت الحدقيّة قد غدت هي الزهرة الدارجة، وبزّت شعبيتها شعبية زهرة الزنبق تماماً.

واتسم الهوس الذي برز آنذاك بسمات قوية الشبه بولع الزنبق، بل إن هذا الولع اتخذ مساره الطبيعي لما يقرب من قرن بعد أن كانت أزهار الزنبق هي الصنف الدارج. وقد بدأ ذلك الولع بطيئاً، ولم يبلغ ذروته إلاّ في عام 1736، أي بعد نصف قرن منذ أول مرة زرع فيها فورهيلم زهرة المكحلة ذات البتلات المضاعفة. وفي وقت مبكر نسبياً وصلت أسعار الأبصال الأحادية لأثمن الأصناف ثلاثين أو أربعين جيلدراً. وقبل أن تأخذ الزهرة الجديدة مسارها الطبيعي كانت بصلة واحدة من أبصال سمبر أوغسطس في سنوات الحدقيّة، من صنف كوننج فان جروت بريتاني، التي سميت بهذا الاسم

تيمناً ب ويليام من أورانج، تباع بألف جيلدر.

حظيت أزهار الحدقيّة المضاعفة بشعبية واسعة للأسباب ذاتها بالضبط التي بفضلها أسرت زهرة الزنبق الخيال. وعلى ذات الشاكلة احتاجت الحدقيّة المضاعفة إلى وقت طويل يمتد خمسة أعوام كي تزهر، ما يعني أن أزهار الحدقيّة الشعبية الجديدة ظلت أصنافاً نادرة لفترة من الزمن. كانت الأصناف الجديدة متعددة التنوع إلى حد كبير، تشف عن توليفات لا حد لها من الألوان، كما كانت ذات جمال أخاذ إلى درجة أن أحد المتعاملين، ويدعى إيجبيرت فان دير فايرت، لم يكفّ عن التباهي بالقول لو أن زيوس[1] قد علم بتلك الزهرة الأحدث التي حصل عليها لاتخذ شكل الحدقيّة بدلاً من شكل الإوزة حينما نزل من جبل الأوليمب ليُغوي ليدا.

إذاً، لقد بدأت أسعار بصلة الحدقيّة بالارتفاع خلال عشرينيات القرن الثامن عشر، وكان ذلك أمراً غريباً بمعنى ما، إذ إن زراعة الأبصال قد أصبحت في القرن الثامن عشر عملاً مهنياً أكبر مما كان عليه الحال قبل قرن سلف. وسرعان ما تدفقت الأصناف الجديدة، من الحدقيّة المضاعفة على

---

(1) زيوس (Zeus)

السوق حتى أن مجموع الأصناف التي كانت قد أُنتجت آنذاك بلغ ألفي صنف في نهاية المطاف.

ولربما أدى ذلك إلى إشباع الطلب عليها ما حال دون تطور الوضع إلى هوس حقيقي. على أن مربي الزنبق في مدينة هارلم أيضاً كانوا قد راكموا فهماً أفضل لتجارتهم وعرفوا أنه بمقدورهم أن يزيدوا من أرباحهم عن طريق تقليص عرض أكثر الأبصال مرغوبية.

وما أن حل عام 1730 حتى كانت أسعار الحدقيّة قد بلغت مستويات عالية، ما أشاع البهجة في نفوس الزهارين. وحافظت حدائق الأبصال التي أنشأها فورهيلم، والتي تولى رعايتها من بعده حفيده يوريس، على مركز الصدارة في تلك التجارة، بيد أن زارعين آخرين من مدينة هارلم قد جنوا بدورهم ثروات من الإتجار بالحدقيّة. وبلغت الأسعار ذروتها في الفترة ما بين عامي 1733 و1736 قبل أن تهوي في عام 1737. وكان السبب وراء ذلك التردي هو السبب ذاته الذي أدى إلى انهيار أسعار الزنبق في عام 1637. فقد بلغت الأسعار مستويات عالية إلى درجة أن أكثر الأبصال مرغوبية لم تعد تقريباً في المتناول، كما ارتفعت أسعار الأصناف الأقل

مرغوبية إلى مستوى بحيث فاقت تكلفتها قيمتها آنذاك إلى حد كبير بالنسبة لأي عاشق حقيقي للزنبق.

ويتضح من مصنفات الزنبق التي نشرت بعد عامين من ذروة الولع أن الحدقيّة مضاعفة القيّمة مثل زهرة «ستاتن جنرال» التي كانت تباع بـ (210) جيلدرات، أصبحت تساوي ما لا يزيد على عشرين جيلدراً. أما سعر زهرة الميروار فقد هوى من (141) جيلدراً للبصلة الواحدة إلى عشرة جيلدرات، كما هبط سعر زهرة رد جراناتس من (66) جيلدراً إلى ستة عشر، وانحدرت قيمة جيكرونت سالومون جويل من (80) جيلدراً إلى ثلاثة جيلدرات فقط.

ويمكن أن يُستدل من هذه الأرقام على أن الأسعار التي تم الحصول عليها خلال فترة الولع بالحدقيّة كانت أقل حجماً من حجم الأسعار التي سادت إبان حقبة ولع الزنبق. فزهرة الحدقيّة من صنف ستاتن جنرال كانت تباع بما يقرب من مائتي جيلدر، فيما بيعت الزنبقة من نوع أدميرال فان دير إيجيك بحوالي ألفي جيلدر. أما أعلى سعر سجلته زهرة الحدقيّة المضاعفة والبالغ 1600 جيلدر للبصلة الواحدة، فقد كان في أفضل الأحوال يعادل ثلث قيمة الزنابق الأكثر

مرغوبية قبل قرن من الزمان.

علاوة على ذلك، يبدو أن المضاربين الأفراد كانوا أكثر حذراً من أسلافهم. وكان أحد أساليب التجديد المهمة التي استُخدمت خلال فترة الولع بالحدقيّة يتمثل في شراء أسهم في الأبصال ذات القيمة العالية، ويبدو أن ممارسة على هذه الشاكلة لم تحدث في حقبة ولع الزنبق. ولابد أن عملاً كهذا كان ينطوي على إحباط، إذ كان يتعين على المساهمين أن ينتظروا سنة أو يزيد لكي تنتج زهرتهم فسائل قبل أن يتوقعوا الحصول على بصلة واحدة لصالحهم. على أن تلك الممارسة كانت في أقل تقدير وسيلة رخيصة لشراء كميات وافرة من زهور الحدقيّة. وتذكر إحدى القصائد الهولندية الطويلة، وتدعى «فلورا بلوموارانديٍ» التي وصفت التجارة الجديدة اسم زهار يدعى جان بولت الذي باع نصف سهم في واحدة من أبصاله لزبون متردد بخسارة لا تزيد على ما نسبته (10٪) من القيمة الأصلية.

كانت هناك جملة من الأسباب التي يعزى إليها عدم وصول حجم ظاهرة الولع بالحدقيّة إلى ذات الحجم الذي بلغته ظاهرة ولع الزنبق. وأول هذه الأسباب أن زهور

الحدقيّة أكثر مشقة في الزراعة من الزهور الجبلية القاسية كأزهار الزنبق، ما ترتب عليه قلة في عدد عشاق الحدائق الراغبين في شراء الحدقيّة. وكان هذا بدوره يعني أن الطلب على الحدقيّة بقي عند مستوى أدنى من ذلك المستوى الذي ساد خلال سنوات الولع بالزنبق. واجتذبت الحدقيّة اهتماماً أقل من ذلك الذي حظيت به زهرة الزنبق ما أبقى عدد المضاربين في تجارة الحدقيّة عند الحد الأدنى. بيد أن أهم الأسباب جميعاً أنه لا تتوافر غير أدلة ضعيفة على إمكانية تحقيق أي مستقبل للإتجار بأزهار الحدقيّة ، ولا توجد غير إشارة أو اثنتين لأبصال اشتُريت ثم بيعت لأطراف أخرى، ولا شيء غير ذلك.

ومع ذلك، يبدو في الأقل أن فئة محدودة من المتحمسين من أصحاب الأعمال الخاصة في مدينتي هارلم ولاهاي قد تورطت في هوس الحدقيّة بما يكفي لتحاول زراعة تلك الأبصال بنفسها بغية تحقيق أرباح. وفي ذروة الولع بالحدقيّة قوبلت تلك الزهرة برفض واسع النطاق. ومن الواضح أن ذكريات ولع الزنبق بقيت حاضرة في الأذهان. فقد قام ناشر مغامر بإعادة طبع الحوارات الثلاثة وصدّرها بتمهيد

يتضمن تعليقاً مؤداه أن المضاربين في يومنا هذا جشعون بنفس الدرجة التي كان عليها أسلافهم، وقد احتيل عليهم بنفس الخدع السقيمة التي جرّتها عليهم فلورا، تلك العاهرة الماكرة العجوز. وأصدر ناشرون آخرون كراسات جديدة تحذر من أشكال المغالاة في تجارة الحدقيّة. وإذ ظلت الدروس المروعة لولع الزنبق ماثلة في كل ذهن، فإنه يمكن القول أن أبرز ما يتصل بظاهرة الولع الجديد هو أنها حدثت بحال من الأحوال.

ويمكن أن تُروى قصة الزنبق لزماننا هذا بكلمات قليلة للغاية. فقد استمرت تجارة الزنبق تحت هيمنة وتطوير مربي الزنبق الهولنديين. والحقيقة أنه على امتداد معظم القرن الثامن عشر هيمنت زمرة واحدة مكونة من دزينة من زهاري مدينة هارلم بطريقة مؤثرة على التجارة بكافة نواحيها.

وحتى عندما انكسر احتكار هؤلاء القلة خلال حروب نابليون، ظل المزارعون الهولنديون محتفظين بسمعة لا تُضاهى. وفيما كان يزداد عدد الناس المتخذين من البستنة كهواية، ويشتد الطلب العالمي على الأزهار بأنواعها كافة، اتسعت بالمقابل المساحة المحيطة بمدينة هارلم، والمخصصة

لزراعة الأبصال. وظهرت أولى المزارع في بلو مندال وأوفرفين الواقعتين غرب هارلم بالضبط، كما امتدت الزراعة جنوباً باتجاه هيليجوم وليسي على أرض توافرت نتيجة تجفيف مستنقعات هارلم في منتصف القرن التاسع عشر. وفي تلك الفترة تقريباً اتسعت أيضاً مساحات مزارع الأبصال الفردية، لتخلق بذلك أولى حقول الزنبق الهائلة التي أصبحت واحدة من أكثر الصور الشعبية استخداماً في البطاقات البريدية عن هولندا. بعد ذلك انتقل قسم من تجارة الزنبق من المدينة بكاملها نتيجة تخصيص جميع الأراضي الخصبة حول مدينة هارلم لزراعة الزنبق. واليوم تنتج المزارع القائمة في شمال هولندا من الزنبق أكثر مما تنتج هارلم.

علاوة على ذلك، فقد حدثت تغييرات أساسية أخرى، إذ أصبح مربو الأبصال يتقنون الأساليب اللازمة لإنتاج زنبق على مدى السنة. فعن طريق حفظ الأبصال في درجات حرارة منخفضة، وفي حالة من الحيوية المعلقة، غدا بالإمكان التحكم بإزهارها حسب الرغبة. وانتهى زمن الانتظار الطويل لدورة الزنبق القادمة التي ظلت تصيب عشاق الزنبق لعدد من القرون، كما زال معه الشرط المسبق الوحيد الأكثر

ضرورة لحدوث ولع بالزنبق.

على أن الأهم من ذلك كله أن زهرة الزنبق ذاتها قد تغيرت. فبعد مرور مائتين وخمسين سنة على خمود الولع، أدخل المزارعون الهولنديون أصنافاً عديدة مختلفةً إلى حد بعيد إلى الحدائق، بدءاً من الزنبقة الببغاء، ذات الأوراق المثنية، والبتلات الكبيرة ذات الرؤوس الشبيهة بالمناقير، إلى الزنابق المضاعفة ذات البتلات الإضافية المكملة، إلى زنابق داروين التي هي عبارة عن زنابق عملاقة مهجنة تم إنتاجها لأول مرة في القرن التاسع عشر. ومن ناحية أخرى لم يعد هناك وجود للزنابق المنقسمة التي حققت شهرة كتلك ذات يوم. أما أصناف الزنبق الأصلية التي أضعفها الفيروس الفسيفسائي، بما فيها أصناف مثل نائب الملك وسمبر أغسطس فقد قدر لها في أية حال أن تنتعش لفترة قصيرة فحسب: وحتى تلك الأصناف التي خلفتها كانت قد انتهت منذ أمد بعيد حينذاك.

ولم تكن الزنابق ذات الشعلات والشذرات المتوافرة آنذاك لدى البستانيين سوى تقليد لزنابق أُنتجت عن طريق التهجين.

وترى صناعة الزنبق أن نجاحها في القضاء على الفيروس الفسيفسائي واحداً من إنجازاتها التي تفتخر بها أكثر من أي إنجاز آخر. ومعها الحق في ذلك، إذ إن هذا الإنجاز الذي حققه الزهارون يعادل الإنجاز الذي تمثل في القضاء على مرض الجدري. إلاّ إنه يصعب إنكار أن خسارة ما وقعت في خضم كسب هذه الحرب. فقد انتهى ذلك التنوع الذي لا نهاية له والذي كانت توفره الزنبقة المنقسمة، ومضى معه كثير من قدرة الزهرة على الإدهاش والسحر.

وفي زماننا هذا لا تقدم تجارة الزنبق تنوعاً بل تعرض أنواعاً تشكل سلسلة هائلة من أزهار الزنبق المختلفة التي تتنامى بصورة مستمرة. كان عاشق الزنبق في زمن كلوسيوس لا يتمتع إلاّ بعدد ضئيل من أصناف الزنبق، أما الآن فقد تم إنتاج ستة آلاف نوع من أنواع الزنبق، ووصفها وتصنيفها.

ومن المؤكد أن هذه السلسلة المذهلة من الخيارات مثيرة للإعجاب بحد ذاتها، بيد أنها بلا جدال تقلل من أهمية الأزهار الفردية. فالميل الحديث لزنبق متماثل وذي لون واحد يملأ أراضٍ فسيحة سيذهل بالتأكيد خبير الزنبق الذي عاش في القرن السابع عشر ويُعدّ ذلك ذوقاً سوقياً نوعاً ما،

وبخاصة عندما يرى أزهاره المثلى مزروعة في مساكبها الصغيرة. ويقيناً فإنه لا أحد من البستانيين المحدثين يدرس أزهاره بتلك الكثافة التي درسها عاشق زنبق في زمن مضى، أو أنه يعرف كل واحدة منها معرفة جيدة.

أما فيما يتصل بولع الزنبق، فيمكن القول: حسناً، كان ذلك جرثومة لم تختفِ قط، إذ إنها كانت دائماً مرضاً بشرياً خالصاً يتغذى على العواطف الإنسانية المتممة مثل تذوق الجمال والجشع للمال، ومايزال هذا المرض يعود للانتشار بين حين وآخر. فعلى سبيل المثال حدث ولع بزهرة الأضاليا في فرنسا حوالي عام 1838. وكحال زهرة الزنبق قبل قرنين من الزمان كانت زهرة الأضاليا وافداً جديداً نسبياً على أوروبا أدخلت إلى القارة من المكسيك في عام 1790 تقريباً، وسرعان ما تلقفها البستانيون الذين استولدوا منها أصنافاً جديدة، وحظي الجمال الذي اتسمت به هذه الزهرة الجديدة المحسنة بإعجاب شديد. وقد اتخذت مثالاً لدحض اعتقاد لروسو مؤداه أنه إذا طالت يد الإنسان أي شيء فإنها تفسده.

فقد بيعت زهرة الأضاليا بأسعار باهظة لفترة وجيزة،

إذ يقال إن مسكبة واحدة من هذه الزهرة كانت تساوي سبعين ألف فرنك[1]، وأن زهرة أضاليا واحدة كانت تساوي قطعة من الماس الخالص. ثم تغيرت التقليعات وغابت زهرة الأضاليا عن كتب التاريخ مثلما غابت زهرة الزنبق. وفي عام 1912 جاء دور زهرة سيف الغراب الهولندية لتشهد ازدهاراً شديد الشبه بزهرة الأضاليا، ولكن لأمد قصير مثلها أيضاً.

وقد وقعت أحدث تجليات الجرثومة القديمة منذ أمد قريب عندما اندلع في عام 1985 هوس في الصين اقتفى تقريباً أثر نموذج هوس الزنبق تماماً. وفي هذه الحالة تركزت المضاربة على زهرة بصلية أخرى، هي النبتة التي تعرف باسم جون زي لان أو سوسنة العنكبوت الأحمر. في بداية نموها تكون هذه السوسنة صغيرة الحجم تتخذ أزهارها شكل قمع وتلتف مع بعضها بعضاً مثل خصلة من خيوط الصوف المتشابكة. وتنبثق سُداتها المحنيّة والطويلة بصورة هائلة بعيداً عن الأوراق لتضفي على النّبتة مظهراً فاتناً من الرقة. والموطن الأصيل للسوسنة العنكبوتية هو إفريقيا، لكن النبتة وصلت إلى الصين في الثلاثينيات من القرن العشرين

---

(1) أي ما يعادل قرابة (18,000) دولار في وقتنا الحاضر.

وتمت تربيتها على نطاق واسع في مدينة تشانغ تشون في منشوريا. وفي أول الأمر كانت زهرة أثيرة لدى الطبقات الحاكمة في المدينة، ولمدة من الزمن غدت علامة تميُز لأسرة من طبقة النبلاء أن تربي عدة أصناف مختلفة من زهرة «جون زي لان». بيد أن وصول الشيوعيين إلى سدة الحكم أنهى سوق الأبصال الصغير الذي نشأ عند نهاية الأربعينيات من القرن العشرين. على أن السوسنة العنكبوتية ظلت محتفظة بشعبيتها الواسعة، واختيرت في نهاية الأمر الزهرة الرسمية لمدينة تشانغ تشون. وأشارت تقديرات إلى أنه في عام 1980 كان نصف جميع الأسر في المدينة قد زرع تلك الزهرة.

على أن ولع السوسنة العنكبوتية قد بدأ بصورة جدية بعد سنوات قليلة فقط عندما سمحت الحكومة الصينية ببضعة إصلاحات اقتصادية متواضعة. وبعدها أصبح الوضع في مدينة تشانغ تشون مشابهاً تماماً للوضع الذي ساد في هولندا في الثلاثينيات من القرن السابع عشر. لقد تم تشجيع النشاط التجاري، ولكن في الوقت الذي توافرت رغبة واسعة في جني المال وطاقة وافرة للاقتراض، لم تكن هناك غير فرص محدودة للغاية لاستثمار أي فائض من النقد.

وفي ظروف كهذه، استغل مربو السوسنة العنكبوتية في المدينة الطلب المتنامي على أزهارهم من المناطق المجاورة. وإذ أخذت الأسعار في ارتفاع لا مفر منه[1]، بدأت المضاربة في

(1) سيكون من الخطأ النظر إلى ولع الزنبق الهولندي على أنه ظاهرة فريدة. ذلك أن طفرات مشابهة وفقاعات قد حدثت في جميع أنحاء العالم خلال الأربعمائة عام الماضية. ويعرف الاقتصاديون الطفرة بأنها ارتفاعات استثنائية سريعة في الأسعار، والفقاعات بأنها الحالة التي يفوق فيها سعر سلعة قيمتها الفعلية لأي شخص غير الشخص المضارب. وتتنوع أدوات المضاربة مما هو واضح كالأسهم والسندات والأرض والنفط إلى الأدوات غير الاعتيادية. ففي الأقاليم المتحدة ذاتها كانت هناك طفرة في الاستثمار في نظام النقل عبر القنال البحري الذي بدأ في عام 1630، والذي كان آنذاك تطويراً مفيداً وأصيلاً لنظام النقل، والذي أثري منه الكثيرون. وفي سبعينيات القرن السابع عشر حدثت فقاعة تتعلق بإنشاء ساعات عامة ضخمة.

إلا إنه من بين كل الفقاعات، فإن تلك التي تشبه ولع الزنبق إلى حد بعيد كانت طفرة أراضي فلوريدا في عام 1925. وكما هي حال الزنبق، كانت فلوريدا حالة غريبة، فقبل عام 1925 كان من الصعب الوصول إلى الولاية وكانت أرضاً سبخة وغير صحية. إلاّ أنها وبالتدريج أصبحت أكثر جاذبية وبعض الأمريكيين استثمروا في منازل العطلات في منطقة ميامي، وكان مرد ذلك إلى إنشاء طرق وسكك حديد جديدة وإلى تجفيف السبخات مع ضمانة الطقس الشتوي الجميل. فقراء الناس شدوا رحالهم إليها بحكم واقعهم ووكلاء العقارات المحليين سرعان ما استغلوا الطلب المتزايد على الملكية.

وبدأت القصص في التداول فيما يتصل بالأرباح المذهلة التي يمكن الحصول عليها عن طريق شراء الأراضي وبيعها في فلوريدا. فاشترى المحامي الشهير ويليام جينينجز برايات بيتاً شتوياً في ميامي في عام 1912 وباعه في عام 1920

بربح يصل إلى (250٫000) دولار. وبعد ذلك كانت قطع الأراضي التي تُشترى بـ (1200) دولار يعاد بيعها بعد بضعة أشهر بخمسة آلاف دولار. واشتريت قطعة بـ (2500) دولار وأعيد بيعها بـ (7800) دولار ثم بـ (10٫000) دولار، ولاحقاً ب (17٫000) دولار وأخيراً بـ (35٫000) دولار. وكان آخر من ابتاع القطعة هو الرجل ذاته الذي باعها أول مرة ب (2500) دولار، وعاش حياته نادماً على فعلته. وفي منطقة ستابر كريك كتال كان سعر الفدان من الأرض يساوي (15) دولاراً في عام 1913 وبيع بـ (75٫000) دولار. وفي آخر المطاف أصبحت قيمة الأرض في ميامي أعلى من ملكية الأرض في الجادة الخامسة في نيويورك. وكثير من تلك الأراضي بيعَ بنظام الوديعة الصغيرة عن طريق المضاربين الذين خططوا لإعادة بيعها قبل أن تستحق الأقساط اللاحقة.

تدفقت الأموال على الولاية ففي غضون سنة واحدة بدأت بخريف عام 1924، ارتفعت تصفيات البنوك في ميامي من (212٫000) دولار إلى ما يزيد على مليون دولار، وتضاعفت ثلاث مرات تحويلات الأراضي. وإحدى طبعات جريدة ميامي ديل نيوز الصادرة في صيف عام 1925، وصل عدد صفحاتها إلى (504) صفحات، كانت كلها تقريباً إعلانات عقارات، وكانت رقماً قياسياً في ذلك الزمان وقيل أنه كان هناك ألفا وكيل في ميامي وحدها يعمل لديهم و(25٫000) موظف مبيعات.

وقع الانهيار في الخريف كما تحدث الانهيارات في العادة. فالمضاربون أساؤوا إلى حد كبير تقدير الطلب الحقيقي على الأراضي. وكان عدد الزائرين للولاية في الشتاء لا يتجاوز عُشر التنبؤات. وبدأ الناس يتخلفون عن سداد قروضهم، وأحد الرجال الذين باعوا أرضاً مقابل (12) دولاراً للفدان وشاهد صفقات شراء متتالية مقابل (17) دولاراً و (30) دولاراً و(60) دولاراً للفدان قد أصيب بالرعب لدى اكتشافه أنهم جميعاً قد أخفقوا في دفع أكثر من تأمينهم الأولي تاركين الأرض تعود لملكيته. وتسببت الأزمة منذ صيف

هذه الزهرة بعد ذلك بصورة مباشرة.

كانت أبصال السوسنة العنكبوتية تباع في عام 1981 أو عام 1982 بمائة يوان، أي ما يقرب من (20) دولاراً. وكان ذلك مبلغاً كبيراً آنذاك إذا ما أخذنا بالحسبان الرواتب السنوية المنخفضة السائدة في الصين. أما في عام 1985 فقد ورد في التقارير أن الأبصال الأكثر مرغوبية قد بيعت بسعر فلكي وصل إلى (200ر000) يوان أو (500ر000) دولار على وجه التقريب، وهو مبلغ يصيب بالخجل حتى المبالغ التي دفعت في ذروة الولع بالزنبق الهولندي. وهكذا، وفيما بلغ سعر زهرة سمبر أغسطس في ذروتها ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف جيلدر للبصلة الواحدة، ما كان يمثّل أربعة أضعاف إلى ثمانية أضعاف دخل تاجر ثري، فقد كان أعلى الأسعار خلال ولع «جون زي لان» يعادل ما لا يقل عن

عام 1926 في عجز عدة مصارف في ولاية فلوريدا لأن قيمة التصفيات المالية هوت من بليون دولار في عام 1925 إلى (633) مليون دولار بعد سنة، وأخيراً وصلت إلى (143) مليون دولار في عام 1928. وفي السنوات الأخيرة آنذاك كتبت صحيفة «ذا نيشن» «ستكون ميامي المكان الأرخص في الولايات المتحدة للعيش فيها .... فإحدى أكثر المباني فخامة على الشاطيء، التي كان إيجارها الشهري يبلغ (250) دولاراً أصبحت تؤجر الآن ب (35) دولاراً فقط».

ثلاثمائة ضعف الأرباح السنوية لخريج جامعي صيني عادي. كان ذلك مبلغاً مذهلاً تماماً.

ولم يكن أمراً مثيراً للدهشة أن يكون عُمر الولع بالسوسنة العنكبوتية قصيراً حتى بمعايير ولع الزنبق. لقد انهارت الأسعار في صيف عام 1985، وعلى ما يبدو بسبب تدني الثقة بتجارة لم يشتد ساعدها بعد، إذ وصفت سلسلة من المقالات الصحفية النقدية أن المضاربة بالأبصال وصل إلى حد الهوس. وسرعان ما تدفق على سوق الأبصال كله متعاملون مذعورون مستميتون للبيع، فهبطت الأسعار هبوطاً حاداً. ومثلما تجاوزت الطفرة الصينية حتى أعلى الذرى التي بلغتها سنوات الولع بالزنبق، كذلك كان الانهيار الصيني أكثر شدة عند وقوعه. وما إن جاء أخيراً وقت شهد فيه سوق السوسنة العنكبوتية استقراراً، حتى انهارت الأسعار بما نسبته 99 بالمائة.

تقع مدينة تشانغ تشون شمال الصين، وبالضبط شمال الموازي الأربعين، ولا تبعد أكثر من ألفي ميل عن وديان تيان شان. لقد وصل فيروس الولع إلى موطنه الأصلي في نهاية المطاف.

هوامش

نظرة عامة

تتوافر معلومات كثيرة مدهشة عن تاريخ الزنبق، هذه الزهرة التي حظيت بشهرة واسعة للتقدير الكبير الذي نالته وللانتشار الواسع عندما كانت الكتابة عن تنظيم الحدائق في بداية أوجها. فإضافة إلى الكتابات الموجزة، مثل Sir Daniel Hall's, The Book of Tulip (London: Martin Hopkinson (1929)

ظهرت دراسات إقليمية رائعة، خاصة الدراسة التي كتبها ميشيل رودنغ وهانس ثيونيسين Michiel Roding and Hans Theunissen,s, The Tulip: A Symbol of Two Nations (Utrechot&Istanbul:Turko-Dutch Friendship Association, 1993)

وكتيب سام سيغل Tulips Portrayed:Tulip Trade in Holland in the Seventeenth Century (Lisse: Museum voor de Bloembollenstreek, 1992).

أما أكثر الدراسات الشاملة بلا شك فهي دراسات آنا

Anna Pavord, The Tulip (London: Bloomsbury, بافورد
1998)

أما الأشخاص المهتمون بتاريخ هولندا في القرن السابع عشر، فيجدون ضالتهم في الكتاب الأخير الذي ألفه جوناثان إسرائيل: جمهورية هولندا، نشأتها وعظمتها وانهيارها.

Jonathan Israel: The Dutch Republic, Its Rise, Greatness and Fall, 1477-1806 (Oxford: Oxford University Press, 1998)

ويعتقد المؤرخون الاجتماعيون أن هناك كتابات مثيرة للجدل والخلاف مثل: كتاب سايمون شاما:

Simom Schama, The Embarrassment of the Riches: An Interpretation of the Dutch Culture in the Golden Age (London: Fontana, 1991); A.T. van Deurse: Plain Lives in a Golden Age: Popular Culture, Religion and Society in Seventeenth Century Holland (Cambridge: Cambridge University Press, 1991)

أما تاريخ الولع بالزنبق نفسه، فيظل غامضاً بدرجة كبيرة، ولم يخضع حتى وقتنا الحاضر إلى دراسة علمية شاملة

تستفيد من الحجم الهائل للمعلومات الأولية المتوافرة في الأرشيف الهولندي. وقد بنيت معظم الروايات القصيرة عن الموضوع على دراسات شعبية رديئة، منها، على الخصوص، كتاب تشارلز ماكاي الممتع والمضلل في آن واحد Charlea Mackay, Memoirs of Extraordinary Popular Delusions and the Madness of the Crowds (Ware:Wordsworth Editions,1995)

الذي تعاد طباعته من حين إلى آخر رغم أنه قد ظهر لأول مرة في عام 1981. (وهناك كتابات كثيرة أخرى، مع أنها تعتمد على مصادر ثانوية، مثل أحدث مراجعة شاملة كتبها جوزيف بولغاتس Joseph Bulgatz, Ponzi Schemes, Invaders from Mars and More Extraordinary Popular Delusions and the Madness of Crowds (New York: Harmony, 1992)التي لم تحظ باهتمام كبير).

وإضافة إلى الكتيبات المعاصرة، التي جمعها E.H. Krelage, De Pamfleteen van den Tulpenwindhandel 1636-1637 (The Hague: Martinus Nijhoff, 1942).

إلا أن أكثر المصادر الهولندية قيمة، هي القوانين التي سنتها

معظم المدن التي كانت طرفاً في ولع الزنبق، والتي توثق ليس فقط بعض العقود (النادرة نسبياً) لشراء بصيلات الزنبق، وإنما تسجل أيضاً محاضر الشكاوى والقضايا القانونية التي رافقت انهيار الأسعار في عام 1637. وقد نشرت مقتطفات من هذه المحاضر؛ من أبرزها كتاب إيه. فان دام، A van Damme, Aanteekeningen Betreffende de Geschiedenis Der Blombollen: Haarlem, 1899-1903

(هناك أيضا مجموعة مقالات الصحف والمجلات في نهاية القرن التاسع عشر جمعها ونشرها بورهاف Berhaave, 1976 في ليدن، ونيكولاس بوسثوموس Nicolaas Posthumus الذي نشر كلا الكتابين وبعض المواد المرجعية المعاصرة في كتاب بعنوان

«Die Speculatie in Tulpen in de Jaren 1636; 13 (1927), parts 1-3, in Economisch-Historisch Jaarboek 12 (1926), pp.3-19; 13 (1927), pp.1-85; 18 (1934), pp.229-40.

وهذان العملان ليسا شاملين، لأن فان دام نفسه يعترف بأن العقود التي نشرها قد عثر عليها ..بمحض الصدفة، وليس

من خلال البحث المنظم.

وحتى الآن، فإن أكثر تاريخ مفصل لتلك الفترة، يظل Bloemenspeculatie in Netherland: De Tulpomania van 1636-37 en de Hyacintenhandel 1720-36 (Amsterdam, 1942) الذي بنينا عليه الجزء الأكبر من هذا المؤلف. ومع ذلك، فإنه يبدو قديماً في كثير من الجوانب. وباعتقادي، بعد مراجعة المواد المتوافرة، أنه حتى بعد التنبيهات الضرورية بخصوص مصداقية الروايات الشعبية، يظل المؤرخون، والاقتصاديون، على وجه الخصوص، هم من يتحمل وزر المبالغة في تصوير أهمية حمى الزنبق وانتشارها.

وتختصر الملاحظات الآتية أسماء المؤلفين وعناوين الكتب التي اعتمد عليها في هذا المؤلف.

يرجى العودة إلى البيلوغرافيا لمزيد من المعلومات.

الفصل الأول: هوس بالزنابق

المصدر الرئيس للمعلومات بخصوص الأحداث في ألكمار Alkamaar في شباط 1637، هو كتاب فان دام A. van Damme. Aanteekeningen Betreffende de Gwschiedenis der Bloembollen: Haarlem, 1899-1903 (leiden: Boerhaave, 1976) ولمعرفة المزيد عن ظهور وسلوك تجار الزنبق الهولنديين، انظر كلاً من : Zumthor, Daily Life in Rembrandt's Holland (London: Weidenfeld &Nicolson, 1962)، وأحدث كتاب تحليلي A.T. van Deursen, Plain Lives in a Golden Age (Cambridge: Cambridge University Press, 1991)

بخصوص ثمن زهرة زنبق واحدة، يقول غاربر (Garber, Tulipmania, p.537n) في عام 1637، كان كل جيلدر واحد يحتوي على 0,856 غم من الذهب. وهكذا، كان ثمن غرام الذهب في ذلك الوقت 1,17 جيلدراً.

وقد بيعت بصلة زنبق من نوع فايسروي في مزاد علني في ألكمار في 5 شباط بمبلغ 146 جيلدراً للغرام الواحد، أي أغلى 125 مرة من وزنها ذهباً.

الرجال الأثرياء .Israel, Dutch Republic, p.348

ثروات الزنبق Garber, Tulipmania, p.550

الفصل الثاني: وديان تيان شان

يلف غموض كبير بدايات تاريخ الزنبق. وقد تتبع تيرهان بايتوب Turhan Baytop المنشأ الآسيوي للزنبق في كتاب Michiel Roding and Hans Theunissen, eds, The Tulip: A Symbol of Two Nations (Utrecht&Istaaaaanbul: Turco-Dutch Friendship Association, 1993)

كما تحدث ويلفرد بلنت Wilfrid Blunt باختصار عن شعبية الزنبق في بلاد فارس في كتاب Tulipomania (London: Penguin, 1950)

أصول الزنبق الآسيوية: «Baytop, «Tulip in Istanbul, pp,50-56.

من المؤكد أن الحثيين، الذين سيطروا على معظم آسيا الصغرى في القرن الثاني قبل الميلاد، كانوا يعجبون بجمال الأزهار البصلية. وتظهر النقوش القديمة أن حلول فصل الربيع كان مناسبة احتفالية في العصر الحثي ما يمكن ترجمته

«باحتفال البصلة»، الذي يبدو أنه كان يتزامن مع بداية إزهار الشحيّم أو الزعفران.

(ومازال كثيرون من سكان الأناضول يحتفلون بمهرجان مماثل يسمى حدرليز Hidrellez في شهر مايو / أيار من كل عام يخرجون فيه في نزهات ويأكلون فيه المفتول المصنوع من برغل القمح وأبصال الزعفران (الكركم) المطحونة. وربما كان لإزهار الزنابق أهمية مماثلة لسكان المناطق السهلية، الذين مروا بفصول شتاء كانت أقسى من أي شيء يمكن أن يمر به الإنسان في مناطق الزعفران في آسيا الصغرى، والذين كانوا يتشوقون لقدوم الربيع. انظر Baytop, «Tulip in Istanbul» p.51.

الزنبق في بلاد فارس: Hall, Book of the Tulip، p.44;Blunt, Tulipomania, pp.22-23; Schloredt, Treasury of the Tulips, p.62

تاريخ الأتراك: لقد حظي الجزء الخاص بالعثمانيين في قصة الزنبق بتوثيق أفضل. وهناك موجز للتاريخ التركي في تلك الفترة في Inalcik, Ottoman Empire

الزنبق في التاريخ العثماني حتى عام 1453

كتاب ديميريز: الزنبق في التاريخ والثقافة والفن العثماني
Demiriz, «Tulip in Ottoman Turkish Culture and Art» pp.57-75.

قصة حسن، منفذي المصدر السابق ص 57.

بابور وتراث الحدائق التركي Pallis, In the Days of the Janissaries, p.198.

الزنبق كرمز ديني: لم يكن الأتراك الشعب الوحيد الذي كان ينظر إلى الزنبق كرمز ديني. فبين سكان بنسلفانيا الهولنديين - المهاجرون الألمان الذين استقروا في الساحل الشرقي الأمريكي في القرن السابع عشر - من استخدم ثلاث بتلات من الزنبق كتعويذة ترمز إلى الثالوث المقدس. وغالبا ما كانت تستخدم لتزيين الوثائق المهمة، مثل شهادات الميلاد.
انظر: .Schloredt, Treasury of Tulips, p.43

الفصل الثالث: في مقام النعيم

لم تكن ثقافة البستنة أساسية في تاريخ الإمبراطورية العثمانية، ونادراً ما يرد ذكرها في تاريخ التراث. وأفضل الإشارات على قصة الزنبق في تركيا هي حكايات إسطنبول،

وتحديداً:

Philip Mansel, Constantinople: City of the World Desire, 1453-1924 (London: John Murray, 1995)

وبالنسبة للقصور العثمانية، فإن المصدر الذي لا يستغنى عنه هو بارنيت ميلر: Barnette Miller, Beyond the Sublime Porte: The Grand Seraglio of Stanbul (New Haven: Yale University Press, 1931) فربما كانت الدكتورة ميلر أول مواطن غربي استطاع الدخول إلى الساحات، وقد تمكنت من ذلك في مطلع القرن العشرين، عندما كانت هذه الساحات ماتزال كما كانت في الأزمنة الغابرة.

وقد عملت بجد على إعادة تركيب بلاط القصر، مثل أقسام الحريم والحدائق التي تعرضت للإهمال والخراب. وقد أصبحت الترميمات التي أجرتها فيما بعد الأساس لجميع الأوصاف اللاحقة لحياة القصور العثمانية.

معركة كوسوفو Malcolm, Kosovo, pp.58-80; Pavot, Tulip, p.31.

قميص بيازيد: هناك جدل كثير حول عمر هذا القميص، فمتحف الفنون التركية والإسلامية يرجعه إلى عام 1400، لكن

ديميريز Demiriz يعتقد أن موضة القميص تعود إلى زهاء عام 1550. ولكن لا يوجد دليل يثبت هذا الادعاء، فحتى لو كان ديميريز محقاً، فمن الممكن أن بيازيد قد ارتدى قميصاً مماثلاً.

بيازيد Inalcik, Ottoman Empire, pp.14-18; Norwich, Byzantium, pp.343-45'364-69.

القسطنطينية و السلطان محمد Mansel، Constantinople, chapter 1.

حدائق السلطان محمد Wheatcroft, Ottomans, pp.26-29, Mansel, Constantinople, pp.57-58.

السلطان سليمان وزنابق إسطنبول Baker, «Cult of the Tulip in Turkey, p.240, Baytop, «The Tulip in Istanbul», pp.52-53, Tulips in Ottoman Turkish Culture and Arts,» pp.57-58,74-75.

تقول بعض المصادر أن زنابق إسطنبول لم تستزرع حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر: انظر (Pavot, Tulip, pp.39,45) فالقضية تظل غامضة.

بائعو الزهور في إسطنبول Baytop, «The Tulip in Istanbul, «p.51.

السلطان سليم والأبصال من إيران وسوريا ;Ibid.,p53

Baker, «Cult of the Tulip in Turkey, pp.238-40.

قصر السلطان وحدائقه Demiriz, «Tulip in Ottoman Turkish Culture and Art» pp.59-67; Mansel, Constantinople, pp.60-61,71,73-75,221-22; Miller, Beyond the Sublime Port, pp.4-21,151-56,; Penzer, Harem, pp.40.252:Cassels, Struggle for the Ottoman Empire, pp.53-54, 57-58.

البساتنة Mansel, Constantinople, pp.74-75,221-22, Cassels, Struggle for the Ottoman Empire, p.53; Penzer, Harem,pp.62, 185.

سباق رئيس البستانيين لا يعرف بالضبط متى بدأت هذه العادة الغربية . انظر,Miller, Beyond the Sublime Porte .pp.145,250n31

الفصل الرابع: غريبة من الشرق

كان أول من أرّخ لبدايات تاريخ الزنبق في أوروبا ـ كما هو معروف أو محتمل ـ هو Herman, Grafen zu Solms-

Laubach, in Weizen und Tulpe und deren Geschichte (Leipzig; arther Felix, 1899) ـ والذي لخصه فيما بعد بالإنجليزية السير دانيل هول Sir Daniel Hall, The Book of the Tulip (London: Martin Hopkinson, 1929)

كما قام سام سيغال بتلخيص أحدث البحوث في هذا المجال في كتابه تجارة الزنبق في هولندا في القرن السابع عشر Sam Segal, Tulips Portrayed: Tulip Trade in Holland in the Seventeenth Century (Lisse: Museum voor de Bloembollenstreek, 1992)

Lopo Vaz de Sampayo ذُكرت علاقة «فاز» بالزنبق أيضا في .Blunt, Tulipomania, p.8n وقد أخذت تفاصيل حياته المهنية من كتاب ظهور القوة البرتغالية في الهند Whiteway, Rise of Portuguese Power in India, pp.208-13,221-23.

وقد صادف أن ننهو دا كنها Nunho da Cunha كان ابن ترتستاو دا كنها Tristao da Cunha الذي أطلق اسمه على جزيرة صغيرة في المحيط الأطلسي والتي مازالت تمثل واحدة من أبعد الأماكن في الكمنويلث البريطاني.

Charles de la Chesneeكان كتاب Monstereul

Monstreaul من أول الكتب التي خصصت للزنبق بالكامل ولهذا فهو يعد ذا قيمة عند مؤرخي الزهور.

مدة الرحلات البحرية إلى البرتغال Whiteway, Rise of Portuguese Power in India, p.46.

الترحيب بالزنبق كشيء جدي Hall, The Book of the Tulip,p.36.

الدليل على وجود الزنبق في أوروبا قبل القرن السادس عشر. المصدر السابق، ص 17، 36 - 37.

Busbecq Baytop, «Tulip in Istanbul,» p.52; Martels, Augerius Gislenius Busbequius,pp.152, 440-52.

لمعرفة التاريخ الصحيح لتعرُّف باسبك على الزنبق لأول مرة، انظر Martels,pp.449-50. George Sandys المذكور في بافورد .Pavord, Tulip, pp.35-36

رسائل باسبك Busbecq's letters كان اسم الكتاب Legationis Trucicae Epistola Quarter (Antwerp, 1581)

وكان من أكثر الكتب رواجاً في ذلك الوقت.

بسبك وإدخال الزنبق- وهذا سبب آخر للشك في أن السفير كان مسؤولاً شخصياً عن جلب الزنبق إلى أوروبا، أنه كان يتباهى دائماً بأنه كان أول من أحضر التين الحلو إلى الغرب. ونظراً لأن شهرة الزنبق قد ملأت الآفاق عند وفاته في عام 1591، فمن غير المتصور أنه لم ينسب هذا الاكتشاف إلى نفسه، لو أنه كان المكتشف الأول. انظر Martels, Augerius Gislenius Busbequius, pp.450-52.

كلمة زنبق في اللغة الإنجليزية - يقول هول في كتاب الزنبق ص 17 أن الكلمة ظهرت لأول مرة في ترجمة لايت Lyte لكتاب Florum et Coronarium Odoratumque Nonnualarum الذي كتبه رمبرت دودوينز Rembert Dodoens، صديق كلوسيوسClusius ، ونشر لأول مرة في أنتويرب عام 1568.

قاعة كونراد غسنر-.Book of the Tulip,p.39; Segal Tulip Portrayed, p.3; Krelage, Bloemenspeculatie .in Netherland, pp.15-16; Fischer, Conrad Gesner

لمعرفة قصة الضفدع انظر Jan Bondeson, «Prodigious

«Vomiting المذكور في

A Cabinet of Medical Curiosities (Ithaca, N.Y.:

Cornell University Press, 1997). ولم ينشر كتاب

Catalogus Plantarum بعد مرور قرنين على وفاة غسنر.

وقد ظهر وصفه للزنبقة أول مرة في ملحق لكتاب ألفه صديقه فاليريوس غوردوسValerius Gordus، ونشر عام 1561.

في شهر أبريل– نيسان ....المذكور في كتاب الزنبق ص Hall, the Book of Tulip .39

Tulipa turcarumمع أنه كان يعتقد بأن فصيلة من الزنبق سميت تخليداً لاسم غسنر هي التي اكتشفت في أوسبيرغ، إلا أنه قد تبين، كما قال موراي أن الفصيلة في حديقة هيروارت كانت T.suavenolense وليست T. gesneriana

جوهان كنتمان يشاهد الزنبق في إيطاليا Segal، Tulip Portrayed, pp.3,21,n6 وقد سماها كنتمان T. turcica، إلا أنها يبدو كانت من نوع T. sylvestris

حدائق فوغر Ehrenberg, Gross Vermogen، pp.38

عرض أنطون فوغر، ابن مؤسس إمبراطورية فوغر، وظيفة

على غسنر وكلوسيوس، لكنهما رفضا العرض (نظراً لخلافات دينية حيث إن عائلة فوغر كانت تدعم حركة الإصلاح المعارضة).

أول ظهور للزنبق في إنجلترا وأوروبا Hall, the Book of the Tulip, p.40; Jacob, Tulips, p.3; Blunt, Tulipomania, pp.10-11.

غاريت وجيراد Blunt, the Tulipomania، pp.10-11; Pavot, Tulip, pp.104-105.

الفصل الخامس: كلوسيوس

نشرت أول سيرة حياة شاملة عن كلوسيوسClusius من قبل إف. دبليو. تي. هنغر F.W.T. Hungerفي مجلدين Charles d'Ecluse (Corolus Clusius). Netherlandsch Kruidkundige, 1526-1609 (The Hague: Martinus Nijhoff, 1927, 1943)الذي اقتبست منه معظم مادة هذا الفصل. وهناك سيرة حياة معروفة كتبها يوهان ثيونيز Johan Theunisz، Carolus Clusius: Het Merkwaardige Leven van een Pionier der Wetenschap (Amsterdam:

P.N. Van Kampen & Zoom, 1939

وقد أضافت تفاصيل قليلة عن بدايات حياة عالم النبات هذا. ولحسن الحظ أن كتابات كلوسيوس المتفرقة عن الزنبق ـ التي لم تكن جزءاً أساسياً من عمله ككل، قد لخصها باللغة الإنجليزية W. van Dijk, A Treatise on Tulip by Carolus Clusius of Arras (Haarlem:Enschede, 1951)

طرائف التجار: لقد سجلت هذه القصة أساساً من قبل كلوسيوس نفسه وقد ذكرت في Dijk, A Treatise on Tulip ص8

وهكذا، كان ذلك في ربيع 1563 إن هذا الجزء من الحكاية هو تخمين من جانبي، ولكنه يبدو من غير المحتمل، إذا كان التجار: قد اعتقدوا بأن أبصال الزنبق كانت بصلاً، أن أي إنسان كان يمكن أن يدرك ما هي إلا إذا أزهرت.

إعدام عم كان هذا ماثيو ديلوز Mathieu d'Ecluseالذي مات في حريق في أبريل– نيسان 1567 في أثناء محاولة دوق ألبا لإخماد تمرد البروتستانت في هولندا التي كانت تحت حكم آل هبسبيرغ. انظر Hunger, Charles d'Ecluse، vol.1, p.97. م1، ص97.

مدى مراسلات كلوسيوس: لقد بني تقدير الأربعة آلاف رسالة على عملية حسابية أجراها هنغر في المرجع السابق، م1، ص98.

ماذا قال كلوسيوس عن الزنبق: ذكر كلوسيوس الزنبق لأول مرة في ملحق أرفقه مع كتابه عن الورود في إسبانيا Flora of Spain, Historia Stirpium per Hispanias Obsevatorum, 1576 (pp.145-15) المنشور في عام 1576، ص 510 - 515، مع أن الزنبق لم يكن الزهرة الأصيلة في تلك الدولة.

وربما لا يعني ذلك أنه سمع عنها من «ريي» لأول مرة في أثناء رحلته في إسبانيا. وقد تحدث بتفصيل عن نباتات إسبانيا في كتابه زهور النمسا Flora of Austria, Historia Stirpium Pannoniae, 1583(pp.145-69) المنشور في عام 1583، ص145 - 169، ثم في رائعته Rariorum Plantarum Historia, 1601(pp.137-52).المنشور في عام 1601، ص 137-152.

تجارب في فرانكفورت كان ذلك في عام 1593. انظر موراي، Murray, «Introduction of the Tulip,» p.19.

شخصية كلوسيوس وسلطته Hunger, Charles d»Ecluse, vol.1.p.323 .

Marie de Brimeu's compliment مصدر سابق، م2، ص 217.

فقر كلوسيوس ، مصدر سابق، ص 111، 122.

تجارة النباتات بين العثمانيين وفيينا Theunisz, Carolus Clusius, p.68.

كلوسيوس وبسبك: كان كلوسيوس قد كتب إلى فون كرافيثم von Krafftheim في عام 1569، يطلب منه أن يحصل على عينات من بذور النباتات من بسبك Hunger, Charles d»Ecluse, vol.1.p.p.108,139..

بذور بسبك . .Dijk, A Treatise on Tulip,p.32

لصوص الورد Charles d'Ecluse م1، ص158، م2، ص115، 135 .Theunisz, Carolus Clusius, pp.50,78

فقد كل أسنانه Charles d'Ecluse م1، ص180، 240.

الفصل السادس: لايدن

تستخدم السير الذاتية التي كتبها هنغر وثيونيز ـــــ مرة أخرى كمصدر رئيس عن حياة كلوسيوس المهنية في ليدن. بخصوص ما كتب عن الجامعة في ليدن، وعن التمرد الهولندي، والخلفية التاريخية لولع الزنبق، انظر رائعة جوناثان إسرائيل. جمهورية هولندا.: ظهورها، عظمتها وانهيارها، 1477 ـ 1806 Jonathan Israel, The Dutch Republic: Its Rise, Greatness and Fall,1477-1806(Oxford: Oxford University Press,1998)

غالباً ما أتى الزوار الأجانب على ذكر الجامعة وكلية علم النباتات الشهيرة التابعة لها. كما أن روايات :Sir William Breton, Travels in Holland, The United Provinces etc...1634-1635 (London: Chetham Society,1844) ومذكرات جون إيفلين The Diary of John Evelyn, vol.2 (Oxford:Clarendon Press, 1955)، تتضمن مادة ممتعة للقراءة. وفي تتبعي لزراعة الزنبق استفدت كثيرا من كتاب الزنبق الذي ألفه دانييل هول Daniel Hall, The Book of the Tulip (London:Martin Hopkinson, 1929) وكذلك

ما كتبه فان سلوغتيرين الزنابق المنقسمة,E. Van Slogteren
«Broken Tulips» في الكتاب السنوي للنرجس والزنبق
The Daffodil and Tulip Yearbook (London: Royal Horticultural Society, 1960)

Hunger, Charles كلوسيوس في فرانكفورت d'Ecluse، م22، ص153، 154، 164، 165، 167، 172، 175.

الوصول إلى لايدن مصدر سابق، م1، ص210 - 213.

Israel, Dutch Republic, pp.169-75,181-82. ليدن

الحياة اليومية في هولندا

Zumthor, Daily Life in Rembrandt's Holland, pp.8,8,23,239.

Israel, Dutch Republic, pp.169-75,181-82. التمرد الهولندي

Schama, جامعة لايدن مصدر سابق، ص 569—72، Embarassement of the Riches, pp.57,175; Brereton, Travels in Holland, pp.41-42; Evelyn, Diary, pp.51-54; Zumthor, Daily Life in Rembrandt's Holland, p.154.

Brereton, Travels in Holland, p.42; بستنة ليدن

Israel, Dutch Republic,pp.571-72;

,vol.1,pp.189-94-18; vol.2,p.4. Hunger, Charles

d'Ecluse

ملك الورود المتوّج: من رسائل تحمل تاريخ 28

فبراير–شباط 1602، المذكورة في: Hunger, Charles

d'Ecluse,vol.1,p.269.

Walich Ziwertsz Wassenaer, Historisch Verhael

9, section April-October 1625, p.10; Hensen, «De

Vereering van St. Nicolaas, «p.187.

أقوال كلوسيوس عن الزنبق، Dijk, Treatise on Tulip

pp.7-32.

نباتات الزنبق Segal, Tulip Portrayed, pp.5-12; Hall,

Book of the Tulip,pp.99-110; Murray, «Introduction

of the Tulip»,pp.21-23.

الفروع Mather, Economic Production,pp.44.

زنابق Rosen, Violetten and Bizarden, Bloemen-

speculatie in Netherland, p.33

يؤكد فكرة أن أسماء هذه الأصناف قد جرى تداولها في القرن التاسع عشر فقط، ولكنها كانت صحيحة لدرجة أنهم سوف يستخدمونها هنا. أما مجموعات البنفسج فإنها تعرف أحياناً بالزنابق.

«أكثر من رائعة» و «جريئة»، المصدر السابق، ص21.

محاولات لإعادة الاستنبات .Pavot, Tulip, p.11

حلول لمشكلة الاستنبات Hall, Book of the Tulip,pp.104-06.

كلوسيوس والطلب على أبصال الزنبق Hunger، Charles d'Ecluse, vol.1,pp.2`4,237.

سرقات الزنبق Thenunisz, Carolus Clusius، p.120; Hunger, Charles d'Ecluse, vol.1,pp.237-38;241;vol.2,p.197.

نفاد مخزون المقاطعات السبع عشرة المذكور في Blunt، Tulipomania,p.9.

الفصل السابع: زينة لمفرق النهدين:

لا يوجد توثيق دقيق لبدايات تاريخ الزنبق في الأقاليم المتحدة وفرنسا، أما التفاصيل الأساسية الواردة هنا فقد استخلصت من كتب كريلاج ومن أعمال المهتمين بالبستنة مثل :

Abraham Munting, Waare Oeffening der Planten (Amsterdam: Hendrik Rintjes, 1671), from W. S. Murray, «The Introducation of the Tulip, and the Tulipomania,» Journal of the Royal Horticultural Society (March 1909), and Segal, Tulips Portrayed, The Tulip Trade in Holland in the Seventeenth Century (Lisse: Museum voor de Bloembollenstreek, 1992)

ويتضمن الكتاب الأخير أيضاً بحثاً مفيداً عن كتب الزنبق المعروفة في القرن السابع عشر.

رثاء مونستريول المذكور في Segal, Tulips Portrayed, p.4.

لوبيليوس Lubelius الاسم اللاتيني لماثياس دي لوبيل،

الذي نشر كتابه عن الزنبق بالفرنسية في عام 1581. انظر Segal, Tulips Portrayed, p.3

أصناف الزنبق المصدر السابق، «Introduction ،Murray of the Tulip,»p.21.وهذه لا تشمل الأنواع التركية التي بلغت في القرن الثامن عشر أكثر من 1300 نوع.

عاشقو الزنبق الأوائل Krelage, Bloemenspeculatie in Netherland, pp.23-24; Krelage, Drie Eeuwen Bloembollenexport, pp.6-17.

الزنبق في فرنسا Krelage, Bloemenspeculatie in Netherland,p.29;Munting, Naauwkeurige Beschryving der Aardewassen, pp.907-11; Garber, «Tulipmania,»p.543.

مع أن كُتاب البستنة المعاصرين قد تناولوا تاريخ الولع بالزنبق في فرنسا، إلا أن هذا التاريخ مازال غامضاً.

الوردة أميرة الحديقة Zumthor, Daily Life of Rembrandt's Holland,p.49.

Stadsbibliotheek, Haarlem, Passe, Een Cort Verhael van den Tulipanen, p.4; Krelage, Drie Eeuwen Bloembollenexport, p.6.

Paulus van Berestyn Beresteyn and Hartman, Genealogie van het Geslacht, p.134.

Jacques de Ghen Regteren Altena, Jacques de Ghen, vol. 1, pp.2-3, 14, 38, 40, 59, 66, 69-70, 131-32, 153.

Guillelmo van de Heuvel Leonhardt, Het Huis Bartolotti,pp.14-15,39-40; Israel, Dutch Republic, p.348.

العصر الذهبي، السعر، الثقافة والمجتمع في جمهورية هولندا Price, Culture and Society in the Dutch Republic; Israel, Dutch Republic, pp.547-91.

بيوت الريف الهولندية Schama, Embarrassment of Riches, pp.292-95; Krelage, Bloemenspeculatie, pp.7,27-28.

طرائف في الكنيسة .Cotterell, Amsterdam, p.119

كانت الغرامة المعتادة ستة ستايفرات للنكتة.

قطط يعقوب، Schama, Embarrassment of Riches

pp. 211,293,437.

حديقة اللورد افربيك ,Brereton, Travels in Holland

pp.44-45.

كل ما يريده هؤلاء الحمقى ترجمة إنجليزية من سيغال

Segal, Tulips Portrayed, p.16.

.Of de Moufe-schans Hondius, Dapes Inemptae

عن المالك الحقيقي لـ Moufe-schans الذي يقال عنه خطأ أحياناً بأنه كان منزل هنديوس. انظر Nieuw Nederlandsch

Biographisch Woordenboek, vol.8,p.812-13.

أمير حديقة البرتقال ,Brereton, Travels in Holland

pp, 34-35.

الفصل الثامن: الزنبق في المرآة

لقد بنيت بحثي عن سمبر أغسطس -Semper Augus

tus، مثلما يجب أن تكون عليه النقاشات، على سجل وقائع

نيكولاس جانز chronicle of Nicolaes Jansz, van Was-senaer، الذي كان ابن طبيب من أمستردام، ودرس في مدرسة اللاتين في هارلم، ثم في أمستردام لاحقاً، قبل أن يتحول إلى كاتب محترف (وطبيب غير متفرغ) بعد عام 1612. وكان اسم السجل Historisch Verhael aller Gedencwaerdiger Gheschiedenissen, 5-9 (Amsterdam: Iudocus Hondius and Jan Jansen, 1624-25) وهو بشكل عام أكثر المصادر الرئيسة الموثوقة عن هذه الوردة.

أما الفقرات الخاصة بتطور ولع الزنبق فقد بنيت، كما في السابق، على أعمال كريلاج، ودعمت بأعمال نيكولاس بوستثوموس Nicolaas Posthumus، وولع الزنبق في هولندا في السنوات 1636، 1637

«Die speculatie in Tulpen in de jaren 1636 en 1637», part 1-3, Economisch - Historisch Jaarboek 12 (1926), pp. 3-9; 13 (1927), pp. 1-85; 18 (1934), pp. 229-40; and «the Tulpen Mania in Holland in the Years 1636 and 1637,» in W. C. Scoville and J. C. LaForce, eds.,The Economic Development of

Western Europe, vol. 2 (Lexington, Mass., 1969), and peter Garber, «Tulipmania,» Journal of political Economy 97 (June 1989), pp. 535-60.

أما المعلومات الخاصة بالحدائق الهولندية في تلك الفترة، فقد استمدت من

Paul Zumthor, Daily Life in Rembrandt's Holland (Lon-don: Weidenfeld and Nicolson, 1962), and Simon Schama's The Emborrassment of Riches: An Interpretation of Dutch Culture in the Golden Age (London: Fontana, 1991)

كما بحثنا في كتاب البستنة من تأليف كريسبن فان دي باسي The Hortus Floridus of Chrispijn van de Passe

انظر سبنسر سافاج

Spencer Savage, The Hortus Floridus of Chrispijn van de Pas,» Transactions of the Bibliographic Society, ser, vol.4 (1923),pp.181-206, and Eleanour Rohde, Crispian Passeu's «Hortus Floridus» (London, 1928-29)

وقد نشرت ترجمة إنجليزية لكتاب سافاج في سبعينيات القرن الماضي بعنوان

Hortus Floridus: The Four Books of Spring, Summer, Autumn, and Winter Flowers, Engraved by Crispin van de Pas (London:Minerva, c.1974)

Adriaen Pauw, Israel, Dutch Republic, pp.159, 319, 458-59, 518-19,522-23;Boer et al., Adriaan Pauw, pp.20-27.

لا يوجد اليوم سوى مساحة صغيرة من مزرعة هيمستيد Heemstede estate، وقد ابتلعت هارلم الجزء الأكبر الذي أصبح يشكل الأحياء الجنوبية من المدينة.

Pauw's mirrored garden Wassenaer, Historisch Verhael, vol.5, p.40 verso

من المحتمل أن تكون مجموعة Pauw البنفسجية التي ذكرها كريلاج في Bloemenspeculatie in Nederland، p.138 هو الذي أوجدها أو أن اسمه أطلق عليها.

Semper Augustus Wassenaer, Historisch Verhael, vol.5, p.40 verso

and 41; vol.7,p.111; and verso; vol.9, p.10

أنظر: Krelage, Bloemenspeculatie in Nederland, pp.32-33, 68; Garber, «Tulipmania», p.537;Segal, Tulips Portrayed, pp.8-9.

ملكية سمبر أغسطس Semper Augustus قالت عدة مصادر رسمية في السنوات الأخيرة أن مالك سمبر أغسطس كان أندريان باوفAdriaen Pauw ، ولكن هذه المصادر لم تدرس كتاب فان واسناير van Wassenaerبإمعان. وفي الحقيقة أنه على الرغم من أن المؤرخ قد رأى عينات من الزهرة، كما أنه زار الحديقة في هيمستيد، إلا أنه لم يربط بين الاثنين، كما أن الوصف الذي أورده لمنبت باوف الوحيد، يجعل من غير المحتمل أن سمبر أغسطس - وهي زهرة يمكن أن يكون شخص خبير قد غرسها في ذلك الخلاء الرائع - يمكن أن تكون قد نبتت هناك.

وتقول عدة روايات غير مؤكدة ان أبصالاً أخرى من سمبر أغسطس قد بيعت، ولكن إلى أن تتأكد مثل هذه الروايات في السجلات الحديثة، فإنني سوف أظل متردداً لقبولها كما هي بكل بساطة. ويقول كريلاج في Bloemenspeculatie

in Nederland ص65 أن رجلاً من أمستردام قد باع رجلاً من هارلم هذه الزهرة بشرط أن أياً منهما سوف لن يبيع بصيلات سمبر أغسطس قبل إبلاغ صاحبه. إلا أن الرجل الخبير من أمستردام ضعف أمام إغراء ثلاثة آلاف جيلدر وخزانة تساوي عشرة آلاف جيلدر مقابل بصلة واحدة. وعندما اكتشف صاحب هذه الخيانة، قام بدوره ببيع ثلاث أبصال مقابل 30 ألف جيلدر. وبدوره، أورد مونتنغ بعد 35 سنة نصاً من أحد السجلات جاء فيه :«لقد بيعت بصلة تزن 123 ذرة إلى ن.ن. مقابل 4600 فلورين تدفع فوراً، إضافة إلى عربة وحصانين أشهبين مع كل ملحقاتها سوف تسلم في غضون أسبوعين». كما يزعم السجل أن بصلة قد بيعت مقابل 5500 فلورين في مزاد علني. انظر

Munting, Naauwkeurige Beschryving, pp.907-11.

Balthasar and Daniel de Neufville Gelder de Neufville, «De Oudste Generatics», pp.6-8;Krelage, Bloemenspeculatie in Nederland,pp.129-140.

وقد حملت هذه الأصناف اسماً مقلداً هو «de Novil».

Hunger, Charles d'Eclusive, vol.1,الزنبق زرعوا
p.241; vol.2, p.251.

Henrik Pottebacker Segal, Tulips Portrayed, p.8; Krelage, Bloemenspeculatie in Nederland, pp.127,138.

Rhizotomi and Apothecaries Hunger, Charles d'Ecluse, vol.1,pp.303-06; Krelage, Drie Eeuwen Bloembollenexport, p.17;

Zumthor,Daily بخصوص عدم موثوقية الأوزان، انظر
Life in Rembrandt's Holland, pp.73,157.

Segal& Roding, De الزنبق كمحرك للشهوة الجنسية
Tulp en de Kunst, pp.73, 157. يتحدث كاتب البستنة الإنجليزي المعاصر جون باركنسون عن ميزات الزنبق المثيرة للشهوة الجنسية في كتاب.(1629) Papadisus Terrestris اعترف بأنه: « لم يتناول الكثير بسبب قوة الزنبق المثيرة للشهوة الجنسية».

Posthumus, :Die اللاعبون في تجارة الزنبق المبكرة
Speculatie in Tulpen' (1927), pp.11-15.

الحدائق خارج هارلم Temmininck et al., Haarlemmerhout 400 Jaar, pp.98-99. Pieter Bol and Barent Cardoes Krelage, Bloemenspeculatie in Nederland, p.42; Schama, Embarrassment of Riches, p.356.

توفي كاردوس في أواخر عام 1657 (سجلات مدافن هارلم)، لكن التجارة التي أنشأها ظلت موجودة حتى القرن الثامن عشر.

فرانسيسكو دا كوستا: لقد كانت تجارة دا كوستا صحيحة، ولهذا فقد صمدت في أثناء ولع الزنبق واستمرت حتى عام 1645. Krelage, Bloemenspeculatie in Nederland, pp.42-43, 55; Krelage, «Het Manuscript over den Tulpenwindhandel», p.30.

تصدير الأبصال: تصدر هولندا هذه الأيام ثلثي إنتاجها من الأبصال، وتشحن شركة جيرماكون، وهي أكبر شركة تصدير، حوالي 35 مليون بصلة سنوياً إلى جميع أنحاء العالم.

إيمانويل سويرتس Krelage, Bloemenspeculatie in Nederland,p.25.

كتب الزنبق: يرجع تاريخ أول كتاب عن هذه الورود، إلى عام 1603 وكان باللغة الفرنسية. أما الكتب التي تحدثت عن الزنبق فقط فقد ظهرت مع انتشار الولع. ويرجع أقدم هذه الكتب إلى عام 1635. انظر Segal& Roding, De Tulp en de Kunst, pp.78-81; Segal ,Tulips Portrayed, pp.17-20; Taylor, Dutch Flower Painting, pp.10-12.

كتاب الزنبق من تأليف Van Swanenburch يوجد هذا الكتاب حالياً في أرشيف تاريخ هولندا الاقتصادي في أمستردام. ويبدو أن الملاحظات عن الأسعار قد كتبها مؤلف الكتاب المجهول.

كتاب الزنبق من تأليف Cos إن الاسم الحقيقي لهذه المخطوطة هو Verzameling van een Meengte Tulipaan وقد كتبت في عام 1637. (ومن الغريب أن اسم كوس لا يوجد في سجلات أي أرشيف، مع أن كريلاج يشير إلى وجود صنف زنبق باسم كوس). ويوجد حالياً في Univer-siteitsbibliotheek في Wageningen Tulip nomenclature Krelage, Bloemenspeculatie in Nederland,pp.33-

37,128

«في حال حدوث أي تغيير في الزنبق ....»

المذكور في مواري .«Introduction of the Tulip,»p.24

بائعو بصلة الزنبق المتجولون .Pavord, Tulip, p.153

الفصل التاسع: زهّارون

لقد كتب التاريخ الاجتماعي للأقاليم المتحدة في العصر الذهبي باقتدار من قبل إيه. تي. فان ديورسن A.T. van Deursen, Plain Lives in a Golden Age:Populat Culture, Religion and Society in Seventeenth Century Holland (Cambridge: Cambridge University Press, 1910

كما أضاف بول زومثور تفاصيل الحياة اليومية Paul Zumthor, Daily Life in Rembrandt's Holland (London: Weidenfeld and Nicolson, 1926)

ومن بين المؤلفين المعاصرين، تولى السير ويليام تمبل مهمة كتابة هذا التاريخ، لكن كتابه Observation Upon the United Provinces of the Netherlands لسوء الحظ، لم

يظهر إلا في عام 1673، بعد انتهاء فترة الولع. وقد بني هذا الكتاب، على أية حال، على ملاحظات المؤلف في زيارات قام بها في عام 1652. وقد عمل تمبل، آنذاك، لبعض الوقت سفيراً لبريطانيا لدى الأقاليم المتحدة، وكان مهتماً بالأسباب الكامنة وراء النجاح الهولندي. وقد كان كتابه تحليلياً وعملياً أكثر من انطباعات الرحالة.

الوصف المادي للأقاليم المتحدة Zumthor, Daily Life in Rembrandt's Holland,p.277; Israel, Dutch Republic,pp.1-3,9-14; Temple, Observations,pp.95, 113-14,

ورطة عالمية ..... «كان الرجل الإنجليزي هو الداعية أوين فلثام، وقد نشر كتابه عندما وصل النزاع الأنجلو - هولندي ذروته في منتصف القرن السابع عشر. ويجب أن ينظر إلى آرائه تجاه هولندا ضمن هذا السياق. مذكور في Schama, Embarrassment of Riches,p.44

السفير الإنجليزي Temple، Observations,pp.95,113-14

طبقات المجتمع الهولندي Israel, Dutch Republic, pp.330,337-53,630-38; Deursen, Plain Lives, pp.4-

8,13,32,47-48,194; Zumthor, Daily Life in Rembrabdt's Holland, pp.232-41; Schama, Embarrassment of Riches, pp.19-21, 316, 579-81.

Deursen, Plain Lives,5-11; Zumthor, يوم العمل

Daily Life in Rembrabdt's Holland, pp.5-6,53.

Deursen, Plain Lives,pp.4,19-20,82; الطعام

Schama, Embarrassment of Riches,pp.162-64,169-70,230, Zumthor, Daily Life in Rembrabdt's Holland, pp.67-74; Cotterell, Amsterdam, pp.24,48; Bretreton, Travels in Holland, p.6

Deursen, Plain Lives,pp.19,41; Zumthor, النظافة

;39،169–137.Daily Life in Rembrabdt's Holland,pp

Bretreton, Travels in Holland, p.68.

Israel, Dutch Republic, p.328. السكان

Deursen, Plain Lives,pp.3-4,8. ضغط زيادة السكان

Corttetrell,Amsterdam,انتشار موضة البستنة في هولندا

pp.88,131; Bretreton, Travels in Holland,p.38; Mundy, Travels of Peter Mundy, vol.4,p.75; Segal,

Tulips Portrayed, p.8; Bulgaz, Ponzi Schemes,p.86.

Temple, Observations, p.102. موجودات هولندا

;Deursen, Plain Lives,pp.67-68، 105-06 إغراء المقامرة

Schama, Embarrassment of Riches,pp .305-07,347;

Zumthor, Daily Life in Rembrabdt's Holland,p.76.

الفصل العاشر: الطفــرة

يرد وصف الولع على أكمل وجه في

E.H.Krelage, Bloemenspeculatie in Netherland: De Tulpomanie van 1636-37 en de Hyacintenhandel 1720-36 (Amsterdam, 1942).

ويمكن العثور على إيجاز عام للأحداث، مع إيضاح أكثر، في كتاب نيكولاس بوستوموس

Nicolaas Posthumus, «The Tulip Mania in Holland in the Years 1636 and 1637» in W.C. LaForce, eds., The Economic Development of Western Europe, vol.2 (Lexington, Mass, 1969),pp.138-49.

Hoorn Israel, Dutch Republic, pp.317-18.

بيت الزنبق Damme, Aanteekeningen Betreffende,
pp.23-24. يقول فان دام أنه قد أعيد ترميم المنزل في عام 1755 وقد حفرت رسوم أزهار الزنبق على بعض حجارة المنزل كتخليد للولع. وقد دمر المنزل في وقت ما من عام 1880 أو في مطلع عام 1890، واشترى الزنابق المنقوشة جيه. إتش. كريلاج، وهو من أشهر زارعي الزنبق في هارلم ووضعها في جدران مكتبته. ويصف فان دام السجل الذي استقى منه كثيراً من التفاصيل التي أوردها، مثل سجل فيليوس، لكن سجل فيليوس لم يذهب إلى أبعد من عام 1630. وربما يكون قد هدف إلى تكملة السجل الأصلي. لكن مصداقية هذا العمل ليست واضحة بالكامل. ويبدو من السياق الذي يذكر فيه المؤرخ بيت الزنبق بأن الفقرة لم تكن معاصرة.

تطور ولع الزنبق Posthumus, «The Tulip Mania in Holland,»pp.140-42; Krelage, Bolemenspeculatie in Netherland, pp.42,49-52.

مؤرخ معاصر Aitzema, Saken van Staet en Oorlogh,p.504. مثل كثير من الأسعار التي ذكرها مؤرخو الولع، يبدو أن أسعار فان إيتزما Aitzema van قد أخذت

من Samenspraecken «الحواريات»، وهو عبارة عن ثلاثة كتيبات، ونشر في عام 1637 ضمن ما زعم أنها مناقشات بين وسيط تجاري وصديق له. لمزيد من التفاصيل، انظر فصل 11.

General der Generaelen van Gouda Krelage, Blomenspeculatie in Netherland, pp.35,49.

يقول شاما أن جودا كانت من أرخص الأصناف، وهذا غير صحيح.

آخر سعر دفع في شراء سمبر أغسطس Augustus

Ibid.,pp.32-33,68; Garber, «Tulipmania,» p.537; Segal, Tulips Portrayed, pp.8-9.

صابون انظر Israel, Dutch Republic, p.347.

الأرض المستصلحة في شيرمر Schermer عاشق التجار، كريلاج، Bloemenspeculatie in Netherland, p.30. يذكر أحد الكتيبات التي نشرت أثناء الهوس،نوادر بّحار ورحالة إنجليزي. سجل قصة البحار الكاتب جيه. بي. شوبيوس J.B. Schppius كمذكرات لشبابه في هولندا، كما يقول سولمز - لوباخ Solms-Laubach, Weizen und Tulpe,

p.76. ص76. وقد أعيدت رواية القصة بشكل أكثر تشويقا في كتاب ماكاي Mackay, Extraordinary Popular Delusions, p.92، الذي يحكي فيه قصة الرحالة الإنجليزي غير الموثقة. ويلفت بيتر غاربر الانتباه إلى عدم معقولية هذه النوادر، انظر Garber, «Tulipmania,» p.537&n.

الركود الهولندي Israel, Dutch Republic, pp.314-15

النساجون: من ضمن الذين ذكروا زيادة عدد نساجي الكتان بين مهووسي الزنبق كان بوسثوموس في كتابه «ولع الزنبق في هولندا»، ص143.

البيع حسب البصلة والمستنبت، مصدر سابق، ص 141.

المبيعات بين شهري أبريل–نيسان وأغسطس–آب. جميع السجلات المبكرة لتجارة الزنبق مؤرخة بين أبريل–نيسان وأغسطس–آب Ibid.,pp.11-15; Posthumus, «Tulipmania in Holland.»p.141.

The Windhandel Schama, Embarrassment of Riches, pp.358-59.

تجارة المستقبل <t Hart, Jonker and Zanden,

Financial History of the Netherlands, pp.53-54; Schama, Embarrassment of Riches,pp.339,349-50; Vries and Woude, First Modern Economy, p.151: Embarrassment of Riches,pp.338-39; Zumthor, Daily Life in Rembrandt's Holland,p.262.

<t Hart, Jonker and Zanden, قيود على تجارة المستقبل Financial History of the Netherlands, p.55

Krelage, Blomenspeculatie in التجارة بالبذرة Netherland, pp.46-48.

Gerrit Bosch Alkamar notarial archive, vol.113, fol.71vol-72vo, July 23, 1637 (copy in the Posthumus Collection, Netherlands Economic History Archive).

Israel, Dutch الفائدة على رحلات البهارات البحرية Republic, p.320.

David de Mildt Posthumus, «Die Speculatie in Tulpen,» (1927),p.16.

Henrick Lucasz and Joost van Haverbeeck, Ibid.,

pp.19-20.

Jan Admirael Ibid., pp.17-18,21-22.

ثمن البصلة: لقد جاءت أفضل البيانات من مزاد علني عقد في ألكمار في شهر فبراير – شباط 1637 حيث بيعت عدة أبصال من النوع نفسه، ولكن بأوزان مختلفة، إلى المضاربين أنفسهم في يوم واحد. انظر Damme, Aanteekeningen Betreffende, pp.92-93.

شركات الزنبق Posthumus, «Die Speculatie in Tulpen» (1927),pp.26, 32-36.

جاؤوا من جميع الأطياف Posthumus, «Die Speculatie in Tulpen» (1927),pp.24-25.

شراء الأبصال للزراعة والتجارة Posthumus, «Die Speculatie in Tulpen» (1927),pp.24-25.

لقد أعيدت طباعة هذه الكتيبات The Samenspraecken الثلاثة المهمة. مصدر سابق، ص20-99. وقد استعرضها كريلاج في Blomenspeculatie in Netherland كما راجعها في De Pamfletten van den Tulpenwindhandel, وكذلك مواري Murray, «Introduction of the pp2-4.

Tulip,» pp.25-27; Seal, Tulips Portrayed,pp.13-15; Herbert, Still Life with a Bridle, pp.57-58; Schama, Embarrassment of Riches,pp.359-60.

لكن أياً من هذه الروايات لا تتفق مع الأخرى على كيفية تفسير المعلومات الواردة في هذه الكتيبات. كما تشهد على الغموض الشديد لمحتوى الكتيبات الأصلية.

الدفع العيني: كما ذكر، فإن هذه الأمثلة قد أخذت من Samenspraecken، انظر :Bulgatz, Ponzi Schemes, p.97.

Aert Ducens Posthumus' «Die Speculatie in Tulpen (1927),p.38. في عام 1643، شهدت زوجة فان دي هيفل van de Heuvel أمام كاتب العدل وأكدت أن هذه الاتفاقية قد ألغيت بعد انهيار سوق الزنبق. Jeuriaen Jansz, Ibid.,pp.27-28. في هذه الحالة، ذكر أن اسم البائع هو كريسر Cresser، لكن سجلات فترة الولع مليئة بالأسماء التي هجئت خطأ، ومن شبه المؤكد أن كريتسر Creitser كان هو المقصود.

Carnelis Guldewagen Ibid., pp.61-65,72-74.

Abraham de Goyer Posthumus, «Die Speculatie in Tulpen» (1934), pp.231-32.

ملغى كأن لم يكن Posthumus, «Die Speculatie in Tulpen» (1927),p.85

قضايا غش وخداع Segal, Tulips Portrayed, p.12; Murray, «Introduction of the Tulip'»p.25

كل شيء يمكن أن يسمى زنبق Aitzema, Saken van Staet en Oorlogh, p.504.

الفصل الحادي عشر: عند لافتة «الكرمة الذهبية»

لقد جمعت روايتي عن حياة الحانة الهولندية من عدة مصادر ثانوية، من أهمها فان دير سين وشاما. ويأتي الرحالة الإنجليز، موريسون، وبريريتون وموندي، على ذكر هذا الموضوع. وتضيف تجربتهم الشخصية نكهة خاصة إلى الملاحظات العامة للمؤرخين الاجتماعيين. وقد وصفت صناعة التخمير الهولندية في S. Slive,ed., Frans Hals (The Hague:SDU, 1990)

كما جاء ذكر حانات هارلم في كتاب S. Groenveld et

al., Deugd Boven Geweld. Een Geschiedenis van Haarlem, 1245-1995 (Hilversum:verleron, 1995)

وهو أكثر متعة من ترجمته الإنجليزية «الفضيلة أسمى من العنف»، كما ذكرت مواخير هارلم من قبل تيمننك وآخرين Temmininck et al. Haarlemmerhout 400 Jaar»Mooier is de Wereld Nergens.»(Haarlem:Schuyt&Co.,1984)- 400 years of Haarlem Wood is More Beautiful»: 400 سنة من غابات هارلم: لا يوجد مكان في الدنيا أجمل منها. كما أن كتاب تاريخ طرائف أمستردام الذي ألفه جيفري كوتوريل: حياة مدنية Geoffrey , Amsterdam: Life of a City (Faarnborough:D.C. Heath, 1973) يورد بعض التفاصيل المتعة عن الدور الذي لعبه الطعام والشراب في الحياة الهولندية.

سوق أسهم أمستردام <t Hart, Jonker and Zanden, Financial History of the Netherlands, pp.53-56; Cotterell, Amsterdam,pp.85-86; Schama, Embarrassment of Riches, pp.348-50; Brereton, Travels in Holland,pp.55-56.

ديلا فيغا عن التجار الصغار، المذكور في Schama,

Embarrassment of Riches,p.349. يرجع وصف سلوك التجار إلى فترة ما بعد انتهاء ولع الزنبق إلى أواخر عام 1680 بالتحديد ـ وقد لا يكون هذا السلوك مبالغاً فيه في عام 1630.

انتشار الحانات: Deursen, Plain Lives, pp.101-02.

أسماء الحانات: Schama, Embarrassment of Riches,p.202; Herbert, Still Life with a Bridle, p.58

البغاء Deursen, Plain Lives, pp.97-100

بغايا وقحات Brereton, Travels in Holland,p.55.

بداية تجارة الحانات Posthumus, «Die Speculatie in Tulpen» (1927),p.19.

مشاركة الحانات في ولع الزنبق: من الثابت أن فنادق هارلم كانت طرفاً فيه، ومنها Van de Sijde Specxs (The Flitch of Bacon). و De Vergulden Kettingh (The Guilded Necklace), t Oude Haentgen, the Toelast in the Grote Markt, De Coninck van Vranckrijck; De Mennonise Bruyloft (The Mennonite Wedding) في.

أمستردام، الذي كان مركزاً لتجارة الزنبق. Posthumus, «Die Speculatie in Tulpen», (1927), pp.24,42-43,83, and (1834). P.233.

عائلة كويك ولد كورنيلس كويكل Cornelis Quaeckel الأب حوالي عام 1565 وتزوج تريجن أو كاترينا كورنيلسدر في عام 1587. وبدءاً من عام 1609 أدار حانة في هارلم تدعى بيلايرت Bellaert ، لكنه كان يزرع المحاصيل والزنبق في أرض بالقرب من جانسبورت، وفي أرض أخرى استأجرها من لورد بريديرود Lord of Brederode بالقرب من قصر Huis ter Kleef وقد سميت الطرق المؤدية إلى كلا الموقعين كويكلسلان Quaeckelslaan على اسم العائلة. ولا يوجد ما يشير إلى أن كورنيليس، أكبر أبناء كويك، كان مشاركاً في تجارة الزنبق، ولكنه شهد لصالح الرسام المارق تورنتيوس في أثناء محاكمته عام 1627.

وكان كورنيليس جابي ضرائب الصابون حتى عام 1626، وعاش حتى عام 1650على الأقل.أما شقيقه تاجر الزنبق جان كويكل، فقد ولد عام 1601 ودفن في هارلم في 10 تشرين الثاني عام 1661.

انظر; Kurtz, «Twee Oude Patriciershuizen»p.120; Haarlem Municipal Archives, notarial registers vol.123vo;vol.129, fol.72; vol.139, fol.27vo-28;vol.149, fol.210; vol. 150, fols.273-273vo, 394vo; Haarlem burial register vol.73, fol.100vo.

. كما يورد كريلاج Krelage, Bloemenspeculatie in Netherland, pp.134-36. تفاصيل عن فصيلة الزنبق التي طورها كورنيليس كويكل الأب.

هارلم، Groenveld et al., Deugd Boven Geweld pp.144,172-74,177.

إضاءة الشوارع: أدخلت إضاءة الشوارع إلى أمستردام في عام 1670، باستخدام مئات القناديل التي تستعمل الزيت النباتي، ثم انتشرت بسرعة إلى المدن الهولندية الأخرى، ثم إلى أوروبا.

Israel, Dutch Republic,p.681.

حرائق الدرين-Mundy,Travels of Peter Mundy,pp.64-65; Blainville, Travels Through Holland, vol.1,p.44.

التدخين: Schama, Embarrassment of Riches,

pp.194-98; Deursen, Plain Lives, pp.103-04.

السلاح: .Deursen, Plain Lives, pp.110-11 لقد فرض حظر على السلاح في هولندا في عام 1589 من قبل الأقاليم، وكان في بعض الحالات مدعوماً بتشريعات.

فن الرسم: يوثق ستوي في كتابه الرحالة الإنجليز في الخارج، ص294 Stoye, English Travellers Abroad تعليقات عن روعة الرسومات في حانات هولندا نقلاً عن الرحالة الإنجليزي السير ددلي كاريليتون (1616) وروبرت بارغريف (1656).

السكر والسكارى، المصدر السابق، ص162

ثمن ليلة سكر: دفع فاينيز موريسون، الذي زار هولندا في عام 1592؛ ما بين 12 إلى 20 ستايفراً لوجبة الطعام، واشتكى من أن الثمن الباهظ الذي دفعه كان بسبب الجعة التي شربها رفاق السفر الذين قضوا الليل وهم يعربدون حول النار. Moryson, An Itinerary,pp.89-90

استهلاك الخمر Zumthor, Daily Life in Rembrandt's Holland, p.175; Schama, Embarrassment of Riches,pp.191,199.

كمية العجة المستهلكة في هارلم Zumthor, Daily Life
J.van مستشهداً ب in Rembrandt's Holland, p.72
Loenen, De Haarlemse Brouwindustrie voor 1600
(Amsterdam, 1950), p.53.

عدد مصنعي الخمور: Groenveld et al., Deugd Boven
Geweld, p.176; Raahj. Kroniek, entry for 1628.

تجارة الحانات: Zumthor, Daily Life in Rembrandt's
Holland, p.175; Posthumus, «Die Speculatie in
Tulpen» (1926), pp.20-99.

النبيذ: Zumthor, Daily Life in Rembrandt's
Holland, pp.173-74.

الفصل الثاني عشر: أيتام ووتر وينكل

إن القليل الذي نعرفة عن ووتر وينكل Wouter Winkel وعائلته موجود في وثائق أرشيف الدولة في ألكمار. وقد حصل على هذه الوثائق ونشرها فان دام ضمن مجموعة القوانين والكتيبات الخاصة بولع الزنبق والتي ظهرت في سلسلة مقالات نشرت في دورية مزارعي الزنبق في أواخر

القرن. جمعت مقالات فان دام ونشرت على شكل كتاب بعنوان Aanteekeningen Betreffende de Geschiednis der Bloembollen: Haarlem, 1899-1903 (Leiden: Boerhaave, 1976)

ويعد كتاب فان دام الأرشيفي، إلى جانب كتاب نيكولاس بوسثوموس، حجر الأساس لجميع الدراسات الخاصة بولع الزنبق، ومن ضمنها دراسة إي. إتش. كريلاج، ولم تضف إليها الدراسات الحديثة أية تفاصيل مهمة.

ووترووينكل

Damme Aanteekeningen Betreffende,pp.91-93

Alkmaar Vries, Dutch Rural Economy, pp.157-59; Zumthor, Daily Life in Rambrandt's Holland, pp.29-30-55.

الالتحاق بالمدرسة: Schama, Embarrassement of Riches, p.538.

زمرة وينكل – تشير السجلات الموجودة إلى أنه كان يمارس التجارة مع أكثر من شريك، ولكن يبدو أنهم تقاسموا المخزون في آب 1636، وأن الزنابق التي عرضت في المزاد

العلني في ألكمار كانت حصة وينكل من الشراكة. أنظر:

Damme, Aanteekeningen Betreffende, p.92

وينكل كمزارع: من المحتمل، ولكن من غير المؤكد، أنه كان يزرع الزنبق. ومن المؤكد أن أوصياء الأيتام في محكمة ألكمار كانوا يحتفظون بالأبصال بعد اقتلاعها، ثم يؤمرون بإعادة زراعتها. ونظراً لأنه كان يجب دفع ثمن الأبصال عند تسليمها، ونظراً لأن من المحتمل أن أحد أصحاب الحانات ربما كان يملك آلاف الجيلدرات المطلوبة لشراء هذه المجموعة الثمينة، فقد وجدت أن من الصعب تصديق أن الأوصياء قد جمعوا الأبصال وأن مزارعي الزنبق الآخرين كانوا مستعدين للتسليم إلى Oude-Schutters Doelen وأن وينكل تاجر ببساطة بالأبصال التي اشتراها للتسليم بعد اقتلاعها، وزرعها ليبيعها قبل الخريف.

دور الأيتام وكبار السن: Dutch orphanages and old people's homes Zumthor, Daily Life in Rembrandt's Holland, pp.100-01

مزارع من بلوكر: The grower from Blokker Krelage,: De Pamfletten, p.30

مواصفات المزايدين والمضاربين: The quality of the bidder

إن المزايدين الوحيدين الذين نعرفهم كانوا:

Gerrit Andriaensz, Amsterdam of Alkamaar, Jan Cornelisz.

وكان هناك عدد من المزارعين والمزايدين الأثرياء مثل:

Quaeckel of Harleem, Peiter Gerritsz, van Welsek.

انظر: Posthumus, «Die Speculaties in Tulpen (1972), P.81.

وانظر أيضاً الفصل 13 لمزيد من التفاصيل.

المزاد: The auction Damme, anteekeningen - Betreffende, pp.91-93.

Thus Admirael Liefkens Krelage, Blomenspeculaties in Netherland, p.49

Handrick Peitersz Postthumus, :Die Speculatie in Tulpen» (1927), pp.40-41

Van Genep's ledger Ibid.,pp.39-40.\Utrecht and

Groningen

حضر ممثلون من أوتريخت مؤتمراً في أمستردام لمحاولة ضبط الانهيار في تجارة الزنبق (أنظر الفصل 13 لمزيد من التفاصيل). وقد تعامل الصيدلي هنريكوس مونتنغ (1583–1658)، الذي أنشأ لاحقاً الحديقة النباتية في جامعة غرونجن، في مدينة غرونجن في أثناء ولع الزنبق، كما يقول ابنه إبراهام مونتنغ في، Naauwkeurige Beschryving. p.911.

انظر الفصل 13 لمزيد من التفاصيل، وانظر أيضاً:

Nieuw Nederlandsch Woordenboek, vol. 6, pp.1044-45

مضاربات الزنبق في فرنسا Munting, Naauwkeurige Beschryving, p.911.

عدد المشاركين في أوتريخت – أورد بوسثوموس (Posthumus,, «Die Speculatie in Tulpen, (1927), p.44) قائمة بأسماء 39 من المتعاملين بالزهور في أوتريخت في 7 فبراير – شباط 1637 لانتخاب ممثلين عنهم لحضور مؤتمر للمزارعين في أمستردام.

مراكز تجارة الزنبق

, p. 52.Krelage, Blomenspeculaties in Netherland

الأيدي تتداول الأبصال عشرات المرات يومياً ، المصدر السابق، ص 77

Aitzema, Saken van Staet en Oorlogh, أعلى الأسعار p.504; Posthumus, «Die Speculatie in Tulpen, (1927), p.79, Krelage, Blomenspeculaties in Netherland, p,.52

Saken van Staet en Oorlogh، عشرة ملايين جيلدر p.503

بنك أمستردام: مبنية على حسابات بلغت 1375 بقيمة 2500 للبصلة الواحدة. انظر تاريخ هولندا المالي:,t Hart> Jonker, and Zanden, Financial History of Holland, pp.46-47.

شركة الهند الشرقية الهولندية، المصدر السابق، ص54.

Dumas, Black Tulip; Blunt, الزنبقة السوداء Tulipomania, p.17.

التجارة بالجنيه الإسترليني

Krelage, Blomenspeculaties in Netherland, p.51-52

الفصل الثالث عشر: الانهيار

إن المصدر الرئيس للمعلومات الخاصة بالانهيار الاقتصادي مأخوذة من أرشيف هارلم وأمستردام التي جمعها ونشرها إن. دبليو. بويثوموس في : «Die Speculatie in Tulpe,in de Jarren 1636 en 1637» parts 1-3, Economisch-Historisch Jaarboek (1926, 1927, 1934)

ولهذه المعلومات صلة تامة بالنزاعات بين الزارعين والخبراء: ويجب أن ينظر إليها بحذر شديد.

الانهيار: Krelage, Blomenspeculaties in Netherland p.80; Posthumus, : Tulip Mania in Holland,» pp.144-45.

مأساة: Posthumus,, «Die Speculatie in Tulpen» (1926), pp.33-39.Gaergoedt

هنريكوس مونتنغ: Munting, Naauwkeurige Beschryving, p.911; Nieuw Nederlandsch Woodenboek, vol.6,pp.1044-45; Murray, «Introduction to the Tu-

lip,» p.29

Geertruyt Schoudt Posthumus, «Die Speculatie in Tulpen» (1927), pp.48-49.

تقول رواية لأحد المعاصرين أنه كان إبراهام مونتنغ، ابن هنريكوس مونتنغ من مدينة غرونجن. وقد وردت معلومات عن أسعاره في Munting, Naauwkeurige Beschryving, p.910.

الأسعار في شهر مايو/أيار 1637: أخذت هذه الأمثلة من Samenspraechen ولهذا يجب أن ينظر إليها بحذر Posthumus,, «Die Speculatie in Tulpen» (1927), pp.80-81&n.

رحلات بعض بائعي الزهور: كان جورجوت الشخصية الخيالية مثالاً على ذلك. Posthumus,, «Die Speculatie in Tulpen» (1926),P.24.

The Mennonite Wedding Posthumus,, «Die Speculatie in Tulpen» (1934),pp.233-34.

Van Cuyck Ibid., p.235.

Van Goyen Krelage, Blomenspeculaties in

Netherland,pp.65-66; Damme, Aanteekeningen Betreffende, pp.21-22; Vogelaar, Jan von Goyen, pp.13-20.

Gerit Amsterdam Posthumus,, «Die Speculatie in Tulpen» (1927),p.81.

.Willem Lourisz. Deursen, Plain lives, pp.94-97

Boortens and van Welsen Posthumus,, «Die Speculatie in Tulpen» (1927),pp.53-55.

جان كويكيل في ألكمار: أرشيف وسجلات البلدية، هارلم، مجلد 149، 210، 1 سبتمبر/أيول، 1939.

جان أدميرال

Posthumus,, «Die Speculatie in Tulpen» (1927) .pp.69-70;(1934), pp.236-37.

لقاء في التريخت Krelage, Blomenspeculaties in Netherland,p.81.

لقاء في أمستردام Posthumus,, «Die Speculatie in Tulpen» (1927),.49;

Krelage, Blomenspeculaties in Netherland,pp.83-

84; Bulgatz, Ponzi Schemes, p.103.

توضيح مشؤوم– انظر: Blunt, Tulipmania, p.16.

الفصل الرابع عشر: إلهة للبغايا

لمعرفة كتيبات الزنبق الهولندية، انظر: E.H. Krelage, De Pamfleteen van den Tulpenwindhandle, 1636-1637 (The Hague: Martinus Nijhoff, 1941) الذي أعاد طباعة جميع الكتيبات، باستثناء الحوارات الثلاثة، وأعيد نشرها من قبل بوسشوموس في « Die speculatie in Tulpen, 1926)، ولمعرفة المزيد عن نظريات مؤامرة ولع الزنبق، انظر: E.H. Krelage, «Het Manuscript over den Tulpenwindhandle uit de Verzameling Meulman,: Economisch-Historisch Jaaarboek 12 (1943). ولمعرفة المزيد عن التصفية، أنظر مجموعة بوسشوموس المؤلفة من ثلاثة أجزاء، « Die Speculatie in Tulen».

الدكتور تلب Beijer et al., Nicolaes Tulp, pp.15-19, 49-51; Griffey, «what's in a Name?»; Cotterel, Amsterdam, pp.125-26; Schama, Embarrassment of

Riches, pp.171,186-87.

أدلفوس فورستيوس: تحدث عن طرافة فورستيوس، كاره الزنبق، مؤرخون كثيرون، مع أنه لم تثبت صحتها من أي مصدر مستقل. انظر: Blunt, Tulipmania, p.15; Herbert, Still Life with a Bridle, p.6o, Brereton, Travels in Holland, pp.40-41. ألقى والد فورستيوس، الذي كان أستاذاً جامعياً في لايدن، كلمة رثاء في جنازة ابنه Nieuw Netherlandsch Woordenboek, vol.4, p.1411.

Kappisis Bulgatz, Ponzi Schemes, P.99.

طوفان النشرات: لقد نجت أربع وخمسون قضية مطبوعة بين أيول 1636 وآذار 1637، ولكن يعتقد أن العدد الناتج كان أكبر من ذلك بكثير، نظراً للطبيعة السريعة لزوال هذه المنتجات.

دور الكتيبات: تعد معظم النشرات الناجية غير أصلية وتحتوي على القليل من المعلومات الجديدة. ومع ذلك، من المفيد معرفياً مقارنة اللهجة الجادة نسبياً للكتيبات الأولية بالطبعات الساخرة التي أخذت في الظهور مع وصول الولع إلى ذروته في كانون الثاني 1637. وهذا يضيف قيمة

إلى مقولة أن تجارة الزنبق كانت جادة ومسؤولة حتى أواخر عام 1636، ثم انفجرت إلى هوس حقيقي فقط عند نهاية العام لأسابيع قليلة. لمعرفة المزيد عن الكتيبات بشكل عام، انظر: Harline, Pamphlets, Printing; and Watt, Cheap Print .and Populat Piety, pp.264-66

إلهة الزهور في الكتيبات Krelage, De Pamfleteen, pp.88-91, 109-11, 149, 160, 164-67, 187-88.

أسطورة إلهة الزهور: لقد أعيدت رواية هذه الأسطورة في أول حوار، انظر: Posthumus, « Die Speculaties in Tulpen» (1926), p.24; Segal and Roding, De Tulp en de Kunst, p.23, and Sega, Tulips Portrayed, p.15.

الرسوم الفنية للولع ,pp.12-15; Schama, Embarrassment of the Riches, pp.363-66; Bulgatz, Ponzi Schemes, pp.106-07. , Sega, Tulips Portrayed

الكتيبات تتلقى عمولات من الزارعين أو الخبراء، انظر: Krelage, De Pamfleteen, pamphlets no.9,14,33,36.

حل مجلس مدينة هارلم أرشيف البلدية، Aanteekeningen van C.J. Gonnet Betreffende

de Dovestalmanege in de Grote Houstraat, de Schouwburg op het Houtplein, het Stadhuit in de Frase Tijd, Haarlemse Plateelbakkers en Plateelbakkerijen en de Tulpomania van 1637-1912; Posthumus, « Die Speculaties in Tulpen» (1927), pp.51,57; Krelage, Bloemen speculatie in Naderland, p.93.

مناشدة هورن لأقاليم هولندا: ; Posthumus, « Die Speculaties in Tulpen» (1927),p.52.

اثنان فقط من بين الأربعة والأربعين Burgomaster Jan de Waal and Coukcilor Cornelis Guldwagen. Ibid., pp' 61-64, 73-74, Municipal Archives, Haarleem, Heerenboek 1.

مؤلف واحد مجهول Krelage, «Het Manuscript over den Tulpenwindhandel,» pp.29-30.

لوم الإفلاس واليهود والمينونيين Ibid.; Deursen, Plain Lives, pp.32-33; Krelage, De Pamphleteen, pp.287-302.

مزارع من أمستردام Krelage, «Het Manuscript over

den Tulpenwindhandel,» pp.29-30.

جان بريغيل بلنت وستيرن، فن التصوير النباتي، ص128.

محكمة هولندا وحل الأقاليم -Post (1927), pp.56-60.
humus, « Die Speculaties in Tulpen»

Posthumus, «Tulip Mania in Holland,» p. 146; Krelage, Bloemenspeculatie in Nederland, p.93; Bulgatz, Ponzi Schemes, pp.104-05.

لقد استمعت المحكمة الهولندية إلى قضية واحدة على الأقل. كانت تلك القضية هي التي رفعتها أرملة بولس فان بيرستين الذي كان واحداً من أشهر المحامين في هارلم. كان فان بيرستين ينحدر من عائلة أرستقراطية وقد كان ثرياً وذا نفوذ لدرجة أنه كان أحد أعضاء مجلس هارلم مع أنه كان يتبع المذهب الكاثوليكي. وقد كان ضابطاً في الحرس المدني ورئيس مجلس إدارة مدرسة اللاتين التي كانت تعد أطفال الطبقة الحاكمة لدخول الجامعة. لقد كان ثرياً جداً وقدرت ثروته بأكثر من اثني عشر ألف جيلدر، كما استثمر جزءاً من ثروته في العقارات. أما اهتمامه بالزنبق فكان بصفته

خبيراً وليس زارعاً. وقد عاش في بيت كبير وزرع الزنبق في الحديقة الممتدة على الطريق الواصلة بين بوابتي المدينة.

وقد توفي فان بيرستين عن 48 عاماً في ذروة الولع في كانون الأول عام 1636، قبل شهرين من انهيار أسعار الزنبق، وقبل ثمانية أسابيع بعد بيع ستة مستنبتات زنبق إلى تجمع بائعين من ضمنهم صاحب مكتبة اسمه ثيونيس كاس ورجل آخر اسمه جان سايل. وقد عقدت الصفقة يوم 29 أيول قبل بدء ارتفاع الأسعار الكارثي، ودفع المشترون 312 جيلدراً إضافة إلى أطلس من مكتبة كاس. وقام فان بيرستين بعد مدة قصيرة ببيع حديقته كلها، باستثناء أبصال الزنبق، إلى مبيّض أوانٍ يدعى نيكولاس فان در بيرغ الذي بدوره اتصل بكاس وسايل ووافق على دفع 362 جيلدراً مقابل الأبصال. ونص الاتفاق على أن يتحمل فان در بيرغ دين المجموعة المشترية لضيعة فان بيرستين ويدفع لهم، إضافة إلى فائدة مقدارها خمسون جيلدراً. وفي يوم 6 أيلول، بعد يوم من انهيار الأسعار في هارلم، ذهب كاس وسايل إلى كاتب عدل محلي لتوثيق اتفاقهما وتنفيذ الصفقة، على اعتبار أن الأسعار مازالت مرتفعة في المناطق الهولندية الأخرى؟ وفي

ذلك الصيف استلم فان در بيرغ الأبصال عند إخراجها من الأرض. غير أنه لم يستطع السداد عندما حان موعد الدفع، فاضطرت عائلة فان بيرستين إلى رفع قضية، ليس ضد المبيّض فحسب، وإنما أيضاً ضد كاس وسايل.

لكن الشيء غير المفهوم هو لماذا أخذت هذه القضية طريقها إلى المحكمة من بين القضايا الأخرى؟ لكن هذه القضية تتضمن بعض العناصر اللافتة للانتباه. إنها تُظهر صعوبة إثبات من كان يمتلك الأبصال في خضم الولع، حتى عندما كانت سلسلة الملكية قصيرة نسبياً. كما أنها تظهر أنه حتى بعد انهيار تجارة الحانات بمدة طويلة، ظل عدد من أغنياء المتعاملين والخبراء يعتقدون بأن الزنبق مازال استثماراً مجزياً.

Algeemen RijksArchief, The Hauge, Civiele processtukken 11B44, records of the Court of Holland; Municipal Archives, Haarlem, Index to Heerenboek, p.12; Posthumus, «Dei Speculatie in Tulpen» (1972), p.82; Bersteyn and Hartman, Genealogie van het Geslacht, pp.133-36, 219-22.

حول المدن الهولندية Posthumus, «Dei Speculatie,

in Tulpen» (1972), p.60.

Munting Munting, Naauwkeurige Beschryving, p.911.

Van Bosvelt Municipal Archives, Haarlem, Resolution of November 5,1637, Aanteekeningen van C.J. Gonnet; Bulgatz, Ponzi Schemes, p.105.

Posthumus, «Dei Speculatie in إلغاء عقود كثيرة Tulpen»(1927), p.69

Posthumus, «Dei Speculatie in قضايا في ألكمار Tulpen, (1934), p.240.

De Block Posthumus, «Dei Speculatie in Tulpen»(1927),pp.48-49

Abraham de Goyer Ibid., pp.65-67.

Hans Baert Ibid.,p.68

ويليم شوناس: إضافة إلى أنه لم يكن خبيراً في الحكم على الزنبق، ربما كان كوستر شخصاً متفائلاً ، لأنه وافق، حتى بعد انهيار الأسعار، على الاستمرار في الصفقة ودفع مدخراته البالغة 820 جيلدراً، حوالي 12٪ من سعر الشراء،

يوم 25 مايو/أيار. ولكنه ما لبث أن غيّر رأيه في الخريف بخصوص الاتفاق وتخلّف عن الدفع مما أجبر شوناس على اتخاذ إجراء. وقد عاش شوناس في واحد من أشهر البيوت في هارلم يدعى.De Hoofdwacht on Grote Markt انظر: «Dei Speculatie in Tulpen (1927),pp.71,79.Willem Schonaeus (1600-67), Kurtz, «De Geschiedenis van ons,» pp.37-38.

قضايا في هارلم انظر: Posthumus, «Dei Speculatie in Tulpen»(1927),pp.71-79.

De Cleg Idid.,77,79.

محكمة صلح هارلم: Ibid.,p.80; Krelage, Bloemen-speculatie in Netherland, pp.96-97; Bulgatz, Ponzi Schemes, p.105.

صانعو الأصدقاء: Travels in Holland, pp.8-9, 22; Posthumus, «Dei Speculatie in Tulpen» (1927),p.80; Municipal Archives, Haarlem, Aenteekeningen van C.J. Gionnes; Posthumus, «Dei Speculatie in Tulpen»(1934),pp.239-40.

Dubbleden Posthumus, «Dei Speculatie in Tulpen»(1927),pp.84-85.

إفلاس فان جويين: لا يبدو من الواضح لماذا لم يستغل فان جويين الفرصة لتسوية ديونه بنسبة 3,5٪ مما يعني دفع ثلاثين جيلدراً فقط. ومن الممكن أن أعضاء مجلس حكام مدينة لاهاي لم يحذوا حذو زملائهم في هارلم في تشكيل هيئة تحكيم لتسوية القضايا المحلية.

الفصل الخامس عشر: في بلاط ملك الزنبق

كثير من الكتب التي اعتمدنا عليها في الفصل الثالث ذات فائدة هنا أيضاً، وبخاصة كتب مانسل وميلر. وما يدعو إلى الدهشة أنه لا توجد سيرة حياة ذات قيمة لأحمد الثالث، لكن تفاصيل مهرجانات الزنبق التي كان يقيمها تظهر في كثير من المصادر الثانوية التي اعتمدنا على كثير منها. أما أكثرها فائدة وأصالة، فهي:

Arther Baker, the The Cult of the Tulip in Turkey,» Journal of the Royal Horticultural Society (September 1931), Michel Roding and Hans Theunissen, eds,

The Tulip: A Symbol of Two Nations (Utrecht and Istanbul: Turco-Dutch Friendship Association, 1993), Alan Palmer, The Decline and Fall of the Ottoman Empire (London: John Murray, 1992), Lavender Cassela, The Struggle for the Ottoman Empire, 1717-1740 (London: John Murray, 1966).

محمد الرابع والزنبق: Palmer, Decline and Fall, pp.10, 14-15,37, Baytop, « Tulip in Istanbul», pp.50-56; Miller, Beyond the Sublime Porte, p.124.

إبراهيم المجنون: يقال أنه طوال حكمه الذي دام ثماني سنوات أنه كان يفض بكارة فتاة كل يوم جمعة. انظر: Penzer, Harem, pp.188-91. Palmer, Decline and Fall, p.19,

ربما يكون الإعدام من نصيبهم: عندما دخل مسؤولو المحكمة إلى القفص لاستدعاء سليمان الثاني (1687–1691) لتولي العرش لخلافة محمد الرابع، يقال أن السلطان الجديد صرخ بصوت مذعور: « قولوا لي إن كان قد حكم عليّ بالإعدام. لقد عانيت من السجن أربعين سنة منذ ولادتي.

من الأفضل أن أموت الآن بدلاً من الموت البطيء كل يوم».

عصور الزنبق: Gocek, East Encounters West, p.10.

الشاعر نديم

Palmer, Decline and Fall,p.36; Wheatcroft, Ottomans,pp.77,79, Mansel, Constantinople,p.181.

مهرجانات زهور السلطان أحمد Berber, Lords of the Golden Horn, pp.109-10; Mansel, Constantinople, pp.76-78, 180-81; Palmer, Decline and Fall, pp.37-38; Miller, Beyond the Sublime Porte, pp.124-26; Penzer, Harem, pp.258-60.

عشق عام للزنبق في عهد أحمد Demiriz, «Tulips in the Ottoman Empire.» pp.57-58; Baytop, «Tulip in Istanbul», p.55, «Cult of the Tulip in Turkey,» p.235.

مواصفات القرن الثامن عشر للزنبقة المثالية Baytop, «Tulips in Istanbul,»p.53; Demiritz, «Tulips in Ottoman.»pp.57-58; Murray, «Introduction of the Tulip,»p.20.

زهور المسؤولين العثمانيين ورشى الزنبق Mansel, Constantinople, p.182; Shaw, History of the Ottoman Empire, p.234.

فضل باشا Mansel, Constantinople, p.147.

دامات إبراهيم Palmer, Decline and Fall, pp.33-35,38.

سعد آباد Ibid.,p.34; Shaw, History of the Ottoman Empire, p.234; Mansel, Constantinople, pp.180-81; Gocek, East Encounters West, pp.51,79; Pallis, Days of the Janissaries, p.199.

سقوط دامات إبراهيم وأحمد الثالث Palmer, Decline and Fall, pp.38-39.

محمود الأول وانهيار الزنبق في تركيا Barber, Lords of the Golden Horn, p.110; Wheatcroft, Ottomans, pp.80-81.

الفصل السادس عشر: إزهار متأخر

غطت الكتابات التاريخية الحديثة الفترة التاريخية الأخيرة لتجارة الزنبق بشكل موثق. وقد وصفت التجارة الياقوتية بتفصيل شديد في الكتب التالية: E.H. Krelage, Bloemenspeculaties in Netherland: De Tulpomanie van 1636-37 en de Hyacintenghandel 1720-36 (Amsterdam, 1942), Krelage, Drie Eeuwen Bloembollenexport (The Hague: Rijksuitgeverijj, Daniel Hall, The Book of the Tulip (London: Martin Hopkinson, 1929).

الاستمرار في تجارة الزنبق

Bloemenspeculaties in Netherland,pp.97-110; Krelage,

Krelage, Drie Eeuwen Bloembollenexport, pp.15-18; Segal, tulips Portrayed, p.17; Mundy, Travels of Peter Mundy, vol.4,p.75; Garber, :Tulipmania,»pp.550-53.

Aert Huybertz. Posthumus, «Die Speculatie in

Tulpen» (1927), pp.82-83.

هارلم كآخر مركز لتجارة الزنبق

Krelage, Drie Eeuwen Bloembollenexport,pp.9-

11.,

,pp.102-04; Krelage, Bloemenspeculaties in

Netherland

Desiderata of van Oosting and van Kampen cited

in Segal, Tulips Portrayed, p.11, and Hall, Book of

the Tulip, pp.48-49.

Krelage, Bloemenspeculaties تجارة زهرة الياقوتية

in Netherland,pp.142-96, Krelage, Drie Eeuwen

Bloembollenexport, pp.13, 645-55; Garber,

«Tulipmani,» pp.553-54; Bulgatz, Ponzi Schemes,

pp.109-14.

Penerggrast, : زجاجة كوكا كولا بمبلغ أربعة آلاف دولار

For God, Country, p.211.

تاريخ الزنبق حتى يومنا هذا:

Krelage, Drie Eeuwen Bloembollenexport,

pp.15-18.

ولع الأضاليا: Bulgatz, Ponzi Schemes, pp.108-09

وقد انتشر الحديث في هذه الفترة عن استنبات الأضاليا الورقاء وهذه استحالة مثل استحالة الزنبقة السوداء.

ولع زهرة الجلاديولس: Posthumus, «Tulip Mania in Holland,» p.148.

ولع سوسنة العنكبوت الصينية: Malkiel, Random Walk down Wall Street, pp.82-83.

طفرة بيع الأراضي في فلوريدا Bulgatz, Ponzi Schemes, pp.46-75.

شكر وعرفان

خلال إعدادي لهذا الكتاب كان هناك العديد الذين أدين لهم بالعرفان بالجميل، لكن من المؤكد أن العرفان الأكبر هو من حق مساعدي في البحث الذي لا يكل هنك لويجستايجن من أمستردام. إنه متخصص في التاريخ الاقتصادي للعصر الذهبي، وهو ذاته ابن لسلالة طويلة من مربي الزنبق. فهو لم يدخر جهداً في سبيل إعداد مادة البحث الأصلية نيابة عني منقباً في محفوظات هارلم وأمستردام ولاهاي، فيما كان هو أيضاً دليلي للأدب الهولندي الغزير حول الموضوع. وما كان بالإمكان أن ينجز كتاب الولع بالزنبق من دون مساعدته.

لقد تعرفت على هنك بفضل السيد هنك فان نيروب من جامعة أمستردام الذي يعد واحداً من أبرز المؤرخين للحقبة ذاتها.

ومن بين من قدم لي العون في هولندا جاب لويجستايجن، مربي الزنبق من مدينة بريزاند ودان دي كلارك من أمستردام، الذي شاركني بما لديه من معلومات عن سلفه جاكس دي كلارك.

وأتقدم بالشكر للمساعدة والتوجيه اللذين قدمهما وكيلي الناشر باتريك والش، ومحررة كتبي راشيل كاهان، التي أسهمت اقتراحاتها في تحسين جودة كتابي. كما ترجمت لي تينا والش عدداً من الفقرات الغامضة بشكل خاص والمكتوبة باللغة الهولندية القديمة. أما الشخص الذي بذل الجهد الأطول والأصعب ليكتمل الكتاب فهي زوجتي «بيني» التي أقدم لها شكري وكل حبي.

المؤلــف

مايك داش

لندن، حزيران 1999

الولع بالزنبق

هذا واحد من كتب مايك داش العديدة في التاريخ الاجتماعي، وهو يعد واحداً من أهم كتبه التي أصدرها على مدى السنوات الماضية. ولقد كتبه داش بذكاء وأناة وبحث ومتابعة. ويرصد زهرة الزنبق من أول العثور عليها في جبال تيان شان في آسيا قبل أكثر من ألف وخمسمئة عام، مروراً بوضعها وتطورها في الإمبراطورية العثمانية، ثم وصولها في عام 1562 إلى هولندا. كتاب يسرد قصة الزنبق، ورحلة الزهرة من الصحارى والجبال والبراري إلى قصور السلاطين العثمانيين. كما أنه ثري في رحلته الطويلة بين الوثائق والمصادر والمراجع، وفي غوصه في النفس الإنسانية حين تغدو فريسة للجشع وخداع الذات. فيه تصوير لحُمّى اجتاحت أهم المدن الهولندية في القرنين السادس عشر والسابع عشر. إنها حُمّى الزنبق الذي دفعت المضاربة في أسعاره أحد المواطنين لأن يبيع قصراً منيفاً مقابل ثلاث أبصال، وآخر يبيع مصنعه ومتجره من أجل حفنة من الزنبق.

ويصور الولع بالزنبق حدثاً مدهشاً في التاريخ الإنساني، حين وصلت أسعار الأبصال إلى أرقام فلكية بمعايير ذلك الزمان، ثم انخفضت وهوى معها زارعو الزنبق وتجاره وعشاقه.

إنه بحث في الجمال الطبيعي للزنابق في بهائها وصفاتها وألوانها وأصنافها التي بلغت عدة آلاف.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

9789948018223